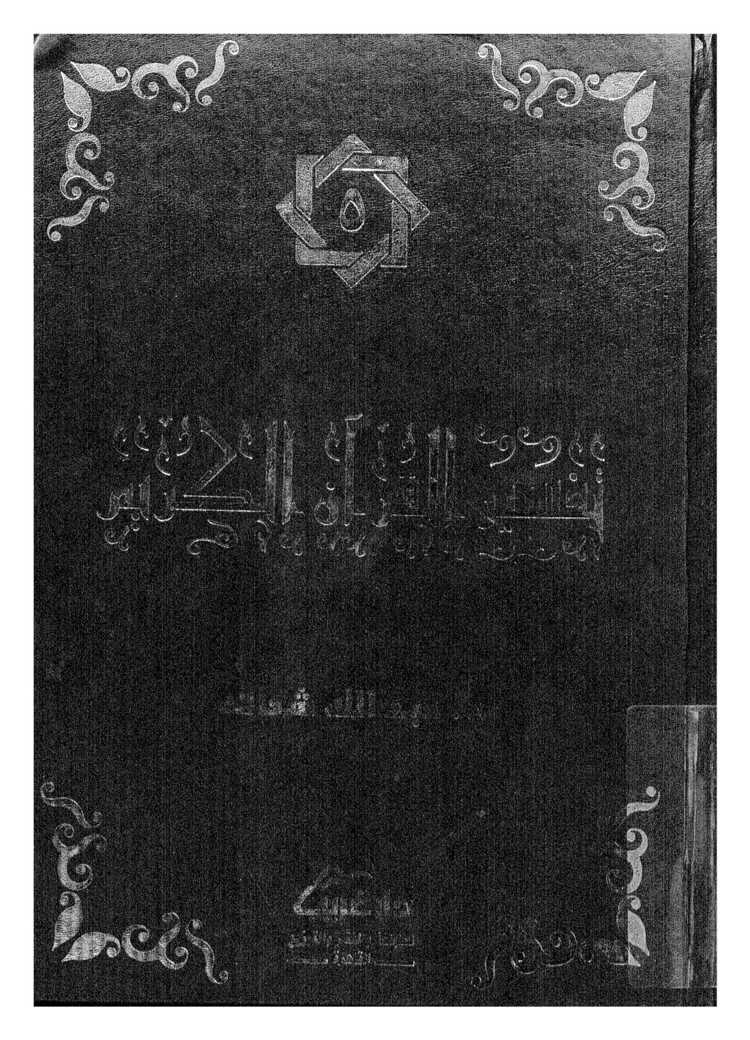

تفسير القرآن الكريم

إهـــــــداء 2005

أ.د. عبد الله شحاتة

القاهرة

تفسير القرآن الكريم

الجزء التاسع من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

المفردات :

الملأ : الرؤساء والوجهاء .

قريتنا : هى مدين .

ملتنا : ديننا .

افترينا : الافتراء : أقبح الكذب .

وما يكون لنا : أى : وما ينبغى وما يصح لنا .

افتح : احكم .

الفاتحين : الحاكمين .

التفسير :

٨٨- قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ .

تشير هذه الآية إلى ردّ هؤلاء الكفار على رسولهم فقد أخلص لهم النصيحة ودعاهم إلى توحيد الله تعالى ونهاهم عن الفساد فى الأرض ، وحذّرهم من التطاول على المؤمنين ، وذكّرهم نعم الله المتعددة عليهم وهذا فى الآيات السابقة من الآية ٨٥ إلى الآية ٨٧ . من هذه السورة : سورة الأعراف .

وبدلا من استجابتهم لدعوة الإيمان ، أو وقوفهم على الحياد فإنهم تطاولوا على نبى الله شعيب وهددوه ومن معه بالطرد من بلدتهم أو عودتهم ورجوعهم إلى ملة الكافرين .

أى : لابد من أحد الأمرين : إما الإخراج ، أو العود إلى دين الكافرين .

قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ .

أى : أتعيدوننا فى ملتكم فى حال كراهتنا للعود إليها ؟! أو : أتخرجوننا من قريتكم فى حال كراهتنا للخروج منها ، فليس لكم ذلك ، ولا يصح لكم أن تكرهونا على ما لا نريد ، فإن المكره لا اختيار له ، ولا تعدُّ موافقته موافقة ولا عوده عودًا .

وهذا الصراع بين الحق والباطل ، وبين الرسل والكفار ؛ مشهد متكرر فى جميع الرسالات ، من عهد آدم ونوح إلى عهد محمد ﷺ .

يقف المرسلون جميعًا فى جانب الدعوة إلى الحق ، ويقف الجاحدون جميعًا فى جانب التكذيب .

كأنما تواصى الكفار المحدثون والقدامى بأن يسلكوا نفس هذا المنهج قال تعالى:

أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ * وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ * وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونَ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ .(الذاريات: ٥٣-٥٨) .

وفى الآية ٥٢ من سورة الذاريات : كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ .

وفى سورة إبراهيم جمع الله كلام الرسل إلى قومهم كما جمع كلام الذين كفروا لرسلهم ؛ لأنه كلام متشابه . قال تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ . (إبراهيم: ١٣)

٨٩- قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ..

قال المؤمنون للكفار : لقد آمنا بالله وعرفنا أن الإيمان حق وصدق وأن الكفر والشرك كذب وباطل ومحض اختلاق ؛ إذ ليس للكون كله إلا إله واحد هو خالقه ومدبِّره ومعبوده ، فمن ادعى أن لله شريكا ؛ فقد افترى على الله الكذب ؛ لأنه ادّعى نقص ألوهيته وربوبيته .

فما أقبح وما أشنع أن نرجع إلى الشرك الذى أنتم عليه بعد أن خلصنا الله منه وهدانا إلى الإيمان .

وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا .

أى : وما يصح وما يتصور منا أن نعود ونرجع إلى ملتكم بعد أن نجانا الله منها ، إلا أن يكون ذلك عن مشيئة سابقة لله فينا، وعن قدر قدّره علينا، فذلك من شأن الله وحده؛ هو الذى يملك من أنفسنا ما لا نملك فإذا كان الله قد شاء لنا أن نعود القهقرى إليكم ونردّ على أعقابنا معكم، فنحن مستسلمون لأمر الله

راضون بحكمه ، أما نحن فى ذات أنفسنا فعلى عزم صادق ألا نعود فى ملتكم أبدًا إلا أن ينحلّ هذا العزم بيد الله ، لأمر أراده الله ، وقضاء قضى به .

وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا .

أى : أحاط علم خالقنا بكل ما كان وما سيكون من الأشياء ومن جملة ذلك أحوال عباده ونياتهم ، فلا يعيدنا إلى الكفر بعد أن أنقذنا منه ، ما دمنا معتصمين بحبله المتين ودينه القويم .

عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ.

أى : على الله وحده توكلنا ، وفوضنا إليه أمر تخليصنا من الأشرار وتثبيتنا على الإيمان .

اللهم يا ربنا ، احكم بيننا وبين قومنا بالحق ، بنصر المحقين على المبطلين ، أو أظهر أمرنا ؛ حتى ينكشف ما بيننا وبينهم ، ويتميز المحق من المبطل .

والتعبير بقوله : افْتَحْ ؛ لأن القضاء بالحق يفتح الأمر المغلق .

وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ : وأنت سبحانك أفضل الحاكمين وهو تذييل مقرر لمضمون ما قبله .

والفتح : أصله إزالة الإغلاق عن الشيء ، واستعمل فى الحكم ، لما فيه من إزالة الإشكال فى الأمر ، ومنه قيل للحاكم : فاتح وفتاح ؛ لفتحه أغلاق الحق .

أخرج البيهقى عن ابن عباس قال: ما كنت أدرى قوله تعالى : رَبَّنَا افْتَحْ . حتى سمعت ابنة ذى يزن تقول لزوجها وقد جرى بينها وبينه كلام : تعال أفاتحك ، تريد : أقاضيك وأحاكمك .

جاء فى التفسير الوسيط :

«والخلاصة : أنك إذا تأملت فى ردّ شعيب على ما قاله المستكبرون من قومه، تراه يمثل أسمى ألوان الحكمة وحسن البيان فهو يردّ على وعيدهم وتهديدهم ، بالرفض التام لما يبغون ، والبغض السافر لما يريدونه منه ، ثم يكل الأمور كلها إلى الله ، مظهرا الاعتماد عليه وحده ، ثم يتجه إلى الله سبحانه بالدعاء ملتمسًا منه أن يفصل بينه وبين قومه بالحق الذى مضت به سنته فى التنازع بين المرسلين والكافرين ، وبين سائر المحقين والمبطلين» [١]

★ ★ ★

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

المفردات :

الرجفة : الزلزلة الشديدة .

جاثمين : باركين على الركب أذلاء .

كأن لم يغنوا فيها : أى : كأن لم يقيموا فى مدينتهم . والمراد : أنهم استئصلوا بالمرة ، يقال : غَنِىَ بالمكان يَغْنَى أقام به - والمَغْنَى - المنزل .

فتولى عنهم : أعرض عنهم وبعُدَ .

آسى : أحزن .

التفسير :

٩٠- قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ .

نلمح أن الأشراف والكبراء قد يئسوا من استمالة شعيب ومن آمن معه ، فأخذوا يحذّرون الناس من السير فى طريقه .

وقد حكى القرآن قولهم السابق الذى سلكوا فيه مسلك الوعيد والتهديد ، ثم عطف عليه قولهم اللاحق ومعناه ما يأتى :

وقال الرؤساء المستكبرون الذين أصروا على الكفر من قوم شعيب - عليه السلام - بعدما أيقنوا بصلابته وصلابة من معه من المؤمنين ، وخافوا من إقبال الناس على دعوته:

لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ .

أى : إذا تركتم دينكم وملة آبائكم ودخلتم فى دين شعيب ، فسوف تخسرون ملتكم القديمة وتخسرون المكاسب التى تحصلون عليها من تطفيف الكيل والميزان ، وتخسرون الرضا من قومكم ، والمزايا التى تتمتعون بها من المسالمة والتبادل التجارى .

وهكذا استمر الأشراف فى طريقتهم بالإغراء حينًا ، والتهديد والوعيد حينًا آخر ، فهؤلاء الأشراف لم يكتفوا بضلالهم فى أنفسهم ، بل عملوا على إضلال غيرهم .

٩١- فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ .

أى : فأهلكتهم الزلزلة الشديدة فأصبحوا باركين عل ركبهم ، هالكين هلاك الذلة والصغار فى أماكنهم لا ينتقلون منها .

« وقد جاء فى سورة هود أن قوم شعيب أهلكوا بالصيحة . كما قال تعالى : وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ . وفى الشعراء : أنهم أهلكوا بعذاب يوم الظلّة: فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ . ، ويوجّه هذا الاختلاف فيما أهلكوا به بأن شعيبا أرسل إلى أهل مدين ، وإلى أصحاب الأيكة فقد أهلكوا بعذاب يوم الظلّة ، كما سيأتى بيانه فى سورة الشعراء ، وأمّا أهل مدين فقد أهلكوا بعذابين ، أحدهما سبب والآخر مسبب فأما السبب : فهو الصيحة ، والمراد بها : صيحة جبريل – عليه السلام– بهم وأما المسبب : فهو الزلزلة فقد أصابتهم من صيحته رجفة وزلزلة قضت عليهم فنسب هلاكهم تارة إلى السبب الأوّل وهو الصيحة ، وتارة إلى السبب الثانى وهو الرجفة التى ترتبت على الصيحة فلا تعارض بين الآيات» [٢] .

والهلاك بالزلازل والبراكين لا يزال قائمًا مشاهدًا بين الناس فى السابق واللاحق .

جاء فى المصحف المفسر للأستاذ محمد فريد وجدى الذى ألّفه حوالى سنة ١٣٢٣هـ ما يأتى:

«وقال أشراف قومه الكفار : لئن اتبعتم شعيبًا إنكم إذًا الخاسرون ؛ فأخذتهم الزلزلة الشديدة .

فأصبحوا فى دارهم ، أى: مدينتهم ، باركين على ركبهم ميتين .

«لا يستبعد أن تجتاح الزلازل طائفة من الناس بعد أن رأى الناس آثار زلزلة اليابان منذ سنين»[٣] .

٩٢- ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَاسِرِينَ .

يقف القرآن هنا موقف الحكم أو القاضى الذى يصدر حكمه بعد سماع أطراف القضية .

فقد دعا شعيب قومه إلى الإيمان بالله وحذرهم من الفساد ثم دافع قوم شعيب عن أنفسهم وحذروا شعيبًا ومن آمن معه من عاقبة الإيمان وهى الخسران المادى وخسران الربح من تطفيف الكيل ، وخسران منزلتهم عند الرؤساء .

فيقرر القرآن على سبيل التهكم أن الخسران لم يكن من نصيب من اتبع شعيبًا وإنما كان من نصيب المكذبين :

ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا .

أى: هؤلاء الذين كذبوا دعوة شعيب إلى الإيمان والإصلاح كأنهم بعد إهلاكهم بالزلزلة الشديدة لم يقيموا أبدًا بديارهم حيث استؤصلوا بالرجفة .

قال الشوكانى : أى : أصبحت ديارهم بعد العذاب خرابًا خالية ، يقال: غنيتُ بالمكان : إذا أقمت به ، أى: كأن لم يقيموا فى دارهم ؛ لأن الله سبحانه استأصلهم بالعذاب [٤] .

ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَاسِرِينَ .

لقد هددوا شعيبا ومن آمن معه بالطرد من المدينة كما حذروا من آمن به من الخسران حيث قالوا:

لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ .

فرد الله عليهم بأن الخسران الحقيقى هو لمن كفر بالله وباع الأسمى واشترى الأدنى .

فهاهم قوم شعيب قد خسفت بهم أرض القرية الذين هددوا المؤمنين وقالوا لهم : لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا ...

وهم الذين خسروا قريتهم وديارهم وخسروا دنياهم وأخراهم ، وكان جزاؤهم من جنس ما كانوا يقولون ولكنه يفوقه فى الشدة .

٩٣- فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ .

ويتلفت شعيب إلى ما حلّ بقومه ، وما صار إليه أمرهم بعد أن أصبحوا جثثا هامدة وأشلاء مبعثرة، فيأسى عليهم ويحزن لهم ، ولكن سرعان ما يدفع عنه مشاعر الأسى والحزن ، حين يراجع حسابه مع قومه، وما كان منه ومنهم ، فيجد أنهم ليسوا أهلاً لدمعة رثاء تدمعها عينه عليهم .

أى : فأعرض شعيب عن قومه بعد هلاكهم وناداهم فى قبورهم : لقد بلغتكم رسالات السماء ودعوتكم إلى التوحيد وقدمت لكم النصائح ، فقابلتم ذلك بالإعراض والتهديد والوعيد ثم أنزل بكم جزاء الله العادل فلن يطول حزنى عليكم بعد كفركم ، وكيف أحزن على قوم كافرين بالله مصرّين على كفرهم متمردين عن الإجابة .

★ ★ ★

وسورة الأعراف فيما سبق قد تحدثت عن جانب من قصة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب مع أقوامهم وستراها بعد قليل تحدثنا حديثًا مستفيضًا عن قصة موسى مع فرعون ومع بنى إسرائيل .

ونلاحظ أن سورة الأعراف قد اتبعت فى حديثها عن هؤلاء الرسل التسلسل التاريخى وذلك لأهداف من أهمها ما يأتى :

١- إثبات الوحى والرسالة وبيان أن الدين كله من عند الله من عهد نوح إلى عهد محمد ﷺ .

٢- بيان أن وسائل الأنبياء واحدة وأن استقبال قومهم لهم متشابه ، فكل نبى يدعو قومه إلى عبادة الله ويحثهم على الإصلاح ، ولكنه يقابل بالتكذيب ويجابه بالوعيد .

٣- بيان أن الله ينصر أنبياءه فى النهاية ويهلك الكاذبين ؛ فقد نجى الله نوحًا من الطوفان ، وأهلك قوم صالح حين عقروا الناقة فدمدم عليهم الأرض وسوَّاها تمامًا بمن فيها كما أهلك قوم لوط بأن جعل أعلا أرضهم أسفلها كما أهلك قوم شعيب بزلازل مهلكة .

٤- تصديق الأنبياء السابقين ، وإحياء ذكراهم ، وتخليد آثارهم وبيان نعمة الله عليهم .

★ ★ ★

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

المفردات :

بالبأساء : بالبؤس وشدة الفقر .

والضراء : الضراء : المرض .

السيئة : هى كل ما يسوء .

الحسنة : كل ما يستحسنه العقل والطبع .

عفوا : أى : كثروا عددًا ومالاً . يقال : عفا النبات إذا كثر .

مسَّ آباءنا : أى : أصاب آباءنا .

بغتة : فجأة .

التفسير :

٩٤- وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ ... الآية .

تحدثت آيات سابقة فى سورة الأعراف عن أحوال الأمم السابقة وهى أمة نوح وهود وصالح ولوط

وشعيب عليهم السلام ، والمقصود منها : التحذير والتخويف لكفار قريش وغيرهم ؛ حتى يتركوا الضلال ويستجيبوا لله ولرسوله .

وفى هذه الآية انتقل السياق إلى بيان سنة الله فى إنذار المكذبين من الأمم قبل إهلاكهم .

فإذا أرسل الله رسولا إلى أمة من الأمم فقابلته بالتكذيب والعصيان ؛ أرسل على أهلها ألوان المحن والشدة والضرر كإصابتهم بالمرض ونقص الأموال والأنفس والثمرات ؛ إنذارًا لهم وتحذيرًا لهم من الاستمرار فى العناد والمكابرة .

لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ .

أى : فعلنا بهم هذا البلاء وأنزلنا بهم هذه الشدائد ؛ لكى يتضرعوا ويتذللوا ويتوبوا من ذنوبهم .

فما يأخذ الله به الغافلين من الشدائد والمحن ، ليس من أجل التسلية والتشفى – تعالى الله عن ذلك– وإنما من أجل أن ترقّ القلوب الجامدة وتتعظ المشاعر الخامدة ، ويتجه البشر الضعاف إلى خالقهم ، يتضرعون إليه ويستغفرونه ، عما فرط منهم من خطايا .

ونلاحظ هنا ما يأتى :

١– تكذيب المكذبين للرسل هو السبب فى إنزال البلاء بهم وليس مجرد إرسال الرسل .

٢– يبتلى الله المكذبين للرسل بالبلاء تارة وبالنعماء تارة أخرى .

٩٥– ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَواْ ... الآية .

المراد بالسيئة : ما يسوء ويحزن كالشدائد والمرض، وبالحسنة : السعة والصحة وأنواع الخيرات .

أى : ثم بعد أن ابتلينا هؤلاء الغافلين بالبأساء والضراء ، رفعنا ذلك عنهم ، وابتليناهم بضدّه ، بأن أعطيناهم بدل المصائب نعمًا ، فإذا الرخاء ينزل بهم مكان الشدّه ، واليسر مكان العسر ، والعافية بدل الضرّ، والذرية بدل العقم ، والكثرة بدل القلة ، والأمن محل الخوف .

حَتَّى عَفَواْ : حتى كثروا ونموا فى أموالهم وأنفسهم ومستهم العافية ، فالعفو أصله من العافية التى يتبعها النماء والزيادة ، كما جاء فى قوله تعالى : وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ . (البقرة : ٢١٩) ومنه قوله ﷺ : « احفوا الشوارب واعفوا اللحى » [٥] . أى : قصّروا الشوارب واتركوا اللحى حتى تكثر وتنمو .

ولما زاد مالهم وكثر عددهم ؛ أبطرتهم النعمة ، وأطغتهم الكثرة فلم يشكروا الله ولم يحمدوه .

وَقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ .

أى : قالوا جحودًا للنعمة وكفرانًا بالإحسان : قد أصاب آباءنا من قبلنا البأساء والنعماء ولسنا بدعًا منهم فما أصابنا على نمط ما أصابهم وهذا شأن الدّهر يداول السرّاء والضراء بين الناس فليس ذلك إنذارًا لنا .

فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ .

أى : فكان عاقبة بطرهم وأشرهم وغفلتهم أن أخذناهم بالعذاب فجأة ، من غير شعور منهم بذلك ، ولا خطور شىء من المكاره ببالهم .

لقد أسرفوا بدون تحرج وارتكبوا كل كبيرة تقشعر لها الأبدان بدون اكتراث ، وأرسل الله لهم العبر من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ومع كل ذلك لم يعتبروا ولم يتعظوا ، وظنوا أنّهم سيعيشون حياتهم فى نعيم ورغد بدون محاسبة لهم على أعمالهم القبيحة وأقوالهم الذميمة .

ثم فاجأهم العذاب بغتة بدون توقع منهم ولا استشعار لما يحيق بهم ؛ جزاء عدوانهم .

وفى هذا المعنى قال تعالى : حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ . (الأنعام : ٤٤) .

★ ★ ★

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

المفردات :

لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض : أى : ليسرنا لهم الخير من كل جانب .

بياتا : أى : وقت بياتهم .

ضحى : أى : ضحوة النهار وهى أوله .

مكر الله : المراد بمكره تعالى : إهلاكه لهم من حيث لا يحتسبون .

أولم يهد للذين يرثون الأرض : أفلم يصنع الهداية لهم ؟!

يرثون الأرض من بعد أهلها : يخلفون من مضى قبلهم من الأمم المهلكة .

التفسير :

٩٦- ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ... الآية .

بعد أن بين القرآن عاقبة المكذبين ، جاءت هذه الآية وما تلاها ؛ تعقيبًا على إهلاك الكافرين .

أى : ولو أن كفار مكة ، والذين أهلكوا قبلهم بسبب تكذيبهم آمنوا بالله ، ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ المعاصى وابتعدوا عنها.

﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ .

أى : لأتيناهم بالخير من كل وجه ، ويسرنا لهم سبل الأرزاق ، ووسّعنا عليهم من كل باب فأنزلنا عليهم من السماء ماءً مباركًا ، فأنبت الزرع وأدر الضرع ، وأخرجنا لهم الكثير من كنوز الأرض ، وذللنا لهم ما على ظهرها من الدواب والأنعام .

﴿وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ .

أى : ولكنهم لم يؤمنوا ولم يتقوا بل كذبوا الرسل الذين جاءوا لهدايتهم فكانت نتيجة تكذيبهم وتماديهم فى الضلال أن عاقبناهم بالعقوبة التى تناسب جرمهم واكتسابهم المعاصى ، فتلك هى سنتنا التى لا تتخلف ، نفتح للمؤمنين أبواب الخيرات ، وننتقم من المكذبين بفنون العقوبات .

٩٧- ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ .

أرسل الله الرسل ، فأنزل الكتب ، وقصّ علينا ما أصاب السابقين ؛ للعظة والاعتبار، بيد أن هذه الأمم التى أهلكت بعذاب الله لم تتعظ كل واحدة منها بما أصاب من قبلها من الأمم .

وكذلك كفار مكة لم يتعظوا ولم يعتبروا رغم تحذير الله لهم .

وهنا يوجه لهم هذا الإنذار الذى يفيد أن عذاب الله ليس له وقت يحدده ، فيمكن أن يصيب العصاة ليلا وهم نائمون هادئون ، فيأتيهم العذاب المخيف ، فيصبحون أثرا بعد عين . فليعتبر بذلك الكافرون .

ومعنى الآية : أغفل الله أهل القرى المكذبة بالرسل عما ينتظرهم من بأس الله ، أفأمنوا أن ينزل عليهم عذاب الله وقت بياتهم فى منازلهم وهم غارقون فى النوم ؟!

٩٨- ﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ .

جاءت هذه الآية بأسلوب التوبيخ والتقريع كسابقتها .

والمعنى: هل عندهم ضمان أو عهد بعدم نزول العذاب بهم وأمنوا أن ينزل عليهم عذابنا فى صدر النهار وقت الضحى عند انتشار ضوء الشمس إذا ارتفعت .

وَهُمْ يَلْعَبُونَ . أى : وحالهم أنهم يلهون ويشتغلون بما لا ينفعهم كأنهم يلعبون لشدة غفلتهم .

٩٩- أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ ٱلْقَوْمُ ٱلْخَاسِرُونَ .

مَكْرَ ٱللَّهِ . ما يدبره الله لهم من العقوبة وهم لا يشعرون . وقيل : مكر الله هنا هو: استدراجه لهم بالنعمة والصحة . أى: علام يعوّل هؤلاء القوم فى تماديهم فى الضلال واطمئنانهم إلى ما هم فيه ؟ أهناك من يدفع عنهم عذاب الله ويرد عنهم بأسه ؟ ذلك ضلال فى ضلال ، وعمى بعد عمى ، وفتنة بعد فتنة .

لقد حذرهم الله من إنزال العذاب بهم ليلا وهم نائمون أو نهارًا وهم مشتغلون بشئون دنياهم ذاهلون عما ينتظرهم فى العاقبة كأنهم يلعبون .

وما علموا أن الله تعالى يمهل ولا يهمل وأنه يستدرج العصاة حتى إذا رتعوا ويشموا وزاد طغيانهم أخذهم بغتة .

فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ ٱلْقَوْمُ ٱلْخَاسِرُونَ .

وأى خسارة أكثر من أن يرى الإنسان نذر الشرّ والهلاك مقبلة إليه ثم يخدع نفسه ويخيل إليه أن هذه النذر لن تتجه إليه ولا تنال منه .. ثم يظل هكذا يرتوى من هذا السراب الخادع ، حتى ينزل بساحته البلاء فلا يجد له مهربًا .

ألا نجد أن الله تعالى قد حذرهم وأنذرهم بنزول العذاب ليلاً أو نهارًا كما حذرهم من بأس الله وانتقامه وقد جاءهم على حين غفلة ، فقطع عليهم ما هم فيه من لهو ولعب ، وقلب بين أيديهم مائدة الحياة وما عليها من أدوات اللعب واللهو.

وصدق الله العظيم : وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ . (هود : ١٠٢) .

١٠٠- أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ .

القرآن كتاب الحياة يأخذ بيد المؤمنين إلى أسباب النصر والتمكين ويحذّر الكافرين من بأس الله وعقوبته ، والقرآن هنا كالطبيب الذى يأسو جراح القلوب ، إنّه أمام قوم قست قلوبهم من أهل مكة ، فهو يقول لهم ولأشباههم فى كل زمان ومكان ما يأتى :

أولم يتبين لهؤلاء الذين يعيشون على تلك الأرض التى ورثوها بعد أهلها المهلكين .

هؤلاء الذين سكنوا مساكن القوم الظالمين الذين هلكوا ، وورثوا أرضهم وديارهم وأموالهم .

ألم يهد لَهُم وينكشف لأبصارهم ، أو بصائرهم ، أن الله سبحانه وتعالى لو شاء لأخذهم بذنوبهم كما أخذ القوم الظالمين قبلهم بذنوبهم ؟

فما حجتهم على الله بعد أن صرف عنهم العذاب الذى نزل بأشباههم من الأمم السابقة ، وبعد أن عافاهم من البلاء والأنتقام الذى يستحقونه.

إنه لا حجة لهم على الله ، ولا فضل لهم فى أن عافاهم من البلاء وصرف عنهم العذاب ؟

فما صرف الله عنهم العذاب إلا لمقام نبيه الكريم بينهم ، وقد وعده الله ألا يعذب قومه وهو بين ظهرانيهم .

قال تعالى : وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ . (الأنفال : ٣٣).

وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ .

أى : إن العذاب إما أن يكون ظاهرًا ملموسًا ، وإما أن يكون خفيًا باطنيًا، ومن هذا العذاب الخفى: البلاء الذى يغشى قلوب الظالمين فيحجب عنها الهدى فلا تهتدى إليه ، ويصرف عنها الخير ، فلا تعرف له وجها.

فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ إنذارًا ولا يتدبرون إرشادًا ؛ لأن آذان قلوبهم لم تتفتح لسماع القرآن وهدايته .

قال تعالى: وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا .. (الإسراء : ٤٥، ٤٦) .

* * *

﴿ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

المفردات :

بالبينات : أى : بالمعجزات الواضحة الدلالة .

وما وجدنا : أى : وما علمنا .

من عهد : أى : من وفاءٍ بعهد . والمراد : ما عهد الله إليهم من الإيمان والتقوى .

وإن وجدنا : إن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن ، والتقدير : وإنه وجدنا أى : وإن الشأن وجدنا .

لفاسقين : أى : لخارجين عن الإيمان والطاعة .

التفسير :

١٠١ - ﴿ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴾ .

أى : تلك القرى التى طال الأمد على تاريخها ، وجهل قومك - أيها الرسول الكريم - أحوالها ، وهى قرى قوم نوح وعاد وثمود وقوم شعيب ، نقصُّ عليك ما فيه من العظات والعبر من أخبارها ؛ ليكون فى ذلك تسلية لك ، وتثبيتا لفؤادك وتأييدا لصدقك فى دعوتك .

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ .

أى : وتالله لقد جاء كل أمة من تلك الأمم التى خلت ؛ رسولُها الذى بعثه الله إليها بالمعجزة الخاصة به الواضحة الدلالة على صدق رسالته ، الموجبة للإيمان .

﴿ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ﴾ .

أى فما حدث لأمة من تلك الأمم الضالة الرجوع عمًّا هم عليه من كفر وضلال إلى هداية الرسل وإرشادهم ، بل استمروا على التكذيب وعدم الإيمان طول حياتهم ولم تغنهم الآيات والنذر ؛ لكمال عتوهم وشدة طغيانهم ، فاستحقوا بذلك ما نزل بهم من العذاب .

وقيل : إن المعنى : ما كانوا لو أحييناهم بعد إهلاكهم ورددناهم إلى دار التكليف ؛ ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل إهلاكهم .

قال تعالى : وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . (الأنعام: ٢٨) .

كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَافِرِينَ .

أى : مثل هذا الختم الذى أغلق الله به قلوب هؤلاء السابقين بسبب اختيارهم الكفر على الإيمان ، يختم الله على قلوب جميع الكافرين ، ويجعل عليها سدًا يغلقها ، فلا يسمع هؤلاء الضالون نصحًا ، ولا يبصرون حقا ، ولا تلين قلوبهم . إذ تركوا الحق ، واتبعوا الباطل ، واختاروا طريق الفساد .

١٠٢- وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ .

أى : وما علمنا لأكثر الأمم التى مضت من عهد – أى : رعاية لحرمة – أو وفاء بعهودهم فى الإيمان والتقوى .

والمراد بالعهد : ما عاهدهم الله عليه من الإيمان والتقوى والعمل الصالح .

وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ .

أى : ما وجدنا لأكثر الناس من وفاء بعهودهم من الإيمان والتقوى بل الحال والشأن . أننا علمنا أن أكثرهم فاسقون . أى : خارجون عن طاعتنا تاركون لأوامرنا منتهكون لحرمتنا .

جاء فى التفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر :

« وإن الشأن معهم أنا وجدنا أكثرهم فاسقين خارجين عن القيم الخلقية والدينية ، وما آمن وأصلح منهم إلا قليل » .

★ ★ ★

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

المفردات:

مَلَإِيْهِ: الملأ: رؤساء القوم.

التفسير:

١٠٣ - ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ ... الآية.

أى: ثم أرسلنا من بعد نوح وهود وصالح ولوط وشعيب الذين تقدمت أخبارهم؛ موسى - عليه السلام- وآتيناه آيات، أى: معجزات تسع تدل على صدق رسالته، وهى العصا تنقلب حية، واليد تخرج من جيبه بيضاء، والسنون المجدبة، ونقص الأنفس والثمرات، والطوفان، والجراد، والقمّل، والضفادع، والدم، وطمس الأموال.

إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ: أى: إلى فرعون مصر ورؤساء قومه ووجهائهم، وخصوا بالذكر مع أن رسالته لفرعون وقومه أجمعين؛ لأنهم يقومون بتدبير الأمور وغيرهم تبع لهم.

جاء فى تفسير المنار: ولم يقل - سبحانه - إلى فرعون وقومه؛ لأن الملك ورجال الدولة هم الذين كانوا مستعبِدين لبنى إسرائيل وبيدهم أمرهم، وليس لسائر المصريين من الأمر شىء، ولأنهم كانوا مستعبَدين أيضًا ولكن الظلم على بنى إسرائيل الغرباء كان أشدّ.

فَظَلَمُواْ بِهَا: أى: فكفروا بهذه الآيات؛ تكبرًا وجحودًا فكان عليهم وزر ذلك.

أو المعنى: فظلموا أنفسهم إذ عرّضوها للهلاك فى الدنيا والعذاب فى الآخرة بسبب تكذيبهم بهذه الآيات، وظلموا غيرهم بمنعهم من الدخول فى دين الله.

فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ.

فتأمل بفكرك أيها الرسول الكريم، أو أيها العاقل كيف كانت عاقبة فرعون وملئه الذين أفسدوا فى الأرض لقد أخذهم الله بذنوبهم فأغرقهم فى اليمّ وموسى وقومه ينظرون إليهم، وتلك عاقبة كل من طغى وبغى وظلم وفسد.

★ ★ ★

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾

المفردات :

جئتكم ببينة : جئتكم بآيات واضحة الدلالة على نبوتى .

التفسير :

١٠٤ - وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَالَمِينَ .

أجمل القرآن فى بداية القصة مضمونها والعبرة منها وهى التحذير من عواقب الظلم والفساد .

وقريب من هذا ما حكاه القرآن فى بداية سورة القصص حيث قال تعالى:

طسٓمٓ * تِلْكَ ءَايَاتُ ٱلْكِتَابِ ٱلْمُبِينِ * نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِى ٱلأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِى نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ . (القصص :١ -٦) .

ومعنى الآية : قال موسى عليه السلام لفرعون فى أدب واعتزاز : إنى رسول من رب العالمين ، أرسلنى إليك ؛ لأدعوك إلى عبادته والخضوع له .

١٠٥ - حَقِيقٌ عَلَى أَن لاَّ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلاَّ ٱلْحَقَّ ...

أى : جدير بألاّ أقول على الله إلاّ القول الحق ، أو حريص على ألا أقول على الله غير الحق والصدق فلا إهمال ولا تفريط .

قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ : أى : قد جئتكم بحجة قاطعة من الله أعطانيها دليلاً على صدقى فيما جئتكم به.

فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِى إِسْرَآءِيلَ: أى : فأطلق بنى إسرائيل من أسرك ، وأعتقهم من قهرك ، ودعهم أحرارًا يعبدون الله وحده ولا تعذبهم.

★ ★ ★

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

المفردات :

ثعبان : هو الذكر من الحيات .

مبين : بين ظاهر لا يشك أحد فى أنه ثعبان .

ونزع يده : أى : وأخرج يده من جيبه .

بيضاء للناظرين : أى : بيضاء بياضًا خارجًا عن العادة ؛ يجتمع الناس عليه ؛ لينظروه ؛ تعجبا من شدته .

التفسير :

١٠٦ - قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ .

أى : قال فرعون لموسى : إن كنت جئت من عند من أرسلك بآية فأتنى بها ، وأحضرها عندى لتصح دعواك ويثبت صدقك .

١٠٧ - فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ .

أى : فألقى موسى عصاه على الأرض فور طلب فرعون ففاجأتهم بكونها ثعبانًا عظيم الجثة مفزعا لا يشك أحد فى أنه ثعبان يسعى ويتحرك حقيقة لا متخيلا كما فى سحرهم ، وذلك لظهور أمره ووضوح شأنه، وقد أورد بعض المفسرين روايات عن ضخامة هذا الثعبان وأحواله ، وهى روايات ضعيفة ينبغى أن ينقى منها تفسير القرآن الكريم[٦] .

١٠٨ - وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ .

النزع: إخراج الشىء من مكانه أى : وأخرج موسى يده من جيبه بعد أن أدخلها فيه أمامهم على لونها الأصلىّ فإذا هى بعد إخراجها منه ، قد تغيّرت على الفور من لونها الأسمر إلى لون أبيض خارج عن العادة، جعل الناس ينظرون إليها ويتعجبون من أمرها .

★ ★ ★

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ ﴾

المفردات :

لساحر عليم : لساحر ماهر عظيم العلم فى سحره يأتى بأفعال عجيبة .

أرجه وأخاه : أى : أرجئهما وأخرجهما ؛ لننظر فى أمرهما .

المدائـــن : أى : المدن حيث يوجد السحرة .

حـاشـريـن : جامعين .

التفسير :

١٠٩ – قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ .

أى : قال الأشراف من قوم فرعون : إن هذا لساحر راسخ فى علم السحر ماهر فيه يقوم سحره على علم ومعرفة ، وهو من أجل ذلك مصدر خطر عظيم على فرعون وعلى مكانته فى قومه .

١١٠ – يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ .

إن موسى بدعوته هذه سيغير النظام ويجعل الضعفاء سادة أقوياء بإيمانهم بالله كما سيتحول السادة أقوياء بإيمانهم بالله كما سيتحول السادة إلى ضعفاء؛ لأن الناس لن تخضع لهم ، وسيقفون فى وجه قهرهم وظلمهم ، وبذلك يتغير نظام الدولة أو يقلب نظام الحكم ، فينبغى أن نقف فى وجه موسى قبل أن يخرجنا بدعوته هذه من أرض مصر .

فَمَاذَا تَأْمُرُونَ .

هو من كلام فرعون قاله للملإ لما قالوا بما تقدّم ، أى : بأى شىء تأمروننى وتشيرون أن نفعل به، وقيل: هو من كلام الملإ أى : قالوا لفرعون : فبأى شىء تأمرنا ، وخاطبوه بما يخاطب به الجماعة : تعظيمًا له، وكون هذا من كلام فرعون هو الأولى بدليل ما بعده وهو: قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ أى : أخِّره [٧] .

١١١- قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَاشِرِينَ .

أى : قال الملأ من قوم فرعون ، أخِّر الفصل فى أمره وأمر أخيه ، وأرسل فى مدائن ملكك جماعات من رجال شرطتك وجندك .

حَاشِرِينَ أى : جامعين لك السحرة منها وسائقيهم إليك .

من كتب التفسير

١- جاء فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب :

وكانت أرض مصر تموج بالكهنة فى شتى المعابد ، وكان الكهنة هم الذين يزاولون أعمال السحر، ففى الوثنيات كلها تقريبا ، يقترن الدين بالسحر ، ويزاول السحر كهنة الديانات وسدنة الآلهة ! وهذه الظاهرة هى التى يلتقطها «علماء الأديان» ، فيتحدث بعضهم عن السحر كمرحلة من مراحل تطور العقيدة!

ويقول الملحدون منهم : إن الدين سيبطل كما بطل السحر! وإن العلم سينهى عهد الدين كما أنهى عهد السحر! إلى آخر هذا الخبط الذى يسمونه : «العلم»[٨] .

٢- من تفسير المراغى الجزء التاسع ص ٢٦ :

فذلكة فى السحر وضروبه :

السحر أعمال غريبة ، وحيل تخفى حقيقتها على جماهير الناس ؛ لجهلهم لأسبابها ، وقد كان فنًّا من الفنون التى يتعلمها قدماء المصريين فى مدارسهم الجامعة مع كثير من العلوم الكونية ، واقتفى أثرهم فى ذلك البابليون والهنود وغيرهم ، ولا يزال يؤثر عن الوثنيين من الهنود أعمال غريبة مدهشة من السحر، اهتم الانجليز وغيرهم بالبحث عن حقيقة أمرها فعرفوا بعضًا وجهلوا تعليل الأكثر .

وهو لا يروج إلا بين الجاهلين ، وله مكانة عظيمة فى القبائل الهمجية ، والبلاد ذات الحضارة تسميه: بالشَّعْوَذَة والاحتيال والدَّجل وهو أنواع ثلاثة :

١ - ما يعمل بأسباب طبيعية من خواص المادة معروفة للساحر مجهولة عند من يسْحرهم بها، كالزئبق الذى قيل : إن سحرة فرعون وضعوه فى حبالهم وعصيهم فلما أرسلت الشمس أشعتها ؛ خيِّل للمشاهدين أن الحبال والعصى تسعى وتتحرك .

٢ - الشعوذة التى أمرها خفة اليدين وإخفاء بعض الأشياء ، وإظهار بعض ، وإراءة بعضها بغير صورها.

٣ – ما يكون مداره على تأثير الأنفس ذات الإرادة القوية فى الأنفس الضعيفة القابلة للأوهام ومن ذلك ما يُسمى : بالتنويم المغناطيسى .

وعلى الجملة فالسحر صناعة تتلقى بالتعليم كما ثبت بنص الكتاب الكريم ، وبالاختبار الذى لم يبق فيه شك بين العلماء فى هذا العصر(٩) .

ويمكن تقديم خلاصة عن الموضوع فيما يأتى:–

(أ) ذهب الشيخ محمد عبده إلى أن السحر خيال ووهم لا حقيقة له ، والساحر لا يؤثر إلا فى شخص قلبه هواء وعقيدته هباء .

(ب) وذهب بعض العلماء إلى أن السحر حقيقة تتلقى بالتعليم والتعلُّم ، وهو يؤثر حبًّا وبغضا ونزيفا ومرضا ... إلخ.

(جـ) ورد فى الحديث الصحيح أن النبى ﷺ سُحر وأنّ رجلاً من اليهود قد أخذ شيئًا فى شعر رأسه ومشاطه وعقد فيه ١١ عقدة ، ووضعه تحت حجر فى بئر ذكوان وأرشد الله رسوله إلى ذلك وأنزل عليه ١١ آية فى سورة الفلق وسورة الناس ، وأحضر علىٌّ رضى الله عنه المشط والمشاطة من البئر وقرأ النبى ﷺ سورة الفلق وسورة الناس ؛ فبطل أثر السحر منها (١٠) .

(د) أنكر الشيخ محمد عبده صحة هذا الحديث وقال : إنه حديث آحاد .ولعل الحديث أضيفت إليه زيادات فى لفظه ليست صحيحة .

(هـ) عند التأمل نرى أن السحر حقيقة لا خيال وهو ابتلاء من الله يمتحن به بعض الناس قال تعالى: وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ .

الوقاية من السحر

مما يحفظ المؤمن من السحر والحسد والأذى ما يأتى:

١ – قراءة قل هو الله أحد ، والمعوذتين .

٢ – أن يقول بعد صلاة الصبح وبعد صلاة المغرب : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير (١٠ مرات) .

٣ – قراءة قوله تعالى:

وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ . (القلم: ٥١) .

٤ – قراءة الآيات الأخيرة من سورة الحشر :

من قوله تعالى : لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . (إلى آخر السورة) .

٥ – إخراج صدقة .

٦ – قراءة قوله تعالى : مَا شَاءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ .[١١] (الكهف : ٣٩) .

٧ – وأهم شيء هو اليقين الجازم بأن أحدًا لاينفع أو يضرّ إلا بإذن الله ؛ فهذه هي الصخرة الصماء التي تتكسر عليها نظرات الساحرين والحاسدين ، ومن وجد في قلبه اليقين والثقة التامة بأن الله وحده هو النافع الضار ؛ فقد وجد سبيل النجاة والحفظ ، قال تعالى : فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ . (يوسف: ٦٤) .

وعن عبد الله بن عباس قال : قال لي رسول الله ﷺ : « يا غلام ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء ما نفعوك إلاّ بشيء قد كتبه الله لك ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضرّوك بشيء ، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، جفّت الأقلام وطويت الصحف»[١٢] .

١١٢ – يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ .

أي : سيحضر لك رجال الشرطة من سائر المدن كل ساحر ماهر بلغ الغاية في إتقانه علم السحر .

★ ★ ★

﴿ وَجَاءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾

التفسير :

١١٣ – وَجَاءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُواْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَالِبِينَ .

تحكي هذه الآية أن فرعون عمل بمشورة ملئه فاستدعى السحرة من المدائن ، فجاءوا إليه ثم أقبل السحرة على فرعون فقالوا له بلغة المحترف الذي يجعل هدفه الأول الأجر والعطاء .

قالوا : إن لنا لأجرًا عظيما إن كانت الغلبة على هذا الساحر العليم ؟

يريدون بسؤالهم هذا أن يتحققوا من جزالة الأجر وضخامته .

١١٤- قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ .

أى : قال فرعون : استجابة لهم : نعم لكم ما طلبتموه من الأجر، وإن لكم عندى زيادة على ذلك المكان القريب والمنزلة الرفيعة .

فهو يغريهم بالأجر المادى ، ويعدهم بالقرب المعنوى من قلبه ؛ تشجيعًا لهم على الإجادة .

روى أنه قال لهم : ستكونون أول من يدخل علىَّ وآخر من يخرج من عندى .

واختلف السلف فى عدد السحرة ، فقيل : كانوا سبعين ساحرًا ، وروى عن بعض المفسرين أنهم كانوا سبعين ألفا .

★ ★ ★

﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ﴾

المفردات :

واسترهبوهم : بالغوا فى إرهابهم وتخويفهم .

التفسير :

١١٥- قَالُواْ يَٰمُوسَىٰ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ .

أى : قال السحرة عن مواجهتهم لموسى فى ساحة التحدى .

أنت يا موسى مخيّر بين أن تلقى عصاك أولاً ، وبين أن نُلقى نحن أولاً ،وكان هذا التخيير فى البدء ناشئًا عن ثقتهم بالغلبة ، سواء تأخروا عنه أم تقدموا عليه كأنهم يقولون له : وفى كلتا الحالتين فنحن على ثقة بالفوز والنصر فأرح نفسك واستسلم لنا مقدمًا .

وذهب الزمخشرى: إلى أن تخييرهم إياه أدب حسن راعوه معه ، كما يفعل أهل الصناعات إذا التقوا كالمتناظرين قبل أن يتخاوضوا فى الجدال ، والمتصارعين قبل أن يتآخذوا فى الصراع[١٣] .

١١٦ – قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ .

أي : قال لهم موسى عليه السلام – استهانة بشأنهم ووثوقا بتأييد الله تعالى له . أَلْقُوا : أى : ابدءوا بإلقاء ما تريدون إلقاءه .

فلما ألقوا ما كان معهم من الحبال والعصىّ .

سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ . أى : خيلوا إلى الأبصار أن ما فعلوه له حقيقة فى الخارج ، مع أنه لم يكن إلاّ مجرد صنعة وخيال ، ولذا لم يقل سبحانه ، سحروا الناس .

وَاسْتَرْهَبُوهُمْ : أى: خوّفوهم وملئوا قلوبهم رعبًا وخوفًا .

روى أنهم ألقوا حبالاً غلاظًا ، وخشبًا طوالاً ، فإذا حيّات كأمثال الجبال قد ملأت الوادى يركب بعضها بعضا .

جاء فى تفسير المنار : قيل : إنها كانت عصيًا مجوّفة قد مُلئت زئبقًا وقد حفروا قبل ذلك تحت المواضع أسرابا ملئوها نارًا ، فلما طرحت عليها العصىّ المجوفة المملوءة بالزئبق حركها ؛ لأن شأن الزئبق إذا أصابته النار أن يطير فأخبر الله أن ذلك كان مموهًا على غير حقيقته .. فعلى هذا يكون سحرهم لأعين الناس عبارة عن هذه الحيلة الصناعية .

★ ★ ★

﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

المفردات :

تلقف : أى : تأخذ وتبتلع بسرعة .

ما يافكون : ما يكذبون ويموهون الحقائق بقلبها – والإفك فى الأصل : قلب الشىء عن وجهه ومنه قيل للكذاب : أفاك ؛ لأنه يقلب الكلام عن وجهه الحق إلى الباطل .

فوقع الحق : ثبت وظهر .

وبطل ما كانوا يعملون : ظهر بطلان السحر الذى كانوا يعملونه .

وانقلبوا صاغرين : وعادوا من مبارزة موسى مستسلمين وصاروا أذلاء .

التفسير:

١١٧- وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ .. الآية .

بعد أن ألقى السحرة حبالهم وجاءوا بسحر بارع استولى على خيال الناس وأرهبهم ، وتوجّس موسى؛ خوفًا من أن يعلو جانب الباطل .

بعد ذلك أمر الله موسى - عليه السلام - بطريق الوحى ؛ تقوية لعزمه ، وتسكينًا لروحه - أمره أن يلقى عصاه فألقاها .

فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ .

أى : فانقلبت العصا حية عظيمة تلتقم حبال السحرة وتبتلع إفكهم وباطلهم .

١١٨- فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ .

أى : ثبت الحق وظهر ، وتبين أن عمل موسى حق واضح وأن ما عمله السحرة تخييل وخداع وباطل وتبين أن عمل موسى معجزة من الله له تؤيده وتصدقه ، وأن عمل السحرة باطل لا يقف أمام الحق .

١١٩- فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَاغِرِينَ .

أى : وترتب على ذلك أن أصابت الهزيمة المنكرة فرعون وملأه وسحرته فى ذلك المجمع العظيم ، وانقلب الجميع إلى بيوتهم صاغرين أذلاء بعد أن أنزل بهم موسى الخذلان والخيبة .

وتم ذلك فى يوم العيد وفى وقت الضحى على ملإ من الناس وترقب السحرة للنصر وتوقعهم أن يغلب سحرهم ، لكنهم فوجئوا بأن ما جاء به موسى ليس سحرًا ولكنه معجزة من رب العالمين .

وفى هذا دليل على أن الباطل قد يغلب أو يتغلب ، وقد يسترهب قلوب الناس لساعة من الزمان حتى ليخيل إلى الكثيرين أنه غالب وجارف .. ولكن ما أن يواجهه الحق الثابت المستقر حتى يزهق الباطل ويزول، وينطفئ كشعلة الهشيم ، وإذا بأتباع هذا الباطل يصيبهم الذلّ والصغار وهم يرون صروحهم تتهاوى أمام نور الحق المبين .

١٢٠- وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَاجِدِينَ .

أى : خر السحرة ساجدين لله ، مندفعين بقوة إلى إعلان خضوعهم للإيمان بالله حتى لكأن أحد قد دفعهم إليه دفعًا وألقاهم إليه إلقاء .

١٢١- قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ .

أى : آمنا وصدقنا بالله تعالى ، رب جميع الكائنات وإله جميع المخلوقات .

١٢٢- رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ .

والإله الذى آمنا به وصدقناه : رب العالمين جميعًا ورب موسى وهارون ، أرسلهما بالرسالة الحقة وأيدهما بمعجزات صادقة .

وجملة : رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ . بدل من الجملة التى قبلها ، أو صفة لرب العالمين ، أو عطف بيان .

وفائدة ذلك : نفى توهّم من يتوهم أن ربَّ العالمين قد يطلق على غير الله تعالى ؛ كقول فرعون: أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ .

من تفسير فتح القدير للشوكانى:

أخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن مسعود وناس من الصحابة قال: التقى موسى وأمير السحرة فقال له موسى: أرأيتك إن غلبتك أتؤمن بى وتشهد أن ما جئت به حق؟ قال الساحر: لآتين غدًا بسحر لا يغلبه سحر، فوالله لئن غلبتنى ؛ لأؤمنن بك ، ولأشهدن أنك على حق ، وفرعون ينظر إليهما وهو قول فرعون : إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ .

والمتأمل يجد أن بشاشة الإيمان خالطت قلوب السحرة ، والعالم فى فنّه ؛ هو أكثر الناس استعدادًا للتسليم بالحقيقة حين تنكشف له ، ومن هنا ، فقد تحول السحرة من التحدى السافر ، إلى التسليم المطلق أمام صولة الحق ؛ الذى لا يجحده إلا مكابر حقود .

★ ★ ★

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

التفسير:

١٢٣- قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ .

قرئ بحذف الهمزة على الإخبار ، وقرئ بإثباتها على الاستفهام التوبيخى من فرعون للسحرة .

فقد أنكر عليهم جرأتهم فى إعلان الإيمان بموسى من قبل أن يأذن لهم فرعون .

فهو لغروره وجهله ظن أن الإيمان بالحق بعد أن تبين يحتاج إلى استئذان .

إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا .

أى : إن ما صنعتموه من الإيمان بموسى وصدق رسالته لم يقع منكم ؛ لوضوح حجته ، وصدق معجزته، بل هو حيلة احتلتم بها ، وخديعة اتخذتموها بالاتفاق مع موسى فى مدينة مصر ؛ لتخرجوا منها سكانها الأصليين – القبط – فيزول ملكهم ، وتزول دولتهم ، ويستقر لكم الأمر من بعدهم وقد قصد فرعون بهذا الأسلوب أن يلقى فى أسماع عامة القبط بشبهتين .

الأولى : أن إيمان السحرة كان بناء على اتفاق سابق وتواطؤ مع موسى .

الثانية : أن ذلك كان لإخراج أهل مصر من ديارهم ، وقصده تثبيت أهل مصر على ما هم عليه من عبادته والخضوع له ، وإذكاء نار عداوتهم لموسى وحقدهم عليه ، إذ ليس أشق على النفوس من مفارقة الأديان وترك الأوطان .

وهكذا يقف الطغاة ضد كل داعية مخلص ، وعندما أعلن النبى ﷺ دعوته فى أهل مكة ، قدم عليه بعض الوفود من العرب ، فقال له أحد الوافدين ، إن كلامك يا أخا قريش لمما تكرهه الملوك .

لأن دعوة الرسل الحقّة ، يترتب عليها إحقاق الحق ، وإزهاق الباطل، والحكم بالعدل، وقطع دابر الظلم، ولذلك يحتال الطغاة الظالمون فى سائر مراحل التاريخ ؛ لتشويه دعوة الرسل ، وإلصاق التهم بالمصلحين.

قال تعالى :

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ . (إبراهيم : ١٣ ، ١٤)

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ .

أى : فسوف تعلمون الأهوال التى سأنزلها بكم جزاء إيمانكم بموسى وتواطئكم معه ، ثم فصّل هذا الوعيد بقوله :

١٢٤– لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ .

أى : أقسم لأقطعن من كل شق منكم عضوًا مغايرًا للآخر.

أى : الرجل اليمنى واليد اليسرى ، أو الرجل اليسرى واليد اليمنى .

ثم أجعلكم مصلوبين فى جذوع النخل ؛ زيادة فى التنكيل وإفراطًا فى العذاب والتشويه .

وغاية فرعون من ذلك التهديد والوعيد منعهم من الإيمان ثم أن يجعل منهم عظة وعبرة لغيرهم .

وفى الآية ٧١ من سورة طه نجد قوله تعالى :

قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى .

★ ★ ★

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

المفردات :

منقلبون : راجعون .

أفرغ علينا صبرا : أفضه علينا وعمَّنا به .

التفسير :

١٢٥ – قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ .

أى : فلا نبالى بالموت لانقلابنا إلى لقاء ربنا ورحمته ، أو إنا جميعًا – يعنون أنفسهم وفرعون – ننقلب إلى الله فيحكم بيننا .

فهو قد هددهم بعذاب الدنيا وهم هددوه بعذاب الآخرة .

لقد اختاروا الموت فى طاعة الله ؛ استجابة لدعوته وإيمانًا برسالته ، وفى سورة الشعراء :

قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ * إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ .

١٢٦ – وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ... الآية .

أى : ما تكره منا وما تعيبه وتنكره إلاَّ خير الأعمال وأصل المفاخر وهو الإيمان بالله ، ومثل هذا لا يمكن العدول عنه مرضاة لك ولا طلبًا للزلفى إليك .

وفيه تيئيس لفرعون ، وحسم طمعه فى إيمانهم ، ثم أعرضوا عن مخاطبته وقالوا :

رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ .

أى : أفض علينا صبرًا واسعًا تفرغه علينا ، وأيدنا بروحك ؛ حتى لا يبقى فى قلوبنا شىء من خوف غيرك ولا من الرجاء فى سوى فضلك .

وتوفّنَا إليك مذعنين لأمرك ونهيك ، مستسلمين لقضائك غير مفتونين بتهديد فرعون ولا مطيعين له فى قوله ولا فعله .

ونلحظ أن الإيمان بالله مصدر الشجاعة والصبر والثبات ومن ثم يحرص زعماء الشعوب على بث النزعة الدينية بين رجالات الجيوش .

★ ★ ★

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

المفردات :

أتــذر مــوســى : أى : أتترك موسى ؟!

ونستحيى نساءهم : ونستبقى نساءهم أحياء .

التفسير :

١٢٧ – وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا۟ فِى الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ .

أى : وقال الأشراف من قوم فرعون مخاطبين له أتترك موسى وقومه أحرارًا آمنين ، فتكون عاقبتهم أن يفسدوا عليك قومك بإدخالهم فى دينهم ، أو يجعلهم تحت سلطانهم ورياستهم ، ويتركك مع آلهتك ، فلا يعبدوك ولا يعبدوها ، فيظهر لأهل مصر عجزك وعجزها ؟!

أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال: لما آمنت السحرة اتبع موسى عليه السلام ستمائة ألف من بنى إسرائيل .

والتاريخ المصرى المستمد من العاديات المصرية يدل على أنه كان للمصريين آلهة كثيرة منها الشمس، ويسمونها : «رع» وفرعون عندهم سليل الشمس وابنها .

قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ .

أى : قال فرعون مجيبًا للملإ : سنقتل أبناء قومه تقتيلاً ، كلما تناسلوا ، ونستبقى نساءهم أحياء كما كنا نفعل قبل ولادته ؛ حتى ينقرضوا .

وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ . أى : غالبون ومستعلون عليهم بالغلبة والسلطان ، قاهرون لهم كما كنا من قبل، فلا يقدرون على أذانا، ولا الإفساد فى أرضنا ، ولا الخروج من عبوديتنا .

★ ★ ★

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾

التفسير:

١٢٨ - قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُواْ ... الآية .

أى : قال لهم : يا قوم ، اطلبوا معونة الله وتأييده على رفع ذلك الوعيد عنكم ، واصبروا ولا تحزنوا .

فهو يحاول دعوتهم إلى التماسك والجلد أمام وعيد فرعون وتهديده .

إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَٱلْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ .

إن الأرض ليست ملكًا لفرعون وملئه ، وإنما هى ملك له رب العالمين ، وهو سبحانه يورثها لمن يشاء من عباده ، وقد جرت سنته - سبحانه - أن يجعل العاقبة الطيبة ، لمن يخشاه ولا يخشى أحدًا سواه .

١٢٩ - قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ... الآية .

كان بنو إسرائيل قبل مجيء موسى مستضعفين فى يد فرعون يأخذ منهم إتاوات مختلفة ، ويستعملهم فى الأعمال الشاقة ، ويقتل أبناءهم ويستحيى نساءهم ، فلما بعث الله موسى لم يستطع أن

ينقذهم من ظلم فرعون ، إذ كان يؤذيهم ويظلمهم ويتهددهم ويتوعدهم ، فاشتكوا إلى موسى ما يلقونه من سوء المعاملة وقالوا : أصابنا الأذى قبل رسالتك كما اشتد علينا بعد رسالتك !

قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ .

أي : قال موسى : إن رجائى من فضل الله أن يهلك عدوكم الذى ظلمكم ، ويجعلكم خلفاء فى الأرض، أي : فى أرض مصر أو فى أرض فلسطين ، وهو استخلاف مؤقت ، بدليل قوله تعالى:

فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ .

أي : فيرى ربكم كيف تعملون فى عبادته ومعاملة خلقه ، ليجازيكم على حسب أعمالكم ، فإن استخلافكم فى الأرض من بعد هلاك أعدائكم ليس محاباة لكم ، وإنما هو استخلاف للاختبار والامتحان ، فإن أحسنتم ؛ زادكم الله من فضله وإن أسأتم ؛ كان مصيركم كمصير أعدائكم .

★ ★ ★

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾

المفردات :

بالسنين : السنون : جمع سنة . والمراد بها هنا : القحط والجدب . يقال : أصابتهم سنة . أى: جَدْبٌ .

الحسنة : كل خير والأقرب هنا هى السعة والخصب .

سيئة : السيئة كل ما يسوء والأقرب هنا الجدب والقحط .

يطيروا : يتشاءموا .

طائركم : يطلق الطائر على الحظ والنصيب والعمل والرزق .

التفسير :

١٣٠ – وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ .

يخبر الله تعالى عن حكمته السامية ، حيث يأخذ المعرضين عن الهدى بألوان البلاء لعل ذلك يرشدهم إلى التضرع إلى الله والإيمان برسله .

وقد أقسم القرآن بأن الله أخذ فرعون وقومه بالقحط الشديد والجدب وضيق المعيشة ، وأنقص زروعهم وبساتينهم بتسليط الآفات والأمراض التى فتكت بأكثرهم لعلهم يتعظون ويتدبرون فى أمرهم . فيعلموا أن ما نزل بهم إنما هو بسبب كفرهم وطغيانهم فيرجعوا عما هم فيه من العتوّ والفساد ، ويؤمنوا بالله الواحد القهار ، فإن الشدة ترقق القلوب وتهذب الطباع ، وتوجه النفوس إلى مناجاة الرب سبحانه والعمل على مرضاته .

١٣١ - فَإِذَا جَاءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ...

أى : فإذا جاءهم ما يستحسنونه من الخصب والسعة والرخاء ، قالوا بغرور وصلف : ما جاء هذا الخير إلاّ من أجلنا ؛ لأننا أهل له ، ونحن مستحقون له بكدنا واجتهادنا وامتيازنا على غيرنا ، ناسين فضل الله عليهم ، ولطفه بهم غافلين عن شكره على نعمائه .

وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ .

أى : وإن اتفق أن أصابتهم سيئة ، أى حالة تسوؤهم كالجدب والقحط أو مصيبة فى الأبدان أو الأرزاق، تشاءموا بموسى ومن معه من أتباعه ، ونسبوا ذلك إليهم ، وقالوا : ما حلت بنا الكوارث وما أصابتنا النوازل إلا بشؤم موسى ومن معه ولو لم يكونوا معنا لما أصبنا ، وذلك لقسوة قلوبهم وتركهم التدبر فى الآيات والنذر.

« والتطير : هو التشاؤم على عادة العرب من زجر الطير فكانوا إذا أطلقوا طائرًا فطار إلى اليمين تيامنوا به واستبشروا وسموه : (سانحًا) ، وإذا طار إلى اليسار تشاءموا به وسمّوه : (بارحًا)[١٤] .

وقد نهى الإسلام عن التطير والتشاؤم وأباح التفاؤل والاستبشار .

روى البخارى فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال :

«لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر . وفرّ من المجذوم فرارك من الأسد» [١٥] .

وفى الحديث : « لا طيرة وخيرها الفأل» قالوا : وما الفأل يا رسول الله ؟ قال : «الكلمة الطيبة يسمعها أحدكم» [١٦] .

والأحاديث تنهى عن التشاؤم ؛ لأنه يضعف الهمة والعزيمة ، ويجعل الإنسان يتوقع المصائب ، فإذا رأى الإنسان ما يتشاءم منه قال : «اللهم ؛ لا يأتى بالخير إلا أنت ولا يذهب السوء إلا أنت ، اللهم اكفنى السوء بما شئت وكيف شئت إنك على ما تشاء قدير» [١٧] ، ثم يمضى فى طريقه ولا يترك عمله .

وهذا معنى الحديث الشريف : «لا طيرة» .

أى : لا تتشاءم ولا تترك أى عمل واستعذ بالله من السوء ، ثم توكل على الله .

لكن هناك الفأل الحسن ، وهو أن تسمع كلمة تتفاءل بها .

كأن تذهب إلى مهمة أو مصلحة فتسمع من يقول : ناجح أو فالح أو رابح أو منتصر .

فيباح لك أن تتفاءل وتستبشر وتتوقع خيرًا من ذلك العمل إن شاء الله .

أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ .

أى : إن ما ينزل بهم من خير أو شر ، وما يحل بهم من بلاء أو عافية هو من عند الله ، وأن ليس لموسى ولا لقومه شىء فى هذا الأمر كله .

وكل من الشر والخير ابتلاء من الله لعباده ، قال تعالى: وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً . (الأنبياء : ٣٥)

وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

أى : ولكن أكثر هؤلاء الطغاة الجبارين جهلاء ، لا يعلمون أن ما حل بهم من الشدائد والنوازل ، ما هو إلا بلاء من عند الله وحده ، بسبب ذنوبهم واستعلائهم فى الأرض بغير الحق ، ليزدجروا ، لا بسبب موسى ومن معه ، وما أصابهم من الخير ما هو إلا فتنة لعلهم يتذكرون ويشكرون ، لكنهم يجهلون حكمة تصرف الخالق فى هذا الكون ، ويجهلون أسباب الخير والشر ، ويجهلون أن كل شىء فى الكون بمشيئة الله وتدبيره.



﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾

التفسير:

١٣٢- وَقَالُوا مَهْمَا[١٨] تَأْتِنَا بِهِ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا ...

أى : قال فرعون وقومه بعد أن عاينوا ما عاينوا من أمر العصا واليد والسنين ونقص الثمرات : أىَّ آية تأتينا بها يا موسى ، وإن عظمت وكثرت لتسحر بها أعيننا وتموِّه بها علينا فلسنا لك بمصدقين ولا برسالتك مؤمنين ؟!

فقد داخلهم العناد والإصرار ، وادعوا أنه لا فرق بين المعجزة والسحر .

فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ . أى: بمصدقين لك ، ولا بمتبعين لرسالتك .

★ ★ ★

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءَايَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (١٣٣) ﴾

التفسير:

١٣٣- فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءَايَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ .

أى : فعاقبنا فرعون وقومه بأنواع العقوبات ؛ لمَّا أصرُّوا على الكفر ولم يعتبروا بما رأوا من الآيات .

وقد عدد سبحانه هنا من الآيات خمسًا وفى سورة الإسراء تسعًا[١٩] .

١ - الطُّوفَانَ : أى : المطر الشديد الذى أغرق أرضهم وأتلف زرعهم وثمارهم ، وقريب من ذلك ما أصاب مصر فى شتاء ١٩٩٢م ، حيث أتلفت مياه الأمطار كثيرًا من النباتات والجسور والبيوت .

٢ - الْجَرَادَ : الذى أكل الزرع والغرس والثمار ، وألحق بأبواب بيوتهم وسقوفها التلف .

٣ - الْقُمَّلَ : الذى ملأ ثيابهم وأجسامهم وشعورهم وعيونهم ؛ وهو القمّل المعروف . ويحتمل أنه البراغيث.

٤ - الضَّفَادِعَ : فملأت المنازل والمضاجع والأطعمة والأشربة ؛ حتى أقلقتهم وصاروا لا يطيقون الحياة معها.

٥ - الدَّمَ : الذى اختلط بالماء ، فصاروا لا يستسيغون شربه ، أو ابتلاهم بالرعاف .

ءَايَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ : أى : مبيَّنات ظاهرات لا يشكل على عاقل أنها من آيات الله .

وقيل : إن تفصيلها : هو تفريقها فى أزمان مختلفة عن بعضها بحيث تظهر السابقة عن اللاحقة .

فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ .

فامتنعوا وتعالوا ، وأنفوا من الإيمان بموسى عليه السلام ، وكانوا بكفرهم وعنادهم قومًا مُّجْرِمِينَ . مبالغين فى الكفر والعدوان وإيذائهم لموسى وللمؤمنين به .

★ ★ ★

﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (١٣٥) فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ (١٣٦) ﴾

المفردات :

الرجز : العذاب .

ينكثون : ينقضون العهد بعد توكيده وأصل النكث : فك الغزل ثم استعير ؛ لنقض العهد كما هنا .

التفسير :

١٣٤ – وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِى إِسْرَٰٓءِيلَ .

أى : ولمّا وقع ذلك العذاب عليهم ؛ اضطربوا وفزعوا أشد الفزع ، وقالوا : يا موسى ، ادع لنا ربك وتوسل إليه بعهده عندك ورسالته لك أن يكشف عنا الرجز والعذاب ، ونحن نقسم لك لئن كشفته عنا لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل !

وفى التوراة : إن فرعون كان يقول لموسى حين نزول كل آية منها : ادع لنا ربك واشفع لنا عنده أن يرفع عنا هذه ، ويعده أن يرسل معه بنى إسرائيل ؛ ليعبدوا ربّهم ثم ينكث !

١٣٥ – فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ .

أى : فلما كشفنا عنهم ما نزل بهم من العذاب ، ورفعنا عنهم الضرّ ، ورحمناهم بذلك ؛ إجابة لدعاء موسى عليه السلام ، إلى أجل هم بالغوه ، ومنتهون إليه ، وهو الغرق الذى هلكوا فيه ، إذا هم ينكثون فى عهدهم ويحنثون فى قسمهم فى كل مرة .

١٣٦ – فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ .

كان فرعون وقومه يظهرون الإيمان عند كل آية من آيات العذاب ، وفى كتب التفسير كالطبرى وابن كثير : روايات تفيد : أن العذاب تتابع عليهم لونًا بعد آخر .

فقد اشتد عليهم المطر حتى خافوا منه الهلاك ؛ فقالوا لموسى : ادع لنا ربك أن يكشف عنا هذا المطر، فنؤمن لك ونرسل معك بنى إسرائيل ، فدعا موسى ربّه فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل ، ثم كثر النبات وكثرت الزروع والثمار ، وأعرضوا عن الإيمان .

فسلط الله عليهم الجراد ، يتلف لهم الزرع والمحصول فاستغاثوا بموسى ، فدعا ربه فكشفه الله عنهم فلم يؤمنوا !

فأرسل الله عليهم القمل والسوس الذى أتلف القمح وأفسد المحصولات ؛ فاستغاثوا بموسى وكشف عنهم العذاب ولم يؤمنوا !

فأرسل الله عليهم الضفادع تملأ بيوتهم وطعامهم وتقفز إلى أفواههم ، فاستغاثوا ثم لم يؤمنوا !

فأرسل الله عليهم الدم فى طعامهم وشرابهم وأوعيتهم ؛ ثم استغاثوا بموسى فدعا ربّه فكشف عنهم العذاب ثم لم يؤمنوا بموسى ولم يصدقوا فى وعودهم معه !

وهنا يفيد القرآن : أن الله أمهلهم كثيرًا حتى إذا اشتد طغيانهم عاقبهم الله عقابا رادعًا بسبب نقض العهد وعودتهم إلى تكذيب الآيات وارتكاب المعاصى .

وكان هذا الانتقام هو إغراقهم فى البحر بإطباقه عليهم ، حين أرادوا اللحاق بموسى وهو يعبره بقومه إلى سيناء بعد أن انشق له بضربة من عصاه .

والقرآن هنا يسوق حادث إغراق فرعون وملئه بصورة مجملة ، فلا يفصل خطواته كما فصلها فى مواطن أخرى ، وذلك لأن المقام هنا هو مقام الأخذ الحاسم بعد الإمهال الطويل ، فلا داعى إذن إلى طول العرض والتفصيل .

ولأن سورة الأعراف يغلب عليها الإنذار وتخويف المكذبين بما حل بالأمم السابقة فقد جاءت بهذه الآية زجرًا لأهل مكة وسائر المكذبين بمحمد ﷺ ، الجاحدين لآياته ، فكأنها تقول : تلك عقبى الذين ظلموا.. لقد أغرقهم الله بذنوبهم ، بسبب تكذيبهم بآيات الله ، وغفلتهم عن موقع العبرة والعظة منها والسعيد من اتعظ بغيره .

★ ★ ★

﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾

المفردات :

وتمــــت : تحققت ومضت .

كلمت ربك : وعد ربك بالنصر.

الحسـنى : تأنيث الأحسن صفة للكلمة .

التفسير :

١٣٧- وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ٱلَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا ...

أى : بعد أن أغرق الله فرعون وقومه ، نجّى موسى وقومه بنى إسرائيل الذين كانوا يستضعفون بقتل الرجال واستخدام الإناث وإذلالهم واستعبادهم .

أورثهم الأرض التى عبروا البحر إليها وهى فلسطين ، وقد أورثهم مشارقها ومغاربها ، أو أورثهم مشارق أرض الشام ومغاربها .

أو مشارق أرض فلسطين من حدود الشام ومغاربها من حدود مصر ، وقد بارك الله فى هذه الأرض بركات مادية ومعنوية ؛ فقد بارك الله فيها بالخصب وسعة الرزق ، وجعلها موئل الرسالات والنبوات وبها المسجد الأقصى الذى دخله أعداد من الرسل والأنبياء .

قال تعالى : سُبْحَانَ ٱلَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلاً مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُۥ .. (الإسراء : ١)

وقال تعالى عن إبراهيم عليه السلام : وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ . (الأنبياء: ٧١)

وقال تعالى : وَلِسُلَيْمَانَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا ... (الأنبياء : ٨١)

وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِى إِسْرَآءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ .

أى : ونفذت كلمة الله ومضت على بنى إسرائيل تامة كاملة بسبب صبرهم على الشدائد التى كابدوها من فرعون وقومه ، وقد كان وعد الله تعالى إياهم مقرونا بأمرهم بالصبر والاستقامة ، وقد وعد الله العاملين بالنصر والتمكين .

قال تعالى : وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ . (القصص : ٥ ، ٦)

وقريب من ذلك قوله تعالى : قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ . (الأعراف: ١٢٨)

وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ .

أى : وخربنا ما كان يصنع فرعون وقومه من القصور والصروح والعمارات ، وما كان يهتمون بغرسه من البساتين والجنات ، وتلك نهاية عادلة لطغيان فرعون واستعلائه فى الأرض بغير الحق .

تنبيه

تحدث القرآن عن بنى إسرائيل بأنهم عندما آمنوا بموسى واتبعوا أوامر التوراة ؛ أعطاهم الله النصر والتمكين فى الأرض فأورثهم فلسطين عندما كانوا مسلمين حقًا ، ومؤمنين صادقين .

وفى هذا الإطار نجد آيات كريمة تتحدث عن تفضيلهم وإكرامهم ونصرهم .

مثل قوله تعالى : يَا بَنِى إِسْرَآءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ. (البقرة : ٤٧)

ومثل الآية التى نشرحها حيث يقول تعالى : وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا ٱلَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَآءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ .(الأعراف: ١٣٧)

وعندما قست قلوبهم ، وحرّفوا التوراة ، وأضافوا إليها ما ليس منها ، وتركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، لعنهم الله، وكتب عليهم الذلة والمسكنة ، وسلّط عليهم أعداءهم فى القديم والحديث ، فقد سلط عليهم بختنصر البابلى قبل الميلاد ، وسلط عليهم الرومان والألمان والعرب المسلمين ؛ عقوبة على فسادهم.

قال تعالى: لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَآءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ * كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ . (المائدة: ٧٨ ، ٧٩)

وقال تعالى : وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَاءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا * إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا * عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا . (الإسراء : ٤-٨) .

وهذه الآيات تفيد أن بنى إسرائيل سيفسدون فى أرض فلسطين مرتين أى : مرة بعد أخرى .

وفى المرة الأولى يسلط الله عليهم عبادًا ينفذون أمره ولعل هذا الإنسان هو بختنصر البابلى ، وقد حارب بنى إسرائيل فى سنة ٦٠٦ ، وفى سنة ٥٩٩ ، وفى سنة ٥٨٨ ق. م . ثم ساعدهم قورش ملك الفرس سنة ٥٢٦ ق . م ، فعادوا لبلادهم وأعادوا بناء هيكلهم .

ولعل المسلط عليهم فى المرة الثانية هم الرومان بقيادة تيطس سنة ٧٠ م .

وقد قتل منهم تيطس مليون قتيل وأسر منهم مائة ألف أسير .

ثم تفرقوا فى البلاد وأصبح تاريخهم ملحقًا بتاريخ الممالك التى نزلوا فيها .

ولم يرجع اليهود إلى فلسطين إلا فى العصر الحديث ، بعد أن ظلت فلسطين فى يد العرب المسلمين ١٣٠٠ سنة ، ومنذ ذلك الحين وفلسطين بلد من بلاد المسلمين علينا استرداده وتحريره بإذن الله ، والله مع المتقين !

★ ★ ★

﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ ﴾

المفردات :

وجاوزنا : وعبرنا وقطعنا بهم البحر .

فأتوا : مروا .

يعكفون : يقيمون ويلازمون .

منـــــتبر : هـالك .

وبــاطــل : ومضمحل زائل .

التفسير :

١٣٨- ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ ... الآية .

تمهيد :

بين سبحانه نعم الله على بنى إسرائيل ، فقد أنجاهم من عدوهم حين ضرب موسى بعصاه البحر الأحمر «بحر القلزم» فانفلق البحر وصار كل جانب من المياه كالجبل العظيم وسار موسى مع قومه فى طريق يابس بين المياه العالية ، وقد أتبعهم فرعون بجنوده ليدركهم ، فتركه الله إلى أن خرج بنو إسرائيل من البحر ، ثم أطبق البحر على فرعون وجنوده وأغرقهم أجمعين ، وتركهم عبرة وعظة لهلاك الظالمين ، وخيبة المعتدين .

وبعد أن شاهد بنو إسرائيل بأعينهم هلاك عدوّهم ونجاتهم من الغرق بفضل الله ، إذا بهم يعودون إلى طبيعتهم الوثنية فى عبادة الأصنام .

﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ ...

المعنى : وعبرنا ببنى إسرائيل البحر إلى شاطئه الشرقى وسلكناه بهم بعد أن انفلق وانشق بضربة موسى عليه السلام .

﴿فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ .

أى فمرّ بنو إسرائيل على جماعة من الناس يقيمون على عبادة أصنام صنعوها بأيديهم ويلتزمون بتعظيمها وتقديسها .

ولم يذكر القرآن شيئًا يعيّن شأن هؤلاء القوم الذين أتى عليهم بنو إسرائيل ، والراجح أنهم من العرب الذين كانوا يقيمون بقرب حدود مصر ، روى عن قتادة : أنهم من عرب لخم ، وعن ابن جريج : أن أصنامهم كانت تماثيل بقر من نحاس .

﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ .

أي : قال بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلها نختص به وننفرد بعبادته يكون مماثلاً لتلك الآلهة ؛ التى اختص بها هؤلاء ، وانفردوا بعبادتها من دون الله .

قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ .

أي : إنكم تجهلون مقام التوحيد ، وما يجب من تخصيص الله بالعبادة بلا واسطة ولا مظهر من المظاهر كالأصنام والتماثيل والعجل أبيس والثعابين – فالله قد كرّم البشر وجعلهم أهلاً لمعرفته ودعائه ومناجاته بلا واسطة تقربه إليهم ؛ فإنه أقرب إليهم من حبل الوريد .

١٣٩– إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ .

إن هؤلاء الذين تبغون تقليدهم فى عبادة الأوثان محكوم على ما هم فيه بالدمار ، ومقضى على ما يعملونه من عبادة الأصنام بالاضمحلال والزوال ، لأن دين التوحيد سيظهر فى هذه الديار ، وستصير العبادة لله الواحد القهار .

من كلام المفسرين

١ – قال الإمام الرازى: والمراد من بطلان عملهم : أنه لا يعود عليهم من عبادة ذلك العجل نفع ولا دفع ضرر.

٢ – قال الأستاذ سيد قطب – فى ظلال القرآن – كلامًا طويلاً خلاصته : إن موسى عليه السلام لا يواجه هنا طاغوت فرعون وملئه ، ولكنه يواجه المعركة مع (النفس البشرية) فليس أفسد للنفس البشرية من الذل والخضوع للطغيان طويلاً .

وقد عاش بنو إسرائيل فى هذا العذاب طويلاً ؛ حتى فسدت نفوسهم وفسدت طبيعتهم ، والتوت طبيعتهم ، وانحرفت تصوراتهم ، وامتلأت نفوسهم بالجبن والذلّ من جانب، وبالحقد والقسوة من الجانب الآخر ، وهما جانبان متلازمان فى النفس البشرية ، حيثما تعرضت طويلاً للإرهاب والطغيان ...

٣ – قال القرطبى: ونظيره قول جهال الأعراب وقد رأوا شجرة خضراء للكفار تسمّى : ذات أنواط – لأنهم كانوا ينوطون بها سلاحهم أى : يعلقونه – وكان الكفار يعظمون هذه الشجرة فى كل سنة يوما ، قال الأعراب: يا رسول الله : اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال رسول الله ﷺ : «الله أكبر ، قلتم والذى نفسى بيده كما قال قوم موسى : ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ . لتركبنّ سنن من قبلكم حذو القذة بالقذة[٢٠] حتى إنهم لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» وكان هذا فى مخرجه إلى حنين[٢١] .

٤ – جاء فى تفسير المراغى للأستاذ أحمد مصطفى المراغى :

وللمسلمين عبرةٌ فى هذا فإن لهم ذات أنواط فى بلاد كثيرة كشجرة «الحنفى» بمصر ، وقد اجتثت أخيرًا، وشجرة «ست المنضوره» ونحو ذلك مما اتخذوه من القبور والأشجار والأحجار التى يعكفون عليها ويطوفون حولها ، ويقبّلونها ، ويتمرغون بأعتابها ، ويتمسحون بها ، خاشعين ضارعين ، راجين شفاء الأدواء ، والانتقام من الأعداء وحبل العقيم ، وردّ الضالة ، وغير ذلك من النفع ، وكشف الضرّ ، وهذا مخالف لنصوص كتاب الله وسنة رسوله ؛ إذ هذا عبادة وإن كانوا لا يسمونها بذلك ، فلا فرق بينه وبين شرك الجاهلية «إلا بالتسمية» ؛ إذ حقيقة العبادة : كل قول أو عمل يوجّه إلى معظّم يرجى نفعه أو يخشى ضرّه وحده[٢٢] .

★ ★ ★

﴿ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ﴾

المفردات :

أبغيكم : أطلب لكم .

العالمين : جمع عالم وهو ما سوى الله . والمراد هنا : عالمو زمانهم وعصرهم .

يسومونكم : يلزمونكم إياه . يقال : سامه الأمر يسومه : كلفه إياه وألزمه به ، وأكثر ما يستعمل فى العذاب.

بلاء : اختبار .

التفسير :

١٤٠ – قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ .

أى : كيف أطلب لكم غير الله إلها تعبدونه ؟! وقد شاهدتم من آياته العظام ما يكفى البعضُ منها .

وهنا يذكّرهم موسى بأقرب النعم عليهم ، من إنقاذهم من أسر فرعون وقهره ، وما كانوا فيه من الهوان والذلّة ، وما صاروا إليه من الاستعلاء والعزة .

وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَالَمِينَ .

أى : على عالمى زمانكم ؛ بهدايتكم إلى الدين الحق ، وتفضيلكم على أهل زمانكم ممن كانوا أرقى منكم

مدنية وحضارة وسعة ملك وسيادة مثل فرعون وقومه ، حيث جعل رسالة موسى وهارون منكم ، وتجديد ملة إبراهيم فيكم .

وهذا التفضيل مُقَيَّد باتباعهم تعاليم السماء ورسالة الأنبياء .

لكنهم لم يصونوا هذه الأمانة ، بتحريفهم كلام الله ، وعدوانهم فى السبت ، واتهامهم لمريم بالسوء، وادعائهم : أنهم قتلوا المسيح عيسى ابن مريم ، وغلوّهم فى حب المادة ، وإهمالهم روح الدين وتعاليمه .

فحق عليهم اللعن والطرد ، وسلط الله عليهم من ينتقم منهم فى تاريخهم الطويل .

١٤١ – وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ .

لفت موسى نظرهم إلى أجلّ نعم الله عليهم ، فقد عاشوا زمنًا طويلاً أذلاء تحت عذاب فرعون وقومه ، فقد كانوا يذبحون الأطفال الذكور ، ويتركون الإناث للخدمة والاستفراش ، ثم أرسل الله موسى وأنقذهم به من العذاب والمهانة ، وعبر بهم موسى البحر ، وفى هذا الابتلاء ، اختبار من الله لهم ، بالشدة ثم بالنصر والنعمة ، ويجب عليهم أن يشكروا الله على ذلك ، وأن يخلصوا فى عبادته .

وهكذا تدرج موسى فى تسفيه طلبهم أن يجعل لهم صنما يعبدونه ، وذكّرهم بأجلّ النعم من الله عليهم؛ حتى يخلصوا فى عبادته ، وحتى يبتعدوا عن عبادة غيره .

فوائد :

١– جاء فى ظلال القرآن ما يأتى:

ذَكَّرهم موسى بأقرب الأشياء إليهم ؛ لأنها أقرب الحجج عليهم ، وإلا فمثل موسى لا يطلب ربًّا سوى الله ، ولا يدعوهم إلى رب سوى الله ، فضَّلهم أو لم يفضِّلهم ، أنجاهم من ظلم فرعون أو أبقاهم ، فله الأمر من قبل ومن بعد .

ومن بداية الآيات نشعر كيف يتسرب الانحراف ، وكيف يبدأ ، وكيف يكون ، فها هى أمة ترى المعجزات التى رأتها ، ومع ذلك فإنها تطلب أن يكون لها أصنام ، تعبدها من دون الله ، ورسولها بين أظهرها ، وأرجلها لم تكد تجاوز البحر ، الذى رأت فى سيرها فيه وانشقاقه لها أعظم معجزة !

٢– جاء فى تفسير النسفى ، أن يهوديا قال لعلى رضى الله عنه : اختلفتم بعد نبيكم قبل أن يجف ماؤه «يظهر أن المراد : ماء القبر الذى يرشّ عليه حين الدفن لتسويته » فقال ردًّا عليه: قلتم : اجعل لنا إلها ولم تجف أقدامكم .

★ ★ ★

﴿ ۞ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤٢ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣ ﴾

المفردات :

ميقات ربه : أى : الوقت الذى وقته ربه وحدده لمناجاته وتلقى ألواح التوراة .

تجلـــــى : انكشف وظهر .

دكـــــــا : أى : مدكوكا منهارًا مهدومًا .

خــــــر : سقط .

صــعــقــا : مغشيًا عليه .

التفسير :

١٤٢- ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ ... الآية .

روى أن موسى عليه السلام ، وعد بنى إسرائيل وهو بمصر إن أهلك الله عدوّهم ؛ أتاهم بكتاب من عند الله فيه بيان ما يأتون وما يذرون فلما هلك فرعون ؛ سأل موسى ربّه : الكتاب ، فبينت هذه الآيات كيفية نزول هذا الكتاب وهو التوراة .

من جملة ما كرّم الله به موسى وشرّفه ، ضرب هذه المدة موعدًا لمناجاة موسى ومكالمته .

وتفيد كتب التفسير : أن الأيام الثلاثين الأولى كانت شهر ذى القعدة ، والأيام العشر التى أكملت الأربعين كانت أيام عشر ذى الحجة .

وقد مكث موسى فى هذه المدة صائمًا قائمًا متبتلاً فوق جبل الطور ، وفى هذه المدة تربية روحية لموسى بالصفاء والنقاء والعبادة والتأمل وقوة الروح وصفاء النفس .

وفى ختام هذه المدة ، وبعد أربعين ليلة من التحنّث والعبادة أنزل الله عليه التوراة وكلّمه عند انتهائها . وأعطاه الألواح المشتملة على أصول الشريعة .

جاء فى التوراة فى سفر الخروج : «وقال الرب لموسى : اصعد إلى الجبل وكن هناك فأعطيك لوحى الحجارة والشريعة والوصية التى كتبتها لتعليمهم ، فقام موسى ويشوع خادمه ، وصعد موسى إلى جبل الله تعالى . وأما الشيوخ فقال لهم : اجلسوا ها هنا ، وهو ذا هارون وحور معكم فمن كان صاحب دعوى فليتقدم إليهما ، فصعد موسى إلى الجبل فغطى السحاب الجبل ، وحل مجد الرب على جبل سيناء وغطاه السحاب ستة أيام وفى اليوم السابع دعى موسى من وسط السحاب وكان ينظر مجد الرب كنار آكلة على رأس الجبل أمام عيون بنى إسرائيل ودخل موسى فى وسط السحاب وصعد إلى الجبل وكان موسى فى الجبل أربعين نهارًا وأربعين ليلة» .

وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ .

استخلف موسى أخاه هارون على رعاية قومه وإصلاح شئونهم وتفقد أحوالهم ، وزوده بالنصيحة المفيدة ؛ فهو يعلم تعنّت بنى إسرائيل وعنادهم فقال لهارون :

كن خليفتى فى قومى ، واعمل على إصلاح عيشهم وحياتهم وعقيدتهم؛ حتى أرجع إليهم ، ولا تسلك طريق الذين انغمسوا فى الغواية والفساد ، ولا تطعهم فى ذلك ، بل ردّهم إلى الحق والصواب ، وبين لهم طريق الهدى والرشاد .

١٤٣ - وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ...

أى : ولما جاء موسى إلى الجبل لأجل ميقات ربّه .

وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ .

أى : بلا واسطة ولا كيفية فكلام الله الأزلى ليس كمثله شىء ، وقال بعضهم : إنّه كان يسمع الكلام فى سائر الجهات الأربع ومن جنبات نفسه .

قال النسفى : وذكر الشيخ فى التأويلات : أن موسى عليه السلام سمع صوتا دالا على كلام الله تعالى، وكان اختصاصه باعتبار أنه أسمعه صوتًا تولى تخليقه من غير أن يكون ذلك الصوت مكتسبًا لأحد من الخلق .

قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ .

عن قتادة : لما سمع موسى الكلام ؛ طمع فى الرؤية – أى : اشتياقا – للجمع بين فضيلتى الكلام والرؤية. فقال: رب أرنى ذاتك المقدسة ومكنى من رؤيتك بأن تتجلى لى حتى أراك .

قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي .

أى : قال الله لموسى : لن ترانى فى دنياك هذه ، بالعين الفانية فى هذه الدنيا الفانية ، بل بعين باقية فى الدار الباقية .

قال الشوكانى فى فتح القدير :

معناه : أنك لا تثبت لرؤيتى ولا يثبت لها ما هو أعظم منك جرمًا وصلابة وقوة وهو الجبل فانظر إليه.

فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُ ، ولم يتزلزل عند رؤيتى له ؛ فَسَوْفَ تَرَانِي .

وإن ضعف عن ذلك الجبلُ فأنت منه أضعف ، فهذا الكلام بمنزلة ضرب المثل لموسى عليه السلام بالجبل ، وقيل : هو من باب التعليق بالمحال ، وعلى تسليم هذا ؛ فهو فى الرؤية فى الدنيا .

وقد تمسك بهذه الآية كلتا طائفتى المعتزلة والأشعرية :

فالمعتزلة استدلوا بقوله : لَن تَرَانِي ، وبأمره أن ينظر إلى الجبل .

والأشعرية قالوا : إن تعليق الرؤية باستقرار الجبل يدل على أنها جائزة غير ممتنعة .

ولا يخفاك أن الرؤية الأخروية هى بمعزل عن هذا كله ، والخلاف بينهم هو فيها ، لا فى الرؤية فى الدنيا ، فقد كان الخلاف فيها فى زمن الصحابة وكلامهم فيها معروف[٢٣] .

فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا .

تجلَّى : معناه : ظهر من قولك جلوت العروس : أى أبرزتها ، وجلوت السيف : أخلصته من الصدإ ، وتجلى الشيء : انكشف .

والمعنى : فلما ظهر ربه للجبل جَعَلَهُ دَكًّا .

أى : جعله مدكوكًا مدقوقًا ، فصار ترابًا ، وفى حديث أنس مرفوعًا : فساخ الجبل .

وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا .

أى : سقط من هول ما رأى من النور الذى حصل به التجلّى مغشيًا عليه كمن أخذته الصاعقة .

فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ .

أي : فلما أفاق من غشيته وعاد إلى وعيه وفهمه وذهبت عنه تلك الشدة قال تعظيمًا لله وإجلالاً لمقامه.

سُبْحَانَكَ : أنزهك يا ربّ عن مشابهتك لشيء من خلقك .

تُبْتُ إِلَيْكَ : أي : من الإقدام على السؤال بغير إذن منك .

وَأَنَا أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ : أي : من بني إسرائيل .

وفي رواية : عن ابن عباس : وأنا أول المؤمنين أنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة .

والخلاصة :

«أن موسى لما نال فضيلة التكليم بلا واسطة فسمع من عالم الغيب ما لم يسمع من قبل ؛ تاقت نفسه أن يمنحه الربّ شرف رؤيته فطلب ذلك منه وهو يعلم أنه ليس كمثله شيء ، لا في ذاته ولا في صفاته ، ولكن الله تبارك وتعالى قال له : لَن تَرَانِي . ولكي يخفف عليه ألم الردّ ، أراه بعينيه من تجليه للجبل ، ما فهم منه أن المانع من جهته ، لا من جانب الفيض الإلهي ؛ حينئذ نزّه الله وسبّحه ، وتاب إليه من هذا الطلب ؛ فبشره الله بأنه اصطفاه على الناس برسالته وبكلامه ، وأمره أن يأخذ ما أعطاه ويكون من الشاكرين له»[٢٤].

★ ★ ★

﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

المفردات :

اصطفيتك : اخترتك .

التفسير :

١٤٤- قَالَ يَامُوسَى إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي ... الآية .

قال الله تعالى: يا موسى ، إني اخترتك رسولاً وفضلتك على أهل زمانك ؛ بإرسالي إياك ، وأنزلت عليك التوراة تبيانًا لطريق الخير وإرشادًا للحلال والحرام ، كما آثرتك بكلامي إياك من غير واسطة .

فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّاكِرِينَ .

فتقبل ما أنعمت به عليك من شرف النبوّة والرسالة ، وارض بنعمة المناجاة والكلام ، وطب نفسًا بجعلك من المصطفين الأخيار الذين يبلغون رسالات ربّهم ، واندمج فى عداد الشاكرين على تلك النعم ؛ حتى تنال المزيد من فضلى : لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ .

وهارون كان رسولاً مع موسى ، لكنه كان مأمورًا باتباع موسى ، فلم يكن صاحب شريعة مستقلة ، ولم يكن كليمًا لله وقد طلب موسى من ربّه أن يجعل هارون معه رسولاً يشدّ أزره ويصدّقه؛ مخافة أن يكذبه قومه.

قال تعالى: وَأَخِى هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِى إِنِّى أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَالِبُونَ . (القصص: ٣٤ ، ٣٥) .

تعليق

تفيد هذه الآيات أن الله تعالى كلّم موسى تكليمًا ، وهى آيات صريحة فى إثبات صفة الكلام لله تعالى.

ويقول علماء الكلام : لو لم يكن الله تعالى متكلمًا لكان أبكمًا ، والبكم نقص ، والنقص على الله تعالى محال .

أما الرؤية ففيها آيات متعارضة ، كقوله تعالى : لاَّ تُدْرِكُهُ ٱلأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلأَبْصَارَ .

وقوله تعالى : لَن تَرَانِى . وهما أصرح فى النفى من دلالة قوله تعالى : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ . على الإثبات ، فإن استعمال النظر بمعنى الانتظار كثير فى القرآن وكلام العرب ، كقوله تعالى : هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ . ، وقوله تعالى : مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً .

والمعتزلة يقولون : إن هناك آيات محكمة تفيد عدم الرؤية وآيات متشابهة ، فنحن نحمل المتشابه على المحكم . بيد أن فى الأحاديث الصحيحة تصريح بإثبات الرؤية بحيث لا تحتمل تأويلاً ، والمرفوع منها مروى عن أكثر من عشرين صحابيًا .

ولم يرد فى معارضتها شىء أصرح من حديث عائشة عن مسروق قال : قلت لعائشة رضى الله عنها: يا أمّاه ، هل رأى محمد ﷺ ربّه ليلة المعراج ؟ فقالت : لقد قفّ شعرى مما قلت ، أىٌّ أنت من ... : «ثلاث من حدّثكهن فقد كذب : من حدّثك أن محمدًا ﷺ رأى ربه ؛ فقد كذب ، وفى رواية فقد أعظم على الله الفرية، ثم قرأت : لاَّ تُدْرِكُهُ ٱلأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلأَبْصَارَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ – وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ .

ومن حدّثك أنه يعلم ما فى غدٍ ؛ فقد كذب ، ثم قرأت : وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا . ومن حدثك أنه كتم شيئًا من الدِّين ؛ فقد كذب ثم قرأت : يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ .

قال مسروق : وكنت متكئًا فجلست وقلت : ألم يقل الله : وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ . فقالت : أنا أول هذه الأمة. سُئِل رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «إنما هو جبريل» [٢٥] .

ومن هذا نعلم أن عائشة تنفى دلالة سورة النجم على رؤية النبى ﷺ لربّه بالحديث المرفوع ، وتنفى جواز الرؤية مطلقا ، أو فى هذه الحياة الدنيا ، بالاستدلال بقوله تعالى: لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وقوله : وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ .

وهذا الاستدلال ليس نصًّا فى النفى حتى يرجَّح على الأحاديث الصريحة فى الرؤية وقد قال بها بعض علماء الصحابة .

والمثبتون للرؤية يقولون : إن استنباط عائشة إنما هو لنفى الرؤية فى الدنيا فقط كما قال بذلك الجمهور.

ولا تقاس شئون البشر فى الآخرة على شئونهم فى الدنيا ؛ لأن لذلك العالم سننًا ونواميس تخالف سنن هذا العالم ونواميسه حتى فى الأمور المادية كالأكل والشرب ، والمأكول والمشروب ، فماء الجنة غير آسن ، فلا يتغير كماء الدنيا بما يخالطه أو يجاوره فى مقرّه أو جوّه ، قال ابن عباس : ليس فى الدنيا شىء مما فى الجنة إلاّ الأسماء .

وجمهرة المسلمين : أن روّية العباد لربّهم فى الآخرة حق ، وأنها أعلى وأكمل للنعيم الروحانى الذى يرتقى إليه البشر فى دار الكرامة ، وأنها أحق ما يصدق عليه قوله ﷺ : «قال الله عز وجل: أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» [٢٦] ، وهى المعبّر عنها بقولهم : إنها روّية بلا كيف[٢٧] .

★ ★ ★

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾

المفردات :

وكتبنا له فى الألواح : أى : وخلقنا له الكتابة فيها ؛ والألواح : الصحف التى كتبت فيها التوراة .

فخذها بقوة : أى : فتناولها وتقبلها بجد وعزيمة .

التفسير :

١٤٥ – وَكَتَبْنَا لَهُ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَىْءٍ ... الآية .

هل المراد بالألواح هنا التوراة أو ألواح أعطيها موسى قبل التوراة ؟ قولان للعلماء :

جاء فى تفسير المنار :

قال بعض المفسرين : إن الألواح كانت مشتملة على التوراة ، وقال بعضهم : بل كانت قبل التوراة ، والراجح : أنها كانت أول ما أوتيه من وحى التشريع ، فكانت أصل التوراة الإجمالى ، وكانت سائر الأحكام من العبادات والمعاملات الحربية والمدنية والعقوبات تنزل يخاطبه بها الله تعالى فى أوقات الحاجة إليها [٢٨] .

والمعنى : بينا لموسى فى الألواح والصحف من كل شىء يحتاج إليه بنو إسرائيل ؛ لإصلاح شئونهم فى الدين والدنيا من المواعظ وتفصيل الأحكام ، وبيان الحلال والحرام والحسن والقبيح وغير ذلك من أنواع الهداية والإرشاد .

فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا .

أى : خذ هذه الأحكام بالعزيمة والجدّ ، بدون تهاون أو تفريط ، وهى دعوة إلى تقديم العزيمة على الرخصة ، وعدم محاولة التفلّت والانسلاخ من الأحكام الشاقة إلى أيسر الأحكام والتكاليف .

وليس فى هذا غلو أو اعتساف ، فنحن نعلم أن دين الله يسر لا حرج فيه .

ولكن هذه العقيدة تحتاج إلى الجدّ والهمة والحسم والصراحة ولا ينبغى أن تؤخذ فى رخاوة ولا تميع ولا ترخيص، مع البعد أيضا عن التشدد والتعنت والتعقيد .

وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا .

أى : وأمر قومك بالاعتصام بهذه الموعظة ، والأحكام المفصلة فى الألواح ، التى هى فى منتهى الكمال والحسن ، وأن يختاروا أقربها إلى الصواب لو أن فيها حسنًا وأحسن ، كالقود والعفو ، والانتصار والصبر ، والمأمور به والمباح . فأمروا بأن يأخذوا بما هو أكثر ثوابًا .

سَأُورِيكُمْ دَارَ ٱلْفَاسِقِينَ .

أى : سأرى قومك ديار الهالكين من عاد وثمود وأمثالهم؛ ليشاهدوا ما حل بأهلها من الهلاك والدمار؛ لأن رؤية الديار خالية من أهلها ، خاوية على عروشها ، تدعو إلى مزيد من الحذر والاعتبار .

قال ابن كثير : أى : سترون عاقبة من خالف أمرى وخرج عن طاعتى كيف يصير إلى الهلاك والدمار .

وخوطب قوم موسى عليه السلام بقوله : سأريكم دون قوله - سأريهم - التفاتًا إليهم بعد الغيبة ؛ ليكون ذلك أبلغ من حملهم على الطاعة والامتثال ، وتخويفهم من اتباع طريق الظالمين .

وقيل : معنى : سَأُورِيكُمْ دَارَ ٱلْفَاسِقِينَ . سأورثكم حكم الوثنيين فى تلك الديار التى هاجرتم إليها ، بدليل قراءة : سَأُورِثُكُمْ دَارَ ٱلْفَاسِقِينَ .

★ ★ ★

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾

المفردات :

سأصرف عن ءاياتى الذين يتكبرون : سأبعد عن التدبر فى آياتى، والمراد: سأطبع على قلوبهم وأُغلقها؛ بسبب كبريائهم.

سبيل الرشد : طريق الحق .

سبيل الغى : طريق الضلال .

حبطت أعمالهم : بطلت أعمالهم فلم ينتفعوا بها .

التفسير:

١٤٦- سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَاتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ...

يسر الله للإنسان طريق الهدى والرشاد ، ومنحه العقل والإرادة والاختيار ، وهداه النجدين وبين له الطريقين ، فإذا اختار الإنسان طريق الهدى ؛ يسر الله له الرشاد وثبّته وأعانه عليه ، وإذا تكبر عن الحق وبغى فى الأرض وتعالى وتكبر عن دواعى الإيمان ؛ فإن الله يسلب عنه الهدى ويحجبه عن مواقع رحمته ، بعد أن أخذ من آيات الله ومعجزاته هذا الموقف المعيب ثم بين صفات المستكبرين وأحوالهم فقال :

١ - وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا .

إن إعراضهم عن الحق حجبهم عن رؤية دلائل الإيمان ، ومعجزات الرسل ، وجمال التشريع الإلهى وسمّوه ، فإذا شاهدوا آيات التنزيل أو معجزات الرسل عماهم الهوى عن الإيمان بهذه الآيات .

٢ - وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا .

إذا شاهدوا طريق الحق والخير والإيمان والفلاح ؛ أبعدوا أنفسهم عنه وساروا فى غيره .

٣ - وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا .

أى : إنهم إذا شاهدوا طريق الضلال والشهوات والمحرمات ؛ هرعوا إليه وساروا فيه .

ثم علل ما سلف من صرفهم عن النظر فى الآيات فقال :

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ .

لقد حجبهم الله عن مواقع رحمته ، وصرفهم عن الاعتبار بآياته ؛ لأنهم أخذوا من آياته سبحانه موقفًا معاديًا ، فأغمضوا أعينهم عنها ، وكذبوا بها قبل أن ينظروا فيها ويعرفوا وجهها ولو أنهم تدبّروا ما جئنا به وعقلوه ؛ لما فعلوا الأباطيل .

١٤٧- وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ ٱلْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ .

إن الذين كذبوا بالرسل ، وكفروا بآيات الله وباليوم الآخر ، ضلّ سعيهم ، وبطل ما عملوه فى الدنيا من بر وصلة رحم ، وإغاثة ملهوف وغير ذلك ؛ إذ الشرط فى قبول أعمال الخير والإثابة عليها فى الآخرة؛ تحقيق الإيمان بالله وشرائعه .

هَلْ يُجْزَوْنَ إِلا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

إنهم عملوا لغير الله ، وأتبعوا أنفسهم فى غير ما يرضى الله ، فتصير أعمالهم وبالاً عليهم ، وقد مضت سنة الله أن يكون الجزاء من جنس العمل .

وإنهم لم يعملوا إلا شرا ولم يقدموا إلا سوءا وكفرًا ، فلم يكن جزاؤهم إلا ما يسوؤهم .

لقد ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا .

★ ★ ★

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾

المفردات :

جسدًا : جسد عجل مصنوعًا من الذهب لا روح فيه .

خوار : صوت البقر .

سقط فى أيديهم : ندموا ندمًا شديدًا لأن النادم يعض يده ويسقط ذقنه فيها غمًّا فتصير يده مسقوطًا فيها.

التفسير :

١٤٨ – وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ... الآية .

ذهب موسى إلى مناجاة الله تعالى ، واستمرّ غيابه عنهم أربعين ليلة ؛ واستخلف موسى هارونَ على قومه ، ودعاه إلى الإصلاح والابتعاد عن المفسدين وكان السامرىّ مطاعًا فى بنى إسرائيل وله منزلة جليلة بينهم ، فطلب منهم أن يجمعوا الحلىّ التى استعاروها من الأقباط ليلة عيد لهم ، ثم غرق فرعون وقومه ، وبقيت الحلىُّ عند بنى إسرائيل ، فطلبها منهم السامرىّ ، بحجة أنها عارية لا يحق لهم أن يتملكوها ، وكان السامرى فنانًا له خبرة بالنحت وصنع التماثيل بطريقة فائقة .

فوضع الحلى فى النار ، وصاغ منها تمثالاً على صورة عجل ، فيه هيئة الجسد ولا روح فيه ، ووضع فيه أنابيب تؤدى إلى إحداث صوت الخوار ، عند دخول الريح فيه .

فلما رأوا منظره وصوت البقر ينبعث منه ، قال لهم السامرى : هذا هو إلهكم ، وإله موسى ، ولكن موسى نسى هذا الإله وتركه فأقيموا أنتم على عبادته ، فاتجهوا إليه بالعبادة ، مقلّدين قوم فرعون فى عبادة عجل أبيس ، ومقلّدين ما شاهدوه من بعض العرب الذين أقاموا على عبادة تمثال لبقرة ، وطلبوا من موسى أن يجعل لهم إلها يعبدونه ، كما يعبد هؤلاء هذا التمثال ؛ فغضب منهم موسى ، وقال لهم : كيف تعبدون إلها غير الله الذى أنعم عليكم بالعديد من النعم .

وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ...

أى : وصاغ بنو إسرائيل من بعد ما فارقهم موسى ماضيًا إلى مناجاة ربه - من حلى القبط التى كانوا استعاروها منهم . عِجْلاً جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ . أى : تمثالاً له صورة العجل وبدنه وصوته .

والذى فعل ذلك هو السامرى ، وكان مطاعًا فيهم ، وإنما نسب العمل إليهم ؛ لأنه عمل برأى جمهورهم ، الذين طلبوا أن يجعل لهم إلهًا يعبدونه .

قال ابن كثير : وقد اختلف المفسرون فى ذلك العجل هل صار لحما ودما له خوار .

أو استمر على كونه من ذهب إلا أنّه يدخل فيه الهواء فيصوّت كالبقر على قولين ، والله أعلم . ا هـ .

ويرى الرأى الأول قتادة والحسن البصرى فى جماعة آخرين ، وتعليل ذلك عندهم ، أنّ السامرىّ رأى جبريل حين جاوز ببنى إسرائيل البحر ، راكبًا فرسًا ما وطئ بها أرضًا إلا حلّت فيها الحياة ، واخضر نباتها، فأخذ من أثرها قبضة ، ثم نبذها بعد ذلك فى تمثال العجل ، فحلّت فيه الحياة وصار يخور كما يخور العجل.

ويرى جماعة آخرون : أن السامرىّ صنع تمثال عجل مجوّفًا ، ووضع فى جوفه أنابيب على طريقة فنيّة مستمدّة من دراسة علم الصوت ، فإذا دخلت الريح فى جوف التمثال ؛ انبعث منه صوت يشبه خوار العجل.

أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً .

إن هذا العجل فاقد لأهمّ صفة من صفات الإله الحق ، وهى الكلام والهداية والإرشاد للعباد ، وإنزال الكتب وإرسال الرسل ؛ وهو استفهام إنكارى من هؤلاء الذين ساروا وراء أهوائهم المادية ، فصنعوا عجلاً بأيديهم ،وعبدوه مع أنه لا يتكلم ، ولا يهديهم سبيل الرشاد ، ولا يرشدهم إلى معالم دينهم وشرائعهم .

ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ .

كرر القرآن نسبة اتخاذ العجل إليهم ، فهم صانعوه بأيديهم ، ثم عبدوه من دون الله ، وكان طبعهم الظلم ، وكانوا ظالمين حين عبدوا عجلاً من دون الله .

١٤٩- وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

أى : ولما اشتد ندمهم ، وزادت حسرتهم على ما فرط منهم فى جنب الله ، وعلموا أنهم قد ضلوا ضلالاً مبينًا بعبادة العجل ، وزَجْر هارون والرغبة فى قتله ، عندئذ ندموا ورغبوا فى التوبة ، والتضرع والابتهال إلى الله وقالوا: لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ .

وكان ذلك بعد رجوع موسى إليهم ، وبصرهم بما هم فيه من ضلال مبين ، بدليل أنه لما نصحهم هارون بترك عبادة العجل قالوا :

لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى .

وقد جاءت هذه الآية - معترضة - قبل ختام القصة ؛ لتكون بمثابة التوجيه إلى أهل مكة ، بأنْ بنى إسرائيل ندموا على عبادة العجل ، فأولى بكم أن تندموا على عبادة الأصنام ، التى لا تسمع ولا ترشد إلى الهدى.

تعقيب

عبر سبحانه وتعالى عن شدة ندمهم بقوله تعالى:

وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ : لأن من شأن من اشتد ندمه وحسرته ، أن يعض يده غمًّا ، فتصير يده مسقوطًا فيها ؛ لأن فاه قد وقع فيها.

«وهذا تعبير لم يسمع به قبل القرآن ولا عرفته العرب ، وقد اتسع هذا التعبير فأصبح يطلق على كل فشل أو خيبة ، تقول : كلام ساقط و«سقط» الكلام ؛ لأنهم شبهوه بما لا يحتاج إليه .

وقد ذكر اليد ؛ لأن الندم يحدث فى القلب وأثره يظهر فى اليد قال تعالى: فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا»[٢٩].

★ ★ ★

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾

المفردات :

أسفا : شديد الغضب أو حزينا .

بئسما خلفتمونى من بعدى : أى : بئس ما فعلتموه من بعد غيبتى .

أعجلتم أمر ربكم : أى : أسبقتم ما أمركم به ربكم من التوحيد فعبدتم العجل قبل أن يعود موسى من ميقات ربه ؛ ليكون أمام الأمر الواقع ، يقال: عجل الأمر سبقه .

وألقى الألواح : طرحها على الأرض .

وأخذ برأس أخيه : أى : وأمسك بشعر رأس أخيه يجره به إليه .

فلا تشمت بى الأعداء : أى: فلا تفعل ما يكون سببًا لشماتتهم بى .

التفسير :

١٥٠- وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ... الآية .

عاد موسى إلى قومه شديد الغضب والحزن ، شديد الأسف والهمّ ، حين علم أن قومه تركوا عبادة الله الحق ، وعبدوا عجلاً من الذهب لا يملك الكلام ولا يقدم لهم سبيل الهداية ؛ وكان الله سبحانه وتعالى قد أخبره وهو فى مكان المناجاة بما أحدثه قومه :

قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ . (طه : ٨٥)

قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ .

لقد استخلف موسى هارونَ على قومه ، وكانت وصيته لهم : الاستمرار على عبادة الله ، ونبذ عبادة غير الله ، لكنهم لم يحسنوا خلافة موسى ، فإن من واجب الخلفاء أن يسيروا على نهج المستخلف ، فخاطب موسى جميع قومه بقوله :

بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِيَ .

فالذين عبدوا العجل قد أشركوا بعبادة الله غيره من المخلوقات التى لا تملك نفعًا ولا ضرًا .

وهارون ومن معه من المؤمنين كان عليهم واجب هو أن يبذلوا جهدًا أكبر لمنع هؤلاء المرتدين من عبادة العجل ، ويجوز أن يكون الخطاب لهارون والمؤمنين معه ، فاللّوم لهم إذ لم يمنعوا عبدة العجل مما فعلوا ، أى : بئس قيامكم مقامى ؛ إذ لم تراعوا عهدى .

أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ .

أى : أسبقتم ما أُمرتم به من البقاء على التوحيد أو استعجلتم قضاءه وعقابه .

أو استعجلتم موعده وميقاته ، حيث تركتكم إلى ميعاد مؤقت . فسارعتم إلى مخالفة أمرى وغيرتم دينكم وعبدتم العجل ، قبل نهاية المدّة التى قضيتها فى ميعاد الله ومناجاته .

وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ .

طرح موسى ألواح التوراة جانبًا من الغضب ، أو وضع الألواح التى تحمل الوصايا والتوجيهات الإلهية، التى كتب الله له فيها المواعظ والتشريعات ، وهذه الألواح تحمل وصايا الله وتوجيهاته ، وكان موسى حريًا أن يحافظ عليها ، لكن شدة الغضب جعلته يلقى الألواح جانبًا ، وأمسك موسى بشعر رأس هارون يجذبه إليه منه ؛ لظنّه أنه أهمل فى توعية قومه ، وإرشادهم وإصلاح حالهم ، ونهيهم عن الإشراك بالله .

قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى .

كان هارون حليمًا حكيمًا ، وهنا بدأ يرقق قلب أخيه ، فخاطبه خطاب المسترحم المستعطف ، ولم يقل يا أخى ، ولا يا ابن أبى ولكن ناجاه بقوله : ٱبْنَ أُمَّ . أى : نحن أبناء أمّ واحدة ، وشرح له موقفه حين اشتد هياج القوم واندفاعهم إلى العجل الذهب ، وقد بذل هارون قصارى جهده ، فى ترشيدهم ونصحهم ، لكنهم قهروه واستضعفوه ، وهمّوا بقتله ، واقتربوا وأوشكوا أن يؤذوه أو يقتلوه .

فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ .

أى : فلا تفعل بى أمام هؤلاء الأعداء ، ما يكون سبب لشماتتهم وفرحهم فيما يصيبنى .

وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ .

ولا تنظمنى بغضبك علىّ فى عداد الذين ضلّوا وكفروا بربهم الحق ؛ فأنا لم أضلّ مثلهم ولم أكفر معهم،

وأنا برىء منهم ولكنى تريثت ، وتراجعت عندما رأيت اتجاه القوم شديدًا نحو عبادة العجل ، فلم أحاول التفريق بينهم ، بتصنيفهم إلى مؤمنين وكافرين ، ورجوت إذا رجعت من المناجاة أن تكون أقدر على هدايتهم ، ودعوتهم إلى الإيمان .

وفى سورة طه نجد هارون يقول :

قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي.(طه: ٩٤)

عندئذ هدأت ثورة الغضب عند موسى ، والتمس العذر لأخيه ، وطلب من الله المغفرة له ، ولأخيه ، وطلب من الله الرحمة ، وهو سبحانه أرحم الراحمين .

١٥١ - قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ .

وهو دعاء هين لين يطلب فيه المغفرة له ولأخيه ، والمغفرة أعم موردًا من المعصية ، وكان النبى ﷺ يكثر الاستغفار وطلب المغفرة فى كل يوم وليلة .

وفى هذا الاستغفار ترضية لهارون ، وإعلان للشامتين بتمام رضا موسى عما فعله هارون ، حتى تردّ شماتتهم إليهم كمدًا وحسرة .

ثم طلب موسى من الله أن يشمله مع أخيه برحمته الواسعة ، التى وسعت كل شىء ، فهو أرحم بالخلائق من أنفسهم ، فالله هو الرحمن الرحيم ، وهو سبحانه أرحم الراحمين .

* * *

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٥٣) وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤) ﴾

المفردات :

غضب من ربهم : المراد بغضب ربهم : عذاب الآخرة .

وذلة فى الحياة الدنيا : أى : وتشريد في الأرض وإخراج من الديار ، بحيث لا تكون لهم عزة كعزّة أصحاب الوطن.

المفترين : أى : المختلقين أشنع الكذب على الله تعالى .

التفسير:

١٥٢ - إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا ... الآية .

تأتى هذه الآية ، والآية التالية ، بمثابة الجملة المعترضة ؛ لتبين عقوبة المفترين ، وجزاء توبة التائبين.

والمعنى: إن الذين اتخذوا العجل إلها ، وعبدوه من دون الله تعالى ؛ سينالهم غضب من الله عليهم ، وعقوبة فى الآخرة وذلة ومسكنة وهوان فى الحياة الدنيا ، أو غضب من الله وذلة ومسكنة لهم فى الدنيا والآخرة .

- وقد ورد هذا المعنى فى سورة البقرة وغيرها .

- وتفيد آيات القرآن أن الله غضب على اليهود لتحريفهم التوراة ، وإدخالهم فيها ما ليس منها ، وعدوانهم فى السبت ، ودعواهم أنَّهم أبناء الله وأحباؤه وأكلهم الربا بعد أن نهاهم الله عنه ، وأكلهم أموال الناس بالباطل .

- كما تفيد آيات القرآن أن الله لعنهم وسلط عليهم من ينتقم منهم ، و سيتكرر ذلك إلى يوم القيامة .

كما تفيد الأحاديث النبوية الصحيحة أن المسلمين سيقاتلون اليهود وينتصرون عليهم قبل قيام الساعة.

وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ .

ومثل ذلك العذاب والانتقام يصيب كل مفتر وينال كل ظالم ، فى كل زمان ومكان .

قال ابن عباس: كذلك أعاقب من اتخذ إلها دونى .

وقال مالك ابن أنس: ما من مبتدع إلا وهو يجد فوق رأسه ذلة وقرأ هذه الآية .

وقال سفيان بن عيينة: كل صاحب بدعة ذليل .

١٥٣ - وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ .

من عادة القرآن أن يقابل الأشياء بأضدادها ، فبعد أن ذكر جزاء الظالمين فتح باب الأمل أمام التائبين.

والمعنى : والذين ارتكبوا المعاصى والذنوب وعلى رأسها الكفر والشرك ، ثم تابوا عن الكفر والشرك ، أو أقلعوا عن الذنوب والمعاصى ، وآمنوا بالله إيمانًا صادقًا عن يقين ؛ فإن الله تعالى يغفر ذنوبهم ، ويقبل توبتهم ويرحمهم برحمته الواسعة .

والآية عامة فى توبة الكافرين والمؤمنين .

وإن وردت فى سياق الحديث عن بنى إسرائيل الذين اتخذوا العجل إلها ، ثم فتحت باب التوبة أمام التائبين منهم ، إلا أن العبرة بعموم اللفظ الوراد فيها .

سئل ابن مسعود عن الرجل يزنى بالمرأة ثم يتزوجها فتلا هذه الآية : وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ .

فتلاها عبد الله بن مسعود عشر مرات ، فلم يأمرهم بها ولم ينههم عنها .

لكن يؤخذ من النحوى : أن من الفقهاء من ذهب إلى أن من زنى بامرأة حرمت عليه ، ولا يجوز له الزواج منها ، ومنهم من ذهب إلى أن المسلم إذا تاب قبل الله توبته وأن الحرام لا يحرّم الحلال ، وذكروا أنه يشبه رجلا سرق فاكهة من بستان ثم اشتراه ، فيكون أوله حرام وآخره حلال .

ولعل قراءة ابن مسعود لهذه الآية ترجيح لقبول توبة التائب ، وتيسير للمسلم ، وتشجيع على التوبة الصادقة من الرجل والمرأة ، مع الإيمان الصادق والعمل الصالح .

١٥٤- وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ .

فى هذا التعبير القرآنى بلاغة وبيان ، كأن الغضب كان يغريه بالاندفاع إلى معاقبة أخيه وتسفيه قومه، فلما هدأ غضبه وسكن ؛ عاد إلى طبيعته ، وكان موسى سريع الغضب ، سريع العودة إلى الهدوء ، فلما عرف من أخيه أنه لم يقصّر فى أداء الرسالة ، وأن الموقف كان أعتى منه وأكبر ؛ هدأ غضبه ، وعاد إلى الألواح فأخذها وبدأ يقرؤها ويشرحها ، وفيها الهداية والتشريع والرحمة والفضل للمؤمنين .

جاء فى ظلال القرآن :

«والتعبير القرآنى يشخّص الغضب فكأنما هو حى ، وكأنما هو مسلط على موسى يدفعه ويحركه ... حتى إذا سكت عنه ، وتركه لشأنه ؛ عاد إلى نفسه ، فأخذ الألواح التى كان قد ألقاها بسبب دفع الغضب له وسيطرته عليه .

ثم يقرر السياق مرة أخرى أن فى هذه الألواح هدى ورحمة لمن يخشون ربهم ويرهبونه ..

ورهبة الله وخشيته ؛ هى التى تفتح القلوب للهدى ، وتوقظها من الغفلة ، وتهيئها للاستجابة والاستقامة..

إن الله خالق هذه القلوب ، هو الذى يقرر هذه الحقيقة ، ومن أعلم بالقلوب من رب القلوب؟!» [٣٠]

فقه الحياة أو الأحكام :

الحلم سيد الأخلاق ، فحينما هدأت نفس موسى وعاد إلى أناته وحلمه ، أخذ بتدارس الألواح ، فوجد فيها الرشاد والهداية ، لمن كان يخاف ربه ويخشى عقابه ..

وتلك هى فترة الاستقرار فى حياة موسى على ما يظهر لنا ، بعد أن مرّ بتقلبات وأحوال شديدة التأثير، كاد بها يخسر إيمان قومه برسالته إلى الأبد ، لولا عودته إلى النصح والإرشاد بما ورد فى هذه الألواح ، أو بما ورد فى التوراة[٣١] .

★ ★ ★

﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ١٥٥﴾

المفردات :

لميقاتنا : الميقات : المكان الذى حدده الله ليذهب موسى وقومه إليه .

الرجفة : الزلزلة الشديدة .

التفسير :

١٥٥- وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَا ... الآية .

المعنى: اختار موسى من قومه سبعين رجلاً ، وأتى بهم للميقات الذى وقته الله تعالى ، وهو مكان فى جبل الطور: طور سيناء ، حيث ناجى ربّه ، وأمرهم أن يصوموا ويتطهروا ، ويطهروا ثيابهم . وذلك ليكون سماعهم مناجاة ربه دليلاً على صدقه ، فلما أتوا إلى ذلك المكان قالوا : يا موسى ، لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فإنك قد كلمته ، ونريد أن نراه ؛ فأخذتهم رجفة الجبل وصعقوا حين ألحوا فى طلب الرؤية وتختلف أقوال المفسرين فى هذا الميقات إلى عدة أقوال[٣٢] .

نختار منها قولين :

أحدهما : أنه الميقات الذى وقته الله لموسى ؛ ليأخذ التوراة وأمره أن يأتى معه بسبعين رجلاً .

الثانى : أنه ميقات وقته الله تعالى لموسى ؛ ليلقاه فى ناس من بنى إسرائيل فيعتذرون إليه من عبادة قومهم للعجل . فأما الرجفة وهى الزلزلة الشديدة ففى سبب أخذها إياهم عدة أقوال أرجحها قولان .

الأول : أن الزلزلة أصابتهم ؛ لأنهم لم ينهوا قومهم عن عبادة العجل ولم يرضوا .

قال قتادة وابن جريج : لم يأمروهم بالمعروف ولم ينهوهم عن المنكر ، ولم يزايلوهم .

الثاني : أنهم طلبوا استماع الكلام من الله تعالى فلما سمعوه ؛ قالوا : أرنا الله جهرة .

قال تعالى : وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. (البقرة: ٥٥ ، ٥٦)

فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ .

أصابت الرجفة سبعين رجلاً من فضلاء بنى إسرائيل ؛ لأنهم قصَّروا فى نهى قومهم عن عبادة العجل، أو لأنهم قالوا لموسى : أرنا الله جهرة .

ولم تكن تلك الرجفة موتًا ، ولكن القوم لما رأوا تلك الحالة المهيبة ، أخذتهم الرعدة ورجفوا وخاف موسى عليهم الموت ، فعند ذلك بكى ودعا ؛ فكشف الله عنهم تلك الرجفة .

قال وهب : ما ماتوا ولكن أخذتهم الرجفة من الهيبة ، حتى كادت أن تبين مفاصلهم ، وخاف موسى عليهم الموت .

قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ .

أى : قال موسى راجيًا عفو ربِّه عنهم فى هذا اليوم : يارب ، إنك لو شئت إهلاكهم من قبل هذا اليوم ، حين قصَّرُوا فى النهى عن عبادة العجل، وعدم مفارقتهم لعبدته. وكذلك لو شئت يا ربِّ إهلاكى من قبلُ لفعلت.

قال الزجاج : لو شئت أمتَّهم قبل أن تبتليهم بما أوجب عليهم الرجفة .

وقيل : لو شئت أهلكتهم من قبل خروجنا وإياى ، فكان بنو إسرائيل يعاينون ذلك ولا يتهموننى.

أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا .

قال المبرد : هذا استفهام استعطاف .

أى : لا تهلكنا بما فعل السفهاء منا من العناد وسوء الأدب .

إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ .

وما هى إلا فتنتك أى: ابتلاؤك واختبارك وامتحانك حين كلمتنى ، فسمعوا كلامك وطلبوا الرؤية ، فليس الأمر إلا أمرك ، وما الحكم إلا لك ، فما شئت كان .

أو ما كانت عبادتهم العجل إلا ابتلاء منك واختبارًا ، حين سمعوا خوارًا فى جوف العجل ، فمنهم من ضلّ وعبد العجل ، ومنهم من هداه الله وثبته .

قال صاحب الظلال :

وهذا هو الشأن فى كل فتنة ، أن يهدى الله بها من يدركون طبيعتها ، ويأخذونها على أنها ابتلاء من ربهم وامتحان يجتازونه صاحين عارفين .

وأن يضل بها من لا يدركون هذه الحقيقة ، ومن يمرُّون بها غافلين ، ويخرجون منها ضالين .

أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَافِرِينَ .

هنا يلجأ موسى إلى ربِّه طالبًا ولايته وعونه ، راجيًا مغفرته وستره ، مستغيثًا يطلب رحمة الله ، وهو خير الغافرين ؛ لأنه يغفر لمحض الجود والكرم ، أمّا المخلوق فقد يغفر لأسباب عديدة ، كحب الثناء ، أو طلب النفع ، أو دفع الضرر .

وقد كان المقام مقام اعتذار فناسبه حسن التضرُّع والثناء على الله بما هو له أهل وطلب المغفرة والرحمة منه سبحانه ، حيث لا يملك ذلك إلا الله . قال تعالى : وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ .

وأما عفو العبد فهو نفسه بتوفيق من الله تعالى .

★ ★ ★

﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ۖ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) ﴾

المفردات :

واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة : المراد بحسنة الدنيا : ما يعم العيشة الراضية ، والعمل الصالح ، والمراد بكتابتها: تقديرها وإبرازها ؛ عبر عنها بالكتابة مجازًا ، أو الكتابة على حقيقتها ، فإن ما يقدر الله تنفيذه يكتب فى اللوح المحفوظ ، أو عند الملائكة المدّبرات أمرًا .

هدنا إليك : تبنا إليك ورجعنا .

إصرهم : الإصر فى اللغة : الأمر الثقيل ، والمراد به هنا : التكاليف الشاقة على اليهود بسبب ظلمهم، كتحريم بعض الطيبات عليهم .

الأغلال : المواثيق الشديدة المشبهة للأغلال فى الأعناق .

وعزروه : وعظموه ووقروه ، أو أعانوه .

التفسير:

١٥٦- وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ... الآية .

تلطف موسى فى دعاء ربه وفى تفويض المشيئة إليه وفى إظهار الخضوع والتجرد لله تعالى فيما سبق من آيات وهنا يدعو ربه أن يعطيه حسنة فى الدنيا وحسنة فى الآخرة .

والمعنى: أوجب لنا وأثبت لنا بفضلك ورحمتك حسنة ، أى: حياة طيبة فى الدنيا بتوفير نعمة الصحة والعافية ، وسعة الرزق والتوفيق فى العمل والهداية إلى الخير ، واجعل لنا فى الآخرة حسنة بدخول جنتك والظفر برضوانك وفيض إحسانك ، وذلك كقوله تعالى:

رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ . (البقرة: ٢٠١)

إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ . أى: تبنا إليك ورجعنا وأنبنا . أى: ندمنا على ما فعله قومنا من عبادة العجل أو قولهم: أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً . ونحو ذلك من فعل السفهاء ، ورجعنا إلى الإيمان المقرون بالعمل .

جاء فى تفسير القاسمى: يقال: هاد ، يهود إذا رجع وتاب فهو هائد ، ولبعضهم:

يا راكب الذنب هُدْ ، هُدْ   واسجد كأنك هُدْهُدْ

وقال آخر: إنى امرؤ مما جنيت هائد .

قَالَ عَذَابِى أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ .

أى: قال الله تعالى إن عذابى أصيب به من أشاء من الكفار والعصاة ، مع عدالة الله وبعده عن الظلم.

قال تعالى: وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا .

وفى الحديث القدسى يقول النبى ﷺ: يقول الله عز وجل: «يا عبادى ، إنّى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا» (٣٣) .

وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ .

أما رحمة الله فقد شملت كل شىء فالله تعالى ينعم على البرّ والفاجر ، ويخص بالثواب المؤمن ولولا عموم الرحمة ؛ لهلك العصاة والكفار عقب عصيانهم وكفرهم ، قال تعالى: وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ . (فاطر: ٤٥)

جاء فى تفسير القاسمى عن الجشمى:

ومن تأمل هذا السؤال والجواب ؛ عرف عظيم محل هذا البيان ؛ لأنه عليه السلام ، سأل نعيم الدنيا والدّين عقب الرجفة ، فكان من الجواب أن العذاب خاصة يصاب به من يستحقه ، فأما النعم فما كان من باب الدنيا يسع كل شىء يصح عليه التنعم وما كان من باب الآخرة يكتب لمن له صفات ذكرها .

فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ .

تفضل الحق سبحانه على عباده بهذا البيان فبين صفات من يستحق الرحمة من عباده وهم :

١ – الذين يتقون الله ويراقبونه ويؤدون فرائضه ويتركون ما نهى عنه .

٢ – الذين يخرجون زكاة أموالهم طيبة بها نفوسهم والمال شقيق الروح ، وإخراجه يحتاج إلى جهاد وإيمان ويقين بثواب الآخرة ، ولذلك نص عليه ، حيث كان اليهود يعبدون المادة وكانت نفوسهم شحيحة بإخراج المال فى سبيل الله .

٣ – الذين يؤمنون بالإسلام والقرآن وسمو تشريعاته وعموم هدايته وصلاحيتها للعمل والتطبيق ، وصدق رسلنا.

١٥٧ – ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ...

١ – الصفة الأولى لهذا النبى :

تتابع هذه الآية صفات هؤلاء الذين يستحقون الرحمة فتذكر أن هؤلاء المؤمنين قد آمنوا بالنبى الأمى الذى أرسل فى أمة أمية ، وكانت الأمية آية ومعجزة له ؛ فقد جاء بكتاب منزّل عليه اشتمل على أكمل العلوم وأجداها : فى العقيدة والعبادة والسياسة والاجتماع والاقتصاد والأخلاق والأعمال .

٢ – والصفة الثانية لهذا النبى :

أن هذا الرسول الأمىّ محمد ﷺ قد وردت صفاته فى التوراة والإنجيل ، ويعرفه أحبار اليهود كما يعرفون أبناءهم ، ولذلك آمن به بعض علماء اليهود ، مثل: عبد الله بن سلام ، وبعض علماء النصارى مثل: تميم الدارى .

جاء فى الباب الثالث والثلاثين فى التوراة فى سفر تثنية الاشتراع :

«جاء الرب من سيناء ، وأشرق من ساعير ، واستعلى من جبال فاران ، ومعه ألوف الأطهار فى يمينه قبس من نار» .

ومجيئه من سيناء : إعطاؤه التوراة لموسى ، وإشراقه من ساعير : إعطاؤه الإنجيل لعيسى ، واستعلاؤه من جبال فاران : إنزاله القرآن ؛ لأن فاران من جبال مكة .

وقال تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام : مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ (الصف : ٦) .

وروى البخارى عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال: قرأت فى التوراة صفة النبىّ ﷺ : «محمد رسول الله عبدى ورسولى سميته : المتوكل ، ليس بفظ ، ولا غليظ، ولا صخاب فى الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة ، بل يعفو ويصفح ، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العرجاء؛ بأن يقولوا لا إله إلا الله»[٣٤].

وقد جاء فى كتب التفسير قديما وحديثا جانب كبير مما نقله العلماء للدلالة على صدق محمد ﷺ وصحة رسالته[٣٥] .

٣ – والصفة الثالثة لهذا النبى أنه :

يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ .

إن هذا الرسول يأمر الناس بالمعروف حيث يدعوهم إلى الإسلام والإيمان ومكارم الأخلاق والعبادات والمعاملات والشرائع . وَيَنْهَاهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ . الذى يتناول الكفر والمعاصى وما تنكره العقول والقلوب من مساوئ الأخلاق وقبيح الأفعال والأقوال .

٤ – والصفة الرابعة لهذا النبى :

وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَائِثَ .

أى : أنه يحل لهم ما تستطيبه الأذواق من الأطعمة وفيه فائدة فى التغذية ، وخاصة ما حرّم على بنى إسرائيل من الطيبات كالشحوم وغيرها بسبب ظلمهم وفسوقهم ؛ عقوبة لهم .

وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَائِثَ . أى : ما تستقذره النفوس كالميتة ، والدم المسفوح ، والخنزير فى المأكولات، وكأخذ الربا والرشوة، والنصب والخيانة فى المعاملات .

٥ – والصفة الخامسة لهذا النبى:

وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَالَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ .

الإصر : الثقل الذى يأصر صاحبه ويحبسه عن الحركة .

الأغلال : جمع غل وهو ما يوضع فى العنق أو اليد من الحديد . والمراد : أن الرسول محمدا ﷺ قد أرسله الله بشريعة سمحة سهلة لا حرج فيها ولا مشقّة ، وهذا الرسول جاء ؛ ليرفع عن بنى إسرائيل ما ثقل عليهم من تكاليف كلفهم الله بها ، بسبب ظلمهم كاشتراط قتل الأنفس فى صحة التوبة والقصاص فى القتل

العمد أو الخطإ، من غير شرع الدية، وقطع الأعضاء الخاطئة، وقطع موضع النجاسة من الثوب، وتحريم العمل يوم السبت .

قال الإمام ابن كثير : أى : إنه جاء بالتيسير والسماحة كما ورد فى الحديث : «بُعثت بالحنيفية السمحة». [٣٦] وقال ﷺ لمعاذ بن جبل، وأبى موسى الأشعرى، حين أرسلهما إلى اليمن : «بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا، وتطاوعا ولا تختلفا» [٣٧] .

والخلاصة : أن بنى إسرائيل كانوا قد أخذوا بالشدة فى أحكام العبادات، والمعاملات الشخصية والمدنية والعقوبات، فكان مثلهم مثل من يحمل أثقالاً يئن منها، وهو موثق بالسلاسل والأغلال فى عنقه ويديه ورجليه، وقد خفف المسيح عليه السلام عنهم بعض التخفيف فى الأمور المادية، وشدد فى الأحكام الروحية، إلى أن جاءت الشريعة السمحة التى أرسل الله بها محمدًا ﷺ [٣٨] .

ثم بين الحق سبحانه وتعالى صفة أتباعه عليه الصلاة والسلام فقال :

فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ .

فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ . من اليهود أو من العرب أو من سائر الناس وصدقوا برسالته وأطاعوه فيها .

وَعَزَّرُوهُ : أى : عظموه ووقروه وأعانوه بمنع أعدائه عنه .

وَنَصَرُوهُ . بكل وسائل النصر، باللسان والسنان .

وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ . أى : اهتدوا بهدى القرآن وهو نور وهداية، وهو أيضا ظاهر واضح، يهدى متبعه إلى العقيدة السليمة والعمل الصالح، كما يهدى النور الحسىّ من يتبعه إلى سواء السبيل .

أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ .

أى : هؤلاء الموصوفون بتلك الصفات الجليلة، هم وحدهم دون غيرهم الذين بلغوا غاية الفوز بسعادة الدنيا ونعيم الآخرة .

★ ★ ★

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾

المفردات :

الأمى : المنسوب إلى الأم ؛ لأنه لا يقرأ ولا يكتب ، فهو على فطرته التى ولدته أمه عليها ، من حيث عدم القراءة والكتابة .

التفسير:

١٥٨- قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيت ...

أفادت الآية السابقة : أن التوراة والإنجيل بشرت برسول الله ﷺ .

وتفيد هذه الآية : عموم رسالته ﷺ للناس أجمعين .

فليست رسالته قاصرة على أمة من الأمم أو على وقت من الأوقات ، أو جيل من الأجيال ، بل رسالته عامة للعرب والعجم والإنس والجن ، وجميع الناس إلى يوم القيامة .

والمعنى : قُلْ يا محمد لجميع البشر كافة من عرب وغيرهم ، بيض أو سود : إنى رسول الله إليكم جميعًا لا إلى قومى خاصة ، والإله الذى أرسلنى هو إله كل شيء ومليكه ، وله ملك السماوات والأرض ، وبيده الخلق والأمر والإماتة والإحياء .

والآية نص فى عموم رسالته ﷺ ، وهى تؤكد ما ورد فى القرآن الكريم من بعثته ﷺ إلى الناس أجمعين، قال تعالى: وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا . (سبأ : ٢٨) .

وقال تعالى: وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ . (الأنبياء: ١٠٧).

وجاءت الأحاديث الصحيحة مؤكدة عموم رسالته ﷺ مثل حديث الصحيحين والنسائى : عن جابر ابن عبد الله عن النبى ﷺ قال : «أعطيت خمسًا لم يعطهن نبى قبلى: نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصلّ ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبىّ يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة»[٣٩]

فَآمِنُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُون .

أفاد المقطع الأول وحدانية الألوهية فالله تعالى إله واحد ليس معه إله غيره ، هو الذى يملك الموت والحياة وله ملك السماوات والأرض .

وفى هذا المقطع رتب على ذلك دعوة الناس جميعًا إلى الإيمان بالله ربًا وخالقًا ، والإيمان بالرسول محمد ﷺ ؛ وهو النبى الأمىّ ، ومعجزته فى أنه كان أميًا ، وأنزل عليه كتاب علّم البشرية قواعد الحياة ، وأصول التشريع والآداب ، وهذا النبى يؤمن بالله وبرسالاته وكلماته وكتبه ، واتّباعه مصدر الهداية الحقة، ومصدر السعادة والفلاح .

وما على الخلق إلاّ الإيمان بوحدانية الله وربوبيته ، واتباع كلماته وتشريعاته ، وليس من التشريع أمور الدنيا العادية من تدبير شئون الزراعة والصناعة والتجارة المباحة والعلوم النافعة فتلك متروكة لعقول الناس ومعارفهم وخبراتهم لما ورد فى الحديث الصحيح عند الشيخين[٤٠] : «أنتم أعلم بأمور دنياكم»[٤١] .

★ ★ ★

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾

المفردات :

يهدون بالحق : يرشدونهم بكلمة الحق .

وبه يعدلون : وبالحق يعدلون فى الأحكام .

أسباطا أممًا : أى : قبائل صارت أممًا ، وأصل السبط : ولد الابن أو البنت .

فانبجست : فانفجرت .

وظللنا عليهم الغمام : وجعلنا السحاب يظلهم من الشمس .

المن والسلوى : المن : صمغة حلوة ، والسلوى : السُّمانى .

التفسير:

١٥٩- وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ .

جاءت هذه الآية استدراكًا لتبين أن الضلال لم يكن شاملاً لبنى إسرائيل ، بل منهم أمة منصفة آمنت بموسى واتبعت تعاليمه فى عصر موسى وبعد عصره كما اتبعوا من جاء بعده من الأنبياء ، وهم أهل هداية بالحق وعدل بالحق .

قال تعالى: مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ . (آل عمران: ١١٣)

وقال تعالى: وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ . (آل عمران: ١٩٩)

وخلاصة معنى الآية :

إن من بنى إسرائيل من آمن بموسى عن يقين صادق وصاروا دعاة للحق يرشدون الناس إليه ، وهم أيضا يعدلون بالحق بينهم فى الحكم ولا يجورون ، قال تعالى: وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَادُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا . (آل عمران : ٧٥) .

١٦٠- وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا .

تمهيد :

تعود هذه الآية إلى الحديث عن بنى إسرائيل فتصف ما أنعم الله به عليهم من النعم المتعددة ، ومع ذلك كان منهم الجحود والعناد ، ولعل ذلك أن يكون تحذيرا لأمة الإسلام ؛ حتى لا تقع فيما وقع فيه بنو إسرائيل من تحريف للتوراة ، وخروج على هدى السماء ، وانحراف عن روح التشريع .

المعنى : يخبر الله تعالى عن بنى إسرائيل أنه صيرهم اثنتى عشرة أمة ، كل أمة منهم ترجع إلى ولد من أولاد يعقوب الاثنى عشر ؛ فكانوا لهذا أسباطًا له ، أى : أولادًا لأولاده .

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ .

أصاب بنو إسرائيل العطش فى التِّيه ، وهم فى منطقة صحراوية بين مصر والشام ، فطلبوا من موسى تيسير الماء لهم حتى لا يهلكهم العطش ، فدعا موسى ربه فى خضوع وتذلل ، فألهمه الله أن يضرب بعصاه

أىّ حجر فينفجر منه الماء بعدد قبائل بنى إسرائيل ؛ لتعرف كل قبيلة مكان شربها ويكون ذلك أهنأ لهم ، وأدعى إلى عدم التزاحم .

ويفهم من ذلك أنّ كل سبط منهم كان عدد أفراده كثيرًا ، حتى جعل لهم هذا العدد من العيون بعدد أسباطهم .

وقد وردت فى التوراة روايات متعددة حول هذه الحادثة منها ما ورد فى الإصحاح السابع عشر :

«وعطش هناك الشعب إلى الماء ، وتذمّر الشعب على موسى . فقال الربّ لموسى: مُرّ قدّام الشعب ، وخذ معك شيوخ بنى إسرائيل ، وعصاك التى ضربت بها خذها فى يدك واذهب . ها أنا أقف أمامك هناك على الصخرة فى حوريب، فتضرب الصخرة فيخرج منها ماء ليشرب الشعب ، ففعل موسى هكذا أمام عيون شيوخ بنى إسرائيل ..»[٤٢] .

ومن المفسرين من رجح أن المراد : حجرٌ معينٌ اعتمادا على ما ورد فى التوراة أو الإسرائيليات .

ومنهم من رجح أن المراد : أىّ حجر يقابل موسى .

قال الحسن: ما كان إلاّ حجرًا اعترضه ، وإلا عصًا أخذها . ولعل الحق سبحانة أراد بذلك أن يكون معجزة ظاهرة لموسى ؛ حتى يزدادوا بنبوته استيقانًا ، ويقبلوا على العمل بما جاء فى التوراة .

وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ .

أى : جعلنا الغمام يلقى ظلاله عليهم ويقيهم حرارة الشمس ، حيث أرسل الله السحاب فوق مقامهم وسيرهم ، فحال دون وصول أشعة الشمس إلى حيث يقيمون أو يسيرون .

وبقيت مشكلة الغذاء ، الذى لا مصدر له فى الصحراء ولا يصل إليهم به أحد .

فتفضل الله تعالى بإنزال المنّ والسلوى ؛ ليكون طعامًا لهم .

والمنّ : مادة صمغية تسقط من الشجر ، تشبه حلاوته حلاوة العسل .

والسلوى : طائر برّىٌّ لذيذ اللحم سهل الصيد ، يشبه السمّان ، كانت تسوقه لهم ريح الجنوب كل مساء فيمسكونه قبضًا بدون تعب .

وتظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى عليهم ، كان فى مدة تيههم بين مصر والشام ، المشار إليه بقوله تعالى :

قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ . (المائدة: ٢٦) .

جاء في تفسير ابن كثير :

قال السدّى : «لما دخل بنو إسرائيل التيه قالوا لموسى – عليه السلام – : كيف لنا بما ها هنا ؟ أين الطعام ؟ فأنزل الله عليهم المنّ فكان ينزل على شجر الزنجبيل ، والسلوى وهو طائر يشبه السمّانى فقالوا : هذا الطعام فأين الشراب ؟ فأمر الله موسى أن يضرب بعصاه الحجر فضربه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا، فشرب كل سبط من عين ، فقالوا : هذا الشراب فأين الظل ؟ فظلل الله عليهم بالغمام ..

فذلك قوله تعالى : وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ.(٤٣)

كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ .

أى : وقلنا لهم : كلوا من هذه الطيبات التى أنزلها الله لكم ، حيث يسر الله لكم الطعام والحلوى والماء والغمام الذى يظللكم به ، ويسر لكم سبل المعاش والإقامة فينبغى أن تعترفوا لله بذلك الفضل وتقوموا بواجب الشكر .

وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

أى : وما ظلمونا بكفرهم بهذه النعم ، ولكن ظلموا أنفسهم بهذا الجحود والكفران ، وقد كان هذا دأبهم وعادتهم آنًا بعد آن .

وقد روى مسلم عن أبى ذر مرفوعا : «يا عبادى ، إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا ، يا عبادى ، إنكم لم تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ..» (٤٤).

★ ★ ★

﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔاتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ ﴾

المفردات :

هذه القرية : هى بيت المقدس أو أريحاء – على ما قيل .

وقولوا حطة : من الحط وهو الوضع والطرح ، والمراد بها : أن يطلبوا حط ذنوبهم وطرحها عنهم بغفران الله لهم .

وادخلوا الباب سجدا : وادخلوا باب القرية التى أمرتم بدخولها خاشعين خاضعين لله ؛ شكرًا له على تمكينكم من دخولها .

رجـــزا : أى : عذابًا .

التفسير :

١٦١– وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ .

يعدد الله طائفة من النعم التى أنعم بها على بنى إسرائيل ، فقد أكرمهم فى التيه ، حيث أنزل لهم المنّ والسلوى ، وفجّر لهم ينابيع الماء ، وأظلّهم بالغمام من حر الشمس ، وبعد أن مكثوا فى صحراء التيه أربعين سنة، قادهم يوشع بن نون ، وأخرجهم من الصحراء إلى العمران ، والقرية تطلق أيضًا على المدينة ، ولعلها عاصمة لما حولها من القرى أو منازل الأعراب ، ومن يفتح العاصمة يستطيع السيطرة على ما حولها وما يتبعها من القرى الصغيرة أو مساكن البدو .

والمعنى: واذكروا أيها المعاصرون للعهد النبوى من بنى إسرائيل ، وقت أن قيل لأسلافكم : اسكنوا قرية بيت المقدس أو «أريحا» بعد خروجهم من التيه ، وقيل لهم كذلك : كلوا من خيراتها أكلاً واسعًا كثيرًا ؛ من أىّ مكان شئتم ؛ وينبغى أن تشكروا الله كثيرًا ، على هذا النصر المؤزر على أعدائكم ، فلا تدخلوا مغرورين ولا متبطرين ، بل ادخلوا متواضعين مستغفرين ، واسألوا الله يحط عنكم سيئاتكم ، وأن يغفرها لكم ، وادخلوا أيضًا من باب القرية خاضعين شكرًا لله تعالى ، فإنكم إن فعلتم ذلك قبلنا دعاءكم وزدناكم نعمًا وفضلاً .

الآيات ٢١-٢٦ من سورة المائدة

يتصل بهذه الآية ومضمون ما اشتملت عليه آيات سابقة فى سورة البقرة ، هى الآية ٥٨، ٥٩ من سورة البقرة .

وكذلك الآيات ٢١–٢٦ من سورة المائدة .

أما آيات سورة البقرة ففيها قوله تعالى :

وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ

وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ. (البقرة: ٥٨، ٥٩)

آيات المائدة

وتفيد آيات سورة المائدة جبن بني إسرائيل وتقاعسهم عن الجهاد، وخوفهم من المشركين سكان بيت المقدس، فقد رغبوا أن يجلسوا بعيدًا، حتى يخرج أهل بيت المقدس تطوعًا فإذا خرجوا دخل اليهود بدون تعب أو مشقة.

وقد تطوع رجلان بنصحهم، وتوجيههم إلى الجهاد، فإذا دخلوا من باب المدينة مجاهدين مخلصين؛ انتصروا على عدوهم، لكن اليهود تقاعسوا عن ذلك، واستغاث موسى بالله أن ينقذه من هؤلاء المتقاعسين؛ فحرّم الله عليهم دخول بيت المقدس أربعين سنة؛ عقابًا لهم.

نص الآيات

يَاقَوْمِ ادْخُلُواْ الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ * قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * قَالُواْ يَامُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ. (المائدة: ٢١ – ٢٦).

ولما انتهت مدة التيه، دعاهم يوشع بن نون لقتال الجبارين بعد وفاة موسى «على الراجح» فاستجابوا له فنصرهم الله تعالى.

١٦٢– فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ قَوْلاً غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظْلِمُونَ.

طلب الله من بني إسرائيل الاعتراف لله تعالى بالفضل، والسجود لله تعالى بعد النصر، ولكنهم خالفوا ذلك.

فدخلوا متكبرين يزحفون على إستاهم رافعين رءوسهم، ولم يطلبوا من الله مغفرة ذنوبهم، بل بدّلوا ذلك بأقوال أخرى ليس فيها مضمون الشكر ولا مضمون التواضع.

فأرسل الله عليهم عذابًا شديدًا من السماء، والرجز: هو العذاب الذي تضطرب له القلوب، أو يضطرب له الناس في شئونهم ومعايشهم.

بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ .

أي : بسبب ظلمهم وعنادهم وعتوّهم ؛ عاقبناهم بالعذاب .

وقد كان ﷺ يشكر ربه كثيرًا عقب النصر والفتح ، فعندما دخل مكة فاتحًا منتصرًا انحنى على راحلته حتى أوشك أن يسجد عليها ، وهو يقول: تائبون حامدون آيبون لربنا شاكرون ، ثم دخل البيت الحرام فصلى ركعتين ثم طعن الأصنام بقضيب فى يده وهو يقول: « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا» (٥٥) .

وذكر بعض الفقهاء أن رسول الله ﷺ صلّى ثمانى ركعات بعد فتح مكة ، وهى صلاة الفتح .

ومن هنا استحب العلماء للفاتحين من المسلمين إذا فتحوا بلدة ؛ أن يصلوا فيها ثمانى ركعات عند أول دخولها ؛ شكرًا لله على نعمة الفتح ، وقد فعل ذلك سعد بن أبى وقاص ، عندما دخل إيوان كسرى ، فقد ثبت أنه صلّى بداخله ثمانى ركعات .

لكن بنى إسرائيل بعد النصر ودخول بيت المقدس ، خالفوا أمر الله ، وقالوا كلامًا لا يحمل معنى الشكر.

قال الزمخشرى: أى: وضعوا مكان حطة قولا غيرها ، يعنى : أمروا بقول معناه التوبة والاستغفار ، فخالفوه إلى قول ليس معناه معنى ما أُمِروا به ، ولم يتمثلوا أمر الله ، وليس الغرض أنهم أمروا بلفظ بعينه، وهو لفظ الحطة ، فجاءوا بلفظ آخر لأنهم لو جاءوا بلفظ آخر مستقل بمعنى ما أمروا به ؛ لم يؤخذوا به ، كما لو قالوا مكان حطّة : نستغفرك ونتوب إليك ، أو اللهم اعف عنا ، وما أشبه ذلك .

وقال ابن كثير: «وحاصل ما ذكره المفسرون وما دل عليه السياق ، أنهم بدلوا أمر الله من الخضوع بالقول والفعل ، فقد أمروا أن يدخلوا الباب سجدًا ، فدخلوا يزحفون على إستاهم رافعى رءوسهم ، وأمروا أن يقولوا : حطة – أى : احطط عنا ذنوبنا – فاستهزءوا وقالوا : حنطة فى شعيرة ، وهذا فى غاية ما يكون فى المخالفة والمعاندة ، ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم وخروجهم عن طاعته . اهـ .

★ ★ ★

﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾

المفردات :

القرية : مدينة أيلة .

حاضرة البحر : قريبة منه .

يعدون فى السبت : يتجاوزون حدود الله بالصيد يوم السبت .

حيتانهم : المراد بها : أنواع السمك المختلفة .

شرعا : جمع شارع أى: ظاهرة على وجه الماء ، من شرع عليها إذا دنا وأشرف .

التفسير :

١٦٣- وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ... الآية .

لا يزال الحديث مستمرًا عن سيئات اليهود وآثامهم ، فقد أخبر القرآن عنها ، وهو منزل على نبى أمىّ، لم يقرأ التوراة ولا كُتب اليهود ، وليس فى التوراة ذكر لهذه الحادثة ، لكنها كانت معروفة متداولة بين اليهود. فذكّرهم القرآن بما حدث لأهل قرية أيلة ، وهى قرية بين مدين والطور على خليج العقبة ، وقد أحيا اليهود اسمها فسمّوا مدينتهم على خليج العقبة إيلات .

ملاحظة: كانت أوامر الله لليهود بتعظيم يوم الجمعة ، فاختاروا يوم السبت ، فألزمهم الله باحترامه وعدم العمل فيه .

جاء فى تفسير الفخر الرازى :

قال ابن عباس: «اليهود أمروا باليوم الذى أمرتم به ، وهو يوم الجمعة ، فتركوه واختاروا السبت؛ فابتلاهم الله تعالى به ، وحرّم عليهم الصيد فيه وأمرهم بتعظيمه ، فإذا كان يوم السبت شرعت لهم الحيتان ينظرون إليها فى البحر ، فإذا انقضى السبت ذهبت وما تعود إلا فى السبت المقبل ، وذلك بلاء ابتلاهم الله به ، فذلك معنى قوله تعالى : وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ . اهـ .

ويفيد سياق الآية أن الله تعالى أمر اليهود بالتفرغ للراحة والعبادة يوم السبت وحرّم عليهم الاشتغال بغير ذلك ، وكانت إحدى القرى على شاطئ البحر ، ترى السمك فى يوم السبت يتهادى على الشواطىء آمناء حيث أدرك بغريزته هدوء حركة الصيد ، وكأن الله تعالى يبعث الحيتان على الظهور على وجه الماء ؛ لتكون كثيرة أمامهم ، فيختبر مدى التزامهم .

كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ .

أى : مثل هذا البلاء بظهور السمك نبتليهم ونعاملهم معاملة المختبر لحال من يراد إظهار حاله ليرتب الجزاء على عمله ، بسبب فسقهم المستمر على أمر ربهم واعتدائهم على حدود شرعه .

قال الشوكانى فى فتح القدير:

ابتلاهم الله تعالى بسبب ظهور الفسق فيهم ، بأن تأتيهم الأسماك يوم السبت ظاهرة على وجه البحر قريبة من المأخذ يسهل صيدها ، وفى سائر الأيام لا تأتى ولا يقدرون عليها ، وفى ذلك امتحان لمدى قدرتهم على الصبر عن محارم الله .

وقال الإمام القرطبى :

«وروى فى قصص هذه الآية : أنها كانت فى زمن داود عليه السلام ، وأن إبليس أوحى إليهم فقال: إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت ، فاتخذوا الحياض ، فكانوا يسوقون الحيتان إليها يوم السبت فتبقى فيها فلا يمكنها الخروج منها لقلة الماء ، فيأخذونها يوم الأحد» . اهـ .

وفى الآية تقريع لليهود ، وتذكير بعقاب الله لمن خالف أمره ، وتذكير للأمة الإسلامية بألا تتحايل على أمر الله ، وتستحل محارمه بحيلة ما .



﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَـِٔيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾

المفردات :

معذرة إلى ربكم : قال الأزهري : المعذرة بمعنى : الاعتذار ، وعُدِّىَ بإلى متضمنة معنى: الإنهاء والإبلاغ .

بئيس : شديد .

عتوا : تكبروا وأعرضوا .

خاسئين : أذلاء صاغرين .

التفسير :

١٦٤- وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ... الآية .

قال المفسرون: افترق أهل القرية ثلاث فرق ، فرقة صادت وأكلت ، وفرقة نهت وزجرت، وفرقة أمسكت عن الصيد . ا هـ .

لقد امتحن الله أهل هذه القرية ، بظهور السمك كثيرًا جميلاً سمينًا يوم السبت واختفائه أو قلّته فى الأيام الأخرى ، ثم وسوس الشيطان لجماعة منهم ، فاصطادوا السمك بالحيلة ، حيث تركوه يتقدّم عند مدّ الماء ، وعملوا أحواضًا لمنعه من العودة إلى البحر عند جزر الماء .

وعندئذ تصدّى لهم العلماء المخلصون بالنصح والتحذير ، فقالت فئة ثالثة وقفت على الحياد واعتزلت الفريقين :

لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا

أى : أن الله قد قضى بإهلاكهم فى الدنيا ؛ لتمردهم وعصيانهم ، وادخر لهم عذابًا شديدًا فى الآخرة؛ جزاء مخالفتهم لأمر الله وعدوانهم فى السبت ؛ فهو يوم عبادة وتفرغ فاحتالوا على صيد السمك ، واستحقوا الهلاك أو العذاب .

قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ .

أجاب الواعظون للمعترضين على الوعظ والتنبيه : إنا نعظهم لنبرئ أنفسنا من السكوت على المنكر، ونعتذر إلى ربنا بأننا أدينا واجبنا فى الإنكار عليهم ، ونحن لا نيأس من صلاحهم وعودتهم إلى الحق ، ولعلهم بهذا الإنذار يتقون ما هم فيه ويتركونه ، ويرجعون إلى الله تائبين ، فإذا تابوا تاب الله عليهم ورحمهم .

١٦٥- فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ .

أى : فلما أبى الفاعلون قبول النصيحة ، واستمروا فى المعاصى ، أنجينا الذين ينهون عن السوء وهم فريق الواعظين ؛ الذين أنكروا على إخوانهم ، وأخذنا الذين ظلموا واعتدوا فى السبت وخالفوا أوامر الله ونواهيه بعذاب شديد لا رحمة فيه ، بسبب استمرارهم على الفسوق والعصيان ، والخروج عن طريق الله تعالى.

١٦٦- فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ .

أى : فلما تمردوا على أوامره واستمرت مخالفتهم لله ، ومفارقتهم لما نهو عنه ؛ غضب الله عليهم ومسخهم قردة ذليلة صاغرة .

وجمهور المفسرين : أن المسخ هنا حقيقى لمخالفتهم الأوامر وتماديهم فى العصيان ، لا لمجرد اصطياد الحيتان ، وهل هذه القردة من نسلهم ، أو هلكوا وانقطع نسلهم ؟ لا دلالة فى الآية عليه .

وذكرت روايات فى التفسير : أنهم مسخوا قردة ثم ماتوا بعد ثلاثة أيام .

ومن العلماء من يرى أن ذلك من باب التمثيل ، فكأن الله تعالى قال لهم : كونوا مثل القردة فى عدم الفهم والإدراك وسوء تقدير العواقب .

تنبيهات

١ - أفادت الآية أن الله تعالى نجّى الواعظين الذين نهوا عن السوء ، وأهلك المعتدين .

وسكتت الآية عن الفرقة الثالثة الذين لاموا الواعظين ، ومن المفسرين من ذهب إلى أنهم هلكوا مع الهالكين.

والراجح أنهم نجوا مع الناجين .

فالمعتدون : استحقوا العذاب الشديد والمسخ .

والناصحون : استحقوا النجاة .

وأصحاب الموقف السلبى ، كان موقفهم أقلَّ منزلة ممن جهر بالنصيحة فسكت عنهم القرآن ؛ لأنهم لا يستحقون مدحًا ، ولا يستحقون قدحًا ، فقد أنكروا بقلوبهم واعتزلوا قومهم ، فسكت عنهم القرآن ، والراجح نجاتهم .

٢ – الإخبار بالقصة علامة لصدق النبى ﷺ إذ أطلعه الله تعالى على تلك الأمور من غير تعلم منه .

٣ – إبطال الحيل الممنوعة المؤدية لتعطيل شرع الله ، وهدم مبادئه ، وتجاوز أحكامه ، ومخالفة أوامره .

٤ – قال مجاهد: أصبحوا كالقردة فى سوء الطباع والطيش والشر ، والإفساد بسبب جنايتهم ، وقال جمهور المفسرين : مسخوا قردة على الحقيقة .

٥ – جاء فى تفسير القاسمى ما يأتى:

قال الإمام ابن القيم فى «إغاثة اللهفان» :

ومن مكايد الشيطان وأهله ، الحيل والمكر والخداع ، الذى يتضمن تحليل ما حرم الله ، وإسقاط ما فرضه ، ومضادَّته فى أمره ونهيه ، وهى من الرأى الباطل الذى اتفق السلف على ذمه ...

والحيل نوعان:

نوع يتوصل به إلى فعل ما أمر الله تعالى وترك ما نهى عنه ، والتخلص من الحرام ، وتخليص المظلوم من يد الظالم الباغى فهذا النوع محمود يثاب فاعله ومعلمه .

ونوع يتضمن إسقاط الواجبات ، وتحليل المحرمات ، وقلب المظلوم ظالمًا ، والظالم مظلومًا ، والحق باطلاً والباطل حقًا ، فهذا الذى اتفق السلف على ذمّه .

روى أبو عبد الله بن بطّة عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود ، وتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل»[٤٦] .

★ ★ ★

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ ﴾

المفردات:

تأذن ربك: تأذن بمعنى : آذن أى : أعلم . كتوعد بمعنى أوعد .

من يسومهم: من يذيقهم .

التفسير:

١٦٧– وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ...... الآية .

الحق سبحانه عادل غير ظالم ، بيد أن اليهود تلاعبت بشريعة الله ، وأكلت السمك بالحيلة ، وأكثرت من التحايل على الأوامر والنواهى ، لذلك سلط الله عليهم جماعات متعددة ، فى تاريخهم القديم والحديث :

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ...

الأذان : لغة الإعلام ، ومعنى تَأَذَّنَ رَبُّكَ : أعلم ربك أسلاف اليهود على ألسنة أنبيائهم : لئن غيروا وحرّفوا كلام الله ؛ ليسلطنّ عليهم إلى يوم القيامة من يذيقهم العذاب ، ويلحق بهم الذلّ والصَّغار ، ويفرض عليهم الجزية ويبدّد ملكهم ، حتى يصبحوا أذلة مشردين .

إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ .

أى : إن الله سريع العقاب لمن خالف شرعه ، واستمرأ المعصية ، واطمأن إلى حلم الله .

وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ . لمن تاب وأناب ورجع إلى طاعة الله ، واستغفر وندم ؛ فإن الله يغفر له ، ويرحمه برحمته الواسعة .

فهو سبحانه حكيم ، ينزل عقوبته بالجاحدين المكابرين ، وينزل رحمته بالطائعين التائبين .

وقد تحقق مضمون هذه الآية ، فسلط الله عليهم اليونانيين والكشدانيين ، والكلدانيين والبابليين ثم الروم النصارى ، ثم المسلمين ثم الألمان بقيادة هتلر فى العصر الحديث ، الذى قتلهم وشرّدهم فى البلاد .

وطبيعة اليهود من الظلم والعدوان تغلب عليهم كما حدث فى حرب سنة ١٩٦٧م ، حيث استولوا على مساحات شاسعة من أرض جيرانهم من عرب فلسطين والأردن وسوريا ومصر ، ثم سلط الله عليهم العرب المسلمين بقيادة مصر وسوريا ، فى العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣ هـ ، الموافق ٦ أكتوبر سنة ١٩٧٣م ، فدكُّوا حصونهم ، وحطّموا أسلحتهم ، فى حرب خاطفة ، أذهلت أمم العالم ، وحملتهم على تأييد العرب ضدهم، وذلك مصداق قوله تعالى :

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ

وهذه الآية بمعنى قوله تعالى فى صدر سورة الإسراء : وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ... إلى أن قال تعالى : وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا . (الإسراء: ٤-٨).

ومعنى مَرَّتَيْنِ أى : كرتين . أى: مرة إثر مرة ، فكلما أفسدوا فى الأرض ؛ سلط الله عليهم من ينتقم منهم، وأشهر من سلط عليهم فى المرة الأولى هو بختنصر البابلى المجوسى الذى خرَّب ديارهم وقتل مقاتليهم، وسبى نسائهم وذراريهم ، وضرب الجزية على من بقى منهم ، وقد غزاهم ثلاث مرات الأولى سنة ٦٠٦ ق.م والثانية سنة ٥٩٩ ق. م والثالثة سنة ٥٨٨ ق. م .

أمَّا فسادهم الثانى فكان بعد ميلاد المسيح عليه السلام ، حيث سلط الله عليهم الرومان بقيادة تيطس سنة ٧٠م ، فشردهم وهدم هيكلهم ، وقتل منهم خلقًا كثيرًا ، حتى بلغ عدد القتلى منهم مليون قتيل ، وبلغ عدد الأسرى مائة ألف أسير .

وهذا مجرد اجتهاد فى تفسير أشهر مرتين ، وأشهر من سلط عليهم .

ثم أخبر القرآن أنهم كلما عادوا إلى الإفساد ، أعاد الله عليهم التعذيب والإذلال .

أما وجود اليهود الآن فى فلسطين فهو أمر عارض مؤقت زائل بإذن الله ؛ لثقتنا بوعد الله وكلامه .

وقد روى البخارى فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «لن تقوم الساعة حتى تقاتلوا اليهود فيختبئ أحدهم وراء الحجر ، فيقول الحجر يا عبد الله هذا يهودى ورائى فاقتله» [٤٧] .

والحديث فيه كناية عن كراهية العالم لهم ، حتى الأرض والحجارة ترشد المسلم إلى سبيل النصر على اليهود ، ولعل فى ثورة الحجارة التى استمرت بضع سنين ، ما يحقق بشارة النبى ﷺ لأمته بالنصر على اليهود .

١٦٨ – وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ... الآية .

توعدهم الله تعالى فى الآية السابقة أن يسلط عليهم إلى يوم القيامة – من يسومهم سوء العذاب .

وفى هذه الآية ذكر الحق سبحانه العقاب الثانى : وهو تفريقهم وتمزيقهم جماعات وطوائف وفرقًا فى أنحاء الأرض ، فلا يكاد يخلو منهم قطر من الأقطار ، فيهم الصالح وغير الصالح .

فالصالحون المحسنون منهم هم الذين آمنوا بموسى عليه السلام ، وآمنوا بالأنبياء بعد موسى وآمنوا بمحمد ﷺ وآثروا الآخرة على الدنيا ، مثل أولئك الذين نهوا عن الاعتداء عن السبت ، ومثل عبد الله بن سلام وأصحابه الذين أسلموا .

ومنهم من هو دون ذلك فى الصلاح ، ومنهم الفسقة الفجرة الذين كانوا يقتلون الأنبياء بغير حق ، ومنهم السمّاعون للكذب الأكّالون للسحت ، كالرشا والربا لتبديل أحكام الله ، والقضاء بغير ما أنزل الله ، وفى الجملة : معنى: وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ . أى: منحطُون عن الصلاح ، وهم كفرتهم وفسقتهم .

وَبَلَوْنَاهُم بِٱلْحَسَنَاتِ وَٱلسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

أى : وامتحنّاهم بالنعم المختلفة من مال وخصب وعافية وولد وغير ذلك من الحسنات .

كما امتحناهم بالمحن المتنوعة من الجدب والتشريد ، والقتل والأسر ، وغير ذلك من السيئات التى تسوءهم .

لعلهم يرجعون إلى طاعة ربهم ، ويتوبون عن فعل السيئات ، وينتقلون إلى فعل الحسنات .

★ ★ ★

﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

المفردات :

خلف : المراد بهم هنا : الأولاد ، وأكثر ما يستعمل الخلْف بسكون اللام فى الشر ومنه : سكت أَلْفًا ونطق خَلْفًا . وأكثر ما يستعمل الْخَلَفُ بفتح اللام فى الخير وأصل الخلف بصيغتيه : ما يكون وراء غيره أو بعده .

عرض هذا الأدنى : الْعَرَضُ : ما لا ثبات له ، وفى النهاية : العَرض - بالفتح - متاع الدنيا وحطامها . والمراد بهذا الأدنى : الدنيا . وأشير إليها «بهذا» وهو للمذكر ، على تقدير : هذا الشىءُ الأدنى.

ميثاق الكتاب : المراد بالكتاب : التوراة . وبميثاقه : عهده الوثيق المؤكد .

يمسكون بالكتاب : يتمسكون به .

التفسير :

١٦٩- فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ ٱلْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا ٱلْأَدْنَىٰ ... الآية .

أى : فجاء من بعد الصالحين والطالحين الأولين من بنى إسرائيل ذرية خلفهم ، ورثوا كتاب التوراة عن أسلافهم ، وهم الذين عاصروا النبىَّ - ﷺ - ولكنهم هجروا التوراة ، وآثروا الدنيا ومتاعها وزينتها ، وتفانوا فى جمع حطامها ، لا يبالون حلالاً كان أو حرامًا ، أى : من غير طريق شرعى ، كالسحت والرشوة والمحاباة فى الحكم ، والاتجار فى الدين ، وتحريف الكلم عن مواضعه .

وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ . زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه وأن الله لا يعذبهم على أعمالهم ، ومع هذا فإنهم مقيمون على المعاصى ، مصرُّون على الذنوب ، لا يتورَّعون عن ضم الحرام إلى غيره ، فإن يأتهم عرض آخر من عروض الدنيا مثل الذى أخذوه أولاً بالباطل ، يأخذوه بلهف دون تعفف ، وهم يعلمون أن وعد الله بالمغفرة مخصُوص بالتائبين ، الذين يقلعون عن ذنوبهم .

أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ ٱلْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ .

أى : إن الله تعالى ينكر عليهم صنيعهم هذا ؛ لأنه قد أخذ عليهم العهد والميثاق ، ألا يقولوا على الله إلا الحق ، فكيف يطمعون فى مغفرة ذنوبهم مع إصرارهم عليها ، وتكرر وقوعها منهم ، بدون ندم أو إقلاع وتوبة.

وهذا هو المذكور فى التوراة : من ارتكب ذنبًا عظيمًا ؛ فإنه لا يغفر له إلا بالتوبة ، ومن جملة الميثاق أن يبينوا للناس الحق ولا يكتمونه ، وألا يحرِّفوا الكلم ، وألا يغيروا الشرائع لأجل أخذ الرشوة [٤٨] .

وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ .

أى : والحال أنهم قد درسوا التوراة دراسة تامّة ، فعرفوا ما فيها من تحريم أكل مال الغير بالباطل ، والكذب على الله .

إنها دراسة نظرية لم تتغلغل فى وجدانهم ، ولم تؤثر فى قلوبهم .

وهذا شأن كل منافق عليم اللسان ، يسخِّر علمه ودراسته ومعرفته ، لإلباس الباطل ثوب الحق .

وَٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

إن ثواب الآخرة أبقى ، ونعيم الآخرة أدوم ، فكيف يليق بعاقل أن يبيع الباقى الدائم ، ويشترى الخسيس القليل .

ولو كانت الدنيا من ذهب يفنى ، والآخرة من خزف يبقى ؛ لوجب إيثار ما يبقى على ما يفنى ، فكيف والحال أن الآخرة من ذهب يبقى ، والدنيا من خزف يفنى .

إن عقيدة الإيمان بالآخرة هى التى صنعت الرجال الأبطال ، الذين مارسوا الجهاد فى الميدان ، وفى الفقه والتشريع والقضاء ، وإن إيثار العاجلة هو الذى يوسوس للضعفاء ولذلك يقول القرآن لليهود ، تحريضًا لهم على العودة إلى حكم التوراة :

أَفَلَا تَعْقِلُونَ ، فإن متاع الدنيا قليل ومتاع الآخرة كثير دائم .

١٧٠ – وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَابِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ .

أى : والذين يتمسكون فى أمرهم كله بكتاب الله تعالى ويعملون بما فيه ، ويعتصمون بحبله فى جميع شئونهم ، واهتموا بالصلاة خاصة فأقاموها فى أوقاتها بأركانها وشروطها ؛ إنا لا نضيع أجرهم ، لأنهم قد أصلحوا دينهم ودنياهم ، والله لا يضيع أجر المصلحين .

يقول الأستاذ سيد قطب فى ظلال القرآن :

«إن الصيغة اللفظية يُمَسِّكُونَ ، تصوِّر مدلولا كاملاً ، يكاد يُحسُّ ويرى ، إنها صورة القبض على الكتاب بقوة وجد وصرامة .. الصورة التى يحب الله أن يأخذ بها كتابه وما فيه ، فى غير تعنت ولا تنطع ولا تزمت» .

وجاء فى تفسير أبى السعود ما يأتى :

وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَابِ . أى : يتمسكون فى أمور دينهم ، يقال مسك بالشىء وتمسك به ، قال مجاهد: هم الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه . تمسكوا بالكتاب الذى جاء به موسى عليه السلام، فلم يحرفوه ولم يكتموه ولم يتخذوه مأكلة ، وقال عطاء : هم أمة محمد ﷺ [٤٩] اهـ .

ولعل الأنسب أن يقال :

كل من تمسك بكتاب الله تعالى ، من اليهود أو المسلمين أو غيرهم ، وأقام الصلاة محافظًا على شروطها وآدابها ، مؤمنًا بالله ، صالحًا فى ظاهره وباطنه ، فإن الله يحسن مكافأته ، قال تعالى :

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً . (الكهف : ٣٠) .

من كتب التفسير :

١ – قال الدكتور وهبة الزحيلى فى التفسير المنير ٩ / ١٥٢ ما يأتى :

خص الصلاة بالذكر ، مع أن التمسك بالكتاب شامل لأداء كل عبادة – ومنها إقامة الصلاة – لكنه نص على الصلاة فقال : وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَابِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلاَةَ ، إظهارًا لعلوّ مرتبتها ، وأنها أعظم العبادات بعد الإيمان ، وأنها عماد الدين والفارقة بين الكفر والإيمان .

٢ – وقال القرطبى فى تفسير الآيتين السابقتين :

وهذا الوصف الذى ذمَّ الله تعالى به هؤلاء موجود فينا ، أسند الدارمى أبو محمد عن معاذ بن جبل قال: «سيبلى القرآن فى صدور أقوام كما سيبلى الثوب فيتهافت ، يقرءونه لا يجدون له شهوة ولا لذة ، يلبسون جلود الضأن على قلوب الذئاب ، أعمالهم طمع لا يخالطه خوف ، إن قصَّروا ؛ قالوا : سنبلغ ، وإن أساءوا ؛ قالوا : سيُغفر لنا ؛ إنا لا نشرك بالله شيئًا» .

★ ★ ★

﴿ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾

المفردات :

نتقنا : رفعنا .

ظلة : الظلة : ما أظلك .

بقوة : بجد وعزيمة .

وظنوا : أى : تيقنوا - وكثيرًا ما يستعمل الظن بمعنى التيقن .

التفسير :

١٧١ - وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ... الآية .

تذكر هذه الآية طرفًا من رذائل اليهود ؛ فقد طلبوا من موسى عليه السلام أن يأتيهم بكتاب من عند الله فيه بيان للتشريعات وتوضيح لمعالم الحلال والحرام ، وقد جاءهم موسى بالتوراة مكتوبة فى الألواح، أو بنصائح وتشريعات وآداب ، قال تعالى : وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا . (الأعراف : ١٤٥) .

فلما قرأ عليهم موسى التوراة ، أو لما أخبرهم بالوصايا والتعاليم التى فى الألواح ؛ بادروا نبيهم بأن ما فيها لا يتحملونه ؛ لأنه إصر وحمل ثقيل عليهم لا يطيقونه ، وكان هذا منهم عنادًا ، فحملهم الله على العمل بما فى التوراة ، بأن نتق الجبل فوقهم ورفعه رفعًا حقيقيًّا كأنه ظلة .

قال مجاهد : أخرج الجبل من الأرض ورفع فوقهم كالظلّة ، فقيل لهم : لتؤمنن أو ليقعن عليكم .

وقال قتادة : نزلوا فى أصل جبل مرتفع فوقهم فقال : لتأخُذُنّ أمرى ، أو لأرمينكم به [٥٠] .

والمعنى : واذكر أيها النبى : إذ رفعنا فوقهم جبل الطور [٥١] وأصبح كأنه سقيفة أو سحابة تظلّهم ، لما أبوا أن يتقبلوا التوراة لثقلها .

وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ . وعلموا وتيقنوا أن الجبل سيسقط عليهم ، لأن الجبل لا يثبت فى الفضاء .

خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ .

أى : قلنا لهم فى هذه الحالة المخيفة : خذوا ما أعطيناكم من أحكام الشريعة بجد واجتهاد ، وحزم وعزم على احتمال المشاق والتكاليف .

﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ من الأوامر والنواهى ، وتدارسوا تعاليم التوراة وأحكامها واعملوا بما فيها حتى لا تنسوها ؛ فإن القوة فى أحكام الدين ، والعمل بتشريع الله ، والبعد عن مخالفة الله : يزكىّ النفوس ويطهرها، ويحقق لها الهداية والتقوى ، كما أن التهاون فى احترام الدّين؛ يُغرى النفوس باتباع الشهوات .

قال تعالى : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ . (الشمس ٧ – ١٠)

روى عن ابن عباس وغيره من السلف : أنّهم راجعوا موسى فى فرائض التوراة وشرائعها ، حتى رفع الله الجبل فوق رءوسهم ، فقال لهم موسى : ألا ترون ما يقول ربى عز وجل ؟ لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها، لأرمينكم بهذا ؛ فخرّوا سجدًا ، فرقًا من أن يسقط عليهم – رواه النسائى [٥٢].

وجاء فى ظلال القرآن :

لقد كانوا متقاعسين يومها عن إعطاء الميثاق ، فأعطوه فى ظلّ خارقة هائلة .. ولقد أمروا فى ظل تلك الخارقة القوية ، أن يأخذوا ميثاقهم بقوة وجدّية ، وأن يتمسكوا به فى شدة وصرامة ، وأن يظلوا ذاكرين لما فيه ، لعل قلوبهم تخشع وتتقى ، وتظل موصولة بالله لا تنساه [٥٣].



﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾

المفردات :

من ظهورهم : من أصلابهم .

المبطلون : المتبعون للباطل .

التفسير:

١٧٢- ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾... الآية .

تمهيد :

تأتى هذه الآيات بعد قصة موسى مع قومه ، وحديث عن بنى إسرائيل ، ومن هذه الآية إلى آخر السورة نجد حديثا موضوعه : الربوبية والتوحيد ، والعبودية والشرك ، ويبدأ كل ذلك ببيان ما أودع الله فى فطرة البشر ، وعقولهم ، من الاستعداد للإيمان بالله وتمجيده وشكره .

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ ....

لهذه الآية عند المفسرين طريقان أحدهما لفظى ، والثانى معنوى .

التفسير الأول :

مسح الله ظهر آدم فأخرج منه ذريته كالذّر ، وجعل لهم العقل والنطق وألهمهم ذلك الإقرار ، ثم أعادهم إلى ظهر أبيهم .

قال الشوكانى فى فتح القدير :

إن الله سبحانه لما خلق آدم مسح ظهره ، فاستخرج منه ذريته وأخذ عليهم العهد ، وهؤلاء هم عالم الذر . ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ . أى : أشهد كل واحد منهم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ . أى : قائلاً : ألست بربكم ؟ .

﴿قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ . أى : على أنفسنا بأنك ربنا .

التفسير الثانى :

الكلام على سبيل المجاز التمثيلى لكون الناس قد فطرهم الله تعالى على معرفته ،والإيمان به ، وجعلهم مستعدّين جميعًا للنظر المؤدى إلى الاعتراف بوحدانيته ، ولا إخراج للذرية ، ولا قول ولا إشهاد بالفعل ، بل الأمر تعبير عما أودع الله فى الفطرة الإنسانية من ركائز الإيمان .

قال الزمخشرى فى تفسير الكشاف :

وقوله : ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ من باب التمثيل :

ومعنى ذلك : أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التى

ركبها فيهم ، وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقررهم ، وقال : أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ وكأنهم قَالُواْ بَلَىٰ أنت ربنا شَهِدْنَآ على أنفسنا ، وأقررنا بوحدانيتك ، وباب التمثيل واسع فى كلام الله تعالى، وفى كلام رسوله ﷺ ، وفى كلام العرب ، ونظيره قوله تعالى : إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ وقوله تعالى : فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ .

وقوله :

إذ قالت الأنساع للبطن الحق قالت له ريح الصبا فرقار [٥٤]

ومعلوم أنه لا قول ثمّ وإنما هو تمثيل وتصوير للمعنى .

وقد أيد كل فريق رأيه بأدلة متعددة :

فأصحاب الرأى الأول : أيدوا رأيهم بأحاديث واردة فى الصحيحين كما فى تفسير أبى السعود وغيره:

جاء فى تفسير أبى السعود :

«وقد حملت هذه المقاولة على الحقيقة ، كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما من أنه لما خلق الله تعالى آدم عليه السلام، مسح ظهره فأخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة ، فقال ألست بربكم؟ قالوا بلى : فنُودى يومئذ : جف القلم لما هو كائن إلى يوم القيامة [٥٥] .

ابن كثير جمع بين التفسيرين :

ابن كثير لم ير أن أيا من التفسيرين يعارض الآخر ، من حيث المبدإ ، فقد جبل الله الفطرة على التوحيد، كما استخرج ذرية آدم من ظهورهم وأشهدهم على أنفسهم .

جاء فى تفسير ابن كثير :

يخبر الله تعالى أنه استخرج ذرية بنى آدم من أصلابهم ، شاهدين على أنفسهم أن الله ربّهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو ، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه .

قال تعالى : فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ . (الروم : ٣٠)

وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :

قال رسول الله ﷺ : «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصّرانه ويمجّسانه ، كما تولد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ؟!» [٥٦]

وفى رواية : «كل مولود يولد على هذه الملّة» .

وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمّار قال : قال رسول الله ﷺ : «يقول الله تعالى : إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم ، وحرّمت عليهم ما حللت لهم» (٥٧) .

وقد وردت أحاديث فى أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام ، وتمييزهم إلى أصحاب اليمين ، وأصحاب الشمال ، وفى بعضها الاستشهاد عليهم بأن الله ربهم .

روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبىّ ﷺ قال : «يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شىء أكنت مفتديا به ؟ قال : فيقول : نعم ، فيقول : قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذت عليك فى ظهر آدم أن لا تشرك بى شيئًا فأبيت إلا أن تشرك بى»(٥٨) . أخرجاه فى الصحيحين.

وروى الإمام أحمد أيضًا عن مسلم بن يسار الجهنىّ أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ ... الآية .

قال عمر بن الخطاب : سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها فقال : «إن الله خلق آدم عليه السلام ، ثم مسح ظهره بيمينه ، فاستخرج منه ذرية ، قال خلقت هؤلاء للجنة ، وبعمل أهل الجنة يعملون .. ثم مسح ظهره ، فاستخرج منه ذرية، قال: خلقت هؤلاء للنار ، وبعمل أهل النار يعملون . فقال رجل : يا رسول الله، ففيم العمل؟! قال رسول الله ﷺ : إذا خلق الله العبد للجنة ، استعمله بأعمال أهل الجنة ، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة ، فيدخله به الجنة ، وإذا خلق الله العبد للنار استعمله بأعمال أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار ، فيدخله به النار» (٥٩). وهكذا رواه أبو داود والنسائى والترمذى وقال : هذا حديث حسن .

وقال الإمام ابن القيم فى كتاب الروح ما خلاصته :

إن الله سبحانه استخرج صور البشر وأمثالهم ، فميّز : شقيهم وسعيدهم ، ومعافاهم من مبتلاهم ، والآثار متظاهرة به مرفوعة ، وإن الله أقام عليهم الحجة حينئذ وأشهدهم بربوبيته ، واستشهد عليهم ملائكته ، كما تدل على ذلك الآية .

قال أبو إسحاق : جائز أن يكون الله سبحانه جعل لأمثال الذر التى أخرجها فهما تعقل به ، كما قال: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ﴾ . (النمل : ١٨) وقد سخر مع داود الجبال تسبح معه والطير ، وقال ابن الأنبارى : مذهب أهل الحديث وكبراء العلم فى هذه الآية: أن الله أخرج ذرية آدم من صلبه وأصلاب أولاده وهم فى صورة الذرّ فأخذ عليهم الميثاق أنه خالقهم وأنهم مصنوعون له ، فاعترفوا بذلك وقبلوا .

وذلك بعد أن ركّب فيهم عقولاً عرفوا بها ما عرض عليهم كما جعل للجبل عقلاً حين خوطب ، وكما فعل بالبعير لما سجد ، وبالنخلة حتى سمعت وانقادت حين دُعيت [٦٠] اهـ .

وقد نقل الإمام ابن كثير طائفة كبيرة من الأحاديث النبوية فى تفسير الآية وما يتصل بها ، ثم قال: «ومن ثمّ قال قائلون من السلف والخلف : إن المراد بهذا الإشهاد : إنما هو فطرهم على التوحيد كما تقدم فى الأحاديث النبوية الشريفة وقد فسر الحسن الآية بذلك» [٦١] اهـ .

ومجمل معنى الآية :

إن الله تعالى نصب للناس فى كل شىء من مخلوقاته – ومنها أنفسهم – دلائل توحيده وربوبيته ، وركز فيهم عقولاً وبصائر ، يتمكنون بها تمكنًا تامًا من معرفته ، والاستدلال بها على التوحيد والربوبية ، حتى صاروا بمنزلة من إذا دُعى إلى الإيمان بها ؛ سارع إليه .

وقال الأستاذ عبد الكريم الخطيب :

ليس بعجيب أن يكون بيننا وبين الله هذا الموقف ، الذى شهدته أرواحنا ، ولم تشهده أجسامنا .. كما شهدته المخلوقات جميعًا من حى وغير حى ، كما قالت السماوات والأرض أَتَيْنَا طَائِعِينَ .

وهذه الشهادة إقرار سابق بولائنا جميعًا لله وإيماننا بوحدانيته .

وإن من شأن هذا الإقرار أن يقيم وجوهنا إلى الله بعد أن نلبس هذه الأجساد التى نعيش فيها .

فهذا الإقرار رصيد من الإيمان نستقبل به الحياة ، ونتلاقى به على طريق الإيمان مع دعوة العقل الذى أوجده الله فينا ، ومع دعوة الرسل الذين أرسلهم الله إلينا .

أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ .

أى : ليقطع عليكم العذر أن تقولوا يوم القيامة : إنا كنا عن الإيمان بالله والتعرف عليه غافلين ، فذلك عذر غير مقبول .. إذ كيف تغفلون وفيكم داع يدعوكم إلى الإيمان بالله ، وهى تلك الفطرة التى أشهدها الله عليكم .

وقد نصب الله لكم فى كل شىء وفى مخلوقاته ما يدل على وحدانيته ، وأرسل لكم الرسل مبشرين ومنذرين : لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ . (النساء : ١٦٥) .

فقد بطل عذركم وسقطت حجتكم ، ثم بين سبحانه سببًا آخر لهذا الإشهاد فقال :

١٧٣ - أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ ... الآية .

أى : فعلنا ذلك ؛ حتى لا تعتذروا بأن تقولوا : إنما أشرك آباؤنا من قبلنا ، وكنا ذرية لهم من بعد شركهم، فأشركنا بشركهم ، ونشأنا نقتدى بهم - كما قالوا - إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ. (الزخرف : ٢٣) .

أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ .

أى : أتؤاخذنا بما فعل المشركون من آبائنا ، والذنب ذنبهم ، وتجعل عذابنا مثل عذابهم ، مع قيام عذرنا بتقليدنا لهم ، وحسن الظن بهم ؟!

ولكن هذا الاعتذار لا يجديهم .

إذ التقليد بعد قيام الدلائل والقدرة على الاستدلال بها ، مما لا يركن إليه عاقل ، إذ كنتم ومعكم فطرتكم ، وكنتم ومعكم عقولكم ، ثم كنتم ومعكم دعوة الرسل الذين يدعونكم إلى الله .

فإذا أهلككم الله فإنما يهلككم بأفعالكم لا بأفعال آبائكم .

١٧٤ - وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

أى : ومثل هذا البيان البليغ الواضح ، نبين الآيات ونوضحها ، ونكشف للناس عن ذخائر الإيمان المطموسة فى كيانهم ، والتى أهملوها ، وغفلوا عنها .

وذلك لعلهم يرجعون إلى أنفسهم ، ويحسنون الانتفاع بتلك القوى ، التى أودعها الله فيهم ، فيكون لهم إلى الله عودة من قريب ، أو لعلهم يرجعون عن جهلهم ، وتقليد آبائهم وأجدادهم ، ويعودون إلى الرشد والهداية الصحيحة .

★ ★ ★

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) ﴾

المفردات :

واتل عليهم : واقرأ عليهم .

نبأ : خبر .

فانسلخ منها : فخرج منها وتركها .

فاتبعه الشيطان : أدركه وتمكن من الوسوسة له .

الغاوين : المبعدين فى الضلال .

أخلد إلى الأرض : مال وسقط .

يلهث : اللهث : التنفس الشديد مع إخراج اللسان .

ساء : كلمة ذمٍّ مثل بئس ومعناها : قبح .

التفسير:

١٧٥- وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا ... الآية .

أى : واتل على اليهود ذلك النبأ العجيب ، نبأ ذلك الذى آتيناه حجج التوحيد ، وأفهمناه أدلته حتى صار عالمًا بها ، فانسلخ منها وتركها وراء ظهره ، ولم يلتفت إليها ليهتدى بها .

فَانسَلَخَ مِنْهَا .

أى : انخلع منها بالكلية ، بأن كفر بها ونبذها وراءه ظهريا ، ولم ينتفع بما اشتملت عليه من عظات وإرشادات .

وفى التعبير بالانسلاخ إيماء إلى أنه كان متمكنًا منها ظاهرًا لا باطنًا ، كالحية حين تنسلخ عن جلدها وتتركه وتمضى .

فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَانُ .

أى : لحقه فأدركه وصار قرينًا له يوسوس له بالشر ، أو صار هذا العالم الضال إمامًا للشيطان حتى إن الشيطان يتبع خطواته ، وهى مبالغة تبين مدى الضلال والشر والعتوّ ، على حدّ قول الشاعر :

وكان فتى من جند إبليس فارتقى		به الحال حتى صار إبليسُ من جنده

فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ . أى : فصار من الضالين المفسدين .

والخلاصة : أنه أوتى الهدى فانسلخ منه إلى الضلال ، ومال إلى الدنيا فتلاعب به الشيطان ، وكانت عاقبته البوار ، والخذلان ، وخاب فى الآخرة والأولى .

جاء فى تفسير المنار للسيد رشيد رضا :

هذا مثل ضربه الله تعالى ، للمكذبين بآيات الله ، المنزلة على رسوله محمد – ﷺ – وهو مثل من آتاه الله آياته فكان عالمًا بها ، حافظًا لقواعدها وأحكامها ، قادرًا على بيانها والجدل بها ، ولكنه لم يؤت العمل مع العلم ، بل كان عمله مخالفًا تمام المخالفة لعلمه ، فسلب هذه الآيات ؛ لأن العلم الذى لايعمل به، لا يلبث أن يزول، فأشبه الحية التى تنسلخ من جلدها، وتخرج منه وتتركه على الأرض، على حد قول الشاعر:

خُلقوا ، وما خُلقوا لمكرمة		فكأنهم خلقوا وما خُلقوا
رزقوا ، وما رزقوا سماح يد		فكأنهم رزقوا وما رزقوا

١٧٦ – **وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ** ... الآية .

أى : ولو شئنا لرفعنا هذا الإنسان إلى منازل الأبرار ، بسبب تلك الآيات ، فالعمل بالعلم يرفع القدر ويُعلى شأن صاحبه ، قال تعالى : **يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ** . (المجادلة : ١١) .

ولكنه مال إلى الدنيا ورغب فيها وآثرها على الآخرة والتعبير بقوله : **أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ** يفيد : أنه رغب فى لذائذ الأرض الفانية ، وترك آفاق العلم والمعرفة ، واختار الأدنى على الأعلى .

فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث .

أى : إن صفته فى حمل العلم والانسلاخ منه إلى شهوات الدنيا ، كصفة الكلب الذى يندلع لسانه ، فهو دائم اللهث لأن اللهث ؛ طبيعة فيه ، إن شددت عليه وأتبعته لهث ، وإن تركته لهث .

قال الشوكانى :

أى : إن هذا العالم الضالّ إن حمل الحكمة لم يحملها ، وإن تُرك لم يهتد لخير .

وقيل : المعنى : إن وعظته ضلّ ، وإن تركته ضلّ ، فهو فى ضلال ملازم لانسلاخه عن ربّه ، فهو كالكلب إذ كان رابضًا لهث ، وإن يطرد لهث .

ذَٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا .

أى : ذلك المثل الخسيس مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا من اليهود وغيرهم ، بعد أن علموا بها وعرفوها ، فحرّفوا وبدّلوا وكذبوا بها .

فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ .

أى : فاقصص أيها الرسول الكريم ، قصص ذلك الرجل ، الذى تشبه حاله حال أولئك المكذبين ، بما جئت به من الآيات رجاء أن يحملهم ذلك على التفكر والتأمل ، والنظر فى الآيات بعين البصيرة ، لا بعين الهوى والعداوة .

١٧٧ - سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ... الآية .

أى : قبح مثلاً حال المكذبين لآياتنا ، التاركين لها ؛ عنادًا واستكبارًا .

وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ .

أى : ما ظلموا بالتكذيب إلاّ أنفسهم دون غيرهم ، حيث عرضوا أنفسهم للعذاب ، بسبب ما اختاروا من التكذيب والعصيان ، والمراد من هذه الآية : المبالغة فى ذمّ هؤلاء الذين جمعوا بين التكذيب بالآيات ، وظلم أنفسهم بالمعاصى .

فى أعقاب الآيات :

لم يعين القرآن الكريم اسم من ضُرب به المثل ولا جنسه ولا وطنه ، ولا جاء فى السنة الصحيحة شىء من ذلك ولرواة التفسير بالمأثور روايات كثيرة فى شأنه .

جاء في فتح القدير للشوكاني :

عن ابن عباس قال : هو رجل من مدينة الجبَّارين يقال له : بلْعم ، تعلَّم اسم الله الأكبر ، فلما نزل بهم موسى أتاه بنو عمِّه وقومه ، فقالوا : إن موسى رجل حديد ، ومعه جنود كثيرة ، وإنه إن يظهر علينا يهلكنا فادع الله أن يرد عنا موسى ومن معه ، قال : إنِّى إن دعوت الله أن يردَّ موسى ومن معه ، مضت دنياى وآخرتى، فلم يزالوا به حتى دعا الله فسلخ ما كان فيه ، وقيل : هو أحد علماء بنى إسرائيل .

وكانت الأنصار تقول : هو ابن الراهب الذى بُنى له مسجد الشقاق .

وقيل : هو أمية بن أبى الصلت ، كان قد قرأ الكتب ورأى قرب ظهور نبى ، فتوقع أن يكون هو ، فلما بُعث النبى ﷺ يئس ، ولم يؤمن بالرسول ﷺ ؛ حقدًا وحسدًا ، فأنزل الله فيه هذه الآيات ، والله أعلم .

وقد روى عن أمية بن أبى الصلت أنه كان يجلس بجوار الكعبة متحنثًا ويقول :

مجِّدوا الله وهو للحمد أهل ربنا فى السماء أمسى كبيرًا

ويقول أيضًا :

الحمد لله ممسانا ومصبحنا بالخير صبحنا ربِّى ومسانا

فلما ظهر النبى تلكأ فى الإيمان به ؛ حقدًا وحسدًا ، ولما اقترب موت أمية قال :

إن تغفر اللهم تغفر جمًّا وأى عبد لك لا ألمَّا

وقد ذهب الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى تفسير الآية : إلى أن أقرب رجل تشير إليه الآية هو «الوليد ابن المغيرة» الذى أوفدته قريش إلى النبى ﷺ ليعرض عليه المال أو الملك أو الرئاسة ، فلما انتهى فى عرضه قرأ النبى ﷺ الآيات الأولى من سورة فصِّلت ، فلما سمع الوليد القرآن ؛ خشع وضرع ، وقال لأهل مكة : لقد سمعت من محمد آنفًا كلامًا ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة ، وإنَّ أعلاه لمثمر ، وإنَّ أسفله لمغدق ، وإن فرعه لجناه ، وما يقول هذا بشر .

فقول له أهل مكة : سحرك محمد ، وهيَّجوه حتى عدل عن إيمانه ، وادعى أن محمدا ساحر .

وفيه نزل قوله تعالى : إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ . (المدثر : ١٨ - ٣٠) .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب :

إن أحدًا من المفسرين لم يقل بهذا القول ، ولا أشار إليه ، وساق الأستاذ عبد الكريم الخطيب عددًا من الأدلة ترجح فى رأيه أن المشار إليه فى قوله تعالى : وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ . هو الوليد بن المغيرة .

ولستُ فى المؤيدين للأستاذ الفاضل المرحوم عبد الكريم الخطيب ؛ لأن تحديد الأشخاص التى أبهمها القرآن يعتمد على النقل لا على العقل ، وهذا موضوع لا مجال فيه للاجتهاد ، فإمّا أن نعتمد على الروايات الواردة فى تعيين هذا الشخص أو نقول : هو نموذج عام لكل عالم ينسلخ من رداء العلم ويؤثر العاجلة على الآجلة .



﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾

المفردات :

ذرأنا : خلقنا .

لا يفقهون : لا يفهمون ولا يدركون .

الغافلون : التاركون لما ينفعهم الساهون عنه .

التفسير :

١٧٨ - مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ ... الآية .

معنى هذه الآية مستفاد من معنى الآيات السابقة فى قصة الذى آتاه الله الآيات فتركها ؛ عنادًا واستكبارًا ومضمون الآية ما يأتى :

من يوفقه الله للإيمان والخير واتباع الشرع والقرآن ، باستعمال عقله وحواسه ، فهو المهتدى حقًا لا سواه ، ومن يخذله ولا يوفقه ، ولا يهديه إلى الخير واتباع القرآن بسبب تعطيل عقله وحواسه فى فهم آياته الكونية والشرعية ، فهو الخاسر البعيد عن الهدى ، الذى خسر الدنيا والآخرة .

وبما أن الهداية الإلهية نوع واحد والضلالة أنواع متعددة أفرد الله المهتدى ، وجمع الخاسرين ، فقال: فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ثم قال : فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ ٱلْخَاسِرُونَ .

جاء فى تفسير المنار للسيد رشيد رضا ما يأتى :

وحكمة إفراد الأوّل : الإشارة إلى أن الحق المراد من الهداية الإلهية : نوع واحد ، وهو الإيمان المثمر للعمل الصالح .

وحكمة جمع الثانى : الإشارة إلى تعدد أنواع الضلال كما تقدم بيانه مفصلاً فى تفسير قوله تعالى : فى سورة الأنعام : وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سبيله . (الأنعام : ١٥٣) . وتفسير قوله تعالى فى سورة البقرة : ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى ٱلنُّورِ [٦٢] ... الآية (البقرة : ٢٥٧).

١٧٩ – وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ... الآية .

خلق الله الإنسان بقدرته ، وأودع فيه وسائل الهدى وعوامل التبصر ، وأكرمه بالإرادة والاختيار .

قال تعالى : إِنَّا هَدَيْنَاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا .

أى : بينّا له الطريق وأوضحنا له الصراط المستقيم ، فمن الناس من اختار الضلالة ، وغلب عليه الهوى ، قال تعالى : وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سبيله . (الأنعام : ١٥٣) .

وآيات القرآن فى هذا الموضوع كثيرة جدًا ، منها المحكم ومنها المتشابه ، والمؤمن مطالب بالإيمان بالمحكم ، والتفويض إلى الله فى المتشابه .

ومما أحكمه القرآن وبيّنه ، عدالة الله الحكيم العليم، فهو سبحانه قد بيّن للناس طريق الخير وطريق الشر ، ووضّح أسباب الهدى والضلالة ، وأنزل الكتب وأرسل الرسل ، وأودع فى الإنسان العقل والإدراك والضمير ، ومن الناس من يستخدم بصره وبصيرته فى التأمل والهدى فيعينه الله ويوفقه ، ومن الناس من يؤثر العاجلة على الآجلة ، ويهمل ضميره ، ويغلق بصره وبصيرته ، ويغرق فى الشهوات ، ويصمّ أذنه عن دواعى الهدى ، وهذا هو الذى يسلبُ الله عنه هداه وتوفيقه ، فتراه أصمّ لا يسمع بسمع قلبه وضميره ، أعمى لا يبصر ببصر قلبه وهداية ضميره .

هذا المعنى تكرر كثيرًا فى القرآن الكريم مثل قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ * أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ . (يونس : ٧ - ٩) .

وقد نقل السيد رشيد رضا فى تفسير المنار كلامًا نفيسًا عن تفسير روح المعانى ، ثم قال السيد رشيد رضا ما يأتى :

والاحتجاج بالآية على الجبر غفلة وجهل ، بل هى كسائر الآيات الدالة على نوط الجزاء بالعمل .

ومعناها : أن هؤلاء المكلَّفين من الجن والإنس ، قد تركوا استعمال عقولهم ومشاعرهم الباطنة والظاهرة فى علم الهدى ، الذى يترتب عليه الأعمال المزكية للنفس ، فكانوا بذلك أهل جهنم ، وليس فيها أنه تعالى ذرأهم لجهنم لذواتهم ، فإن ذوات الجنسين كلها متشابهة ، ولم يقل : إنه خلقهم عاجزين عن استعمال تلك القوى فى أسباب الهدى ، بل قال : إنهم لم يستعملوها فى ذلك .

قال تعالى : وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ . (الملك : ٩ ، ١٠) .

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا .

أى : والله لقد خلقنا خلقا كثيرًا من الجن والإنس ، مستعدين لعمل يستحق صاحبه دخول جهنم .

وأسباب استحقاقهم دخول جهنم ، هى أنهم لا يستعملون عقولهم استعمالاً صحيحًا للوصول إلى حقيقة الإيمان ، وإدراك لذة السعادة الدنيوية والأخروية ، وأن الخير فيما أمر الله به ، وأن الشرَّ فيما نهى الله عنه

قال ابن الجوزى فى زاد المسير فى علم التفسير :

لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا . لما أعرض القوم عن الحق والتفكّر فيه ، كانوا بمنزلة من لم يفقه ولم يبصر ولم يسمع .

وقال محمد بن القاسم النحوى : أراد بهذا أمر الآخرة ، فإنهم يعقلون أمر الدنيا . اهـ .

كما قال تعالى : يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ . (الروم : ٧) فهم بمنزلة من لا يفقه؛ لأنهم لا ينتفعون بقلوبهم الواعية ، ولا يعقلون ثوابًا ولا يخافون عقابًا .

وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ .

إنهم لم يستخدموا عقولهم فى فهم الحجج والآيات التى أنزلها الله إليهم ، وهم أيضًا لا ينظرون بأعينهم نظر تبصر واعتبار وإمعان ، فى آيات الله الكونية ، وآياته القرآنية التى ترشدهم إلى ما فيه سعادتهم ، ولا يسمعون بآذانهم سماع تدبر وإصغاء : آيات الله المنزلة على أنبيائه ، ولا يسمعون أخبار التاريخ والأمم الغابرة ، وكيف كان مصيرهم بسبب إعراضهم عن هداية الله وإرشاد الرسل .

وليس الغرض من نفى السمع والبصر ، نفى الإدراكات عن حواسهم ، وإنما المقصود : بيان حجبها عن أبصار الهدى وسماع المواعظ . وقد يكون الإنسان سليم البصر ، لكنه أعمى البصيرة .

قال تعالى : أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ . (الجاثية : ٢٣) .

وقديمًا قال الشاعر العربى :

وإذا كان القلب أعمى عن الرشد فماذا تفيده العينان

أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ .

أى : أولئك الموصوفون بما ذكر من تعطيل عقولهم ، وحواسِّهم كالأنعام : (البقر والإبل والغنم) ، لا همَّ لهم إلا الأكل والشرب والتمتع بملذات الحياة الدنيا ، بل هم أضل سبيلاً منها ؛ لأن الأنعام تحرص على ما ينفعها ، وتنفر مما يضرها ، ولا تسرف فى أكلها وشربها ، وهؤلاء يقدمون على النار معاندة ، وهم مسرفون فى جميع اللذات ، ولا يهتدون إلى ثواب .

ولا قدرة للحيوانات على تحصيل الفضائل ، وأمَّا الإنسان فأعطى القدرة على تحصيلها ، أولئك هم كاملو الغفلة عن آيات الله ، وعن استعمال مشاعرهم وعقولهم ، فيما خلقت من أجله ، وهو الاستفادة من المسموعات والانتفاع من المبصرات و لقد غفلوا عن التدبر ، وأعرضوا عن الآخرة .

أما العقلاء الفطنون منهم ، الذين عملوا للدنيا والآخرة ، كما قال تعالى : وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ . (القصص : ٧٧)

قال النسفى : كيف يستوى المكلَّف المأمور والمخلى المعذور ، فالآدمى روحانى شهوانى ، سماوى أرضى ، فإن غلب روحه هواه ؛ فاق ملائكة السماء ، وإن غلب هواه روحه ؛ فاقته بهائم الأرض .

★ ★ ★

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾

التفسير:

١٨٠- وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ...

أى : ولله دون غيره ، جميع الأسماء الدالة على أحسن المعانى ، وأكمل الصفات ، فاذكروه ونادوه بها؛ إمّا للثناء عليه ، نحو ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ، وإما لدى السؤال وطلب الحاجات مثل : «يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث ، أصلح لى شأنى كله ، ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين» [٦٣] .

وذِكرُ الله تعالى دواء للنفوس ، وشفاء لقسوة القلوب ، قال تعالى: أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ . (الرعد : ٢٨).

وروى البخارى ومسلم والترمذى والنسائى أن رسول الله ﷺ قال : «من نزل به غمّ أو كرب أو أمر مهمٌّ فليقل : لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السماوات والأرض ورب العرش الكريم» .

مختصر من تفسير الشوكانى

وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ، أى : لله أحسن الأسماء لدلالتها على أحسن مسمًّى وأشرف مدلول من الرحمة والقدرة والعلم والحكمة والخبرة والعزة وغيرها .

فَٱدْعُوهُ بِهَا . قائلين : يا رحمن يا حليم يا عليم ، فإنه إذا دُعى بأحسن أسمائه ؛ كان ذلك من أسباب الإجابة .

وَذَرُوا ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ . أى : يحرّفون لفظها أو معناها والإلحاد فى أسمائه يكون على ثلاثة أوجه : إما بالتغيير كما فعله المشركون فإنهم أخذوا اسم اللات من الله ، والعزّى من العزيز ، ومناة من المنان ، أو بالزيادة عليها بأن يخترعوا أسماء من عندهم لم يأذن الله بها ، أو بالنقصان منها بأن ينكروا بعضها .

قيل : نزلت فى رجل من المسلمين ، كان يقول فى صلاته : يا رحمن يا رحيم ، فقال رجل من المشركين أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون ربًا واحدًا فما بال هذا يدعو ربين اثنين ؟!

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إن لله تسعة وتسعين اسما : مائة إلا واحدا ، من أحصاها؛ دخل الجنة إنه وتر يحب الوتر» [٦٤] اهـ . رواه الشيخان .

قال الآلوسى فى تفسير الآية :

والذى أراه أنه لا حصر لأسمائه - عزّت أسماؤه - فى التسعة والتسعين ، ويدل على ذلك ما أخرجه البيهقى عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «من أصابه همٌّ أو حزن فليقل : اللهم إنى عبدك وابن عبدك وابن أمتك ، ناصيتى بيدك ماض فىّ حكمك ، عدل فىّ قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحدا من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وذهاب همّى وجلاء حزنى ...» [٦٥] ، فهذا الحديث صريح فى عدم الحصر .

وحكى النووى اتفاق العلماء على ذلك ، وأن المقصود من الحديث : الإخبار بأن هذه التسعة والتسعين، من أحصاها ؛ دخل الجنة ، وهو لا يتنافى أن له تعالى أسماء غيرها [٦٦] .

وخلاصة المعنى :

لله أحسن الأسماء ، الدالة على أحسن المعانى ، فادعوه بها ، واتركوا الذين يسمُّونه بأسماء لا تناسب العظمة الإلهية ، اتركوا هؤلاء فإنهم سيلقون جزاء عملهم من الله رب العالمين .

من كتاب التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلى :

أسماء الله توقيفية ، فلا يسمى باسم لم يرد فى القرآن والسنة ، كالرفيق والسخى والعاقل ...

وأسماء الله تعالى يجوز إطلاقها كلها على غير الله تعالى ، ما عدا اسمى الله والرحمن .

وهذه الأسماء ومنها ما يمكن ذكره وحده ، مثل يا الله ، يا رحمن ، يا حكيم . ومنها ما لا يجوز إفراده بالذكر ، بل يجب أن يقال : يا محيى يا مميت ، يا ضار يا نافع .

وقد أورد ابن العربى مائة وستة وأربعين اسمًا من أسماء الله تعالى للتضرع والابتهال ، وذكر فى موضع آخر زيادة ثلاثين اسمًا [٦٧] فصار المجموع : مائة وستة وسبعين ، مثل : الطيِّب ، والمعلِّم ، والجميل وهو الذى لا يشبهه شىء .

وجاء فى تفسير المنار : إحصاء بما ورد فى القرآن الكريم من أسماء الله الحسنى ، واستغرق تفسير هذه الآية خمس عشرة صفحة فيها نقول مفيدة لمن أراد الرجوع إليها .

★ ★ ★

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ ﴾

التفسير:

١٨١- وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ...

مناسبة الآيــة :

أخبر الله تعالى فى الآية السابقة أنه خلق لجهنم كثيرًا من الجن والإنس ؛ لأنهم أهملوا طاقات المعرفة لديهم من العقل والحواس .

ثم ذكر هنا انقسام من وصلتهم الدعوة المحمدية إلى فريقين : فريق المهتدين الذين يقضون بالحق والعدل ، وفريق المكذبين الضالين .

معنى الآيــة :

من بعض الأمم التى خلقها الله جماعة تمسكوا بالحق وعملوا به ، ودعوا الناس إلى اتباعه والتزام طريقه ، فكانوا كاملين فى أنفسهم مكملين لغيرهم .

وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ .

أى : يقضون بالعدل دون ميل أو جور ، وهم أمة محمد ﷺ ، بدليل ما ورد فى الأحاديث الصحيحة ، فى تأييد ذلك ، منها ما رواه الشيخان فى الصحيحين عن معاوية بن أبي سفيان قال : قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ، ولا من خالفهم ، حتى يأتى أمر الله ، وهم على ذلك» [٦٨] .

من زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى :

وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ . أى : يعملون به وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ . أى : وبالعمل به يعدلون ، وفيمن أريد بهذه الآية أربعة أقوال :

أحدها : أنهم المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان من هذه الأمــة ، قــاله ابن عباس ، وكـان ابن جريج يقول : ذكر لنا أن النبى ﷺ قال :

«هذه أمتى بالحق يأخذون ويعطون ويقضون» [٦٩] .

وقال قتادة: بلغنا أن النبى ﷺ كان إذا تلا هذه الآية قال : «هذه لكم وقد أعطى القوم مثلها» (٧٠) .

ثم يقرأ : وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ . (الأعراف : ١٥٩) .

والثانى : أنهم من جميع الخلق ، قاله ابن السائب .

والثالث : أنهم الأنبياء .

والرابع : أنهم العلماء ، ذكر القولين الماوردى .

١٨٢ - وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ .

أى : والذين كذبوا بالقرآن وهم أهل مكة ، نتركهم فى ضلالهم ، ونستدرجهم إلى العذاب من حيث لا يعلمون ما يراد بهم ، ونقربهم إلى ما يهلكهم ، بإمدادهم بالنعم ، وفتح أبواب الرزق والخير ، وتيسير سبل المعاش ، كلما ارتكبوا ذنبًا أو فعلوا جرمًا ، فيزدادون بطرًا وانغماسًا فى الفساد (٧١) .

من زاد المسير لابن الجوزى :

قوله تعالى : سَنَسْتَدْرِجُهُم قال الخليل بن أحمد : سنطوى أعمارهم فى اغترار منهم .

وقال اليزيدى : الاستدراج : أن يأتيه من حيث لا يعلم .

وقال الأزهرى : سنأخذهم قليلاً قليلاً من حيث لا يحتسبون ، وذلك أن الله تعالى يفتح عليهم من النّعم ما يغبطهم به ، ويركنون إليه ، ثم يأخذهم على غرّتهم أغفل ما يكونون .

قال الضحاك : كلما جددوا لنا معصية ؛ جددنا لهم نعمة ا هـ .

وقد روى الشيخان عن أبى موسى : «إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» (٧٢) .

وقال تعالى : فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۞ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (الأنعام : ٤٤ ، ٤٥) .

وقال عز شأنه : أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۞ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَاتِ بَل لاَّ يَشْعُرُونَ . (المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦).

وقد تحقق ذلك بكفّار قريش الذين هُزموا فى بدر والخندق وفتح مكة وغيرها من المعارك ، وأظهر الله رسوله عليهم .

قال عمر لما حُملت إليه كنوز كسرى : «اللهم إنى أعوذ بك أن أكون مستدرجا ، فإنى سمعتك تقول : سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُون .

١٨٣ – وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ .

وَأُمْلِي لَهُمْ .

أى : سأملى وأطول لهم ما هم فيه ، وأمهل هؤلاء المكذبين وأمدّ لهم فى حبل النعم .

إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ . إن تدبيرى الخفىّ شديد قوى ، قال ابن فارس : الكيد : المكر ، فكلّ شىء عالجته فأنت تكيده .

قال المفسرون : مكر الله وكيده مجازاة أهل المكر والكيد فيكون الجزاء من جنس العمل ، حيث يأتيه على حين غفلة ، فينزل به بأس الله بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ .

أى : ليلاً وهو مستغرق فى نومه وراحته ، أو نهارًا فى وقت القيلولة والأمن والطمأنينة .

جاء فى تفسير المنار :

ومعنى هذا الإملاء : أن سنة الله تعالى فى الأمم والأفراد ، قد مضت بأن يكون عقابهم بمقتضى الأسباب التى قام بها نظام الخلق ، فالمخذول إذا بغى وظلم ، ولم ينزل به العقاب الإلهى عقب ظلمه ، يزداد بغيًا وظلمًا ، ولا يحسب للعواقب حسابًا ، فيسترسل فى ظلمه ، إلى أن تحيق به عاقبة ذلك ، بأخذ الحكّام له ، أو بتورطه فى مهلكة أخرى ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى [٧٣] .

★ ★ ★

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾

المفردات :

جِنَّة : بكسر الجيم جنون .

ملكوت السماوات والأرض : أى : العوالم التى اشتملت عليها السماوات والأرض .

يــــذرهـــم : يتركهم .

يــعــمــهــون : يتحيرون .

التفسير:

١٨٤- أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ...

سبب النزول :

جاء فى تفسير الطبرى ، وابن كثير ، والدر المنثور للسيوطى ، وغيرهم ، أن سبب نزول هذه الآية ، هو أن رسول الله ﷺ ، صعد على الصفا ليلة ، ودعا قريشًا فخذا فخذا : يا بنى فلان ، يا بنى فلان ، يا بنى فلان فحذّرهم بأس الله وعقابه ، فقال قائلهم : إن صاحبكم لمجنون ؛ بات يصوّت حتى الصباح ، فنزلت هذه الآية.

ومعنى الآية :

أغفلوا عما امتاز به الرسول - ﷺ - بينهم من رجاحة العقل ، وصدق القول ، والأمانة الكاملة ، فقد عرفوه بالصادق الأمين ، والمفكر السليم ، وقد صاحبوه قبل الرسالة أربعين سنة ، وصاحبوه بعد الرسالة، يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته وحده ، كما دعاهم إلى إصلاح شئونهم ، وتنظيم حياتهم الدينية والمدنية والاجتماعية .

وكل ذلك لا يصدر من مجنون ، بل الذى يقتضيه العقل ، ويسرع إليه الفكر ، أن ما قدّمه هذا النبى من قرآن وهداية وتشريع ونظام ، وهو أمّى لم يناظر ولم يجادل ولم يفاخر أحدًا فيما مضى ، إن هو إلا وحى من الله ، نزل به الروح الأمين ، والله يختص بفضله ورحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ .

أى : إنه ليس بمجنون بل هو منذر ناصح ومبلغ عن الله ، فهو ينذركم ما يحل بكم من عذاب الدنيا والآخرة ، إذا لم تستجيبوا له ، وقد دعاكم إلى ما فيه صلاح حال الفرد والمجتمع فى الدنيا ، وصلاح أمركم فى الآخرة .

فى أعقاب الآية :

تكرر اتهام كفار مكة للنبى ﷺ بالجنون ؛ لصرف الناس عن دعوته ورسالته .

قال تعالى : أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ . (المؤمنون : ٧٠)

وقال سبحانه : وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلاَئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ.
(الحجر : ٦ ، ٧)

وقال عز شأنه : وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ . (الصافات : ٣٦) .

وقد جرت عادة الكفار أن يرموا رسلهم بالجنون؛ لأنهم ادعوا أن الله خصَّهم برسالته ووحيه مع كونهم بشرًا لا يمتازون عن سائر الناس بزعمهم .

فقد حكى الله عن قوم نوح أنهم اتهموه بالجنون فقالوا :

إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ . (المؤمنون : ٢٥) .

وقال فى شأنهم : كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ . (القمر : ٩)

وقال حكاية عن فرعون فى موسى عليه السلام : قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ . (الشعراء : ٢٧).

وقد بين سبحانه ذلك على وجه عام [٧٤] فقال :

كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ . (الذاريات : ٥٢) .

١٨٥ - أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ...

أى : أكذبوا الرسول الذى علموا صدقه وأمانته وقالوا : إنه مجنون ولم ينظروا نظرة تأمل واستدلال ، فى هذا الملكوت العظيم ، ملكوت السماوات من الشمس والقمر والنجوم وغيرها ، وفى ملكوت الأرض فى البحار والجبال والدواب وغيرها ، ولم ينظروا كذلك فى مخلوقات الله جميعًا ، التى لا يحصرها العدد ، ولا يحيط بها الوصف ، مما يشهد بأن لهذا الكون خالقًا قادرًا ، هو المستحق وحده للعبادة والخضوع .

وقوله سبحانه : وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ . تنبيه على أن الدلالة على التوحيد غير مقصورة على السماوات والأرض بل كل ذرة من ذرات العالم دليل على توحيده :

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ .

أى : أو لم ينظروا - أيضًا - فى اقتراب آجالهم وتوقّع حلولها فيسارعوا إلى طلب الحق والتوجه إلى ما ينجيهم قبل مفاجأة الموت لهم ، ونزول العذاب بهم ، وهم فى أتعس حال .

فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ .

أى : إذا لم يؤمنوا بالقرآن ، وهو أكمل كتب الله بيانًا ، وأقواها برهانًا ، فمن لم يؤمن به ، فلا مطمع فى إيمانه بغيره .

قال تعالى : وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ . (الزمر : ٥٥).

١٨٦ – مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ... الآية

أى : إن الله قد جعل هذا الكتاب أعظم أسباب الهداية للمتقين لا للجاحدين المعاندين ، وجعل الرسول المبلغ له أقوى الرسل برهانًا ، وأكملهم عقلاً ، وأجملهم أخلاقًا ، فمن فقد الاستعداد للإيمان بهذا الكتاب وهذا الرسول ؛ فهو الذى أضله الله ، أى : الذى قضت سنته فى خلق الإنسان ، وارتباط أعماله بأسباب تترتب عليها مسبباتها ، بأن يكون ضالاً راسخًا فى الضلال ، وإذا كان ضلاله بمقتضى تلك السنن ، فمن يهديه من بعد الله ؟! ولا قدرة لأحد من خلقه على تغيير تلك السنن وتبديلها .

وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ .

أى : ويتركهم فى تجبّرهم الذى جازوا به حدود الله . يَعْمَهُونَ يتحيرون ويتخبطون .

قال تعالى : وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ . (النور : ٤٠) .

من تفسير المراغى :

والخلاصة : أنه ليس معنى إضلال الله لهم ، أنَّه أجبرهم على الضلال ، وأعجزهم بقدرته عن الهدى، فكان ضلالهم جبرًا لا اختيارًا ، بل المراد : أنه لمّا مرنت قلوبهم على الكفر والضلال ، وأسرفوا فيهما ، حتى وصلوا إلى حدّ العمه فى الطغيان ؛ فقدوا بهذه الأعمال الاختيارية ، ما يضادّها فى الهدى والإيمان ، فأصبحت نفوسهم لا تستنير بالهدى ، وقلوبهم لا ترعوى لدى الذكرى [٧٥] .

بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ . (المطففين : ١٤) .

★ ★ ★

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾

المفردات :

الساعة : المراد بها هنا : يوم القيامة وقد يراد بها لغةً : جزء من الزمن .

أيان مرساها : أى : متى حصولها . أو متى وقوعها ؟

لا يجليها : لا يظهرها ويكشفها على وجه التحديد .

ثقلت فى السماوات والأرض : عظم أمرها على أهل السماوات والأرض ؛ لما فيها من الأهوال .

بغتة : فجأة .

حفى عنها : بالغ العلم بها .

التفسير :

١٨٧ - يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ...

سبب النزول :

كانت اليهود تقول للنبى ﷺ ، إن كنت نبيًّا فأخبرنا عن الساعة متى تقوم ؟

وقال قتادة : إن قريشا قالت : يا محمد بيننا وبينك قرابة ، فبين لنا متى الساعة ؟

وقال عروة : الذى سأله عن الساعة ، عتبة بن ربيعة .

ورجح الحافظ ابن كثير أنها نزلت فى قريش ؛ لأن الآية مكية ، وكانوا يسألون عن وقت الساعة ؛ استبعادًا لوقوعها ، وتكذيبًا لوجودها . أو اختبارًا لصدق نبوّة الرسول .

المعنى : يسألك الناس يا محمد ، عن وقت مجىء الساعة التى يموت فيها الناس جميعًا .

أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا .

أى : متى يكون وقوعها ومجيئها وثبوتها وفى التعبير بالإرساء الدال على الاستقرار والانتهاء ، إشارة إلى أن قيام الساعة إنهاء لحركة العالم ، وانقضاء عمر الأرض .

قال أبو عبيدة : أى : متى مرساها ، أى : منتهاها . ومرسا السفينة : حيث تنتهى .

قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلاَّ هُوَ ...

استأثر الله تعالى بأمر الغيب ، وأمر الإنسان أن ينصرف إلى عمله مجتهدًا فيه ، فلو تأكدنا من موعد الساعة ، فربَّما أهمل المهملون ، وربما اشتد الخوف والروع على المؤمنين ، ولذلك اختص الله نفسه بعلم الساعة ؛ حتى يكون هناك مجال للاختبار والابتلاء والامتحان ، وحتى يكون هناك توقع للموت فى أى لحظة ، وقد خبأ الله معرفة الصلاة الوسطى ، وساعة الإجابة يوم الجمعة ، وليلة القدر فى شهر رمضان ، كما خبّأ معرفة الساعة ؛ ليجتهد الناس فى الطاعة والعبادة ؛ فربما جاء الموت بغتة .

قال تعالى : إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ . (لقمان : ٣٤) .

لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلاَّ هُوَ .

أى : علم الساعة عند الله وحده ، ولا يظهرها ، ولا يأتى بها فى وقتها غير الله تعالى وحده ، وفى هذا القول تأكيد بليغ ، وزيادة تقرير لما سبق من اختصاص علم الله تعالى بذلك .

ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ .

هذه الجملة لها معنيان :

المعنى الأول : خفى علمها على أهل السماوات والأرض ، ولم يعلم بها أحد من الملائكة المقربين ، والأنبياء المرسلين ، فجميع من فى السماوات والأرض لا يعلمون متى يكون حدوثها ووقوعها ، وكل ما خفى علمه فهو ثقيل على الفؤاد ، وهو قول السدِّى .

المعنى الثانى : عظم أمرها واشتد وقعها على أهل السماوات والأرض ؛ بعد أن أعلمهم الله تعالى بما سيكون فيها من الشدائد والأهوال ، وهو قول ابن عباس : ووجهه : أن الكلّ يخافونها محسنهم ومسيئهم .

لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً .

قضى الله تعالى أنها لا تأتى إلا فجأة ، وعلى حين غفلة ، وحينئذ تشعرون بثقلها لهول المفاجأة ، فأولى بالإنسان أن ينصرف عن السؤال عن الساعة ووقتها ، فإن ذلك لا يفيد .

ويتفرغ للعمل بما يفيده ويقع في دائرة اختصاصه ، وهو الاستعداد للساعة والعمل الصالح ، والتسابق في اغتنام لحظات الحياة ، فالموت يأتى بغتة ، وفى الحديث الشريف «اغتنم خمسًا قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وفراغك قبل شغلك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وحياتك قبل موتك» (٧٦) .

وروى البخارى فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال : «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا طلعت ورآها الناس ؛ آمنوا أجمعون ، فذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل ، أو كسبت فى إيمانها خيرًا ، ولتقومن الساعة ، وقد انصرف الرجل بلبن لقحته (٧٧) فلا يطعمه ، ولتقومن الساعة والرجل يليط (٧٨) حوضه فلا يسقى فيه ، ولتقومن الساعة والرجل قد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمها» (٧٩) .

يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا .

أى : كأنك دائم السؤال عنها ، مكلف أن تكشف عن موعدها .

قال مجاهد : أى استحفيت عنها السؤال حتى علمت وقتها .

وقال ابن عباس : كأنك عالم بها ، وقد أخفى الله علمها عن خلقه .

قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ .

لا يعلم وقت مجىء الساعة إلا الله وحده دون سواه ، وفى هذا تأكيد وتعميق للمعنى المستفاد من الردّ الأول ، مع ما يفيده ذكر لفظ الجلالة من هيبة ورهبة ، فى مقابلة جهلهم ، وتعنتهم فى طلب أمور لا يعلمها إلا الله وحده ، ولم يُطلع عليها أحدًا من خلقه .

وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

ولكن أكثر الناس لا يعلمون اختصاص علمها به تعالى ولا حكمة ذلك ، ولا أدب السؤال ، ولا غير ذلك مما يتعلق بهذا المقام ، وإنما يعلم ذلك القليلون ، وهم المؤمنون بما جاء من أخبارها فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ .

روى الشيخان عن عمر بن الخطاب أن جبريل سأل النبى ﷺ ، فقال : يا محمد ، متى الساعة ؟ فقال الرسول ﷺ : ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، سأنبئك عن أشراطها ، (علاماتها) : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة ، رعاء الشاء والإبل يتطاولون فى البنيان» (٨٠) .

وذهب **الأستاذ سيد قطب** : إلى أن معنى هذه الفقرة : أن أمر الغيب كله لله وحده ، لا يطلع على شىء منه إلا من شاء ، بالقدر الذى يشاء ، وفى الوقت الذى يشاء ، لذلك لا يملك العباد لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ؛ فقد

يفعلون الأمر يريدون به جلب الخير لأنفسهم ، ولكن عاقبته تكون هى الضرّ لهم ، وقد يفعلون الأمر يريدون به رفع الضرّ عنهم ، ولكن عاقبته المغيبة تجره عليهم ، وقد يفعلون الأمر يكرهونه فإذا عاقبته هى الخير ويفعلون الأمر يحبونه فإذا عاقبته هى الضّر .

وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ .

وقال سبحانه وتعالى : وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ...

من كلام المفسرين

١ - قال الآلوسى فى تفسير الآية :

وإنما أخفى سبحانه أمر الساعة ؛ لاقتضاء الحكمة التشريعية ذلك ، فإنه أدعى إلى الطاعة ، وأزجر عن المعصية ، كما أن إخفاء الأجل الخاص للإنسان كذلك .

٢ - جاء فى تفسير المنار :

لهذه الآية كلام طويل عقب عليه السيد رشيد رضا فى آخره بقوله : (فصل فيما ورد فى قرب الساعة وأشراطها وما قيل فى عمرها) وفى هذا الفصل أفاد بالآتى :

أخرج الحافظ السيوطى عدة أحاديث ، فى أن عمر الدنيا سبعة آلاف سنة .

ونقل صاحب المنار نقولا عن العلماء : بأن القول بتعيين مدة الدنيا من أولها إلى آخرها بأنه سبعة آلاف سنة لم يثبت فيه نص يعتمد عليه ، وإنما هى نقول مأخوذة عن أهل الكتاب .

قال صاحب المنار :

وكذلك الإمام أبو محمد على بن حزم (المتوفى سنة ٤٥٦ هـ) .

لم يعبأ بشىء من هذه الروايات فى هذه المسألة على طول باعه وسعة حفظه للآثار ، وقد سبق القاضى عياضا ، والقاضى أبا بكر ابن العربى ، وابن خلدون فى رفضه لما قيل فى عمر الدنيا .

قال ابن حزم :

وأما نحن - يعنى المسلمين - فلا نقطع على علم عدد معروف عندنا ، ومن ادعى فى ذلك سبعة آلاف سنة أو أكثر أو أقل ؛ فقد قال ما لم يأت قط عن رسول الله ﷺ لفظة تصح ، بل صح عنه ﷺ خلافه ، بل نقطع على أن للدنيا أمدًا لا يعلمه إلا الله تعالى .

قال الله سبحانه وتعالى : مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ . (الكهف : ٥١) .

وبعد أن نقل السيد رشيد رضا كلام الإمام ابن حزم قال :

هذا كلام الأئمة المحققين ، فالذين حاولوا تحديد عمر الدنيا ، ومعرفة وقت قيام الساعة إرضاء لشهوة الإتيان ، بما بهم جميع الناس ، لم يشعروا بأنهم يحاولون تكذيب آيات القرآن الكثيرة ، بأن الساعة من علم الغيب ، الذى استأثر الله به ، وأنها تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون ، وهذا البلاء كله من دسائس رواة الإسرائيليات .

ثم يقول صاحب المنار فى موضع آخر :

وأما علماء الكون فى هذا العصر ؛ فلهم منهج فى عمر الأرض فى الماضى ، ومنهج آخر فى تاريخ البشر وآثارهم فى القرون الخالية .

وهم يجزمون أن عمر الدنيا الماضى ، يعدُّ بألوف الألوف من السنين ، وقد وجدت آثار للبشر فيها منذ مئات الألوف منها ، وذلك ينقض ما فى سفر التكوين فى المسألتين ، ولكنه لا ينقض من القرآن كلمة ولا حرفا.

وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا . (النساء : ٨٢) .

انتهى كلام السيد رشيد رضا .

مؤتمر عالمى عن عمر الكون

نقل إلىّ الصديق الباحث الأستاذ الدكتور محمد الشبينى – عميد كلية التربية والعلوم الإسلامية بجامعة السلطان قابوس بمسقط (سلطنة عمان) – أنه قرأ فى مجلات عالمية ، بأن مؤتمرًا لعلماء الطبيعة والفيزياء والفلك قد انعقد فى واشنطن فى شهر أبريل سنة ١٩٩٢ م ؛ لمناقشة دراسة علمية متخصصة عن أصل الكون ، واستقر المؤتمر على الآتى :

١ – تشير المشاهدات والحفريات والدراسات إلى أنّ عمر الكون يتراوح ما بين ١٥ بليون سنة ، ٢٠ بليون سنة.

٢ – الكون يتسع لتحرك الكواكب ويزداد فى اتساعه وحركته ؛ لأن هناك المزيد من الكواكب .

٣ – عمر المجموعة الشمسية الآن خمسة بلايين سنة وأنها يمكن أن تبقى خمسة بلايين سنة أخرى .

٤ – الشمس ستحرق كل المواد المشتعلة التى فيها ثم تخمد ، وتصبح من النجوم القزمة ، وعند انتهاء عمر الشمس ، ينتهى عمر الكون ، ما لم تدخل إرادة إلهية عليا بأمور ليست فى الحسبان . ا هـ .

أشراط الساعة وأماراتها

قسم العلماء أشراط الساعة إلى ثلاثة أقسام :

١ – ما وقع بالفعل منذ قرون خلت ، كقتال اليهود ، وفتح بيت المقدس ، والقسطنطينية .

٢ – ما وقع بعضه وهو لا يزال فى ازدياد كالفتن والفسوق وكثرة الزنا وكثرة الدجالين وكثرة النساء، وتشبههن بالرجال ، والكفر والشرك حتى فى بلاد العرب .

٣ – ما سيقع بين يدى الساعة من العلامات الصغرى والكبرى ؛ وتجد ذلك مطولاً فى تفسير المنار وتفسير المراغى.

المهدى المنتظر

أشهر الروايات أن اسمه محمد بن عبد الله ، والشيعة يقولون : إنه محمد بن الحسن العسكرى ، ويلقبونه بالحجة والقائم والمنتظر ، والمشهور فى نسبه أنه علوى فاطمى من ولد الحسن ، وهناك رواية مصرحة بأنه من ولد العباس .

وأكثر العلماء ينكرون هذه الأحاديث ويقولون : إنها موضوعة لا نصيب لها من الصحة ، ومن ثم لم يعتد بها الشيخان ، ومن هؤلاء ابن خلدون ، فقد ضعّف هذه الأحاديث ، وضعّف أسانيدها ، وبين أن لله سننًا فى النّصر هى الوحدة والقوة ، والقتال والاستعداد كما فعل الرسول الأمين ﷺ .

★ ★ ★

﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ (١٨٨) ﴾

المفردات :

نـذيـر : منذر بوعيد الله للعصاة والكافرين .

وبشـيـر : ومبشر بوعد الله لكل من يؤمن بالله .

التفسير :

١٨٨– قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ... الآية .

تمهيد :

بينت الآية السابقة أن علم الساعة عند الله وحده ، وفى هذه الآية بيان لأساس من أسس العقيدة ،

إذ بينت حقيقة الرسالة وفصلت بينها وبين الربوبية ، وهدّمت قواعد الشرك ، واجتثت جذور الوثنية ، فالرسول بشر يوحى إليه ، وظيفته التبليغ والتبشير للطائعين ، والإنذار للعصاة والمشركين ، ولا يعلم الغيب إلا بمقدار ما يريد الله إطلاعه عليه .

قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ .

أى : قل أيها الرسول لمن سألك عن الساعة ظانًا أن عندك علم بالغيب ، واطلاع على شئون المستقبل- قل لهم : إنى بشر مثلكم ، وإنى لا أملك لنفسى ولا لغيرى ، جلب نفع ولا دفع ضر مستقلاً بقدرتى على ذلك ، وإنما أملكهما بقدرة الله ، فإذا أقدرنى على جلب النفع ؛ جلبته بفعل أسبابه ، وإذا أقدرنى على منع الضرّ ؛ منعته بتسخير الأسباب كذلك .

وقد كان المسلمون ولا سيما حديثو العهد بالإسلام ؛ يظنون أن منصب الرسالة يقتضى عِلمَ الساعة؛ وغيرها من علم الغيب ، وأن الرسول يقدر على ما لا يصل إليه كسب البشر من جلب النفع ومنع الضرّ عن نفسه ، وعمن يحبّ أو عمن يشاء ...

فأمره الله أن يبين للناس ، أن منصب الرسالة لا يقتضى ذلك ، وأن وظيفة الرسول هى التعليم والإرشاد ، لا الخلق والإيجاد ، وأنه لا يعلم الغيب إلا ما علمه الله عن طريق الوحى . قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ....

وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ .

أى : لو كنت أعرف أمر المستقبل ؛ لكانت حالى على خلاف ما هى عليه من استكثار الخير ، واجتناب السوء والمضارّ ؛ حتى لا يمسنى شىء منها ، ولم أكن غالبًا مرة ، ومغلوبًا أخرى .

قال الشوكانى :

أى : لاشتريت حين يكون فيما أشتريه الربح ، وبعت حين يكون الربح فى البيع ؛ فيكثر مالى ولا أخسر فى بيع ، ولتعرضت لما فيه الخير فجلبته لنفسى ، وتوقّيت ما فيه السوء ؛ حتى لا يمسّنى .

قال ابن كثير :

أمره الله تعالى أن يفوّض الأمر إليه وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب فى المستقبل ، ولا اطلاع له على شىء من ذلك ، إلا ما أطلعه الله عليه ، كما قال : عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا . (الجن : ٢٦) .

إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُون . أى : لست إلا مبلغًا عن الله لأحكامه ، أنذر بها قومًا ، وأبشر بها آخرين، ولست أعلم بغيب الله سبحانه . أى : وليس الإخبار بالغيب من مهمتى ، ولا العلم به من صفتى .

لِقَوْمٍ يُؤْمِنُون ؛ لأن المؤمنين هم الذين ينتفعون بالإنذار والتبشير ، فنصّ القرآن على محل النفع والفائدة على حدّ قوله تعالى : هُدىً لِّلْمُتَّقِينَ .

وقوله سبحانه : فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ .

★ ★ ★

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) ﴾

المفردات :

زوجها : الزوجة والمراد بها : حواء .

ليسكن إليها : ليطمئن إليها .

تغشاها : غشيها وهو كناية عن الوقاع .

حملت حملا خفيفا : أى : كان حملها خفيفا لا يمنعها من القيام والقعود وقضاء المصالح .

فمرت به : فمضت به وترددت فى قضاء مصالحها من غير مشقة ولا كلفة .

فلما أثقلت : صارت ذات ثقل بسبب كبر الولد وقرب وضعه .

دعوا الله : تضرّعا إليه .

التفسير:

١٨٩- هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ... الآية .

إن الله العلى القدير ، هو الذى يستحق العبادة والخضوع والذى عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ومن دلائل قدرته وموجبات توحيده ، وإفراده بالعبادة أنه خلقكم من نفس واحدة ، هى نفس أبيكم آدم .

وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا .

أى : خلق حواء من جسد آدم من ضلع من أضلاعه .

لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا . لتكون حواء سكنًا وأمنًا وأنيسًا ومصدرًا للذرية وعمارة الكون .

وهذه الفقرة تبين الحكمة من الزواج ، فالزوجة مصدر للحنان ، والسكن والأمان والعطاء ، ثم هى من جنس الرجل والجنس إلى الجنس أميل ، خصوصًا إذا كان بعضا منه ، كما يسكن الإنسان إلى ولده ، ويحبه محبة نفسه ؛ لكونه بضعة منه .

وقريب من هذه الآية ما ورد فى صدر سورة النساء حيث قال تعالى :

يَا أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ... (النساء : ١)

وقوله سبحانه : وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . (الروم : ٢١) .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب :

وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا .

أى : ليجتمع إليها ، وليطمئن لها ، ويستقر معها ..

وقد أشرنا من قبل فى قصة آدم وخلقه [٨١] إلى أن حواء ، التى قيل : إنها خلقت من ضلعه لم تكن إلا مرحلة من مراحل التطور فى خلق آدم ، وأن عملية التكاثر فى تلك المرحلة ، كانت بانقسام الكائن الحى نفسه ؛ كما هو الشأن فى بعض المخلوقات الدنيا من الديدان [٨٢] .

فَلَمَّا تَغَشَّاهَا .

أى : فلما غشى الزوج منكم زوجته ، والتغشِّى : كناية عن الجماع ، مثل الملامسة ، وغَشَىَ الشىءُ وتغشاه : غطّاه ، ومنه قوله تعالى : وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ، أى : تُغَطِّى ظلمته الأشياء .

وكذلك الرجل حين يتصل بزوجته ، يغشاها أى : يغطيّها ويسترها ، ويقدم لها المودة والرحمة . ونرى فى هذه الجملة ، سُمو القرآن فى تعبيره ، وأدبه فى عرض الحقائق . إن أسلوب القرآن يلطف ويدق ، عند تصوير العلاقة بين الزوجين ، فهو يسوقها عن طريق كناية بديعة ، تتناسب مع جو السكن ، والمودة بين

الزوجين ، وتتسق مع جو الستر ، الذى تدعو إليه الشريعة الإسلامية ، عند المباشرة بين الرجل والمرأة ، ولا تجد كلمة تؤدى هذه المعانى أفضل من كلمة تَغَشَّاهَا .

حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ .

أى : لما تغشى الذكر الأنثى ؛ علقت منه ، وكان الحمل فى أول أمره خفيفًا لا يمنعها من القيام والقعود وقضاء المصالح ، فإن كونه نطفة ثم علقة ثم مضغة ؛ أخف مما يكون فى المراتب التى بعد ذلك.

فَمَرَّتْ بِهِ .

أى : استمرت بذلك الحمل ، تقوم وتقعد وتمضى فى حوائجها ، ولا تجد به ثقلاً .

فَلَمَّآ أَثْقَلَت .

أى : فلما صارت ذات ثقل ، بسبب نمو الحمل فى بطنها ، واقتراب الوضع ، وأشفق آدم وحواء من أن يكون الحمل غير سوىٍّ ، واهتمّا بهذا الأمر الذى لم يعهداه من قبل .

دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّاكِرِينَ .

تضرع آدم وحواء فى دعاء متبتل ، وأقسما قائلين : والله لئن أعطيتنا ولدًا صالحًا سويًّا ، مستقيم الخلقة ؛ لنكونن من المخلصين لك فى الشكر على نعمائك التى لا تحصى ، ومن أعظمها تلك النعمة الجليلة، نعمة الولد الصالح .

١٩٠ – فَلَمَّآ ءَاتَهُمَا صَالِحًا جَعَلاَ لَهُ شُرَكَآءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا .

أى : فلما استجاب الله تعالى دعاء الزوجين من ذرية آدم وحواء ؛ وأعطاهما ولدا صالحًا أى : كامل التكوين والخلقة ، أخلا بالشكر فى مقابلة هذه النعمة أسوأ إخلال ، حيث نسبوا هذا العطاء إلى الأصنام والأوثان، أو إلى الطبيعة كما يزعم الطبيعيون ، أو إلى غير ذلك مما يتنافى مع إفراد الله تعالى بالعبادة والشكر.

فَتَعَالَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

أى : تعاظم وتنزّه سبحانه أن يكون له شريك .

فى أعقاب الآية ١٨٩ ، ١٩٠ :

الآية ١٨٩ كانت حديثا عن نفس واحدة جعل الله منها زوجها وهى نفس آدم وحواء .

أما الآية ١٩٠ ، فقد انتقل عندها الكلام عن آدم وحواء إلى ذريتهما رجلاً وامرأة .

والمعنى : جعل أولادهما له شركاء ، فى الولد الصالح فى تكوينه ، حيث نسباه لبركة أوثانهم مع الله تعالى ، فالاشتراك وقع من ذرية آدم وحواء .

جاء فى تفسير الشوكانى فتح القدير :

قالت جماعة من المفسرين : إن الجاعل شركاء فيما آتاهم هم جنس بنى آدم ، كما وقع من المشركين منهم ، ولم يكن ذلك من آدم وحواء .

وجاء فى تفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر :

ويجوز أن يكون التأويل فى قوله : جَعَلَا لَهُ شُرَكَآءَ بتقدير مضاف محذوف ، أى : جعل أولادهما لله شركاء ، وجعل الكلام على حذف مضاف كثير ومعهود ، ومنه قوله تعالى : وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ . أى : واسأل أهل القرية ا هـ .

معارك بين المفسرين :

هذا المكان من التفسير ، مما تدور حوله معارك كلامية كثيرة :

فبعض المفسرين [٨٣] ذهب إلى أن المراد بقوله تعالى : فَلَمَّآ ءَاتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَآءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا : آدم وحواء .

واستدلوا على ذلك بما رواه الإمام أحمد بسنده ؛ عن النبى ﷺ قال : لمّا طاف إبليس بحواء ؛ وكان لا يعيش لها ولد ، فقال لها : سمِّيه عبد الحارث ؛ فإنه يعيش ، فسمته عبد الحارث ؛ فعاش ، وكان ذلك من وحى الشيطان وأمره [٨٤] .

وقد أثبت الحافظ ابن كثير فى تفسيره ضعف هذا الحديث من عدة وجوه .. ورجح أنه من آثار أهل الكتاب.

ثم قال : قال الحسن البصرى : عنى الله تعالى بهذه الآية : ذرية آدم ، ومن أشرك منهم بعده .

وقال قتادة : كان الحسن البصرى يقول : هم اليهود والنصارى ، رزقهم الله أولادًا فهوّدوا ونصّروا .

قال ابن كثير : وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية ، ونحن على مذهب الحسن البصرى فى هذا ، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء ؛ وإنما المراد من ذلك : المشركون من ذريته ، ولهذا قال: فَتَعَالَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ . ثم قال : فذكره آدم وحواء ؛ أولاً كالتواطئة لما بعدهما من الوالدين ، كالاستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس ا هـ .

وقال صاحب الكشاف : إن المراد بالزوجين : الجنس لا فردان معينان ، والغرض بيان حال البشر فيما طرأ عليهم من نزعات الشرك الجلى والخفى فى هذا الشأن وأمثاله ، والجنس يصدق ببعض أفراد. ا هـ

★ ★ ★

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾ ﴾

المفردات :

صامتون : تاركون دعوتهم .

التفسير :

١٩١- أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ... الآية .

تفيد الآية السابقة أن من ذرية آدم وحواء من جعل لله شركاء تنزه الله وعلا وتمجد عن أن يكون له شركاء يعملون معه ، ويشاركون فى تدبير ملكه .

ثم حمل القرآن على الشرك والوثنية حملات ماحقة ، وحاكم المشركين إلى الحس والواقع ، فهذه الأصنام لا تنفع ولا تضر ، ولا تسمع ولا تجيب ، وهى حجارة صمّاء ؛ ليس لها يد أو رجل أو بصر ؛ وحتى إذا رغب عاقل دعوتها إلى الهدى فلا تملك الاستجابة ؛ لأنها لا عقل لها ولا إرادة ، فكيف تعبد من دون الله؟!

أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ .

أى : بعد أن منح الله هؤلاء المشركين العقل ، وأرسل إليهم رسوله محمدا ﷺ داعيًا إلى توحيد الله ، وسراجًا منيرًا ، أبعد هذا كله يشركون معه فى الألوهية ، صنمًا أو غيره من المخلوقات ، مما ليس له قدرة على أن يخلق شيئًا ولو كان ذبابًا **وَهُمْ يُخْلَقُونَ** .

أى : والحال أن ما عبدوهم يُخلقون ، ولا يليق بذى العقل السليم ، أن يجعل المخلوق العاجز شريكًا لله القادر .

وقد ورد هذا المعنى فى قوله تعالى : **يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** . (الحج : ٧٣ ، ٧٤) .

١٩٢ - وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ .

أى : ولا يستطيعون لعابديهم معونة ، إذا حزبهم أمر مهم ، أو خطبٌ ملمٌ ، كما لا يستطيعون لأنفسهم نصرا على من يعتدى عليهم ، بإهانة لهم أو أخذ شيء مما عندهم ؛ من طيب أو حلى ، كما قال تعالى : وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ (الحج : ٧٣) .

وفى هذا بيان لشدة عجزهم ، ومن عجز عن نصر نفسه ؛ كان عن نصر غيره أعجز.

فالأصنام تحتاج إليكم فى تكريمهم وفى النضال عنهم ، وأنتم لا تحتاجون إليهم .

١٩٣ - وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ .

أى : وإن تدعوا هذه الأصنام إلى ما هو هدى ورشاد ؛ لا يجيبوكم إلى ذلك .

ويجوز أن يكون المعنى :

وإن تدعوا هذه الأصنام إلى أن يهدوكم ؛ إلى ما تحصلون به رغباتكم ، أو تنجون به من المكاره التى تحيق بكم ، لا يتبعوكم ، فلا يستجيبوا لكم ولا ينفعوكم .

سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ .

فحالهم واحدة عند ندائكم ، وعند بقائكم على صمتكم وسكوتكم ؛ لأنهم مجرد أحجار منحوتة جامدة.

وهكذا حاكمهم القرآن إلى الحسّ المشاهد ؛ فكيف يعبد الإنسان صنمًا جامدًا لا يسمع ولا ينفع ، وهو مجرد حجر جامد ، وإنما الرب المعبود هو النافع من يعبده ، الضار من يعصيه ، الناصر وليّه ، والخاذل عدوّه ، الهادى إلى الرشاد من أطاعه ، السامع دعاء من دعاه .

★ ★ ★

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾

المفردات :

تـدعـون : تعبدون .

وليى الله : متولى أمرى وناصرى .

التفسير:

١٩٤ - إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ... الآية .

فى الآيات السابقة طائفة من الحجج والبراهين ؛ لإبطال الشرك ، وتسفيه عقول المشركين ، ونظرًا لتأصُّل عادة الشرك فى نفوس المشركين بتقليد من قبلهم ، واتباعهم إياهم .

استمرت هذه الآيات تقدّم طائفة أخرى من الحجج والبراهين، والأدلة الملموسة المحسوسة المشاهدة؛ لتستثير عقولهم وتفكيرهم ، ولتؤكد على أن التوحيد يكون لله وحده ، والولاء يكون للإله الخالق القادر ، قال تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ...

الدعاء : هو النداء لدفع الضّر ، وجلب النفع ، الذى يوجّه إلى من يعتقد الداعى أن له سلطانًا يمكنه أن يجيبه إلى ما طلبه ، إمَّا بذاته وإما بحمله الربُّ الخالق على ذلك .

وقد اتجه المشركون بدعائهم إلى هذه الأصنام ، فقالت لهم الآية : هؤلاء الذين جعلتموهم آلهة هم من عباد الله ، كما أنتم من عباد الله وأطلق القرآن عليها لفظ عِبَادٌ مع أنها جماد ، وفق اعتقادهم فيها ؛ تبكيتًا لهم وتوبيخًا ، أى : وإذا كانوا مثلكم عبادًا خاضعين لله مثلكم ؛ فإنه يمتنع عقلاً ، أن تطلبوا منهم ما قد عجزتم عن مثله ، مع أنكم أكمل منهم ؛ لأنكم أحياء تنطقون وتمشون وتسمعون وتبصرون ؛ وهذه الأصنام ليست كذلك ؛ ولكنها مثلكم فى كونها مملوكة لله مسخرة لأمره .

فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ .

وهذه جملة مقصود منها التعجيز والسخرية والتهكم بالمشركين .

أى : إن كنتم صادقين فى زعمكم قدرة الأصنام على النفع والضر ؛ فادعوهم فليردّوا عليكم الجواب، إن كانوا أحياء .

١٩٥ - أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا .

هذا استفهام إنكارى .

والمعنى : إن هذه الأصنام التى تزعمون أنها تقربكم إلى الله زلفى ، هى أقل منكم مستوى ؛ لفقدها الحواس التى هى مناط الكسب ، إنها ليس لها أرجل ؛ تسعى بها إلى دفع ضر أو جلب نفع ، وليس لها أيد تبطش بها ، أى : تأخذ بها ما تريد أخذه ، وليس لها أعين تبصر بها شئونكم وأحوالكم .

وليس لهم أذن تسمع بها أقوالكم ، وتعرف بواسطتها مطالبكم ، فأنتم أيها الناس تفضُلون هذه الأصنام ؛ بما منحكم الله تعالى من حواس السمع والبصر وغيرها ، فكيف يعبد الفاضل المفضول ، وكيف ينقاد الأقوى للأضعف ؟!.

قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ .

كان الكفار يخوفون النبىّ ﷺ من بطش هذه الآلهة ، فأمره الله أن يتحداهم .

والمعنى : قل أيها الرسول الكريم لهؤلاء المشركين :

نادوا شركاءكم الذين زعمتموهم أولياء ، ثم تعاونوا أنتم وهم على كيدى ، ولا تتأخروا عن إنزال الضرر بى ، إن كنتم أنتم وهم قادرين على شىء من الضرر ، فإنى أنا معتز بالله وملتجئ إلى حماه ومن كان كذلك ؛ فلن يخشى شيئًا من المخلوقين جميعًا .

وهذا نهاية التحدى من جانب الرسول ﷺ والحطّ من شأنهم وشأن آلهتهم . وقريب من ذلك ما فعله الرُّسل السابقون مع أقوامهم .

قال تعالى : قَالُواْ يَاهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَاكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ * إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ . (هود ٥٣ - ٥٦) .

١٩٦ - إِنَّ وَلِيِّيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّالِحِينَ .

أى : إن متولى أمرى وناصرى هو الله الذى نزل علىَّ الكتاب ، المؤيد لوحدانيته ، ووجوب عبادته ودعائه ، عند الشدائد والملمات .

وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّالِحِينَ . وقد جرت سنته تعالى ، أن يتولى وحده رعاية الصالحين من عباده ، وحفظهم، وأن ينصرهم ولا يخذلهم .

★ ★ ★

﴿ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴾

المفردات :

تدعون : تعبدون.

التفسير:

١٩٧ - وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُم وَلاَ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ... الآية .

أى : والأصنام التى تعبدونها أيها المشركون من دون الله ، لا تستطيع نصركم فى الشدائد والنوازل ولا تستطيع دفع الضر عن نفسها إذا هو لحق بها .

فقد كسَّر إبراهيم عليه السلام الأصنام فجعلهم جذاذًا ، فما استطاعوا أن يدفعوه عن أنفسهم ، ولا أن ينتقموا منه .

وقد روى عن معاذ بن الجموح، ومعاذ بن جبل رضى الله عنهما وكانا شابين من الأنصار قد أسلما:- لما قدم النبى ﷺ المدينة - أنهما كانا يعدوان فى الليل على أصنام المشركين يكسرانها ويتلفانها ، ويتخذانها حطبًا للأرامل ؛ ليعتبر قومهما بذلك ، ويهجروا عبادة الأصنام .

وكان لعمرو بن الجموح - وكان سيد قومه - صنم يعبده . فكانا يجيئان فى الليل فينكسانه على رأسه ، ويلطخانه بالعذرة فيجيء عمرو فيرى ما صُنع به فيغسله ويطيبه ، ويضع عنده سيفًا ويقول له انتصر ، ثم يعودان لمثل ذلك ويعود إلى صنيعه أيضًا ، حتى أخذاه فقرناه مع كلب ميّت ، ودلّياه فى حَبْلٍ فى بئر هناك ، فلما جاء ورأى ذلك ؛ علم أن ما كان عليه من الدّين باطل وأنشد :

تالله لــو كـنتَ إلهًا مستدَن		لم تك والكلب جميعًا فى قَرَن

ثم أسلم وحسن إسلامه [٨٥] وقتل يوم أحد شهيدًا . رضى الله عنه !

١٩٨ - وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ .

تكرر هذا المعنى فى القرآن الكريم ، وهذا التكرار للتأكيد . وهو مطلوب ؛ لاقتلاع جذور الشرك التى تأصلت فى المشركين .

فهذه الأصنام التى يعبدونها من دون الله لا تعقل شيئًا ، ولا تفرق بين خير وشر ، فإذا دعاها داع إلى ما فيه خير وهداية ، لم تسمع ولم تعقل ، ولم تعرف ما هو هذا الخير الذى تدعى إليه .

والآية كقوله تعالى : إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ . (فاطر : ١٤) .

وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ .

أى : وتراهم أيها المخاطب ينظرون إليك بما وضع لهم من أعين صناعية ، وحدق زجاجية أو جوهرية؛ موجهة إلى من يدخل عليها كأنها تنظر إليه ، وهم لا يبصرون بها ؛ لأن حاسة الإبصار لا تحصل بالصناعة ، وإنما هى من خواص الحياة التى استأثر الله بها .

وهم إذ فقدوا السمع لا يسمعون نداء ولا دعاءً ؛ ممن يعبدونهم ولا من غيرهم ، وإذ فقدوا البصر لا يبصرون حاله . فكيف يرجى منهم نصر أو خير ؛ أو دفع شر وضرر ؟

ويجوز أن يكون الخطاب فى الآية للنبى ﷺ ، والحديث فيها عن المشركين ، فهم إذا دعاهم النبى إلى الإيمان لا يسمعون سماع فهم وإدراك وتبصر فى الهدى ، وهم ينظرون للنبى بعيونهم ، ولا يبصرون الهدى ببصيرتهم ؛ لأن قلوبهم قد طمس نورها وغاب فقهها .

وقريب من ذلك قوله تعالى : وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ . (محمد : ١٦) .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب :

قد يكون المشار إليه بضمير الجمع هنا هم أولئك المشركون ، أو تلك الأصنام التى يعبدونها ، أو هم هؤلاء وأولئك جميعًا ، فالمشركون وما يشركون بهم سواء ، فى أنهم لا يسمعون ولا يبصرون ولا يعقلون .

★ ★ ★

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾

المفردات :

العفو : السهل اليسير من أخلاق الناس .

بالعرف : بالمعروف وهو ما شرعه الله لعباده وعرف حسنه شرعًا وعقلاً من عادات الناس .

التفسير :

١٩٩ - خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ .

المناسبة :

فى آيات سابقة نهى القرآن عن عبادة الأوثان ، وندد بعبادة الأصنام .

وتجىء هذه الآية وما بعدها إلى آخر سورة الأعراف دعوة إلهية كريمة لرسول الله ﷺ ، ولمن معه من المؤمنين ، إلى منهج سمح سهل ليّن فى معاملة المشركين .

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ .

جمعت هذه الآية أصول الفضائل ومكارم الأخلاق .

عن عبد الله بن الزبير قال : ما أنزل الله هذه الآية إلا فى أخلاق الناس ا هـ .

ونجد فى هذه الآية ثلاث فضائل :

١ - الأخذ بالعفو :

وهو اليسير والسهل من أخلاق الناس وأعمالهم ، دون تكليفهم بما يشق عليهم ، ومن غير تجسس ، وإنما يؤخذ بالسمح السهل ، واليسر دون العسر .

جاء فى ظلال القرآن : «خذ العفو الميسر الممكن من أخلاق الناس فى المعاشرة والصحبة ، ولا تطلب إليهم الكمال ، ولا تكلفهم الشاقّ من الأخلاق ، واعف عن أخطائهم وضعفهم ونقصهم ...» .

روى الشيخان أن رسول الله ﷺ قال : «يسِّروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا» [٨٦] .

ويدخل فى العفو صلة القاطعين أرحامهم ، والعفو عن المذنبين ، والرفق بالمؤمنين .

وهذا هو الصنف الأول من الحقوق التى تستوفى من الناس ، وتؤخذ منهم بطريق المساهلة والمسامحة .

ويشمل ترك التشدد فى كل ما يتعلق بالحقوق المالية ، والتخلّق مع الناس بالخلق الطيب ، وترك الغلظة والفظاظة .

قال تعالى : وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ . (آل عمران : ١٥٩) .

ومن هذا القسم : الدعوة إلى الدين الحق بالرفق واللطف .

كما قال تعالى : وَجَادِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ . (النحل : ١٢٥) .

٢ – الأمر بالعرف :

وهو المعروف والجميل من الأفعال : وهو كل ما أمر به الشرع ، وتعارفه الناس من الخير ، واستحسنه العقلاء ؛ فالمعروف اسم جامع لكل خير .

ولا يذكر المعروف فى القرآن إلا فى الأحكام المهمة ؛ مثل قوله تعالى فى وصف الأمة الإسلامية :

كُنتُم خَيرَ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأمُرُونَ بِالَمعرُوف وَتَنْهَوِنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّه . (آل عمران : ١١٠) .

وفى تبيان الحقوق الزوجية قال تعالى : وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ . (البقرة : ٢٢٨) .

وأمر بالمعروف حتى فى حالات الفرقة والطلاق . قال تعالى : فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ . (البقرة : ٢٢٩).

«ويشمل المعروف الخير الواضح الذى لا يحتاج إلى مناقشة أو جدال ، والذى تلتقى عليه الفطر السليمة، والنفوس المستقيمة ؛ والنفس حين تعتاد هذا المعروف ؛ يسلس قيادها بعد ذلك ؛ وتتطوع لألوان من الخير دون تكليف» [٨٧] .

٣ – الإعراض عن الجاهلين :

ويشمل تجاهلهم ، وعدم الردّ عليهم ، أو الدخول معهم فى خصومة وجدل ، كما يشمل كظم الغيظ والمقابلة بالصفح والعفو .

قال تعالى فى وصف المؤمنين : وَٱلْكَاظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ . (آل عمران: ١٣٤).

وقال تعالى فى فضيلة العفو : وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلاَ تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ . (البقرة : ٢٣٧) .

مـن كـلام المفسـرين

١ – جاء فى تفسير المنار :

فأنت ترى أن المعروف فى هذه الآية معتبر فى هذه الأحكام المهمّة ، وأن المعروف هو المعهود بين الناس فى المعاملات والعادات ، ومن المعلوم بالضرورة أنه يختلف باختلاف الشعوب ، والبيوت والبلاد والأوقات ، فتحديده وتعيينه باجتهاد بعض الفقهاء بدون مراعاة عرف الناس ؛ مخالف لنص كتاب الله تعالى ، ولشيخ الإسلام ابن تيمية ، وغيره من فقهاء الحديث والحنابلة أقوال حكيمة فى المعروف ، منها : أنه يجب على كل من الزوجين من أعمال البيت والأسرة ما جرى العرف به .

وأنَّه إذا كان من المعروف عن بعض البيوت أنَّهُن لا يزوجن بناتهن لمن يتزوج عليهن ويضارهنّ ، كان هذا كالشرط ؛ فلا يجوز للرجل أن يتزوج على المرأة منهن [٨٨] .

٢ – جاء فى هامش زاد المسير لابن الجوزى نشر المكتب الإسلامى ما يأتى :

روى البخارى ٨/٢٢٩ : أن ابن عباس قال : قدم عيينة بن حصين ابن حذيفة ، فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس ، وكان من النفر الذين يدنيهم عمر ، وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته ، كهولاً كانوا أو شبابًا ، فقال عيينة لابن أخيه : يا ابن أخى ، لك وجه عند هذا الأمير ، فاستأذن لى عليه ، قال : سأستأذن لك عليه ، قال ابن عباس : فاستأذن الحرّ لعيينة ، فأذن له عمر ، فلما دخل عليه قال : هِيْ يا ابن الخطاب ، فوالله ما تعطينا الجزل ، ولا تحكم بيننا بالعدل ؛ فغضب عمر حتى همّ به ، فقال الحرّ : يا أمير المؤمنين ، إنّ الله تعالى قال لنبيه ﷺ : خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَاهِلِينَ . وإن هذا من الجاهلين ، والله ما جاوزها عمر حين تلاها وكان وقافًا عند كتاب الله [٨٩] .

٣ – من التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلى :

وهذه المبادئ الثلاثة هى أصول الفضائل ومكارم الأخلاق فيما يتعلق بمعاملة الإنسان مع الغير.

قال عكرمة : لما نزلت هذه الآية ، قال عليه الصلاة والسلام : يا جبريل ، ما هذا ؟ قال : إن ربك يقول: هو أن تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك [٩٠] .

وروى الطبرى وغيره عن جابر مثل ذلك :

وقال جعفر الصادق رضى الله عنه : أمر الله نبيّه عليه الصلاة والسلام بمكارم الأخلاق ، وليس فى القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها [٩١] .

قال القاضي أبو بكر بن العربي في أحكام القرآن : قال علماؤنا : هذه الآية من ثلاث كلمات ، قد تضمنت قواعد الشريعة في المأمورات والمنهيات ، حتى لم يبق فيها حسنة إلا أوعتها ، ولا فضيلة إلا شرحتها ، ولا أكرومة إلا افتتحتها [٩٢] .

★ ★ ★

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾

التفسير:

٢٠٠ - وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

جاء في تفسير الطبري وابن كثير ، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال :

لما نزلت خُذِ ٱلْعَفْوَ قال النبي ﷺ : «يا رب كيف بالغضب ؟» [٩٣] فنزلت هذه الآية .

والمعنى : وإن يوسوس لك الشيطان أيها المؤمن وسوسة شديدة ، ويدفعك إلى فعل الشر والإفساد دفعًا قويًا فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ أي : فالتجئ إلى الله ، وتحصن واستعن به ، على دفع وساوس الشيطان ونزغاته ، إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ، يسمع دعاء الداعين ، ويستجيب للمؤمنين .

وهو سبحانه عليم بسفاهة الجاهلين ، وحسب المؤمن أن الله يسمع دعاءه ونداءه ويحيط بكل ما حوله ؛ فإن العبد إذا التجأ إلى الله ، دخل في مقام العبودية الخالصة ؛ فيتحصن بها من الشيطان .

قال تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ . (الأعراف : ٢٠١) .

وقال سبحانه وتعالى : إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ .

ويلاحظ ابن كثير عند تفسير قوله تعالى : وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ .

إنه ما من مرة ورد الأمر بالاستعاذة من شيطان الجنّ ؛ إلا وكان في سياقها الإرشاد إلى معاملة العاصي من الإنس بالمعروف ، أي : بالتي هي أحسن ، فإن ذلك يكفّه عما هو فيه من التمرد بإذنه تعالى ، ثم يرشد تعالى إلى الاستعاذة به من شيطان الجنّ ، فإنه لا يكفّه عنك الإحسان ، وإنما يريد هلاكك ودمارك بالكلية ، فإنه عدو لك ولأبيك من قبلك .

جاء فى تفسير المنار :

النزغ كالنسغ والنخس والنخز والنكز والوكز والهمز : ألفاظ متقاربة ، وأصله : إصابة الجسد برأس شيء محدد ، كالمهماز والرمح .

والمراد من نزغ الشيطان : إثارة داعية الشر والفساد ؛ فى غضب أو شهوة حيوانية ، أو معنوية ؛ بحيث تتقحم صاحبها إلى العمل بتأثيرها ، كما تنخس الدابة بالمهماز لتسرع .

وحكمة إخبار الله تعالى إيانا على ألسنة رسله بهذا العالم الغيبى المعادى لنا ، الضار بأرواحنا ، أن نراقب أفكارنا وخواطرنا ، فمتى فطنَّا بميل من أنفسنا إلى الشر أو الباطل ، عالجناه بما وصفه الله تعالى بقوله : ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ .

أى : الجأ إلى الله بقلبك ولسانك ، فإنه تعالى يستجيب لك ويصرف عنك وسوسة الشيطان .

قال تعالى : ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ ٱلرَّجِيمِ * إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَانٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ . (النحل : ٩٨ ، ٩٩) .

والخطاب فى هذه الآية وأمثالها من آيات التشريع ؛ موجّه إلى كل مكلف وأولهم الرسول ﷺ ، ومن المفسرين من يقول : إنه هنا للنبى ﷺ ؛ والمراد : أمته .. والمختار عندى الآن : عصمته ﷺ من نزغ الشيطان بدليل ما ورد فى صحيح مسلم : «ما منكم أحد إلا وقد وكِّل به قرينه من الجنّ ؛ قالوا : وإياك يا رسول الله؟ قال : وإياى إلا أن الله أعاننى عليه فأسلم» [٩٤] .

★ ★ ★

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾

المفردات :

مسهم : أى : أصابهم .

طائف : أى : خاطر .

الغى : الضلال والفساد .

التفسير:

٢٠١ – إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ .

إنّ مس الشيطان ظلمة ، والالتجاء إلى الله نور وهداية ، والإنسان فى هذه الحياة فيه لمّة للملك يأمره بالخير ويساعده عليه ، ولمّة للشيطان يوسوس له بالشر ويحثه عليه .

قال تعالى : ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ . **(البقرة : ٢٦٨)**

وتفيد الآية : أن الذين اتقوا ربهم ، وامتثلوا أوامره ؛ من عادتهم أنهم إذا نالهم خاطر من خواطر الشيطان ؛ وأصابتهم منه وسوسة وتزيين للمعاصى ، تذكروا مقام ربّهم ، واستحضروا هيبته وجلاله ، ووعده ووعيده ؛ فإذا هم مبصرون بنور ربّهم طريق الهدى والرشاد .

وإن الإنسان ليشعر بتنازع دواعى الخير والشرّ فى نفسه ، وقوىُ الروح بالإيمان والتقوى غير قابل لتأثير الشيطان فى نفسه ، لكن الشيطان دائمًا يتحين الفرص ، وعروض بعض الأهواء النفسية ، من شهوة أو غضب أو داعية حسد أو انتقام ، حتى إذا وجد الفرصة سانحة افترصها ، ولابس النفس وقوّى فيها داعى الشرّ.

فإذا تنبّه المؤمن لذلك؛ استعاذ بالله من الشيطان الرجيم ، ولاذ بحصن الله واستعان بالدعاء والإيمان.

ومن دعاء النبوة : «اللهم آت نفسى تقواها وزكّها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها» [٩٥] .

٢٠٢ – وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ .

بعد أن نبه الله تعالى ، وحذر من وسوسة شياطين الجنّ ، جاءت هذه الآية للتحذير من إخوانهم شياطين الإنس .

أى : وإخوانهم شياطين الإنس ، مثلهم فى الإفساد ، يساعدونهم فى الإغواء فما يزالون يعضدونهم بتزيين المعاصى لبعض الناس .

ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ .

أى : لا يمسكون عن إغوائهم ، حتى يصرّ من وقع فى حبائلهم على تنفيذ غوايتهم ، وسلوك طريق الضلال.

جاء فى ظلال القرآن :

«وإخوانهم الذين يمدونهم فى الغىّ هم شياطين الجنّ ، وقد يكونون هم شياطين الإنس أيضًا .. إنهم يزيدون لهم فى الضلال ، لا يكلُون ولا يسأمون ولا يسكتون ، وهم من ثمّ يحمقون ويجهلون ، ويظلّون فيما هم فيه .

وجاء في تفسير المراغي : وهو مختصر من تفسير المنار – ما يأتي :

وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ .

أي : أن إخوان الشياطين – الذين لا يتقون الله – يتمكن الشياطين من إغوائهم ، فيمدونهم في غيهم وإفسادهم ؛ لأنهم لا يذكرون الله إذا شعروا بالنزوع إلى الشر ، ولا يستعيذون به من نزغ الشيطان ومسه .

والخلاصة : أن المؤمنين إذا مسهم طائف من الشيطان يحملهم على المعاصي ؛ تذكروا فأبصروا، وحذروا فسلموا وإن ذلّوا ؛ تابوا وأنابوا .

وإن إخوان الشياطين ، تتمكن الشياطين من إغوائهم ؛ فيمدونهم في غيّهم ، ولا يكفُّون عن ذلك ، ومن ثمَّ تراهم يستمرون في شرورهم وآثامهم لفقد الوازع النفسي [٩٦] .

★ ★ ★

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾

المفردات :

اجتبيتها : طلبتها .

بصائر : ما تبصر به عقولكم من الآيات .

فاستمعوا : فاقصدوا سماعه .

وأنصتوا : واسكتوا متأملين معناه .

تضرعا : تذللا .

وخيفة : وخوفا .

الغدو : أول النهار .

الآصال : جمع أصيل : وهو آخر النهار والمقصود من الغدو والآصال هنا : جميع الأوقات .

التفسير:

٢٠٣- وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ... الآية .

كان المشركون لا يكفُّون عن طلب الخوارق من رسول الله ﷺ ، والآية تحكى بعض أقوالهم ؛ الدالة على جهلهم بطبيعة الوحى والرسالة ؛ فقد كانوا يتصورون أن فى مقدرة النبىِّ معرفة الغيب ؛ أو الاقتراح على الله أن يُنزل بعض المعجزات ، أو بعض الآيات من القرآن .

ومعنى الآية :

وإذا لم تأت أيها الرسول أهل مكة بآية مما اقترحوا حدوثه ، أو بآية من القرآن .

قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا .

أى : لولا ألححت على ربك حتى ينزلها!...

أو هلا فعلتها أنت من نفسك ؟ ألست نبيًا ؟!

قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى .

أى : إنما أنا بشر يتلقى الوحى ، ولا يطلب ولا يقترح ؛ فإن الله هو الذى ينزل الوحى وهو العليم الحكيم الخبير بما يحتاج إليه العباد .

ونظير ذلك قوله تعالى : وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ. (يونس : ١٥)

ثم نبههم الحق تعالى ، إلى أن هذا القرآن أعظم المعجزات ، وكأنه يقول لهم : ما لكم تطلبون شيئًا لا يفيدكم ؟ وإنما لديكم هذا القرآن الذى يشتمل على آيات الله الكونية ويرشد إلى الهدى ، وينير الطريق للسالكين .

هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

أى : هذا القرآن بصائر وحجج ناهضة من ربكم ؛ يعود من تأملها وعقلها بصير العقل بما تدل عليه من الحق ؛ إذ هى أدلّ عليه من الآيات الكونية التى تطلبونها .

قال تعالى : قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ. (الأنعام : ١٠٤).

وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

وهذا القرآن هدى للحيارى إلى طريق الاستقامة ؛ وهو أيضًا رحمة فى الدنيا والآخرة لمن يؤمن به ، فمن آمن به وعمل بأحكامه ؛ فهو من المفلحين .

قال تعالى : وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ . (الأنعام : ١٥٥) .

جاء فى التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلى :

هذا القرآن أعظم المعجزات ، وأبين الدلالات وأصدق الحجج والبينات فهو متصف بخصائص ثلاث :

١ – مبَصِّرٌ بالحق فى دلالته على التوحيد والنبوة والمعاد ، وتنظيم الحياة بأحسن التشريعات .

٢ – هاد ومرشد إلى طريق الاستقامة .

٣ – رحمة فى الدنيا والآخرة للمؤمنين به .

وجاء فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ما خلاصته :

إنه هذا القرآن بصائر تهدى ، ورحمة تفيض .. لمن يؤمن به ويغتنم هذا الخير العميم .

إنه هذا القرآن الذى لا تبلغ خارقة مادِّية من الإعجاز ما يبلغه.. من أى جانب من الجوانب شاء الناس.

هذا جانبه التعبيرى كان وما يزال إلى اليوم معجزًا لا يتطاول إليه أحد فى البشر ، تحدّاهم الله به وما يزال هذا التحدّى قائمًا ..

ويبقى وراء ذلك السر المعجز فى هذا الكتاب الفريد ... ويبقى ذلك السلطان الذى له على الفطرة ، متى خلّى بينه وبينها لحظة ...

منهج هذا القرآن العجيب فى مخاطبة الكينونة البشرية بحقائق الوجود ، وهو منهج يواجه هذه الكينونة بجملتها ...

منهج هذا القرآن العجيب ، وهو يتناول قضايا الوجود ، فيكشف منها ما تتلقاه فطرة الإنسان وقلبه وعقله بالتسليم المطلق .

منهج هذا القرآن العجيب فى النظرة الكلية فى هذا الوجود وطبيعته ، وحقيقته ونشأته ، فى النظرة الكلية إلى الإنسان ونفسه وأصله ونشأته ، وطبيعة تركيبه وانفعالاته واستجاباته وأحواله ، تلك الموضوعات التى تطرقُ جوانب منها علوم الحياة والنفس والتربية والاجتماع والعقائد والأديان ... [٩٧]

٢٠٤ – وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ .

المعنى : وإذا قرئ القرآن فأصغوا إليه أسماعكم لتفهموا آياته وتتعظوا بمواعظه ، وأنصتوا له عن الكلام ، مع السكون والخشوع ؛ لتعقلوه وتتدبروه ، ولتتوصلوا بذلك إلى رحمة الله ، بسبب تفهُّمه ، والاتعاظ بمواعظه .

والآية تدل على وجوب الاستماع والإنصات ، سواء أكانت التلاوة فى الصلاة ، أم فى خارجها ، وهى عامة فى جميع الأوضاع وكل الأحوال ، ويتأكد ذلك فى الصلاة المكتوبة ، إذا جهر الإمام بالقراءة .

القراءة خلف الإمام

تفيد الآية وجوب الإنصات للقرآن ومحاولة الفهم والتدبر ؛ حتى يخشع القلب ويستقر الإيمان ، وهذه الأمور من وسائل رحمة الله وهدايته ، سواء كانت القراءة فى الصلاة أم فى خارجها . لكن اختلف العلماء على ثلاثة آراء فى قراءة المأموم خلف الإمام ؛ هل يسقط عن المأموم فرض القراءة فى الصلاة الجهرية والسرية ، أو يجب ، وهل الوجوب خاص فى السرية دون الجهرية .

١ – ذهب الحنفية : إلى أن المأموم لا يقرأ خلف الإمام مطلقًا ، جهرًا كان يقرأ أم سرًّا ؛ لظاهر الآية ، ولما رواه مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «إنما جُعل الإمام ليؤتم به ، فإذا كبر فكبّروا ، وإذا قرأ فأنصتوا» .

وفى كتب الفقه عند الحنفية «ولا يقرأ المؤتم بل يستمع وينصت وإن قرأ ؛ كره تحريمًا» .

٢ – المالكية والحنابلة : رأوا أن المأموم يقرأ خلف الإمام إذا أسرّ ولا يقرأ إذا جهر .

وهو قول وسط يؤيده الواقع وفقه الحديث ، وأنا شخصيا أطبقه فى صلاتى ، وهو قول عروة بن الزبير والقاسم بن محمد والزُّهرى .

٣ – الشافعية : يقرأ المصلى بفاتحة الكتاب مطلقًا ، سواء كان إمامًا أو مأمومًا أو منفردًا ، فى صلاة جهرية أو سرية .

لما رواه الجماعة وأحمد وأصحاب الكتب الستة ؛ عن عبادة الصامت أن رسول الله ﷺ قال : «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» [٩٨] .

القـرآن اليـــوم

إن المسلمين فى أمس الحاجة إلى تلاوة القرآن وتدبره ، وتدريب أبنائهم وبناتهم وزوجاتهم على تلاوة القرآن الكريم ، ساعة فى كل يوم ؛ وهذا طريق للهداية والإيمان ؛ كما يجب الإنصات إلى القارئ فى المحافل والمآتم ، «وما يفعله جماهير الناس فى المحافل التى يقرأ فيها القرآن ؛ كالمآتم وغيرها ، من ترك الاستماع والاشتغال بالأحاديث المختلفة ، فمكروه كراهة شديدة ، ولا سيما لمن كانوا على مقربة من القارئ [٩٩]» .

«ويجب على كل مؤمن بالقرآن أن يحرص على استماعه عند قراءته ، كما يحرص على تلاوته ، وأن يتأدب فى مجلس التلاوة ..» .

وتستحب القراءة بالترتيل والنغم الدالة على التأثير والخشوع من غير تكلّف ولا تصنع .

روى الشيخان أن رسول الله ﷺ قال : «ما أذن الله لشىء ما أذن لنبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن» [١٠٠] وأذن هنا بمعنى : استمع أو سمع . وروى البخارى عن أبى هريرة مرفوعًا «ليس منّا من لم يتغنَّ بالقرآن» [١٠١] ويستحب البكاء عند القراءة والخشوع ، وإلاَّ فالتباكى والتخشع ، وأن يستعيذ بالله قبلها ، ويدعو الله فى أثنائها ، بحسب معانى الآيات . كسؤال الرحمة عند ذكرها ، والاستعاذة من العذاب عند ذكره . «وكان أنس رضى الله يجمع أهله وولده عند ختم القرآن» فاستحبوا الاقتداء به [١٠٢] .

فى أعقاب الآية :

جاء فى ظلال القرآن ما خلاصته :

«تختلف الروايات المأثورة فى موضع الأمر بالاستماع والإنصات ؛ إذا قرئ القرآن .. بعضهم يرى أن موضع هذا الأمر هو الصلاة المكتوبة حين يجهر الإمام بالقرآن ، فيجب أن يستمع المأموم وينصت .

وبعضهم يرى أن هذا كان توجيهًا للمسلمين ؛ ألا يكونوا كالمشركين ؛ حين قالوا : لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ . (فصلت : ٢٦) .

وبعضهم يرى أنها فى الصلاة وفى الخطبة ، كذلك فى الجمع والعيدين .

وقال القرطبى فى التفسير : قال النقاش : أجمع أهل التفسير ، أن هذا الاستماع فى الصلاة المكتوبة وغير المكتوبة ، ونحن نرى أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ؛ والأقرب أن يكون ذلك عامًا لا يخصصه شىء ؛ فالاستماع إلى هذا القرآن ، والإنصات له حيثما قُرِئَ ، هو الأليق بجلال هذا القول ، وبجلال قائله سبحانه [١٠٣] .

٢٠٥ - وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَافِلِينَ .

تكمل هذه الآية مع ما سبقها منهج حياة المسلم ، وكيف سما القرآن بنفوس العرب ، فجعل حياتهم وسلوكهم فى هدى القرآن وذكر الرحمن .

والآية السابقة أمرت المسلمين بالاستماع والإنصات للقرآن ، فلعل آية واحدة يتأمل فيها المسلم أو يستمع ويُنصت ، تفتح له أبوابًا من فضل الله ورحمته .

والآية التى معنا توصى بالآتى :

ينبغى أن يذكر المؤمن ربَّه سرًّا فى نفسه بذكر أسمائه وصفاته ونعمائه وفضله حتى يعترف بشكره، كما ينبغى أن يذكره ضارعًا متذللاً ؛ خائفًا راجيًا ثوابه وفضله ، وينبغى أن ينوِّع ذكره لله ؛ فمرة سرًّا وفكرًا، ومرة ذكرًا متوسطا بين الإسرار والجهر ، وفى كل حال ينبغى أن يكون ذكر اللسان مقرونًا باستحضار القلب، وملاحظة المعانى ، فذكر اللسان وحده ضعيف الأثر ، والواجب الجمع بين ذكر القلب وذكر اللسان ، وأن يكون الذاكر راغبًا فى الثواب راهبًا من العقاب .

وفى معنى الآية يقول الله تعالى : وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا . (الإسراء : ١١٠).

وقال سبحانه وتعالى : يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱذْكُرُوا ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . (الأحزاب: ٤١ ؛ ٤٢).

وقال سبحانه : وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (الإنسان : ٢٥) .

الغدو والآصال

الغدو : جمع غدوة : وهى ما بين صلاة الغداة (الفجر) إلى طلوع الشمس .

الآصال : جمع أصيل : وهو العشىّ ما بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس ، والمقصود : الذكر أوائل النهار وأواخره ، أى : فى كل وقت .

إن القرآن بذلك يحرِّك القلوب للنظر فى ملكوت السماوات والأرض ، ولذكر الله عند بروق الفجر وانتشار الضوء وظهور النور في الأفق ، وهذه آية يذكر المؤمن فيها ربه .

قال تعالى : وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ * وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ ٱلسُّجُودِ . (ق : ٣٩ ، ٤٠).

أي : اذكر ربك في كل حين خصوصًا عند انبلاج الصبح قبل شروق الشمس وعند الأصيل قبيل الغروب وفي ظلام الليل ورؤية النجوم ، وبعد الصلاة والسجود .

وبهذا يظلّ قلب المؤمن متعلقًا بفضل الله فالذكر نعمة وتذكر .

قال تعالى : وَٱلذَّاكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا . (الأحزاب : ٣٥) .

في أعقاب الآية :

روى عن ابن عباس أنه قال : يعني بالغدوّ : صلاة الفجر ، والآصال : صلاة العصر . اهـ .

وقد ورد في الصحيح : تجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة العصر وفي صلاة الفجر ، اقرءوا إن شئتم قول الله تعالى : إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا [١٠٤]. (الإسراء : ٧٨) .

الأفضل في الذكر التوسّط وعدم الجهر ، وكذلك في الدعاء .

قال تعالى في الآية : وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ. يقال : رجل جهير الصوت ؛ إذا كان صوته عاليًا .

روى الشيخان عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : كنا في سفر مع النبي ﷺ ، فجعل الناس يجهرون بالتكبير فقال النبي ﷺ : «أيها الناس ، أربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصمّ ولا غائبًا ، إنكم تدعون سميعًا قريبًا وهو معكم» [١٠٥] . وفي الأثر «خير الذكر الخفيّ» .

٢٠٦ - إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ .

إن الملائكة المقربين من الله تعالى ، لا يتكبرون عن عبادة الله ، وينزهونه عن كل ما لا يليق بعظمته وكبريائه ، وله وحده يُصلّون ويسجدون فلا يشركون معه أحدًا .

وهذا تذكير بفعل الملائكة ؛ لنقتدي بهم في كثرة طاعتهم وعبادتهم .

إن العبادة وذكر الله عنصر أساسي في منهج هذا الدين ، إنه ليس مجرد معرفة نظرية ، إنه منهج حركة واقعية ، ولذلك يحتاج إلى العبادة والذكر والصبر والسلوك والإيمان ، فإنها زاد الطريق إلى مرضاة الله رب العالمين ،وقد شرع الله لنا السجود عند تلاوة هذه الآية الأخيرة ؛ من سورة الأعراف أو عند سماعها؛ إرغامًا لمن أبى ذلك من المشركين ، واقتداء بالملائكة المقربين .

ومثلها آيات أخرى في القرآن مجموعها ١٤ آية ؛ ينبغي للمسلم أن يسجد للتلاوة عند قراءتها أو سماعها .

وقد كان النبى ﷺ يقول فى سجود التلاوة : «اللهم لك سجد سوادى ، وبك آمن فؤادى ، اللهم ارزقنى علمًا ينفعنى ، وعملا يرفعُنى» [١٠٦] .

خلاصة ما اشتملت عليه سورة الأعراف

١ – توحيد الله تعالى إيمانًا وعبادة وتشريعًا ، وصفاته وشئون ربوبيته .

٢ – الوحى والكتب والرسالة والرسل .

٣ – الآخرة والبعث والجزاء .

٤ – أصول التشريع وبعض قواعد الشرع العامة .

٥ – آيات الله وسننه فى الخلق والكون .

٦ – سننه تعالى فى الاجتماع والعمران البشرى .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

تم تفسير سورة الأعراف ويليها تفسير سورة الأنفال إن شاء الله

★ ★ ★



تفسير سورة الأنفال

دروس من سورة الأنفال

أهـداف السـورة

من الأسباب المباشرة لنزول سورة الأنفال معالجة شئون حدثت بين المسلمين فى غزوة بدر ، منها: كراهتهم للخروج إلى بدر حين دعاهم الرسول إلى الخروج وكراهتهم للقتال حين وصلوا إلى بدر وتحتم عليهم أن يقاتلوا .

ومنها : اختلافهم بعد تمام النصر فى قسمة الغنائم .

ومنها : اختلاف الرأى فى معاملة الأسرى أيقبلون منهم الفداء أم يقتلونهم ؟

وفى جو هذه الشئون عرضت السورة لما يجب أن يكون عليه المسلمون فى خاصة أنفسهم من جهة امتثال الأمر والإخلاص والحيطة والحذر من الأعداء ، وتذكّر نعم الله عليهم ، والآداب التى يجب مراعتها أثناء القتال ، وفيما يتصل به ، من إعداد العدة ، والمحافظة على العهود ، وعلاقة بعضهم ببعض ؛ حتى يكونوا أهلاً لما وعدهم الله من النصر والتأييد ، وحتى يفوزوا بدرجات المغفرة والرضا عند الله .

ولا يفهم من ذلك أن كراهة القتال كانت طابعًا عاما ، بل كانت رغبة فريق قليل ونفر محدود كان يفضل الغنيمة والحصول على التجارة عن القتال ، لكن بقية الجيش كان على استعداد للتضحية والفداء ، وكان القرآن يوحد الهدف ويرشد الجميع إلى أن القتال أفضل ؛ لأن فيه انتصافًا للمؤمنين وإعلاء لكلمة الله، ودحرًا للطغيان وتحطيمًا لطواغيت الكفر وردعًا للمشركين ، وقد استشار النبى المسلمين قبل بدء المعركة هل يقدم على القتال ؟ أم يعود إلى المدينة ؟

فأدلى أبو بكر وعمر برأيهما ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله ، امض لما أراك الله فنحن معك والله لا تقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون .

ثم قال النبى ﷺ : «أشيروا على أيها الناس» [١٠٧] فقام سعد بن معاذ زعيم الأنصار وقال: يا رسول الله، آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض لما أردت فنحن معك فوالذى بعثك بالحق نبيًا لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك وما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا ، إنا لصبر فى الحرب ، صدق فى اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، وعندئذ أشرق وجه الرسول بالمسرة ، وقال لأصحابه : «سيروا

وأبشروا فإن الله وعدنى إحدى الحسنيين العير أو النفير !» وقد فرت العير فلم يبق إلا النفير فسار المسلمون وكلهم أمل فى النصر .

صور من معركة بدر

نزلت سورة الأنفال فى غزوة بدر ، وهى الموقعة الفاصلة فى تاريخ الإسلام والمسلمين ، بل فى تاريخ البشرية كلها إلى يوم الدين ، الموقعة التى قدر المسلمون أن تكون غايتها غنيمة أموال المشركين ، وقدر رَبُّ المسلمين أن تكون فيصلاً بين الحق والباطل ، وأن تكون مفرق الطريق فى تاريخ الإسلام ، ومن ثم تكون مفرق الطريق فى خط سير التاريخ الإنسانى العام ، والتى ظهرت فيها الآماد البعيدة بين تدبير البشر لأنفسهم فيما يحسبونه الخير ، وتدبير رب البشر لهم ولو كرهوه فى أول الأمر .

نزلت سورة الأنفال فى غزوة بدر فتضمنت الكثير من دستور السلم والحرب ، ودستور الغنائم والأسرى، ودستور المعاهدات والمواثيق ، وتضمنت بعد ذلك الكثير من دستور النصر والهزيمة بتضمنها لأسباب النصر والهزيمة ، ولواجبات المجاهدين فى الإعداد والاستعداد ، ثم ترك الأمر بعد ذلك لله وما النصر إلا من عند الله . ثم إنها تضمنت بعد ذلك مشاهد من الموقعة ومشاهد من حركات النفوس قبل المعركة وفى ثناياها وبعدها ، مشاهد حية تعيد إلى المشاعر وقع المعركة وصورها وسماتها ؛ كأن القارئ يراها . وإلى جوار المعركة استطراد السياق أحيانا إلى صور من حياة الرسول – ﷺ – وحياة أصحابه فى مكة ، حين كانوا قليلاً مستضعفين فى الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس ، وصور من حياة المشركين قبل هجرة الرسول – صلى الله عليه وسلم – من بين ظهرانيهم ومن بعدها ، وأمثلة من مصائر الكافرين من قبل – كدأب آل فرعون والذين من قبلهم – والدأْب : معناه : الصفة والشأن أى : أن شأن الكافرين واحد فى تكذيب الرسل، واستحقاق العقاب ، وبذلك تقرر السورة سنة الله التى لا تتخلف فى نصر المؤمنين وهزيمة المكذبين.

الغنائم

لقد افتتح الله السورة بالحديث عن الأنفال ، وهى الغنائم التى يغنمها المسلمون فى جهادهم لإعلاء كلمة الله ، وقد ثار بين أهل بدر جدال حول تقسيمها بعد النصر فى المعركة فردهم الله إلى كلمته وحكمه فيها ، ردهم إلى تقواه وطاعته وطاعة رسوله واستجاش فيهم وجدان التقوى والإيمان ، ثم أخذ يذكرهم بما أرادوا هم لأنفسهم من الغنيمة وما أراده الله لهم من النصر ، وكيف سارت المعركة وهم قلة لا عدد لهم ولا عدة وأعداؤهم كثرة فى الرجال والعتاد ، وكيف ثبتهم الله بمدد من الملائكة ، وبالمطر يستقون منه ويثبت الأرض تحت أقدامهم فلا تسوخ فى الرمال ؛ وبالنعاس يغشاهم ؛ فيسكب عليهم السكينة والاطمئنان ويلقى الرعب فى قلوب أعدائهم وينزل بهم شديد العقاب . قال تعالى :

إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ . (الأنفال: ١١) .

الحرب والسلام

تضمنت سورة الأنفال دراسة كاشفة وتصويرًا ملموسًا للمواقف الناجحة والحروب الهادفة ، كما رسمت السورة – مع سور أخرى فى القرآن الكريم – أسباب النصر فى الميدان ، ومن هذه الأسباب ما يأتى:

١– إخلاص النية والرغبة فى الشهادة وإيثار الآخرة على الدنيا وتحمل تبعات الحرب وآلام القتال.

٢– الثبات فى اللقاء وتذكر الله فى العسر واليسر وعدم الفرار من الميدان وبذل النفس والنفيس فى سبيل الله.

٣– إعداد العدة وتجهيز أدوات القتال والتدريب عليها مع وحدة الصف وتماسك القوى وترابط المقاتلين .

٤– التوكل على الله والالتجاء إليه بعد الأخذ فى الأسباب وطاعة القائد وتنفيذ الأوامر والمحافظة على النظام وأخذ الحذر.

٥– البعد عن التنازع والاختلاف فى حال القتال وما يتعلق به ؛ فإن النزاع والخلاف من أكبر الأسباب فى إذهاب القوة وتمكين الأعداء .

وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ .

أى : لا تختلفوا ؛ فإن الخلاف يؤدى إلى الضعف والهزيمة وضياع القوة والدولة .

٦– عدم تصديق الإشاعات والأراجيف ومصاولة اليأس والقنوط والقضاء على أساليب العدو وعلى الحرب النفسية التى يشنها رغبة منه فى تثبيط الهمم والتيئيس من النصر.

★ ★ ★

ومن ثم يأمر الله المؤمنين فى سورة الأنفال أن يثبتوا فى كل قتال مهما خيِّل إليهم فى أول الأمر من قوة أعدائهم ؛ فإن الله هو الذى يقتل وهو الذى يرمى وهو الذى يدبِّر ، وما هم إلا أسباب ظاهرة لتنفيذ إر ر ادة الله .ويسَخَرَ القرآن من المشركين الذين كانوا قبل الموقعة يستفتحون ، فيطلبون أن تدور الدائرة على أضلّ الفريقين وأقطعهما للرحم فيقول :

إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ .

ويحذر المسلمين أن يتشبهوا بالكفار والمنافقين الذين يسمعون بآذانهم ولكنهم لا يسمعون بقلوبهم؛ لأنهم لا يستجيبون ولا يهتدون .

ثم تدعو السورة المسلمين إلى الاستجابة لله وللرسول إذا دعاهم لما يحييهم ولو خيل إليهم أن فيه القتل والموت ، وتذكرهم كيف كانوا قليلاً مستضعفين يخافون أن يتخطفهم الناس فأعزهم الله ونصرهم ، وأنهم إذا اتقوا الله ؛ جعل لهم فرقانا من النصر الكامل ذلك فوق تكفير السيئات وغفران الذنوب وما ينتظرهم من فضل الله الذى تتضاءل دونه المغانم والأموال .

وكما وضعت سورة الأنفال صفحة فى كتاب الإسلام عن الجهاد ، فإنها قابلتها بصفحة أخرى عن السلم لمن يجنح إليه ويختار الهدنة ، ويتضح لنا من السورة أن السلم هو القاعدة فى الإسلام ، أما الحرب فطارئة لدفع الباطل وإقرار الحق ، ومن ثم يدعو الإسلام إلى السلم دعوته إلى الجهاد ، ويحافظ على العهد ؛ ما وفى به المعاهدون ويؤمِّن المخالفين للإسلام فى العقيدة من كل اعتداء غادر ، ويحصر الحروب فى أضيق نطاق تقضى به ضرورة تأمين السلم والحق والعدل ، ويَعدُّ الناقضين للعهود من عالم الحيوان لا من عالم الإنسان .

يقول سبحانه وتعالى :

وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ . (الأنفال: ٦١)

والتعبير عن الميل إلى السلم بالجنوح تعبير لطيف يلقى ظل الدعة الرقيق فهى حركة جناح يميل إلى السلم ويرخى ريشه فى وداعة واطمئنان ؛ فإذا الجو من حوله طمأنينة وسلام .

وهناك حالة استثنائية واحدة هى حالة جزيرة العرب التى سيجىء فى سورة براءة نبذ عهود المشركين فيها جميعًا وتخليصها من الشرك كافة ؛ لتكون موطنًا خالصًا للإسلام .

صفات المؤمنين

تعرضت سورة الأنفال لبيان صفات المؤمنين كما ورد تحديد هذه الصفات فى أول سورة البقرة وأول سورة المؤمنون ، وفى سورة الفرقان ، وفى كثير من السور .

وإذا استوعبنا هذه الآيات وجدناها تدور حول تحديد المؤمن – الذى يريده الله – بمن يجمع بين سلامة العقيدة وسلامة الخلق ، وصلاح العمل ، وبمن يكون فى ذلك كله مثالاً صادقًا وصورة صحيحة لأوامر الله وإرشاداته .

وقد وصف الله المؤمنين فى سورة الأنفال بخمس صفات هى: وجل القلوب عند ذكر الله ، وزيادة الإيمان عند تلاوة آياته ، والتوكل على الله وحده ، وإقامة الصلاة ، والإنفاق مما رزق الله . ثم بين أنهم بهذه الصفات يكونون أهل الإيمان حقا وأن لهم عند الله درجات عالية فى الجنة .

فالمؤمن حقًا يراقب مولاه ، ويرجو رحمته ، ويخشى عقابه ، ويخشع عند تذكر آياته ، وهو فى خشوعه وخضوعه وعبادته مخلص القلب ، ثابت اليقين .

ومن صفة المؤمن زيادة إيمانه ورسوخ عقيدته عند تلاوة القرآن وتدبر آياته ، ومعرفة أحكامه وأسراره ، كما أن إقامته للصلاة وأداءه للزكاة ، وعمله بمقتضى هذه الإيمان سلوكًا وتطبيقًا ، مما يزين الإيمان فى القلب ويزيده ثقة ويقينًا .

فالصلاة فى حقيقتها مناجاة ومناداة وخشوع وخضوع وقراءة ودعاء . ومن ثمرتها : طهارة المؤمن من الفحشاء والمنكر وتهذيب الغرائز وتقويم السلوك وتربية الضمير . والزكاة فيها تكافل المجتمع وترابط الأغنياء والفقراء .

وفى سورة الأنفال حث على الإنفاق من كل ما رزق الله وهو يشمل – كما فصَّل الفقهاء – زكاة الأموال وزكاة الزروع والثمار وزكاة الماشية وزكاة الركاز وكل ما يستخرج من باطن الأرض ، وزكاة التجارة ، ولا نكاد نجد آية عرضت للصلاة إلا وتذكر الإنفاق فى سبيل الله ، كما أنا لا نكاد نجد آية تعرضت لأوصاف المؤمنين وتهملهما أو تهمل أحدهما .

فقد جعل الله إقامة الصلاة مثالاً لبذل النفس فى سبيله وجعل الإنفاق مثالاً لبذل المال فى سبيله .

وبذلك يتسم الإيمان بطابع تهذيب النفس وطهارة القلب ، كما يتسم بأنه دافع عملى إلى السلوك النافع والعمل الصالح الذى يؤدى إلى إصلاح المجتمع وتماسك الأمة وتقوية روابط المودة والرحمة والألفة بين الناس .

نداءات إلهية للمؤمنين

أخذت سورة الأنفال تنادى المؤمنين ست مرات بوصف الإيمان ، فى **النداء الأول** : تأمرهم بالثبات فى الميدان والشجاعة فى القتال ، وتنهاهم عن الفرار من المعركة وتتوعد الفارَّ من ميدان القتال بعذاب السعير وغضب الله العلى القدير ، والنداء الثانى : يشتمل على الأمر بطاعة الله ورسوله ، وقد امتثل المسلمون لذلك الأمر فانقادوا لأحكام الله وبذلوا أنفسهم وأموالهم فى سبيل الله ، وهذا الطريق هو طريق النصر للسابقين واللاحقين :

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ . (الأنفال: ٢٠)

والنداء الثالث : الاستجابة لله وللرسول وتغليب أمرهما على كل ما سواهما من أوامر وفى الحديث الشريف : «ثلاث من كن فيه ؛ وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار»[١٠٨] .

النداء الرابع: دعوة إلى ترك الخيانة والبعد عن إفشاء أسرار الأمة :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ . (الأنفال: ٢٧)

النداء الخامس: دعوة إلى تقوى الله فى أحكامه وسننه وبيان أن التقوى شجرة مثمرة ، وأعظم ثمارها النور الذى يبصر صاحبه بالحق والعدل وطريق الصلاح والهدى .

النداء السادس: يأمر بذكر الله وتلاوة كتابه وينهى عن الفرقة والتنازع والاختلاف ويحث على الصبر والتمسك بالوحدة والجماعة ، حيث يقول سبحانه وتعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ وَاذْكُرُواْ اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . (الأنفال: ٤٥)

★ ★ ★

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٤ ﴾

المفردات :

الأنفال : هى الغنائم واحدها : نَفَل بتحريك الفاء ، وقد تطلق على ما يعطى زيادة على السهم من المغنم.

فاتقوا الله : فاجعلوا لأنفسكم وقاية من عقوبة الله تعالى بالإيمان والعمل الصالح .

وأصلحوا ذات بينكم : وأصلحوا الأحوال التى بينكم بالمساواة والمساعدة ، وقال الزجاج: معنى ذات بينكم: حقيقة وصلكم ، والبين: الوصل أى: فاتقوا الله وكونوا مجمعين على ما أمر الله ورسوله.

وجلت قلوبهم : خافت وفزعت .

زادتهم إيمانًا : تصديقًا ويقينًا .

يتوكلون : يثقون بالله لا غيره .

التفسير:

١- يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ... الآية .

سبب النزول :

روى الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت قال :

خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدرًا فالتقى الناس فهزم الله تعالى العدو ، فانطلقت طائفة فى آثارهم يهزمون ويقتلون ، وأقبلت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه ، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لكى لا يصيب العدو منه غِرّة ، حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض ، قال الذين جمعوا الغنائم:

نحن حويناها وجمعناها ، فليس لأحد فيها نصيب ، وقال الذين خرجوا فى طلب العدو : لستم بأحق منا نحن نفينا عنها العدو وهزمناهم ، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ : لستم بأحق بها منا نحن أحدقنا برسول الله ﷺ مخافة أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به ؛ فنزلت : يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ... فقسمها رسول الله – ﷺ – بين المسلمين [١٠٩] .

وهناك روايات أخرى تفيد أن نزاعًا ما ، قد ظهر بين المسلمين حول توزيع الغنائم فأنزل الله هذه الآيات لبيان حكمه فيها .

والأنفال: جمع نفل وهو الزيادة ، ولذا قيل للتطوع: نافلة؛ لأنه زيادة على الأصل ، وقيل لولد الولد: نافلة ، لأنه زيادة على الولد . قال تعالى: وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً . (الأنبياء: ٧٢) .

وإطلاق الأنفال على الغنائم باعتبار أنها زيادة على ما شُرع الجهاد له ، وهو إعلاء كلمة الله ، أو باعتبار أنها زيادة خص الله بها هذه الأمة .

روى البخارى فى صحيحه أن رسول الله ﷺ قال : «أُعطيتُ خمسًا لم يعطهنّ نبى قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وأُحلت لى الغنائم ، ولم تحلّ لنبى قبلى ، وجعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا ، وأعطيت الشفاعة ، وأرسل كل نبى إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة» [١١٠] .

وجمهور العلماء على أن المقصود من سؤال بعض الصحابة لرسول الله ﷺ – أى : الغنائم – إنما هو عن حكمها وعن المستحق لها .

فيكون المعنى : يسألك بعض أصحابك يا محمد عن غنائم بدر كيف تقسم ومن المستحق لها ؟ قل لهم: الأنفال لله يحكم فيها بحكمه ، ولرسوله يقسمها بحسب حكم الله فيها ، فهو سبحانه العليم بمصالح عباده، الحكيم فى جميع أقواله وأفعاله .

وبعض العلماء يرى أن السؤال للاستعطاء ، وأن حرف «عن» زائد ، أو هو بمعنى من ، فيكون المعنى: يسألك بعض أصحابك يا محمد إعطاءهم الأنفال ، ويطلبون منك توزيع الغنائم عليهم .

وقد رجح جمهور العلماء أن السؤال هنا للاستفهام عن حكم الأنفال وعن طريقة توزيعها ، وذكر الآلوسى فى تفسيره طائفة من الأمور ترجح رأى جمهور العلماء .

وقد ورد فى أسباب النزول روايات تفيد أن الشباب سارعوا إلى قتال الكفار ، وأن الشيوخ وكبار السن وقفوا تحت الرايات ردءًا وعونًا أشبه بالخط الثانى للمقاتلين .

وأن الشباب كانوا يرون أنهم أولى بالغنائم ؛ لأنهم باشروا القتال ، والشيوخ يرون أن لهم حقًا يماثل حق الشباب ؛ لأن الشباب لو انهزموا لانحازوا للشيوخ وصار الشيوخ حماية وعونًا للشباب ، وكان النبى ﷺ قد قال : «من قتل قتيلا فله سَلَبُه» أى : أن الشاب المقاتل يستحق أن يغنم غنيمته من الكافر الذى قتله ، فظن الشباب أن هذا يجعلهم يستولون على الغنائم وحدهم .

ثم بين الله تعالى حكمة توزيع الغنائم على جميع جيش المسلمين سواءً الشباب الذين باشروا القتال، أو الشيوخ الذين كانوا عونًا وردءًا ، أو المجموعة التى تجصنت لحماية الرسول ﷺ والدفاع عنه ، فكل فئة كان لها ضلع فى نجاح المعركة .

قال الزمخشرى فى تفسير الكشاف :

فإن قلتَ : ما معنى الجمع بين ذكر الله والرسول فى قوله : قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُول .

قلتُ : معناه : أن حكمها مختص بالله ورسوله ، يأمر بقسمتها على ما تقتضيه حكمته ، ويمتثل الرسول أمر الله فيها ، وليس الأمر فى قسمتها مفوضًا إلى رأى أحد ، والمراد: أن الذى اقتضته حكمة الله وأمر به رسوله ، أن يواسى المقاتلة المشروط لهم التنفيل الشيوخ الذين كانوا عند الرايات ، فيقاسموهم على السوية ولا يستأثروا بما شرط لهم ، فإنهم إن فعلوا لم يؤمن أن يقدح ذلك فيما بين المسلمين من التحابّ والتصافى ...

فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ .

أى : إذا كان أمر الغنائم لله تعالى ورسوله ، فاتقوه تعالى واجتنبوا ما كنتم فيه من المشاجرة فيها والاختلاف الموجب لسخط الله تعالى ، أو فاتقوه تعالى فى كل ما تأتون وتذرون من النيات والعقائد والأعمال .

وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ . أى : وأصلحوا ما بينكم من الأحوال والصلات التى تربط بعضكم ببعض وإصلاحها بالوفاق والتعاون والمساواة وترك الأثرة ؛ لأن إصلاح ذات البين واجب ، يتوقف عليه قوة الأمة وعزتها ومنعتها ، وتحفظ به وحدتها .

وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . أى : الزموا طاعة الله وطاعة رسوله طاعة مطلقة وتسليمًا مطلقًا فذلك هو شأن المؤمنين ؛ إذ لا إيمان بغير طاعة وتسليم .

وفى التعبير بقوله : إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . تنشيط للمخاطبين وحث لهم على المسارعة إلى الامتثال .

عن أبى أمامة الباهلى قال: سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال : «فينا معشر أصحاب بدر ، نزلت حين اختلفنا فى النفل ، وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله من أيدينا وجعله إلى رسول الله ﷺ فقسمه عن بواء – يقول على السواء» (١١١) .

وعن عطاء : كان الإصلاح بينهم أن دعاهم وقال : اقسموا غنائمكم بالعدل .

ولا يفهم من ذلك أن الاختلاف على الغنائم كان أمرًا عامًّا شمل جميع المسلمين ، بل كان بين فئات منهم ، وكانت هذه أول غزوة ولم يكن قد نزل حكم بشأن الغنائم ، فأنزل الله كتابة الكريم ليبين لهم أن الغنائم لله سبحانه يحكم فيها بما يشاء ، ورسوله مبلغ عن الله ، وعلى المسلمين أن يراقبوا ربهم وأن يعودوا إلى طريق المودة والمحبة والصلح ؛ فإن كمال الإيمان يدور على امتثال هذه الأوامر .

وقد عاد المسلمون فعلاً إلى الإيمان والتسليم ، ووزع رسول الله ﷺ الغنائم بين جميع من شهد بدرًا من الشباب والشيوخ ، ومن جمع الغنائم ومن انشغل بأى أمر آخر ، فالكل كان يؤدى واجبه بطريقة مّا ، ولا غنى لأحد فيهم عن الآخر .

وقد أتم الله التشريع فى شأن الغنائم ، بالآية ٤١ من سورة الأنفال ، وفيها بين الله تعالى أن الغنائم تقسم إلى خمسة أخماس ، خمس لليتامى والمساكين وابن السبيل ، والأربعة أخماس الباقية من الغنيمة تقسم على الغانمين الذين حضروا المعركة .

قال تعالى: وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ.

قال الشافعى: إن الخمس يقسم على خمسة ، وإن سهم الله وسهم رسوله واحد يصرف فى مصالح المؤمنين ، والأربعة الأخماس على الأربعة الأصناف المذكورة فى الآية .

وقال أبو حنيفة: إنه يقسم الخمس على ثلاثة : لليتامى والمساكين وابن السبيل ، وقد ارتفع حكم قرابة رسول الله ﷺ بموته كما ارتفع حكم سهمه .

٢- إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ.

هذه الآية تحريض على التزام طاعة الله وطاعة الرسول ﷺ فيما أمر به من قسمة الغنيمة .

ومعنى الآية :

إنما المؤمنون الصادقون الذين إذا ذكر الله وذكرت صفاته أمامهم ؛ خافت قلوبهم وفزعت، استعظامًا لجلاله ، وتهيبًا من سلطانه ، وحذرًا من عقابه ورغبة فى ثوابه ؛ وذلك لقوة إيمانهم وصفاء نفوسهم ، وشدة مراقبتهم لله عز وجل ووقوفهم عند أمره ونهيه .

وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا. أى: ومن صفات المؤمنين أنهم إذا قرئت عليهم آيات القرآن أو الأدلة على وجود الله ؛ قوى إيمانهم وتصديقهم وتيقنهم بربهم ، ونشاطهم فى أعمالهم وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ.

فهم يعتمدون على الله ، ويفوضون أمورهم إليه ويتوجهون إليه بالدعاء مع الأخذ بالأسباب وعدم تركها ، ومراعاة سنن الله فى الكون التى لا تتبدل ، ولا تتغير ، ومن تركها ؛ كان جاهلاً مؤاخذًا .

ويتعلق بهذه الآية ما يأتى :

١ – **جمهور العلماء** : على أن الإيمان يقبل الزيادة والنقص ، وهو مذهب الجم الغفير من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين ، وذهب الإمام أبو حنيفة وكثير من المتكلمين إلى أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، واختاره إمام الحرمين ، محتجين بأنه اسم للتصديق البالغ حد الجزم والإذعان ، وذلك لا يتصور فيه زيادة ولا نقصان.

وإذا تأملنا الأمر ؛ وجدنا أن رأى جمهور العلماء فى هذه المسألة أولى بالقبول ؛ لأنه من الواضح أن إيمان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، أرسخ وأقوى من إيمان آحاد الناس ، ولأنه كلما تكاثرت الأدلة؛ كان الإيمان أشد رسوخًا فى النفس ، وأعمق أثرًا فى القلب .

جاء فى تفسير أبى السعود ما يأتى :

زَادَتْهُمْ إِيمَانًا . أى : يقينًا وطمأنينة نفس ، فإنّ تظاهر الأدلة وتعاضد الحجج والبراهين موجب لزيادة الاطمئنان وقوة اليقين ، وقيل : إن نفس الإيمان لا يقبل الزيادة والنقصان وإنما زيادته باعتبار زيادة المؤمن به ، فإنه كلما نزلت آية صدق بها المؤمن فزاد إيمانه عددًا وأما نفس الإيمان فهو بحاله، وقيل : باعتبار أن الأعمال تجعل من الإيمان فيزيد بزيادتها ، والأصوب أن نفس التصديق يقبل القوة ، وهى التى عبر عنها بالزيادة ، للفرق الواضح بين يقين الأنبياء وأرباب المكاشفات ، ويقين آحاد الأمة، وعليه مبنى ما قال على رضى الله عنه : لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا ، وكذا بين ما قام عليه دليل واحد ، وما قامت عليه أدلة كثيرة [١١٢] .

٢ – **قال الإمام النووى** : إن كل أحد يعلم أن ما فى قلبه يتفاضل حتى يكون فى بعض الأحيان أعظم يقينًا وإخلاصًا منه فى بعضها ، فكذا التصديق والمعرفة يتفاضلان بحسب ظهور البراهين وكثرتها .

٣ – قال تعالى : وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى (البقرة: ٢٦٠).

فهذه الآية دليل على أن مقام الطمأنينة فى الإيمان يزيد على ما دونه من الإيمان المطلق وشبيه بهذه الآية فى الدلالة على قبول الإيمان للزيادة والنقصان قوله تعالى :

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ . (الفتح : ٤) .

وقوله تعالى :

وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا (الأحزاب: ٢٢)

٣ - ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ . فى هذه الآية استكمال للصورة الكريمة للمؤمن .

فلا يكتمل إيمانُ المؤمن حتى يقيم الصلاة على وجهها ويؤديها فى خشوعها وخضوعها ، ولا يكمل إيمانه حتى يكون مع إقامة الصلاة - من المنفقين مما رزقهم الله فى وجوه البر والإحسان .

وقد تحدث العلماء عن الصلاة وخشوعها وخضوعها ووجوب حضور القلب فيها حتى يكون أداؤها كاملاً كما تحدثوا عن فرضية الزكاة ، وعن فضل الصدقة والإنفاق والعطاء .

وقد قرنت الصلاة بالزكاة فى كثير من آيات القرآن ، فالصلاة وسيلة لطهارة القلب وتعميق الإيمان، والإنفاق فى سبيل الله وسيلة للعطف على الفقراء والمساكين ومساعدة المحتاجين وتسخير المال فيما خلقه الله من أجله . قال تعالى : وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ .

والصفات السابقة كلها متكاملة تؤدى إلى شخصية سويه ونفس مطمئنة وقلب عامر بالإيمان .

٤ - أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ .

أى : أولئك الذين ذكرت صفاتهم الحميدة ، هم المؤمنون حيث جمعوا بين أفاضل الأعمال القلبية ، وأعمال الجوارح .

وفى التعبير بقوله تعالى : أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا .

إشارة إلى علو مكانة أولئك المؤمنين المتصفين بتلك الصفات ، وانحصار الإيمان فيهم حتى كأن من سواهم ليسوا بمؤمنين ؛ لأن الإيمان بلا ثمرة ، هو والعدم سواء وقوله : حَقًّا . منصوب على أنه صفة لمصدر محذوف ، أى : أولئك هم المؤمنون إيمانًا حقًّا .

لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ .

أى : لهم درجات عالية ومنازل عالية من الكرامة والزلفى والمنازل العالية فى الجنة .

وقوله : عِندَ رَبِّهِمْ . إشارة إلى أن هذا الوعد متيقن الوقوع ؛ لأنه وعد من كريم لا يخلف وعده . سبحانه!

﴿وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ . أى : مغفرة لذنوبهم وعطاء كريم لا ينقضى أمده ولا ينتهى عدده ، وهو ما أُعد لهم فى الجنة مما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر والكريم من كل شىء أحسنه .

تعليقات

١ – هذه الآيات الكريمة فى فاتحة سورة الأنفال تربية ربانية للمؤمنين ، وتوجيه لهم إلى ما يسعدهم، وإرشاد لهم إلى أن المؤمن الصادق فى إيمانه هو الذى يجمع بين سلامة العقيدة ، وسلامة الخلق وصلاح العمل وأن المؤمن متى جمع بين هذه الصفات ارتفع إلى أعلى الدرجات وأحس بحلاوة الإيمان فى قلبه...

روى الحافظ الطبرانى عن الحارث بن مالك الأنصارى أنه مر برسول الله ﷺ فقال له: كيف أصبحت يا حارث ؟ قال أصبحت مؤمنا حقًا ، فقال له الرسول ﷺ : انظر ما تقول ، فإن لكل شىء حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ فقال الحارث : عزفت نفسى عن الدنيا ، فأسهرت ليلى ، وأظمأت نهارى ، وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزًا ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأنى أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها فقال ﷺ: يا حارث ، عرفت فالزم» ثلاثًا (١١٢) .

٢ – من سنة القرآن الكريم فى ذكر القصص والوقائع أنه لا يعرض لها مرتبة حسب وقوعها وذلك لأنه لا يذكرها ؛ لما فيها من العبر والمواعظ ، ولما تتطلبه من الأحكام ولذلك لم تبدأ سورة الأنفال بالحديث عن الغزوة ، وإنما بدأت بالحديث عن الأنفال مع أنها أمر لاحق للغزو والجهاد ؛ لأن القرآن أراد أن يتجه مباشرة إلى تربية المؤمنين ، وعلاج الخلاف الذى حدث بسبب الغنائم ، وتوجيه القلوب إلى الإخلاص لله والتجرد من حب المال والتطلع إلى المادة ، ولا ريب أن حب المال والتطلع إلى المادة ، والضعف أمام إغراء المال من أكبر أسباب الفشل ، لقد كانت تربية القرآن تربية سليمة فى تطهير الروح ، وتوجيه النفوس إلى التكامل والتوازن والسلوك القويم .

★ ★ ★

﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٨ ﴾

المفردات :

كما أخرجك ربك من بيتك : أى : أخرجك من بيتك بالمدينة إلى بدر .

بالحق : أى : بالحكمة والصواب .

يجادلونك : يراجعونك .

فى الحق : المراد بالحق هنا : القتال وسيأتى بيانه

إحدى الطائفتين : العير أو النفير .

غير ذات الشوكة : الشوكة : الشدة والقوة ، ويقال : السلاح ، وغير ذات الشوكة : العير التى ليس فيها قتال .

يحق الحق : يظهره ويعلنه .

بكلماته : بأمره لكم بالقتال أو بوعده لكم بإظهار الدين وإعزازه .

ليحق الحق : ليظهر الإسلام .

ويبطل الباطل : المراد بإبطال الباطل : أن لا يجعل له شوكة .

التفسير :

٥- كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ .

تتحدث هذه الآية مع آيات تالية عن خروج المسلمين إلى غزوة بدر الكبرى .

وكان رسول الله ﷺ قد علم أن تجارة قريش فى طريق عودتها من الشام ، وستمر قريبًا من المدينة فقال عليه الصلاة والسلام لأصحابه : هذه عير قريش اخرجوا إليها علّ الله أن ينفلكموها ، فخف بعض الناس للخروج مع الرسول ﷺ ، وتثاقل بعضهم لعلمهم أن الرسول ﷺ لن يلقى حربًا ، فالتجارة يحيط بها حراس قليلون ، وخرج عليه الصلاة والسلام فى ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً معهم فرسان فقط ، وسبعون بعيرًا يتعاقبون عليها ، وبلغ أهل مكة خبر خروجهم ، فنادى أبو جهل فوق الكعبة : يا أهل مكة ، النجاء

النجاء على كل صعب وذلول ، عيركم أموالكم إن أصابها محمد ؛ لم تفلحوا بعدها أبدًا ، فخرج أبو جهل يجمع أهل مكة ، فقيل له : إن العير أخذت طريق الساحل ونجت فارجع بالناس إلى مكة فقال: واللات والعزّى لا يكون ذلك أبدًا حتى ننحر الجزر ونشرب الخمر ونقيم القينات والمعازف ببدر ، فيتسامع جميع العرب بخروجنا ، وإن محمدا لم يصب العير ، وإنا قد أخفناه فمضى بهم إلى بدر ، وهى قرية فى الطريق بين مكة والمدينة على مقربة من المدينة ، فنزل جبريل عليه السلام وقال: يا محمد ؛ إن الله وعدكم إحدى الطائفتين، إما العير ، وإما النفير - أى مشركى مكة - فاستشار النبى ﷺ أصحابه فقال: ما تقولون ؟ إن القوم قد خروجوا من مكة ، فالعير أحب إليكم أم النفير .. ؟ فقالوا : بل العير أحب إلينا من لقاء العدو ، فتغير وجه رسول الله ﷺ .

ثم رد عليهم فقال : «إن العير قد مضت على ساحل البحر ، وهذا نفير قريش قد أقبل» ، فقالوا : يا رسول الله ، عليك بالعير ودع العدو ، فقام أبو بكر فقال وأحسن ، وتكلم عمر فقال وأحسن ، ثم قام المقداد ابن عمرو رضى الله عنه فقال: يا رسول الله ، امض لما أمرك الله فإنّا معك حيثما أحببت ، لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون . ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون .. فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا إلى بَرْك الغماد ؛ لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه ، فقال له ﷺ خيرًا ودعا له . ثم قال : «أشيروا على أيها الناس» [١١٤] - وهو يريد الأنصار - فقام سعد بن معاذ فقال: لكأنك تريدنا يا رسول الله . قال : أجل ، قال: آمنا بك، وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة .

فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا ، وإنا لصُبر عند الحرب ، صُدق عند اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله ، ففرح رسول الله ﷺ ، وسره قول سعد ابن معاذ ثم قال : «سيروا ، وأبشروا فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين ، والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم» ثم دارت رحى المعركة وانتصر المؤمنون ، وهزم المشركون .

كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ .

هنا تشبيه بين حالين ، حال المسلمين فى مواجهة العدو ، بعد أن دارت رءوسهم واضطربت قلوبهم ، وحالهم فى الغنائم بعد أن اختلفت آراؤهم فيها ، واضطربت مشاعرهم حيالها . وانظر كيف أمسكت كلمات الله بكل خالجة كانت تختلج فى نفوس القوم هنا وهناك فى مواجهة العدو ، ثم فى مواجهة الغنائم .

قال المبرد فى معنى الآية :

الأنفال ثابتة لله ورسوله وإن كرهوا ، كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن كرهوا .

وقال غيره: امض لحكم ربك فى الغنائم وإن كرهوا ، كما مضيت لأمر ربك فى الخروج من البيت لطلب العير وإن كرهوا .

وذكر د. محمد سيد طنطاوى : إن معنى الآية:

حال بعض أهل بدر فى كراهتهم تقسيمك الغنائم بالسويّة ، مثل حال بعضهم فى كراهة الخروج للقتال مع ما فى هذه القسمة والقتال من خير ، وبركة .

والملاحظ أن الله تعالى أضاف خروج النبى من بيته إليه سبحانه أى : أن الخروج إلى بدر كان بأمر الله وتوجيهه ، حتى يخرج المسلمون خفافًا للقاء العير ، ثم تفلت العير ، ويقف المسلمون وجهًا لوجه أمام النفير ، وهو حرب المشركين ، وقد كانوا يكرهون ذلك فى أول الأمر ؛ لأنهم خرجوا للعير ، وأراد الله أن تفلت العير ، حتى تتم المواجهة ويتم الاستعداد للحرب ، ويتم إخلاص النية ، والامتثال لأمر الله .

وتلحظ أن الخروج بالحق أى : أخرجك الله إخراجًا متلبسًا بالحق ، الذى لا يحوم حوله باطل ، والبيت الذى خرج منه النبى ﷺ هو بيته فى المدينة ، أو هى المدينة كلها ، فقد تحولت من يثرب إلى مدينة الرسول ﷺ ، بعد أن نظمها وخططها وأتم إعمارها ، وأشاع فيها الأمن والنظام وصارت المدينة دار الإسلام فقال ﷺ : «إن الإسلام ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها» [١١٥] .

قال الشوكانى :

يذكر الله فى هذه الآية وما بعدها : أن الفضل فى النصر فى غزوة بدر إنما هو لله تعالى ، ولذا فالغنائم له ولرسوله ، ومن ذلك أنه أخرجهم من المدينة لحرب المشركين ، وأكثرهم كارهون ، وصرفهم إلى قتال جيش الكفار وكان أكثرهم لا يريدون ، وأمدهم بالملائكة إلى غير ذلك مما توضحه السورة .

وقال الآلوسى: وقوله : ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ . أى: للخروج ، إما لعدم الاستعداد ، أو الميل للغنيمة ، أو للنفرة الطبيعية عنه ، وهذا مما لا يدخل تحت القدرة والاختيار ، فلا يرد أنه لا يليق بمنصب الصحابة ، والجملة فى موضع الحال، وهى حال مقدرة ؛ لأن الكراهة وقعت بعد الخروج ..

٦- ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ .

المعنى: يراجعونك فى الحق – وهو لقاء النفير – أى : جيش العدو – ويؤثرون عليه لقاء العير للاستيلاء على تجارتهم ﴿بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ . من بعدما أخبرتهم أن النصر سيكون حليفهم ، فقد وعدهم الله إحدى الحسنيين:

العير أو النفير، وقد فرت العير فلم يبق إلا النفير ، لكن نفوس بعض الصحابة كانت قد تعلقت بالاستيلاء على العير وفضلت ذلك على القتال ، فلما فرض القتال ، وصار هو الخيار الوحيد ، كرهوا القتال كراهة من يساق إلى الموت سوقا لا مهرب منه ، وهو ناظر إليه بعينه ومشاهد لأسبابه .

وفى قوله تعالى : كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ .

تصوير معجز ، لما استولى على هذا الفريق من خوف وفزع من القتال بسبب قلة عَددهم وعُددهم ، وفيه بيان لفضل الله على هذه الفئة المؤمنة ، كيف من الله عليها بالإيمان ؟ ودربها على الشجاعة والتضحية والفداء ، فانتصرت عليها نفسها ، وتخلصت من الخوف وكراهية القتال ، ثم صارت بعد ذلك تحارب أضعافها من الكفار ، وتنتصر عليهم بفضل الله تعالى : كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ .

ويقول الله سبحانه وتعالى ممتنًا على عباده المؤمنين .

وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . (الأنفال: ٢٦) .

٧- وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ .

هذا كلام مستأنف مسوق لبيان جميل صنع الله بالمؤمنين مع ما هم فيه من الجزع وقلة الحزم .

جاء فى تفسير أبى السعود :

أَنَّهَا لَكُمْ .

بدل اشتمال من إحدى الطائفتين مبين لكيفية الوعد أى : يعدكم أن إحدى الطائفتين كائنة لكم مختصة بكم مسخرة لكم تتسلطون عليها تسلط الملاك وتتصرفون فيها كيف شئتم . ١ هـ .

والطائفتان : هما العير أو النفير ، أى : طائفة أبى سفيان ومعها التجارة ولم يكن فيها إلا أربعون فارسًا ورأسهم أبو سفيان ، وطائفة النفير والحرب ورئيسها أبو جهل ، وهم ألف مقاتل والمراد بذات الشوكة: النفير، والشوكة فى الأصل : واحدة الشوك وهو النبات الذى له حدثم استعيرت للشدة والحدة ، ومنه قولهم : رجل شائك السلاح أى : شديد قوى .

والمعنى: واذكروه – أيها المؤمنون – وقت أن وعدكم الله على لسان رسوله ﷺ بأن إحدى الطائفتين لكم وهى العير أو النفير ، وأنتم مع ذلك تودون أن تظفروا بالطائفة التى ليس معها سلاح وهى العير : وَيُرِيدُ

ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَافِرِينَ . يريد الله أن يستدرجكم إلى القتال وفيه العزة والكرامة لكم ، وفى هذا القتال يظهر الله الحق ، ويعليه بآياته المنزلة على رسوله تبشر بالنصر ، وبإنزال الملائكة ، وبقضائه الذى لا يتخلف بمعونة المؤمنين وهزيمة المشركين، وقطع دابرهم .

والدابر : التابع من الخلف ، يقال دبر فلان القوم يدبرهم دبورًا ، إذا كان آخرهم فى المجىء ، والمراد: أنه سبحانه يريد أن يستأصلهم عن آخرهم .

قال أبو السعود :

والمعنى : أنتم تريدون سفاسف الأمور والله يريد معاليها ، وما يرجع إلى علو الكلمة وسمو رتبة الدين وشتان بين المرادين .

وقال الزمخشرى فى تفسير الكشاف:

وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ...

يعنى أنكم تريدون العاجلة وسفاسف الأمور ، وأن لا تلقوا ما يرزؤكم فى أبدانكم وأموالكم ، والله عزو جل يريد معالى الأمور ، وما يرجع إلى عمارة الدين ونصرة الحق ، وعلو الكلمة والفوز فى الدارين، وشتان مابين المرادين ، ولذلك اختار لكم الطائفة ذات الشوكة ، وكسر قوتهم بضعفكم ، وغلب كثرتهم بقلتكم، وأعزكم وأذلهم ...

٨ – لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ .

قال الشوكانى :

ليثبت الإسلام فى الأرض ويعلى بنيانه ، ويمحق الشرك حتى يبطل وينتهى . وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ . هم المشركون من قريش أو جميع طوائف الكفار ؛ لأن كراهيتهم لاوزن لها ولا تعويل عليها .

وليس فى الآية تكرار ، فالحق الأول هو القتال لطائفة النفير مع ضمان النصر ، والحق الثانى هو الإسلام فالآية السابقة تمهيد ووسيلة لهذه الآية .

★ ★ ★

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾

المفردات :

تستغيثون : تطلبون الغوث والنصر على عدوكم ، والغوث : التخليص من الشدة .

فاستجاب : فأجاب دعاءكم .

مردفين : متبعين بعضهم بعضًا ، مأخوذ من أردفه إذا أركبه وراءه .

ولتطمئن : ولتسكن .

عزيز : لا يغالب في حكمه .

حكيم : يفعل ما تقتضيه الحكمة.

التفسير:

٩- إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ .

أى : اذكروا وقت استغاثتكم لربكم ، حين رأيتم أنه لابد من قتال النفير .

قال أبو السعود فى تفسيره:

وذلك أنهم لما علموا أنه لابد من القتال ، جعلوا يدعون الله تعالى قائلين : أى ربِّ ، انصرنا على عدوك يا غياث المستغيثين أغثنا ! وعن عمر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ نظر إلى المشركين وهم ألف ، وإلى أصحابه وهم ثلاثمائة وبضعة عشر ، فاستقبل القبلة ومد يديه يدعو : «اللهم ، انجز لى ما وعدتنى ، اللهم ، إن تَهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض» . فمازال كذلك حتى سقط رداؤه ، فأخذ أبو بكر رضى الله عنه فألقاه على منكبيه والتزمه من ورائه ، وقال : يا نبى الله ، كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك [١١٦].

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ .

اذكروا أيها المؤمنون – وقت أن كنتم – وأنتم على أبواب بدر تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ وتطلبون منه الغوث والنصر على عدوكم ، الذى جاء بخيله ورجله ، فأجاب الله دعاءكم واستغاثتكم ، وأخبر نبيكم – ﷺ – بأنى ممدكم بألف من الملائكة ، مردفين أى : متتابعين ، بعضهم إثر بعض ، أو إن الله تعالى جعلهم خلف المسلمين لتقويتهم وتثبيتهم .

وقد وردت استغاثة الرسول ﷺ بالله يوم بدر فى صحيح البخارى ومسلم وفى كتب السنن والسير.

جاء فى تفسير المنار عن ابن اسحاق أن رسول الله ﷺ قال: «اللّهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تجادل وتكذب رسولك، اللّهم فنصرك الذى وعدتنى».

كما روى سعيد بن منصور من طريق عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وتكاثرهم، وإلى المسلمين فاستقلهم فركع ركعتين وقام أبو بكر عن يمينه، فقال رسول الله ﷺ وهو فى صلاته: «اللهم لا تودّع منى، اللهم لا تخذلنى، اللهم لا تترنى - أى: لا تقطعنى عن أهلى وأنصارى، أو لا تنقصنى شيئًا من عطائك - اللهم أنشدك ما وعدتنى»[١١٧].

سؤال وجواب

إن قيل: إن هذه النصوص يؤخذ منها أن هذه الاستغاثة كانت من رسول الله ﷺ، فلماذا أسندها القرآن إلى المؤمنين؟ فالجواب: أن المؤمنين كانوا يؤمّنون على دعائه ﷺ، ويتأسون به فى الدعاء فنسبت الاستغاثة إلى الجميع.

وإن قيل: إن الله تعالى ذكر هنا أنه أمدهم بألف من الملائكة وذكر فى سورة آل عمران أنه أمدهم بأكثر من ذلك فكيف الجمع بينهما؟

أجيب بالآتى:

١ - جاء فى تفسير أبى السعود:

وقرئ بآلاف ليوافق ما فى سورة آل عمران، ووجه التوفيق بينه وبين المشهور: أن المراد بالألف الذين كانوا على المقدمة أو الساقة أو وجوههم وأعيانهم، أو من قاتل منهم، واختلف فى مقاتلتهم وقد روى أخبار تدل على وقوعها[١١٨].

٢ - جاء فى سورة آل عمران فى الآيات ١٢٣- ١٢٥.

أن الله أمد المؤمنين بثلاثة آلاف ثم صار المدد بخمسة آلاف من الملائكة.

قال تعالى: وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ * بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ.

ولا منافاة بين ما ورد فى سورة الأنفال وما ورد فى سورة آل عمران ، فقد كان المدد أولا بألف مردفين ، أى : يتبعهم ويردفهم ملائكة آخرون .

وقد بينت سورة آل عمران أن العدد كان بثلاثة آلاف ، ثم رفع إلى خمسة آلاف .

وذهب بعض المفسرين إلى أن المدد المذكور فى سورة آل عمران كان متعلقًا بغزوة أحد ، فلا إشكال بين ما ورد فى السورتين .

قال الحافظ ابن كثير فى التفسير : «واختلف المفسرون فى هذا الموعد : هل كان يوم بدر أو يوم أحد على قولين :

أحدهما : أن قوله تعالى : إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ ءَالَافٍ مِّنَ ٱلْمَلَائِكَةِ . متعلق بقوله : وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ . (آل عمران : ١٢٣)

وهذا قول الحسن والشعبى والربيع بن أنس وغيرهم .

فإن قيل فكيف الجمع بين هذه الآيات - التى فى سورة آل عمران ، وبين قوله فى سورة الأنفال : إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ .

فالجواب أن التنصيص على الألف هنا ، لا ينافى الثلاثة الآلاف فما فوقها لقوله تعالى : مُرْدِفِينَ . بمعنى : يردفهم غيرهم ويتبعهم ألوف أخر مثلهم ، قال الربيع بن أنس ، أمد الله المسلمين بألف ثم صاروا ثلاثة آلاف ، ثم صاروا خمسة آلاف .

والقول الثانى : يرى أصحابه أن هذا الوعد وهو قوله تعالى : إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ ءَالَافٍ مِّنَ ٱلْمَلَائِكَةِ . متعلق بقوله - قبل ذلك : وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . (آل عمران : ١٢١)

وذلك يوم أحد وهو قول مجاهد وعكرمة والضحاك وغيرهم .

لكن قالوا : لم يتم الإمداد بالخمسة الآلاف ؛ لأن المسلمين يومئذ فروا ، وزاد عكرمة : ولا بالثلاثة الآلاف ، لقوله : بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فلم يصبروا بل فروا فلم يُمدوا بملك واحد .

١٠ – وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ... الآية .

أى : وما جعل الله إمدادكم بالملائكة عيانًا لأمر من الأمور إلا ليبشركم بأنكم منتصرون ولتطمئن به قلوبكم وتسكن به نفوسكم ، ويزول خوفكم واضطرابكم ؛ فتثبتوا ويتم لكم النصر .

وفى قصر الإمداد بالملائكة على البشرى والطمأنينة ، إشعار بعدم مباشرة الملائكة للقتال ، وأن الغرض منه هو تقوية قلوب المؤمنين المقاتلين، وتكثير عددهم أمام المشركين كما هو رأى بعض السلف[119].

وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ .

أى : ليس النصر بالملائكة أو غيرهم إلا كائن من عند الله وحده ؛ لأنه سبحانه هو الخالق لكل شيء القادر على كل شيء ، وأن الوسائل مهما عظمت ، والأسباب مهما كثرت ، لا تؤدى إلى النتيجة المطلوبة والغاية المرجوة إلا إذا أيدتها إرادة الله وقدرته ورعايته .

إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . أى : غالب لا يقهره شيء ، ولا ينازعه منازع حَكِيمٌ يفعل كل ما يفعل حسبما تقتضيه الحكمة والمصلحة .

والجملة تعليل لما قبلها متضمن للإشعار بأن النصر الواقع على الوجه المذكور من مقتضيات الحكم البالغة[120].

★ ★ ★

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾

المفردات :

يغشيكم النعاس : أى : يغطيكم الله ويشملكم بالنعاس ، والنعاس : فتور فى الحواس وأعصاب الرأس ، ويعقبه النوم ، يضعف الإدراك ولا يزيله .

أمنة منه : أى : أمنا من الله وطمأنينة .

رجز الشيطان : أى : وسوسته وتخويفه لهم .

وليربط على قلوبكم : الربط : الشد ، ويقال لكل من صبر على أمر ربط على قلبه .

الرعب : الخوف والفزع .

كل بنان : أى : كل طرف من أطراف الأصابع من اليدين والرجلين ، وقيل: كل أصبع من الأصابع ، وتطلق البنان أيضًا : على كل طرف من أطراف الإنسان كاليد والرجل .

شاقُّوا الله ورسوله : المشاقة : المعاداة والمخالفة .

التفسير :

١١- إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ ... الآية .

يمن الله تعالى على المؤمنين فى هذه الغزوة بطائفة من النعم ، منها ما سبق إمدادهم بالملائكة للبشرى بالنصر ، وهنا ذكر منه أخرى ، وهى إرسال النعاس عليهم ليلة المعركة ؛ حتى تهدأ نفوسهم، وتستريح أبدانهم، وقد كانوا فى حالة قلة من العدة والعدد أمام عدو كثير العدة والعدد ، ومن شأن هذه الحالة أن تذهب النعاس وأن تترك الإنسان يضرب أخماسًا فى أسداس فيحارب ليلة فى غير حرب ، ثم يصبح عند لقاء العدو ضعيف القوة واهن البدن ، فكان من نعمة الله عليهم إرسال النعاس والنوم عليهم ليلة المعركة.

عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد بن الأسود ، ولقد رأيناه وما فينا إلا نائم ، إلا رسول الله ﷺ يصلى تحت شجرة حتى أصبح .

وفى تفسير ابن كثير : وجاء فى الصحيح أن رسول الله ﷺ ، لما كان يوم بدر فى العريش مع الصديق، وهما يدعوان ، أخذت رسول الله ﷺ سنة من النوم ، ثم استيقظ مبتسمًا ، فقال : أبشر يا أبا بكر ، هذا جبريل على ثناياه النقع ! ثم خرج من باب العريش وهو يتلو قول الله تعالى : سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ .

ومن المفسرين من ذهب إلى أن الله امتن عليهم بأن غشيهم النعاس بالليل ، أى : فى ليلة المعركة ؛ حتى يستريحوا وتهدأ النفوس ، ويذهب عنهم القلق والاضطراب ، واستبعد أن ينزل النعاس عليهم أثناء المعركة ؛ لأنه معطل لهم .

ذهب إلى ذلك الفخر الرازى فى تفسيره الكبير فقال :

١- إن الخائف إذا خاف من عدوه ؛ فإنه لا يأخذه النوم ، وإذا نام الخائفون ؛ أمنوا ، فصار حصول النوم لهم فى وقت الخوف الشديد نعمة من الله .

٢- إنهم ناموا نومًا غير مستغرق بل كان نعاسًا يذهب الإعياء والكلال ، ولو قصدهم العدو فى هذه الحالة لعرفوا وصوله ، ولقدروا على دفعه .

٣- إنه غشيهم هذا النعاس دفعة واحدة مع كثرتهم ، وحصول النعاس للجمع العظيم فى الخوف الشديد أمر خارق للعادة ، فلهذا السبب قيل : إن ذلك النعاس كان فى حكم المعجز.

وقال الإمام محمد عبده: لقد قضت سنة الله فى الخلق ، بأن من يتوقع فى صبيحة ليلته هولا كبيرًا ومصابًا عظيمًا ؛ فإنه يتجافى جنبه عن مضجعه ، فيصبح خاملاً ضعيفًا ، وقد كان المسلمون يوم بدر يتوقعون مثل ذلك ، إذ بلغهم أن جيشًا يزيد على عددهم ثلاثة أضعاف سيحاربهم غدًا ، فكان من مقتضى العادة أن يناموا على بساط الأرق والسهاد ... ولكن الله رحمهم بما أنزل عليهم من النعاس ، غشيهم فناموا واثقين بالله ، مطمئنين لوعده ، وأصبحوا على همة ونشاط فى لقاء عدوهم وعدوه فالنعاس لم يكن يوم بدر فى وقت الحرب بل قبلها ...

والأستاذ عبد الكريم الخطيب : يرى أن النعاس الذى غشى المسلمين إنما كان ليلة الحرب ، لا فى ميدان القتال ، كما يرى بعض المفسرين .. لأن وقوع النوم والمعركة دائرة ، من عوامل الخذلان لا من عدة النصر .

كما جاء فى التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر :

إن النعاس كان فى الليلة السابقة على القتال ، وإذا تأملنا فى الموضوع وجدنا أنه ليس هناك ما يمنع أن يكون النعاس قد أصاب المقاتلين ليلة المعركة ، وأن يكون النعاس قد أصاب النبى ﷺ صبيحة المعركة ، كما أصاب بعض المسلمين على أنه استراحة يسيرة ، أو إغفاءة محدودة ، تهدأ فيها الأعصاب ، وتسكن النفس ، ويستجمع الجسم ثباته وقوته .

خصوصًا أنه قد ورد فى الصحيح : أن رسول الله ﷺ ، قد أخذته سنة من النوم صبيحة المعركة ، إننا نقيس الأمور بمقياس نظام الدنيا ، أما إذا كان الأمر بمقياس فضل الله ومنته ، فإنه يمكن أن يصيب النعاس الجيش فى صبيحة المعركة خلال ربع ساعة ، أو أقل أو أكثر ، يوقتها العليم الخبير ، فى وقت لا يضر باستعدادات الجيش ، ولا بعمله أثناء القتال .

ويذكر الأستاذ سيد قطب : أن الإنسان أحيانا يكون مرهقًا متعبًا ثم يغفى إغفاءة يسيرة ، يقوم بعدها فى غاية القوة والنشاط .

وقد مر بنا ما رواه ابن كثير من أنه جاء في الصحيح : أن رسول الله ﷺ لما كان يوم بدر في العريش مع الصديق وهما يدعوان ، أخذت رسول الله ﷺ سنة من النوم ، ثم استيقظ مبتسمًا ، فقال : أبشر يا أبا بكر، هذا جبريل على ثناياه النقع ! ثم خرج من باب العريش وهو يتلو قول الله تعالى :

سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ .[١٢١] (القمر : ٤٥) .

إن المعجزة : أمر خارق للعادة يظهره الله على يد مدعى الرسالة ؛ تصديقًا له فى دعواه .

والمعونة: توفيق ونجاح يصيب بعض الصالحين فى أعمالهم ، وقد كان النعاس معجزة للرسول ﷺ ، ومعونة للمؤمنين ، سواء أكان ذلك فى الليل أم فى النهار قبيل المعركة ، خاصة بعد أن امتن الله به عليهم وقال : إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ .

وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ ...

تحكى الآية جوانب متعددة من فضل الله على المؤمنين فى معركة بدر .

فقد أرسل الله عليهم النوم ليلة المعركة ، وأصبح بعضهم جُنبًا نتيجة الاحتلام فى النوم، وجاء الشيطان يوسوس لهم ويثبط همتهم ، فالماء شحيح قليل ، صحيح أنه يمكن الاستغناء عن الاغتسال والوضوء بالتيمم ، إلاّ أن المؤمن كما يقول الإمام فخر الدين الرازى : «يكاد يستقذر نفسه إذا كان جنبًا ، ويغتم إذا لم يتمكن من الاغتسال ، ويضطرب قلبه لأجل هذا السبب ..» .

وكان جيش المسلمين قد نزل بعدوة الوادى القريبة من المدينة بعيدًا عن الماء فى أرض رملية وسبخة، أما المشركون فقد نزلوا على ماء بدر بالعدوة القصوى فى أرض جلدة .

فأصبح المسلمون لا يجدون الماء ليشربوا ويغتسلوا ويتوضئوا ، فكان هذا الموقف مزرعة لأحاديث الشيطان النفسية ، ووسوسته للمؤمنين ، وتخويفه إياهم من العطش وغيره عند فقدهم الماء ، فأدرك الله المؤمنين بلطفه ، وأنزل عليهم من السماء مطرًا سال به الوادى ، فشربوا واتخذوا الحياض على عدوة الوادى الدنيا ، واغتسلوا وتوضئوا وملئوا الأسقية ، وتلبدت الأرض السبخة وثبتت عليها الأقدام ، على حين كان المطر كارثة على المشركين ، فقد تحولت أرضهم الجلدة إلى أوحال لا يقدرون معها على الحركة فى القتال.

لقد كان الماء طهارة حسية من الحدث الأصغر والأكبر ، وطهارة نفسية رفعت روحهم المعنوية ، وجعلتهم فى حالة من الصفاء والرغبة فى التضحية والموت فى سبيل الله ، وبهذا ذهب عنهم رجز الشيطان، أى : وسوسته وأصل الرجز: الاضطراب ، يقال : ناقة رجزاء ؛ إذا تقارب خطوها واضطرب ؛ لضعفها ومن فى قلبه رجز الشيطان ووسوسته ، ضعيف العزيمة ؛ لأن همته حائرة مترددة بين الإقدام والإحجام .

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ . (الأعراف: ٢٠١) .

﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ .

أى : ويقوى قلوبكم بالثقة فى نصر الله ، وليوطنها على الصبر والطمأنينة .

وأصل الربط : الشد ، ويقال لكل من صبر على أمر : ربط قلبه عليه ، أى : حبس قلبه عن أن يضطرب أو يتزعزع ، ومنه قولهم : رجل رابط الجأش ، أى : ثابت متمكن ..

﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ . أى : أن الله أنزل عليهم المطر ليلة المعركة لتطهيرهم حسيًا ومعنويًا ، ولتقويتهم وطمأنتهم ، ولتثبيت الأقدام به حتى لا تسوخ فى الرمال .

ومن جهة أخرى فإن طهارتهم الحسية والمعنوية ، وذهاب رجز الشيطان ووسوسته ، وقوة اليقين فى القلب ورباطة الجأش ، من شأنها أن تثبت قدم المقاتل فى مواطن القتال .

أى : أنه كان هناك تثبيت للأقدام حسيًا بماء المطر حين يختلط بذرات التراب ، فلما أمسك المطر وسطعت الشمس ؛ جفت الأرض ، وصار على وجهها طبقة صلبة ، أشبه بالطين اللازب ، فثبتت عليه أقدامهم، وكان هناك يقين القلب وطمأنينة النفس، التى تؤدى بدورها إلى ثبات القدم ، بحيث يصبح المقاتل واثقًا بنفسه ؛ لأنه يؤدى دورًا فى مرضاة الله وتوفيقه .

من كتب التفسير:

١ – جاء فى تفسير ابن جرير الطبرى : عن ابن عباس قال :

«نزل النبى ﷺ حين سار إلى بدر ، والمسلمون بينهم وبين الماء رملة دعصة – أى : كثيرة مجتمعة– فأصاب المسلمين ضعفٌ شديد ، وألقى الشيطان فى قلوبهم الغيظ ، فوسوس بينهم : تزعمون أنكم أولياء الله وفيكم رسوله ، وقد غلبكم المشركون على الماء ، وأنتم تصلّون مجنبين ؟ فأمطر الله عليهم مطرًا شديدًا ، فشرب المسلمون وتطهروا ، وأذهب الله عنهم رجز الشيطان ، وثبت الرمل حين أصابه المطر ، ومشى الناس عليه والدواب ، فساروا إلى القوم ...»[١٢٢]

٢ – جاء فى تفسير ابن كثير ما يأتى :

«عن عروة بن الزبير قال: بعث الله السماء وكان الوادى دهسًا فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه ما لبد بهم الأرض ، ولم يمنعهم من السير ، وأصاب قريشًا ما لم يقدروا على أن يرحلوا معه .. »[١٢٣]

١٢ - إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ .. الآية.

فى هذه الآية تذكير الله تعالى المؤمنين بنعمة أخرى ، هى نعمة الإمداد بالملائكة ، تنزل إلى المعركة فى صفوف المسلمين فتكثر سواد المسلمين ، ويصبح الجيش فى مظهره قوة عظيمة ، تُلقى الثبات والثقة واليقين بالنصر فى قلوب المؤمنين ، وفى نفس الوقت فإن الملاك يقوم بإلقاء الخير والإلهام والثبات واليقين فى قلب المؤمن .

وقد تكفل الله تعالى بإلقاء الرعب والخوف فى نفوس المشركين ، ووجه الحق سبحانه المسلمين بأن يضربوا المشركين ، فوق الرقاب أى : فى أعلى الرقبة ، مكان الذبح ، أو على الأطراف والأصابع وبذلك تتعطل أيديهم عن القتال .

قال الآلوسى فى تفسير الآية :

والمراد بالتثبيت : الحمل على الثبات فى موطن الحرب ، والجد فى مقاساة شدائد القتال ، كان الملاك يأتى المؤمن فى صورة رجل يعرفه ويقول له : أبشر ؛ فالله سينصر المؤمنين ، فقد أخرج البيهقى فى دلائل النبوة : أن الملك كان يأتى الرجل فى صورة الرجل يعرفه ، فيقول له : أبشروا فإنهم ليسوا بشىء ، والله معكم، كروا عليهم .

وقال الزجاج : كان بأشياء يلقونها فى قلوبهم تصح بها عزائمهم ، ويتأكد جدهم ، وللملك قوة إلقاء الخير فى القلب ، ويقال له : إلهام ، كما أن للشيطان قوة إلقاء الشر ويقال له : وسوسة [١٢٤] .

سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ .

أى : سألقى بالخوف والجزع والهلع فى نفوس المشركين ، فلا يستطيعون الثبات فى القتال ، والرعب: انزعاج النفس ، وخوفها من توقع مكروه .

فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ . الخطاب فى هذه الفقرة للمؤمنين وقيل : للملائكة .

قال الزمخشرى : والمراد بما فوق الأعناق : أعالى الأعناق التى هى المذابح ؛ لأنها مفاصل ، فكان إيقاع الضرب فيها جزًّا وتطييرًا للرءوس ، والمراد بالبنان : الأصابع أو مطلق الأطراف ، كالأيدى والأرجل فكل ذلك يطلق عليه بنان ، حقيقة او مجازا .

فكأنه تعالى يقول للمؤمنين : سألقى فى قلوب الذين كفروا الفزع والخوف منكم ؛ لتتمكنوا من إصابتهم ، فاضربوهم فوق الأعناق ، أى: فى رءوسهم ورقابهم ، واضربوا منهم كل بنان ، أى : اضربوا أصابعهم وأطراف أبدانهم كالأيدى والأرجل .

فى أعقاب الآية :

هناك روايات فى كتب التفسير تفيد أن الملائكة باشرت القتال فى معركة بدر ، وقتلت أعدادًا من المشركين ، نجد هذا فى معالم التنزيل للبغوى ، كما نجده فى تفسير الخازن والكشاف ، والفخر الرازى .

وجاء فى تفسير أبى السعود ما يأتى : روى عن أبى داود المازنى رضى الله عنه – وكان ممن شهد بدرًا – أنه قال : اتبعت رجلاً من المشركين يوم بدر لأضربه ، فوقعت رأسه بين يدى ، قبل أن يصل إليه سيفى .

وعن سهل بن حُنيف رضى الله عنه قال :

لقد رأيتنا يوم بدر وإن أحدنا يشير بسيفه إلى المشرك ، فتقع رأسه عن جسده ، قبل أن يصل إليه السيف.

وذهب عدد من المفسرين إلى استبعاد أن تكون الملائكة قد باشرت القتال بنفسها ، وإنما كان عمل الملائكة قاصرًا على تثبيت المؤمنين ، واستدلوا على ذلك بأن الملك الواحد كفيل بإهلاك قريش ، لو كان يقاتل المشركين مع المؤمنين ، فحيث كان المثبتون من الملائكة ألفا أو أكثر ، فلا بد أن تثبيتهم معنوى لا قتالى.

أما الروايات الواردة التى تفيد أن الملائكة قد باشرت القتال ، فإن المتأمل فيها يجدها بلا أسانيد صحيحة ، فلا يمكن التعويل عليها[١٢٥] .

وقد أنكر أبو بكر الأصمّ قتال الملائكة ثم قال: «إن الملك الواحد يكفى فى إهلاك أهل الأرض ، كما فعل جبريل بمدائن قوم لوط ، فإذا حضر هو يوم بدر فأى حاجة إلى مقاتلة الناس مع الكفار ؟

بل أى حاجة إلى إرسال سائر الملائكة ؟ وأيضًا فإن الكفار كانوا مشهودين ، وقاتل كل منهم من الصحابة معلوم .. » إلخ[١٢٦] .

وإذا تأملنا آيات القرآن الكريم ، وجدنا أنها تفيد أن الله تعالى أمد المؤمنين بالملائكة ، ونحن نؤمن بهذا ، ونكتفى بأن الملائكة ساعدت المؤمنين نوعًا من المساعدة سواء أكان ذلك بالقتال أم بتثبيت القلوب وإلقاء الحماس والشجاعة ورفع الروح المعنوية ، وهى أمور لا تقل أهمية عن القتال المباشر فقد ثبت فى الحروب الحديثة أن للروح المعنوية أبلغ الأثر فى إحراز النصر .

١٣– ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ .

أى: ذلك القتل والهزيمة للمشركين بسبب أنهم خاصموا الله ورسوله وعادوهما ، فكان كل منهما فى شق غير الشق الذى فى الآخر.

«كما أن اشتقاق المعاداة والمخاصمة من العدوة والخصم أى : الجانب لأن كلاً من المتعادين والمتخاصمين فى عَدوة وخصم غير عدوة الآخر وخصمه» .

وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ .

أى : ومن يخالف أمر الله ورسوله فهو يعاقبه ، فلا أجدر بالعقاب من المشاقين المشركين ، الذين يؤثرون الشرك وعبادة الطاغوت ، على توحيده تعالى وعبادته .

١٤- ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ .

أى : ذلكم الذى نزل بكم أيها الكافرون ، من الأسر والقتل ، هو العقاب المناسب لكم بسبب طغيانكم وشرككم ، فذوقوا آلامه وتجرعوا غصصه فى الدنيا .

أما فى الآخرة فلكم عذاب النار ، الذى هو أشد وأبقى من عذاب الدنيا ، إن أصررتم على كفركم .

فالآية توضح للكافرين : أن ما أصابهم عاجلاً كان بسبب كفرهم وعنادهم ، ثم هى تحذرهم من الاستمرار على الكفر ؛ فإن هناك عذابًا آجلاً ينتظر الكافرين .

★ ★ ★

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

المفردات :

الـــزحـــف : من زحف إذا مشى على بطنه كالحية ، أو دب على مقعده كالصبى أو على ركبتيه أو مشى بثقل فى الحركة واتصال وتقارب فى الخطو كزحف صغار الجراد والعسكر المتوجه إلى العدو؛ لأنه لكثرته وتكاثفه يُرى كأنه يزحف ، إذ الكل يرى كجسم واحد متصل فتحس حركته بطيئة وإن كانت فى الواقع سريعة .

الأدبـــــار : واحدها : دبر وهو الخلف ومقابله القبل ومن ثم يكنى بهما عن السوأتين ، وتولية الدبر والأدبار يراد بهما : الهزيمة ؛ لأن المنهزم يجعل خصمه متوجهًا إلى دبره ومؤخره .

المتحرف للقتال وغيره : هو المنحرف على جانب إلى آخر ، من الحرف وهو الطرف .

الـفـئـة : الطائفة من الناس .

المـــأوى : الملجأ الذى يأوى إليه الإنسان .

الموهـــن : المضعف من أوهنه إذا أضعفه .

الـكـيـد : التدبير الذى يقصد به غير ظاهره فتسوء عاقبة من يقصد به .

الاستفتاح : طلب الفتح والفصل فى الأمر كالنصر فى الحرب .

تمهيد :

ذكر سبحانه وتعالى فى هذه الآيات حكمًا عامًّا لما سيقع من الوقائع والحروب فى مستأنف الزمان وجاء به فى أثناء قصة بدر ؛ عناية بشأنه وحثًّا للمؤمنين على المحافظة عليه .

التفسير :

١٥ - يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا ...

أى : يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله ، إذا لقيتم الذين كفروا حال كونهم زاحفين لقتالكم زحفًا ، إذ الكفار هم الذين زحفوا من مكة إلى المدينة لقتال المؤمنين فقابلوهم ببدر .

فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ .

أى : فلا تولوهم ظهوركم واقفين منهزمين منهم وإن كانوا أكثر منكم عدد وعدة لكن اثبتوا لهم ؛ فإن الله معكم عليهم .

١٦ - وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ .

أى : ومن يولهم حين تلقونهم ظهره إلامتحرفا لمكان رآه أحوج إلى القتال فيه أو لضرب من ضروبه رآه أنكى بالعدو ، كأن يوهم خصمه أنه منهزم منه ليغريه باتباعه حتى إذا انفرد عن أنصاره كرّ عليه فقتله؛ أو متنقلاً إلى فئة من المؤمنين فى جهة غير التى كان فيها ليشد أزرهم وينصرهم على عدو تكاثر جمعه عليهم، فصاروا أحوج إليه ممن كان معهم - من فعل ذلك ؛ فقد رجع متلبسًا بغضب عظيم من الله ومأواه الذى يلجأ إليه فى الآخرة جهنم دار العقاب وبئس المصير.

ذلك أن المنهزم أراد أن يأوى إلى مكان يأمن فيه الهلاك ، فعوقب بجعل عاقبة دار الهلاك والعذاب الدائم وجوزى بضد غرضه .

وفى الآية دلالة على أن الفرار من الزحف من كبائر المعاصى ، وجاء التصريح بذلك فى صحيح الأحاديث ؛ فقد روى الشيخان عن أبى هريرة مرفوعًا : «اجتنبوا السبع الموبقات (المهلكات) قالوا : يا رسول الله وما هن ؟ قال: الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات » .

وقد خصص بعض العلماء هذا بما إذا كان الكفار لا يزيدون على ضعف المؤمنين .

قال الشافعى : إذا غزا المسلمون فلقوا ضعفهم من العدو حرم عليهم أن يولوا إلا متحرفين لقتال أو متحيزين إلى فئة ، وإن كان المشركون أكثر من ضعفهم لم أحب لهم أن يولوا ، ولا يستوجبون السخط عندى من الله لو ولوا عنهم على غير التحرف للقتال أو التحيز إلى فئة . وروى عن ابن عباس قال : من فر من ثلاثة فلم يفر، ومن فر من اثنين فقد فر .

١٧- فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ...

أى : يا أيها الذين آمنوا ، لا تولوا الكفار ظهوركم أبدًا ؛ فأنتم أولى منهم بالثبات والصبر ثم بنصر الله تعالى ، انظروا إلى ما أوتيتم من نصر عليهم على قلة عددكم وعدتكم وكثرتهم واستعدادهم ، ولم يكن ذلك إلا بتأييد من الله تعالى لكم وربطه على قلوبكم وتثبيت أقدامكم ، فلم تقتلوهم ذلك القتل الذى أفنى كثيرًا منهم بقوتكم وعدتكم ولكن قتلهم بأيديكم ، بما كان من تثبيت قلوبكم بمخالطة الملائكة وملابستها لأرواحكم ، وبإلقائه الرعب فى قلوبهم وهذا بعينه هو ما جاء فى قوله تعالى : قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ . (التوبة: ١٤).

ثم انتقل من خطاب المؤمنين الذين قتلوا أولئك الصناديد بسيوفهم إلى خطاب الرسول ﷺ ،وهو قائدهم الأعظم فقال :

وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ . أى: وما رميت أيها الرسول أحدًا من المشركين فى الوقت الذى رميت فيه القبضة من التراب بإلقائها فى الهواء فأصبت وجوههم ، ما فعلته لا يكون له من التأثير مثل ما حدث، ولكن الله رمى وجوههم كلهم بذلك التراب الذى ألقيته فى الهواء على قلّته أو بعد تكثيره بمحض قدرته .

فقد روى : «أن النبى ﷺ رمى المشركين يومئذ بقبضة من التراب وقال : شاهت الوجوه ثلاثًا ، فأعقبت رميته هزيمتهم» [١٢٧] .

وروى على بن أبى طلحة عن ابن عباس أن النبى ﷺ لما قال فى استغاثته يوم بدر: «يارب ، إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد فى الأرض أبدًا» ، قال له جبريل: خذ قبضة من التراب فارم بها وجوههم ، ففعل فما من أحد من المشركين إلا أصاب عينيه ومنخزيه وفمه من تراب تلك القبضة ؛ فولوا مدبرين [١٢٨] .

وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا . أى : فعل الله ما ذكر لإقامته حجته وتأييد رسوله ، وليبلى المؤمنين منه بلاء حسنًا بالنصر والغنيمة وحسن السمعة .

إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . أى : إنه تعالى سَمِيعٌ لما كان من استغاثة الرسول والمؤمنين ربهم ودعائهم إياه وحده ولكل نداء وكلام ، عَلِيمٌ بنياتهم الباعثة عليه والعواقب التى تترتب عليه .

١٨ – ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَافِرِينَ .

أى : ذلكم البلاء الحسن هو الذى سمعتم – إلى أنه تعالى مضعف كيد الكافرين ، ومكرهم بالنبى ﷺ والمؤمنين ، ومحاولتهم القضاء على دعوة التوحيد والإصلاح ، قبل أن يقوى أمرها ويشتد .

وبعد أن ذكر خذلانهم وإضعاف كيدهم ، انتقل منه إلى توبيخهم على استنصارهم إياه على رسوله ﷺ وقد روى محمد بن إسحاق عن الزهرى أن أبا جهل قال يوم بدر: اللهم ، أينا كان أقطع للرحم ، وآتى بمالا يعرف فأحنه الغداة ، فكان ذلك منه استفتاحًا ، وقال السدّى : كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله ، وقالوا : اللهم انصر أعلى الجندين وأكرم الفئتين وخير القبيلتين ، فأجابهم الله بقوله :

١٩– إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ...

أى : إن تستنصروا لأعلى الجندين ، وأهداهما ، فقد جاءكم الفتح ونصر أعلاهما وأهداهما ، وهذا من قبيل التهكم بهم ؛ لأنه قد جاءهم الهلاك والذلة .

وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ . أى : وإن تنتهوا عن عداوة النبى ﷺ وقتاله ، فالانتهاء خير لكم ؛ لأنكم قد ذقتم من الحرب ما ذقتم من قتل وأسر بسبب ذلك العدوان .

وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ . أى : وإن تعودوا إلى حربه وقتاله نعد إلى مثل ما رأيتم من الفتح له عليكم حتى يجىء الفتح الأعظم الذى به تدول الدولة للمؤمنين عليكم ، وبه يذل شرككم وتذهب ريحكم .

وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ . أى : ولن يدفع عنكم رهطكم شيئًا من بأس الله وشديد نقمته ولو كثرت عددًا ، إذ لا تكون الكثرة وسيلة من وسائل النصر أمام القلة إلا إذا تساوت معها فى أمور كثيرة كالصبر والثبات والثقة بالله تعالى ، فهو الذى بيده النصر والقوة .

وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . بمعونته وتوفيقه ، فلا تضرهم قلتهم ولا كثرة عددكم ، فهو يؤتى النصر من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين .

★ ★ ★

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

تمهيد :

بعد أن هدد الله المشركين بقوله : وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا. قفى على ذلك بتأديب المؤمنين بالأمر بطاعة الرسول وإجابة دعوته إذا دعا للقتال فى سبيل حياطة الدين وصد من يمنع نشره ويقف فى طريق تبليغ دعوته .

التفسير :

٢٠- يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ .

أى : أطيعوا الله ورسوله فى الإجابة إلى الجهاد وترك المال إذا أمر الله بتركه ، ولا تعرضوا عن طاعته، وعن قبول قوله ، وعن معونته فى الجهاد وأنتم تسمعون كلامه الداعى إلى وجوب طاعته وموالاته ونصره، ولا شك أن المراد بالسماع هنا : سماع الفهم والتصديق بما يسمع ، كما هو شأن المؤمنين الذين من دأبهم أن يقولوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ (البقرة: ٢٨٥) .

٢١- وَلاَ تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ .

وهؤلاء القائلون فريقان : فريق الكفار المعاندين ، وفريق المنافقين الذين قال فى بعض منهم : وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا (محمد: ١٦) .

٢٢- إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ.

الدواب : واحدها : دابة ، وهى كل ما دب على الأرض كما قال : وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ . وقلّ أن يستعمل الإنسان بل الغالب أن يستعمل فى الحشرات ودواب الركوب ، فإذا استعمل فيه كان ذلك فى موضع الاحتقار، أى : أن شر ما دب على الأرض فى حكم الله وقضائه هم الصم الذين لا يصغون بأسماعهم ليعرفوا الحق ويعتبروا بالموعظة الحسنة ، فهم بفقدهم لمنفعة السمع كانوا كأنهم فقدوا حاسته ، والبكم الذين لا يقولون الحق ، ومن ثم كانوا كأنهم فقدوا النطق ، الذين لا يعقلون الفرق بين الحق والباطل والخير والشر ، إذ هم لو عقلوا لطلبوه واهتدوا إلى ما فيه المنفعة والفائدة لهم ، كما قال: إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ . (ق: ٣٧) .

والخلاصة : أنهم حين فقدوا منفعة السمع والنطق والعقل كانوا كأنهم فقدوا هذه المشاعر والقوى ، بأن خلقوا خداجًا ناقصى هذه المشاعر ، أو طرأت عليهم آفات أذهبت هذه القوى بل هم شر منهم ؛ لأن هذه المشاعر خلقت لهم فأفسدوها ، إذ لم يستعملوها فيما خلقت لأجله حين التكليف .

٢٣- وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ...

أى: ولو علم الله فيهم استعدادًا للإيمان والهداية بنور النبوة ، ولم يفسد قبس الفطرة سوء القدرة وفساد التربية ؛ لأسمعهم بتوفيقه الكتاب والحكمة سماع تدبر وتفهم ، ولكنه قد علم أنه لا خير فيهم ممن ختم الله على قلوبهم وأحاطت بهم خطاياهم .

وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ .

أى : ولو أسمعهم – وقد علم أنه لا خير فيهم – لتولوا عن القبول والإذعان وهم معرضون من قبل ذلك بقلوبهم عن قبوله والعمل به ؛ كراهة وعنادا للداعى إليه ولأهله ، فقد فقدوا الاستعداد لقبول الحق والخير فقدًا تامًا لا فقدًا عارضًا موقوتًا .

والخلاصة : أن للسماع درجات باعتبار ما يطالب الله به من الاهتداء بكتابه :

١ – أن يتعمد من يتلى عليه ألا يسمعه مبارزة له بالعدوان بادئ ذى بدء خوفًا من سلطانه على القلوب أن يغلبهم .

٢ – أن يستمع وهو لا ينوى أن يفهم ويتدبر كالمنافقين الذين قال الله فيهم :

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا .

٣ - أن يستمع لأجل التماس شبهة للطعن والاعتراض ، كما كان يفعل المعاندون من المشركين وأهل الكتاب وقت التنزيل وفى كل حين إذا استمعوا إلى القرآن أو نظروا فيه .

٤ - أن يسمع ليفهم ويتدبر ثم يحكم له أو عليه ، وهذا هو المنصف ، وكم من السامعين أو القارئين آمن بعد أن نظر وتأمل ، فقد نظر طبيب فرنسى فى ترجمة القرآن فرأى أن كل النظريات الطبية التى فيه كالطهارة والاعتدال فى المآكل والمشارب وعدم الإسراف فيهما ونحو ذلك من المسائل التى فيها محافظة على الصحة ، توافق أحدث النظريات التى استقر عليها رأى الأطباء فى هذا العصر ، فرغب فى هذا كله وأسلم، ورأى ربان بارجة إنكليزية ترجمة للقرآن واستقصى كل ما فيها من الكلام عن البحار والرياح فظن أن النبى ﷺ كان من كبار الملاحين فى البحار ، وبعد أن سأل عن ذلك وعرف أنه لم يركب البحر قط ، وهو مع ذلك أمى لم يقرأ كتابًا ولا تلقى عن أحد درسًا قال : الآن علمت أنه كان يوحى من الله ؛ لأن فيه حقائق لا يعلمها إلا من اختبر البحار بنفسه ، أو تلقاها عن غيره من المختبرين ، ثم أسلم وتعلم العربية .

وكثير من المسلمين يستمعون القرّاء ويتلون القرآن فلا يشعرون بأنهم فى حاجة إلى فهمه وتدبر معناه، بل يستمعونه للتلذذ بتجويده وتوقيع التلاوة على قواعد النغم ، أو يقصدون بسماعة التبرك فقط ، ومنهم من يُحضر الحفاظ عنده فى ليالى رمضان ، ويجلسهم فى حجرة البوابين أو غيرهم من الخدم تشبها بالأكابر والوجهاء .

★ ★ ★

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾

المفردات :

استجيبوا لله وللرسول : أجيبوه بكمال الطاعة .

إذا دعاكم لما يحييكم : إذا حثكم على الطاعة ، والجهاد الذى فيه حياتكم وسعادتكم .

يحول بين المرء وقلبه : يميته فتفوته فرصة تمكن القلب من الإخلاص والطاعة .

وأنه إليه تحشرون : وأنه إليه تجمعون يوم القيامة ، فيجازيكم على أعمالكم .

واتقوا فتنة : واتقوا ذنبًا يعم ضرره ، كإقرار المُنكرين أظْهركم ، أو تفريق وحدة الجماعة ، أو ترويج الإشاعات الضارة .

لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة : لا تختص إصابتها بمن يباشر الظلم منكم .

واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض : واذكروا وقت أن كنتم قلة أذلاء ، مستضعفين فى مكة ، تستذلكم قريش .

تخافون أن يتخطفكم الناس : تخشون لهوانكم وذلتكم أن يتخطفكم من استضعفوكم من قريش فلا تملكون أن تدافعوا عن أنفسكم.

فـــآواكـــم : فجعل لكم المدينة مأوى تهاجرون إليه وتتحصنون فيه .

وأيـدكـم بـنصـره : وقواكم على الكفار بتأييد الأنصار ، وإمداد الملائكة .

ورزقكم من الطيبات

لعلكم تشكرون : وأعطاكم طيبات الرزق من الغنائم لتشكروا الله على فضله .

لا تخونوا الله والرسول: لا تخونهما بتعطيل الفرائض والسنن ، أو بأن تظهروا غير ما تخفون .

وتخونوا أماناتكم : وتخونوا ما اؤتمنتم عليه من مال أو عرض أو سر ، أو عهد أو نصيحة .

وأنتم تعلمون : وأنتم تقصدون وتعلمون أنكم تخونون .

فـتـنـة : محنة وبلاء .

فـرقـانـا : هداية فى قلوبكم ، تفرقون بها بين الحق والباطل .

التفسير :

٢٤- يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ... الآية .

أيها المؤمنون ، عليكم أن تجيبوا الله وتطيعوا رسوله ، وتمتثلوا أمره ، إذا حثكم على عمل طاعة ، أو خروج للجهاد ، أو اتباع لأحكام الدين ؛ لأن ذلك يحيى قلوبكم بالإيمان ، ويوجهكم إلى الخير ، ويكسبكم العزة والقوة ، فتصير إليكم الغلبة والفوز ، وتحيون حياة طيبة ، واعلموا أن الله أقرب إلى المرء من قلبه الذى هو مناط الحياة والموت ، ومنبع الأمن والخوف ، وأنه وحده هو الذى يصرفه من حال إلى حال ، وهو أملك له من صاحبه، فيستطيع أن يكون حائلاً بين المرء وقلبه ،ويمكن فيه – على حسب مشيئته – الإيمان والطاعة، أو الكفر والمعصية ، ويبدله من الخوف أمنًا ، أو من الأمن خوفًا ، وهو الذى يبعثكم يوم القيامة ، وتجمعون إليه يوم الحساب ليجازى كل نفس بما كسبت .

٢٥- وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ...

وقد أمركم الله أن تتقوا الفتنة ، وتجتنبوا العمل الذى يعم ضرره ، وينتشر خطره والفتنة من أشد الذنوب ، وأخطر الجرائم ؛ لأن ضررها لا يقتصر على من أثاروها ، ولا تصيب فريق الظالمين والآثمين خاصة ، ولكنه يعم البرىء والمذنب والمصلح والمفسد ولهذا أعقب الله التحذير منها بتهديد أصحابها تهديدًا مؤكدًا بأشد العقاب ، فقال:

وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ والمقصود بالفتنة فى الآية: جميع الأعمال التى تصيب المجتمع بضرر

أو خسارة أو توقع فيه شقاقًا أو كارثة ، أو تقر منكرًا ، أو تروج إشاعات ضارة أو أخبار كاذبة، توهن من قوته ، وتضعضع من عزمه أو ثقته ، وتبعث فيه الرعب والفزع ، وينبغى أن يضرب على أيدى من يثيرون الفتنة ، وأن يؤخذوا بأشد العقوبات ، قال رسول الله ﷺ فى تصوير الفتنة تعم ، والضرر يصيب غير من يفعله ووجوب المبادرة بالقضاء عليهما «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها (أى : مثل المطيع والعاصى) كمثل قوم استهموا (أى: اقترعوا) على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا وهلكوا جميعا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا» [١٢٩] .

٢٦- وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ... الآية .

واذكروا أيها المؤمنون حالكم فى مكة قبل الهجرة وقت أن كنتم عددًا قليلاً أذلة مستضعفين بالنسبة إلى قريش وقوتهم وبطشهم ، تعيشون فى استكانة ورعب وفزع ، لا أمن لكم ولا اطمئنان ، وتخافون أن يتخطفكم الناس من قريش ويأخذوكم ليسوموكم العذاب والهوان ، فمن الله عليكم وآواكم فى المدينة ، وجعلها لكم مأوى تنزلون فيه وتتحصنون من أعدائكم ، وشد أزركم بالأنصار ، وأيدكم بالملائكة فى بدر، وقواكم بنصركم عليهم ، وجعل لكم من الغنائم طيبات من الرزق ؛ لتشكروه على عظيم فضله ، وعميم فيضه.

٢٧- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ... الآية .

والله ينهاكم أيها المؤمنون عن أن تخونوا الله ورسوله فتعطلوا أحكام دينه أو تقولوا بألسنتكم ما ليس فى قلوبكم ، أو تظهروا غير ما تخفون ، وينهاكم عن أن تنقضوا العهود ، وتخونوا الأمانات التى اؤتمنتم عليها من أموال الناس وأعراضهم وأسرارهم ، وأنتم تعلمون أنكم مؤتمنون عليها، فتعمدون إلى جحود الودائع أو انتهاك الأعراض أو إفشاء الأسرار ، وإخفاء المستندات ؛ إن ذلك إثم كبير ، ولقد كان أول هم للنبى ﷺ ليلة أن هاجر أن يترك عليًا وراءه ليرد الأمانات ويعيد الودائع ، وكانت عنده لأعدائه من المشركين ، وأبى أن يهاجر من مكة ، وفى ذمته لأحد من أعدائه وديعة .

أبو لبابة يصلب نفسه على سارية ؛ ليكفر عن خيانته :

حاصر النبى ﷺ بنى قريظة ، إحدى وعشرين ليلة ، فسألوه صلحًا كصلح بنى النضير ،وهو أن يتركهم يسيرون إلى إخوانهم بأذرعات وأريحاء من الشام ، فأبى إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ الأنصارى سيد الأوس ، وكان حليفهم ، وكان حكمه : أن تقتل المقاتلة وتقسم الأموال وتسبى الذرية والنساء، فأبوا ذلك ، ثم طلبوا أن يرسل إليهم : أبا لبابة ، وكان مناصحًا لهم ؛ لأن ماله وعياله كانا فى أيديهم ، فبعثه إليهم ، فقالوا:

ما ترى؟ هل ننزل على حكم سعد ؟ فقال : لا تفعلوا فإنه الذبح ، وأشار إلى حلقة فنزلت: يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ . قال أبو لبابة : فما زالت قدماى حتى علمت أنى خنت الله ورسوله (١٣٠) .

حزن أبو لبابة ، وقام فشد نفسه على سارية المسجد ، وقال : والله لا أذوق طعامًا ولا شرابًا حتى أموت، أو يتوب الله على ، فمكث سبعة أيام حتى خر مغشيًا عليه ، ثم تاب الله عليه ، فقيل له : قد تيب عليك فحل نفسك ، فقال : لا والله لا أحلها حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذى يحلنى فجاءة فحله بيده ، فقال : إن من تمام توبتى أن أهجر دار قومى التى أصبت فيها الذنب ، وأن أنخلع من مالى ، فقال عليه السلام : يجزئك الثلث أن تتصدق به .

٢٨- وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ... الآية .

ولما كان الإنسان شديد الحب والحرص على أمواله وأولاده ،وكان تعلقه بهم يتسبب عنه وقوعه فى الإثم والعقاب ، أو يدعوه إلى الاتصاف ببعض الرذائل : كالبخل والخيانة والجبن ، فقد جعلهم الله فتنة فى قوله : وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ، أى : محنة يفتن الله بها عباده ، ليبلوهم بذلك ، ولينبههم على أن حبهما لا ينبغى أن يحملهم على الخيانة كأبى لبابة ، وأن الله عنده الجزاء الأوفى ، وأن عنده الأجر العظيم، لمن رزئ فى ماله أو أصيب فى عياله ، فآثر رضاءه ، وراعى حدوده فى الأموال والأولاد وجعل همه منوطًا بما ينال به أجر الله ، فهو خير وأبقى .

٢٩- يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ... الآية .

وقد وعد الله المؤمنين الذين يتقون فى كل ما يأتون وما يذرون ، وفى كل ما يقولون وما يفعلون ويراقبونه سرًا وعلانية ، أن يجعل لهم بسبب ذلك هداية ونورًا فى قلوبهم وفرقانًا يفرقون به بين الحق والباطل ويميزون به الخير من الشر ويعفو عن سيئاتهم ، ويتجاوز عن ذنوبهم ، والله ذو الفضل العظيم على عباده، يتفضل عليهم بإحسانه ويعفو عن كثير .

★ ★ ★

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

المفردات :

وإذ يمكر بك الذين كفروا : واذكر وقت أن اجتمعت كفار قريش فى دار الندوة ليدبروا أمر القضاء عليك .

ليثبتوك : ليوثقوك ويحبسوك .

أو يقتلوك : أو ينوشوك بسيوفهم حتى يقتلوك .

أو يخرجوك : أو يخرجوك من مكة .

ويمكرون : ويدبرون لك المكايد خفية .

ويمكر الله : ويدبر الله ما يحيط به مكايدهم ، ويأتيهم بغتة .

والله خير الماكرين : وتدبير الله أنفذ من مكرهم وأبلغ فى التأثير والنكاية بهم .

آياتنا : القرآن .

أساطير الأولين : ما سطره الأولون فى الكتب ، أو الأباطيل والترهات .

إن كان هذا هو الحق من عندك : إن كان هذا القرآن هو الحق الذى نزل به محمد من عندك .

فأمطر علينا حجارة من السماء : فعاقبنا على إنكاره بحجارة من سجيل تهلكنا كما أهلكت أصحاب الفيل .

أو ائتنا بعذاب أليم : أو عاقبنا بنوع آخر من العذاب ، يكون أشد قسوة من حجارة السماء .

وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم : وليس من سنة الله أن يصيبهم بعذاب يستأصلهم ، أو صاعقة تهلكهم وأنت بينهم ؛ لأنك بعثت رحمة للعالمين ، وهو معذبهم إذا فارقتهم .

وما كانوا أولياءه : ما استحقوا لإشراكهم وعدواتهم للدِّين ، أن يكونوا ولاة لأمر المسجد الحرام .

مكاء : صفيرا كصوت المكاء ، وهو طائر أبيض بالحجاز كالقنبرة ، مليح الصوت ، فكانوا يجمعون بين أصابع أيديهم ثم يدخلونها فى أفواههم فتحدث صفيرًا .

وتصدية : وتصفيقًا .

فذوقوا العذاب : فذوقوا عذاب القتل والأسر .

تمهيد

بعد أن عدد الله على المسلمين فيما سبق من الآيات ، ما فضل عليهم به من النعم العامة ، أنزل على نبيه : وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ... ، ليذكره – ﷺ – بنعمته عليه فى خاصة نفسه ، إذ نجاه من تآمر قريش عليه وتبييتهم نية الغدر به فى دار الندوة .

قصة المؤامرة

لما سمعت قريش بإسلام الأنصار ، ومبايعتهم للنبى ﷺ ؛ خافوا أن يعظم أمره وتقوى شوكته فاجتمعوا فى دار الندوة يتشاورون فى أمر ، فدخل إبليس عليهم فى صورة شيخ ، وقال : أنا شيخ من نجد ، دخلت مكة ، فسمعت باجتماعكم ، فأردت أن أحضركم ولن تعدموا منى رأيًا ونصحًا .

فقال أبو البخترى : رأيى أن تحبسوا محمدًا فى بيت ، وتشدوا وثاقة ، وتسدوا بابه ، غير كوة تلقون إليه طعامه وشرابه منها ، وتتربصوا به ريب المنون ، فقال إبليس : بئس الرأى ، يأتيكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من أيديكم .

فقال هشام بن عمرو : رأيى أن تحملوه على جمل وتخرجوه من بين أظهركم ، فلا يضركم ما صنع ، واسترحتم ، فقال إبليس: بئس الرأى ، يفسد قومًا غيركم ويقاتلكم بهم .

فقال أبو جهل : أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاما ، وتعطوه سيفًا ، فيضربوه ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه فى القبائل ، فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلها ، فإذا طلبوا العقل أى : الدية ؛ عقلناه واسترحنا ، فقال إبليس: صدق هذا الفتى ، هو أجودكم رأيًا ؛ فتفرقوا على رأى أبى جهل ، مجتمعين على قتله

فأخبر جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ ، وأمره ألا يبيت فى مضجعه ، وأذن له الله فى الهجرة ، فأمر عليًا فنام فى مضجعه ، وقال له : اتشح ببردتى ، فإنه لن يخلص إليك أمر تكرهه ، ودعا الله أن يعمى عليهم أثره ، وباتوا مترصدين ، ولكن الله طمس على بصيرتهم ، فخرج ولم يروه ، فلما أصبحوا ساروا إلى مضجعه ، فأبصروا عليًا ، فبهتوا .

وخيب الله سعيهم وخرج هو مع أبى بكر رضى الله عنه إلى الغار بعد أن دفعا راحلتيهما إلى عبد الله بن أريقط ، وكان دليلاً هاديًا حاذقًا بالطريق ، واستأجراه ليدلهما على طريق المدينة ، وواعداه أن يوافيهما عند غار ثور بعد ثلاث ليال ، ولما علمت قريش بخروج النبى ﷺ ، جعلت تطلبه بقائف معروف يقفوا الأثر ، ومضى برحالهم حتى وقف على الغار ، فقال : هنا انقطع الأثر ، فنظروا فإذا بالعنكبوت قد نسج على فم الغار ، فأيقنوا أن لا أحد فيه ، فرجعوا ، وجعلوا فى النبى ﷺ مائة ناقة، لمن يرجع به عليهم ، ولما سمع أبو بكر صوت من يقصون أثرهم على باب الغار ، قال للنبى ﷺ : «لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه» ، فقال : «يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين ، الله ثالثهما ؟ ، يا أبا بكر ، لا تحزن ؛ إن الله معنا» [١٣١] .

التفسير :

٣٠- وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ ... الآية .

واذكر وقت أن كان يمكر بك الذين كفروا ، ويبيتون لك الكيد ، مجتمعين فى دار الندوة ، فمنهم من أشار بأن يثبتوك بالقيد ، ويشدوك بالوثائق ، ويحبسوك حتى تموت ، ومنهم من أشار بأن يخرجوك من بلدك ، وينفوك من وطنك ،وهم يمكرون ويدبرون الغدر بك ، والله يرد مكرهم عليهم ، ويحبط تدبيرهم وتدبير الله فى نجاتك وفرارك من أيديهم أنفذ من مكرهم وأبلغ فى النكاية بهم من حيث لا يشعرون .

٣١- وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا ... الآية .

وكان عليه السلام يقرأ القرآن ، ويتلو منه أخبار القرون الماضية ، فلما سمعه النضر بن الحارث ومن كانوا معه ، قالوا: قد سمعنا مثل هذه الأخبار من غير محمد ، ولو نشاء أن نقول مثل هذا القرآن لقلنا ، وما هو إلا أخبار مما سطره الأولون ، وقولهم هذا مكابره ، وليس فى استطاعتهم ، فقد طولبوا بسورة منه فعجزوا ، وكان أحب شىء إليهم أن يستطيعوا فيغلبوا ، فكيف يقولون : لو نشاء لقلنا مثل هذا ؟!

٣٢- وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ ... الآية .

وكان النضر بن الحارث من أشد قريش معارضة للنبى ﷺ ، وكان قد سافر إلى فارس والحيرة للتجارة، ورجع منها بقصص سمعه من الرهبان كما رجع بنسخة من أخبار رستم وأسفنديار ، وكان يجمع الكفار من

قريش حوله ، ويقرأ لهم منها ، ولما قال النضر حين سمع القرآن : إن هذا إلا أساطير الأولين ، قال له النبى: «ويلك ، إنه كلام الله» ، فقال فى استخفاف وإنكار: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ، فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم [١٣٢] ، أى : إن كان هذا القرآن حقًا ، فعاقبنا على إنكاره وتكذيبه ، بحجارة تنصب علينا كالمطر من السماء التى تهبط الوحى منها على محمد ، وينزل عليه القرآن من جهتها ، فتهلكنا كما أهلك السجيل أصحاب الفيل ، أو عاقبنا بعقاب آخر أشد ألما وأقسى عذابًا ، هو قول يدل على غاية الجحود والإنكار، وعلى أن الله تعالى قد حال بين الهداية وقلوب هؤلاء بحجب وأقفال منيعة ، كما يدل على سفه العقل وسقم التفكير؛ لأن المنطق كان يقضى عليهم أن يقولوا: اللهم ، إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه ، لكنه عمى العقل ، وجنون العناد .

٣٣- وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ... الآية .

وكان من اليسير على الله أن يهلك النضر ومن معه من المعاندين المكابرين فيصيبهم بما أصاب به عادًا وثمودًا ، ولكن الله أرسل نبيه ﷺ رحمة للعالمين ، فقال : وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُون . أى : ما كان الله ليعذب أمتك وأنت قائم فيهم لهدايتهم ، بل كرامتك عند ربك أجل وأعظم ، وسيؤجل الله عذاب المشركين حتى تخرج من بينهم ، ويحول شقاؤهم دون هدايتهم ، ولو كانوا ممن يؤمنون ويستغفرون الله من الكفر والمعاداة ؛ لما عذبهم ولكنهم لا يؤمنون ولا يستغفرون؛ فجزاؤهم من الله أشد العذاب.

٣٤- وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ ... الآية .

وكيف لا يعذبهم الله وهم – زيادة على ما هم فيه من الكفر والضلال – يصدون المؤمنين عن زيارة المسجد الحرام ، ويمنعونهم كما منعوهم فى عام الحديبية أن يحجوا ، ويزعمون لأنفسهم حق الولاية عليه ، وما كانوا أولياءه ، لم يولهم الله عليه ؛ لأنه بيته ، وهو صاحب الحق فى أن يولى عليه من يشاء ، فليسوا متأهلين ولا مستحقين لهذه الولاية ؛ لأنهم أهل شرك ، وعبدة أصنام ، وأوثان ، فكيف يتولون على بيت الله ؛ إنما يتولى على البيت المسلمون المتقون الذين يعبدون الله حق عبادته ويعرفون لبيته حرمته ، ولكن كثيرًا من قريش لا يعلمون أن لا ولاية لأحد على المسجد الحرام إلا للمتقين من عباده .

٣٥- وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ... الآية .

وإن أفعالهم القبيحة عند البيت ، التى تقوم مقام صلاتهم ، لتنافى أن يكونوا أولياء البيت ، أو محافظين على مايجب له من هيبة ووقار ، فقد جعلوا مكان الصلاة والتقرب إلى الله ، المكاء والتصدية ، أى: التصفير والتصفيق ، إذ كانوا يطوفون عراة ، رجالاً ونساء ، مشبكين بين أصابعهم ، يصفقون ويصفرون ، يفعلون ذلك

ورسول الله ﷺ قائم يصلى ويقرأ ، ليحدثوا جلبة وضوضاء عليه ، ويثيروا الضجيج حوله ، ويشغلوه عن صلاته ؛ فذوقوا العذاب الذى لقيتموه ببدر فى الدنيا ، وذوقوا عذاب جهنم فى الآخرة ، جزاء ما كنتم فيه من كفر وضلال .

★ ★ ★

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾

المفردات :

ليصدوا عن سبيل الله : ليمنعوا الناس من الدخول فى دينه ، واتباع رسوله ؛ معاداة له .

ثم تكون عليهم حسرة : ثم تكون عاقبة إنفاقها ندمًا وغما عليهم ؛ لأنهم أضاعوا المال ولم يحققوا المقصود .

ليميز الله الخبيث من الطيب : سيغلبون فى الدنيا ويحشرون إلى جهنم فى الآخرة ؛ ليميز الله الكافر من المؤمن .

ويجعل الخبيث بعضه على بعض : ويجعل الكفار بعضهم فوق بعض فى جهنم .

فيركمه جميعا : فيتراكبوا لشدة ازدحامهم .

إن ينتهوا : إن ينتهوا عن معاداة الرسول بالدخول فى الإسلام .

يغفر لهم ما قد سلف : يعف الله عما قد سلف من ذنوبهم .

وإن يعودوا : وإن يرجعوا إلى معاداته وحربه .

فقد مضت سنة الأولين : فإن السنن الماضية عن الأمم السابقة ، وعما حدث للمشركين فى بدر تنبئهم بما يحيق بهم .

حتى لا تكون فتنة : حتى لا يكون شرك ، ولا يعبد غير الله فى الأرض .

ويكون الدين كله لله : ويقضى على العبادات الباطلة ، ولا تبقى إلاّ عبادة الله وحده .

فإن الله مولاكم : فإن الله ناصركم ومعينكم .

التفسير :

٣٦- إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ .... الآية .

إن الذين كفروا ينفقون أموالهم فى الفساد ، والتمكين للشر ، وإقامة البغى ، ومعاداة النبى ، ومحاربة المسلمين ؛ ليمنعوا الناس عن الدخول فى دين الله ، واتباع رسوله ، وسيأتون على كل أموالهم إنفاقًا وتضييعًا، دون أن ينالوا مقصودهم ؛ لأن الإسلام دين الحق ، والناس يعتنقونه عن يقين وبينة ، وهم يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره – وستبقى لهم الحسرة والندامة والغم ؛ لأنهم أضاعوا أموالهم وأوقاتهم دون أن يقضوا على دعوة الإسلام ، التى تمضى وتنتشر أسرع من انتشار النور فى الظلام ، ثم يكون مصيرهم أن يغلبوا ويقهروا ويقضى عليهم وينتهوا ، وقد نزلت الآية فى المطعمين يوم بدر ، وكانوا اثنى عشر رجلاً من كبار قريش وكان ينحر الواحد منهم لمقاتلة الكفار فى بدر كل يوم عشر جزر – أى : عشرًا من الإبل– وفى أبى سفيان بن حرب لما استأجر لقتال المسلمين يوم أحد ألفين من الأحابيش ، سوى من تطوع معه للقتال من العرب وأنفق عليهم أربعين أوقية ذهبًا .

وليس ما وقع فى نفوس المشركين من الحسرة والندامة ، من خسارة أموالهم ، وعدم تحقيق غرضهم ، من القضاء على محمد ودينه ، هو كل ما يحل بهم من العقاب والنكال ، وإنما الذين بقوا منهم ، أو ماتوا على الكفر ، سيحشرهم الله فى جهنم حشرًا ، ويعد للمؤمنين نعيمًا وأجرًا .

٣٧- لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ .... الآية .

ليميز الله الخبيث من الطيب ، والمؤمن من الكافر ، ومن أنفق ماله للجهاد فى سبيل الله ، ومن أنفقه لمحاربة محمد ودينه ، وليجعل فريق الخبيث بعضه على بعض ، فيجمعه متراكمًا متزاحمًا ؛ ليتذوقوا من التكدس والتراكم والتزاحم فى نار جهنم ، جميع ألوان العذاب والهوان ، هؤلاء هم الذين خسروا الدنيا والآخرة، وأضاعوا أموالهم وأنفسهم وحقت عليهم كلمة العذاب .

٣٨- قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ .... الآية .

والله واسع المغفرة رحيم بعباده فأمر نبيه أن يعلن هؤلاء الكفار الذين حاربوه وعادوه ، أنهم إن يقلعوا عن الكفر . ويتركوا سبيل الضلال ، ويدخلوا فى دين الله ؛ فإن الله سيعفو عنهم ويغفر لهم ما فرط من ذنوبهم:

لأن الإسلام يجبّ ما قبله ، أما إذا عادوا إلى القتال ، وبقوا فى الكفر والضلال ، فإنهم يعلمون بما مضت به سنة الأولين ، وأنباء السابقين ، من إهلاك الأمم التى تحزبت على الأنبياء ، وبما حل بهم من النكال والقتل يوم بدر .

٣٩- وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ .... الآية .

لقد أمرتم أيها المؤمنون أن تقاتلوا الكفار ، حتى لا يكون كفر أو شرك ، ولا تعبد أصنام ولا أوثان ، ويكون الدين كله خالصًا لله ، ولا يعبد أحد فى الأرض سواه ، فإن قاتلتموهم وانتهوا - وقت القتال - عن الكفر ، واعتنقوا الإسلام ؛ فكفوا عنهم ، فإن الله سيقبلهم ، وهو البصير بما يعملون .

٤٠- وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ .... الآية .

أما إن أعرضوا عنكم وأصروا على قتالكم ؛ فاستمروا فى قتالهم ، واعلموا أن الله مولاكم ، وناصركم عليهم ، وكونوا على يقين وثقة ، بأنه سيجعل الظفر والغلبة لكم ، إنه خير مولى ؛ فلا يضيع من يتولاه ، وخير نصير ؛ فلا يهزم من ينصره .

★ ★ ★

خاتمة

هذا هو ختام تفسير الجزء التاسع من القرآن الكريم ، والقرآن مأدبة الله ، وهى مأدبة حافلة بألون الخير والبركة والسعادة .

ونحن نتواصى بالحق والصبر ، ومن الحق أن هذا الكتاب نور الله المبين ، وهو الصراط المستقيم ، وهو المنقذ من الضلال ،والهادى إلى صراط مستقيم .

وعزُّنا ومجدنا وكرامتنا ، فى الالتفاف حول كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، وأمجاد أمتنا الإسلامية؛ نقول ذلك لا تقليدًا ولا احترافًا ، وإنما صدقًا وإخلاصًا .

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ . (فصلت: ٣٣)

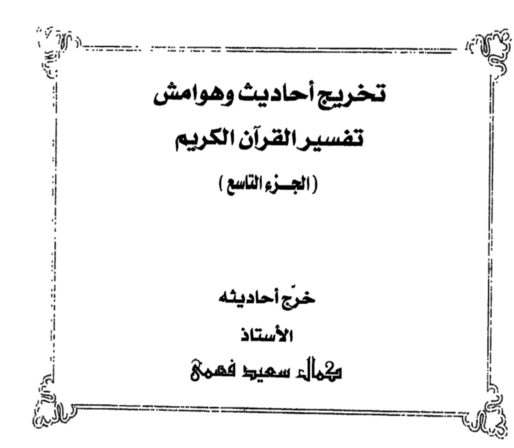
وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، أسأل الله تعالى أن يتقبل هذا العمل ، وأن يجعله خالصًا لوجهه ، وأن يرزقنا الإخلاص والقبول ، وأن يوفقنا إلى تمام تفسير القرآن الكريم إنه ولى التوفيق ، والحمد رب العالمين .

القاهرة – المقطّم – الهضبة العليا ، ضحى يوم الاثنين ١٩ محرم ١٤١٣ هـ الموافق ٢٠/٧/١٩٩٢ م

تم بحمد الله تفسير الجزء التاسع من القرآن الكريم

ويليه تفسير الجزء العاشر إن شاء الله تعالى

★ ★ ★



تخريج أحاديث وهوامش

تفسير القرآن الكريم

(الجـزء التاسع)

خرّج أحاديثه

الأستاذ

جمال سعيد فهمي

(١) التفسير الوسيط : تفسير سورة الأعراف أ . د . محمد سيد طنطاوى الطبعة الثانية ١٩٨٥ م ص ١٢٢ .

(٢) التفسير الوسيط مجمع البحوث الإسلامية الحزب ١٧ ص ١٤٧٢ .

(٣) المصحف المفسر للأستاذ محمد فريد وجدى مطبوعات دار الشعب بالقاهرة ص ٢٠٧.

(٤) زبدة التفسير من فتح القدير للشوكانى ص ٢٠٧.

(٥) أحفوا الشوارب وأعفوا اللحى :

رواه البخارى فى اللباس (٥٨٩٢ ، ٥٨٩٣) ومسلم فى الطهارة (٢٥٩) واللفظ له ومالك فى الموطإ كتاب الجامع (١٧٦٤) وأبو داود فى الترجل (٤١٩٩) والترمذى فى الأدب (٢٧٦٣ ، ٢٧٦٤) والنسائى فى الطهارة (١٥) وفى الزينة (٥٠٤٥ ، ٥٢٢٦) وأحمد فى مسنده (٤٦٤٠) من حديث ابن عمر عن النبى ﷺ قال : خالفوا المشركين وفروا اللحى وأحفوا الشوارب وكان ابن عمر إذا حج أو اعتمر قبض على لحيته فما فضل أخذه . ورواه مسلم فى الطهارة (٢٦٠) وأحمد فى مسنده (٧٠٩٢) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ جزوا الشوارب وأرخوا اللحى ؛ خالفوا المجوس .

(٦) قال الزمخشرى فى تفسير الكشاف :

روى أنه كان ثعبانًا ذكرًا أشعر فاغرًا فاه بين لحييه ثمانون ذراعًا وضع لحيه الأسفل فى الأرض ولحيه الأعلى على سور القصر ، ثم توجه نحو فرعون ليأخذه فوثب فرعون من سريره وهرب وأحدث ، ولم يكن أحدث قبل ذلك . وهرب الناس وصاحوا وحمل على الناس فانهزموا فمات منهم خمسة وعشرون ألفا قتل بعضهم بعضًا .. إلخ ا هـ . وهى روايات مردودة .

(٧) فتح البيان فى مقاصد القرآن للعلامة صديق حسن خان جـ ٣ ص ٢٨٣ دار الفكر العربى .

(٨) فى ظلال القرآن ٩ / ١٣٤٨ ، وقد نقله الأستاذ سعيد حوّى المجلد الرابع ص ١٩٨١ .

(٩) تفسير المراغى ٩ / ٢٧ باختصار .

(١٠) سحر النبى ﷺ حتى كان يخيل :

رواه البخارى فى الجزية والموادعة (٣١٧٥) وفى بدء الخلق (٣٢٦٨) وفى الطب (٥٧٦٣ ، ٥٧٦٦) ومسلم فى السلام (٢١٨٩) وابن ماجه فى الطب (٣٥٤٥) وأحمد فى مسنده (٢٣٧٧٩) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت سحر النبى ﷺ وقال الليث كتب إلى هشام أنه سمعه ووعاه عن أبيه عن عائشة قالت سحر النبى ﷺ حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشىء وما يفعله حتى كان ذات يوم دعا ودعا ثم قال أشعرت أن الله أفتانى فيما فيه شفائى أتانى رجلان فقعد أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلى فقال أحدهما للآخر ما وجع الرجل ؟ قال مطبوب قال ومن طبه قال لبيد بن الأعصم قال فيما ذا قال فى مشط ومشاقة وجف طلعة ذكر قال فأين هو قال فى بئر ذروان فخرج إليها النبى ﷺ ثم رجع فقال لعائشة حين رجع نخلها كأنه رءوس الشياطين فقلت استخرجته فقال لا أما أنا فقد شفانى الله وخشيت أن يثير ذلك على الناس شرا ثم دفنت البئر.

(١١) هى جزء من الآية القرآنية : ﴿ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله﴾ (الكهف : ٣٩) وفى الحديث الشريف: «من أعجبه شيء من أهل أو مال أو ولد فقال : باسم الله ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله ؛ لم ير فيه مكروهًا» .

(١٢) احفظ الله يحفظك :

رواه الترمذى فى صفة القيامة (٢٥١٦) وأحمد فى مسنده (٢٦٦٤) من حديث ابن عباس قال كنت خلف رسول الله ﷺ يوما فقال يا غلام إنى أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف . وقال الترمذى هذا حديث حسن صحيح . قال العجلونى فى كشف الخفاء : رواه أبو القاسم بن بشران فى أماليه ، وكذا القضاعى عن أبى هريرة رضى الله عنه ، ورواه الطبرانى فى الكبير عن ابن عباس بلفظ كنت رديف رسول الله ﷺ فالتفت إلى ، فقال يا غلام احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله – الحديث ، وفيه قد جف القلم بما هو كائن فلو أن الخلق كلهم جميعا أرادوا أن ينفعوك بشىء لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه ، أو أرادوا أن يضروك بشىء لم يقضه الله عليك لم يقدروا عليه ، وفيه واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا ، وأورده الضياء فى المختارة وهو حسن ، وله شاهد رواه عبد بن حميد عن ابن عباس رضى الله عنهما رفعه بلفظ يا ابن عباس احفظ الله يحفظك ، واحفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ، وذكره مطولا بسند ضعيف، ورواه أحمد والطبرانى وغيرهما بسند أصح رجالا وأقوى ، قال فى المقاصد وقد بسطت الكلام عليه فى تخريج الأربعين.

(١٣) تفسير الكشاف ٢ / ١٢٥ الناشر دار المصحف شركة مكتبة ومطبعة عبد الرحمن محمد الطبعة الثانية ١٩٧٧ م .

(١٤) التفسير القرآنى للقران : عبد الكريم الخطيب ٩ / ٤٦٤.

(١٥) لا عدوى ولا طيرة :

ذكره البخارى تعليقا فى الطب باب الجذام من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر وفر من المجذوم كما تفر من الأسد . ورواه البخارى في الطب (٥٧١٧ ، ٥٧٥٧ ، ٥٧٧١ ، ٥٧٧٥) ومسلم فى السلام (٢٢٢٠) وأبو داود فى الطب (٣٩١١ ، ٣٩١٢) وأحمد فى مسنده (٨١٤٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال إن رسول الله ﷺ قال لا عدوى ولا صفر ولا هامة فقال أعرابى يا رسول الله فما بال إبلى تكون فى الرمل كأنها الظباء فيأتى البعير الأجرب فيدخل بينها فيجربها فقال فمن أعدى الأول . رواه البخارى فى الطب (٥٧٥٣ ، ٥٧٧٢) ومسلم فى السلام (٢٢٢٥) وابن ماجه فى المقدمة (٨٦) وفى الطب (٣٥٤٠) وأحمد فى مسنده (٦٣٦٩) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال لا عدوى ولا طيرة والشؤم فى ثلاث فى المرأة والدار والدابة . رواه البخارى فى الطب (٥٧٥٦ ، ٥٧٧٦) ومسلم فى السلام (٢٢٢٤) وأبو داود فى الطب (٣٩١٦) والترمذى فى السير (١٦١٥) وابن ماجه فى الطب (٣٥٣٧) وأحمد فى مسنده (١١٩١٤) من حديث أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال لا عدوى ولا طيرة ويعجبنى الفأل الصالح الكلمة الحسنة . رواه مسلم فى السلام (٢٢٢٢) وأحمد فى مسنده (١٣٧٠٣) من حديث جابر قال : قال رسول الله ﷺ : لا عدوى ولا طيرة ولا غول . ورواه أبو داود فى الطب (٣٩٢١) وأحمد فى مسنده (١٥٠٥) من حديث سعد بن مالك أن رسول الله ﷺ كان يقول لا هامة ولا عدوى ولا طيرة وإن تكن الطيرة فى شىء ففى الفرس والمرأة والدار . ورواه ابن ماجه فى الطب (٣٥٣٩) حديث ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر . ورواه أحمد فى مسنده (٤١٨٦) من حديث عبد الله بن مسعود قال : قام فينا رسول الله ﷺ فقال :لا يعدى شىء شيئا فقام أعرابى فقال : يا رسول الله النقبة من الجرب تكون بمشفر البعير أو بذنبه فى الإبل العظيمة فتجرب كلها فقال رسول الله ﷺ فما أجرب الأول لا عدوى ولا هامة ولا صفر خلق الله كل نفس فكتب حياتها ومصيباتها ورزقها . ورواه أحمد فى مسنده (٧٠٣٠) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله ﷺ لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا حسد والعين حق .

(١٦) لا طيرة ويعجبنى الفأل الصالح :

رواه البخارى فى الطب (٥٧٥٦) من حديث أنس وقد تقدم فى الذى قبله .

(١٧) اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت :

رواه أبو داود فى الطب (٣٩١٩) من حديث عروة بن عامر قال أحمد القرشى قال ذكرت الطيرة عند النبى ﷺ فقال أحسنها الفأل ولا ترد مسلما فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل اللهم لا يأتى بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك .

(١٨) مهما : اسم شرط . تأتنا : فعل الشرط . من آية : بيان وتفسير للضمير فى به وجواب الشرط فما نحن لك بمؤمنين وسموا ما يأتى به موسى آية ؛ مجاراة لتسمية موسى مع قصد السخرية والاستهزاء .

(١٩) قال تعالى : ﴿ولقد ءاتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بنى إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إنى لأظنك يا موسى مسحورًا﴾ (الإسراء : ١٠١) والآيات التسع هى : الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد والسنين ونقص الثمرات ، وقيل هى الوصايا التسع وهى التى فى التوراة انظر تفسير فتح القدير للشوكانى .

(٢٠) القذة : ريش السهم ، قال ابن الأثير : يضرب مثلا للشيئين يستويان ولا يتفاوتان .

(٢١) لتركبن سنن من كان قبلكم :

رواه أحمد فى مسنده (٢١٣٩٠) من حديث أبى واقد الليثى أنهم خرجوا عن مكة مع رسول الله ﷺ إلى حنين قال وكان للكفار سدرة يعكفون عندها ويعلقون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط قال : فمررنا بسدرة خضراء عظيمة قال : فقلنا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط فقال رسول الله ﷺ قلتم والذى نفسى بيده كما قال قوم موسى ﴿اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون﴾ إنها لسنن لتركبن سنن من كان قبلكم سنة سنة . ورواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٤٥٦) وفى الاعتصام (٧٣٢٠) ومسلم فى العلم (٢٦٦٩) وأحمد فى مسنده (١١٣٩١) من حديث أبى سعيد رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال لتتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى قال : فمن؟! ورواه البخارى فى الاعتصام (٧٣١٩) وابن ماجه فى الفتن (٣٩٩٤) وأحمد فى مسنده (٨١٠٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتى بأخذ القرون قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع فقيل يا رسول الله كفارس والروم فقال : ومن الناس إلا أولئك؟! ورواه أحمد فى مسنده (٢٢٣٧١) حدثنا يحيى بن إسحاق أخبرنا ابن لهيعة عن بكر بن سوادة عن سهل بن سعد الأنصارى عن النبى ﷺ قال : والذى نفسى بيده لتركبن سنن من كان قبلكم مثلا بمثل .

(٢٢) تفسير المراغى ٩ / ٥٢ .

(٢٣) تفسير فتح القدير تأليف محمد بن على بن محمد الشوكانى ١٢٥٠ هـ . ج ٢ ص ٢٤٣ .

(٢٤) تفسير المراغى ٩ / ٥٨ .

(٢٥) ثلاث من حدثكهن فقد كذب :

رواه البخارى فى بدء الخلق (٣٢٣٤) وفى التفسير (٤٨٥٥) وفى التوحيد (٧٣٨٠) وفى الإيمان (١٧٧) والترمذى فى التفسير (٣٠٦٨) وأحمد فى مسنده (٢٣٧٠٧) من حديث مسروق قال : قلت لعائشة رضى الله عنها يا أمتاه هل رأى محمد

ﷺ ربه فقالت : لقد قف شعرى مما قلت أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب من حدثك أن محمدا ﷺ رأى ربه فقد كذب ثم قرأت : ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾ ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب﴾ ومن حدثك أنه يعلم ما فى غد فقد كذب ثم قرأت ﴿وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا﴾ ومن حدثك أنه كتم فقد كذب ثم قرأت ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ الآية ولكنه رأى جبريل عليه السلام فى صورته مرتين ...

(٢٦) أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت :

رواه البخارى فى بدء الخلق ح (٣٢٤٤) ، وفى التفسير ح (٤٧٧٩ ، ٤٧٨٠) ، وفى التوحيد ح (٧٤٩٨) ومسلم فى الجنة ح (٢٨٢٤) ، والترمذى فى التفسير ح (٣١٩٧ ، ٣٢٩٢) ، وابن ماجه فى الزهد ح (٤٣٢٨) ، وأحمد ح (٩٣٦٥ ، ٩٦٨٨، ١٠٠٥١)، والدارمى فى الرقاق ح (٢٨٢٨) من حديث أبى هريرة .

(٢٧) تفسير المراغى ٩ / ٥٩ – ٦٠ .

(٢٨) تفسير المنار ٩ / ١٩٠ وورد هذا فى تفسير المراغى ٩ / ٦١ .

(٢٩) التفسير الوسيط نقلا عن تفسير القاسمى نقلا عن تاج العروس .

(٣٠) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٩ / ١٣٧٦ .

(٣١) التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج أ . د وهبة الزحيلى رئيس قسم الفقه بجامعة دمشق ٩ / ١١١ .

(٣٢) انظر هذه الأقوال فى زاد المسير لابن الجوزى ٣ / ٢٦٨ وما بعدها وغيره من كتب التفسير .

(٣٣) يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى :

رواه مسلم فى البر والصلة ح (٢٥٧٧) ، وأحمد ٥/١٥٤ ، ١٦٠ ، ١٧٧ ، والترمذى ح ٢٤٩٥ ، وابن ماجه ح ٤٢٧٥ ، وعبد الرازق ح ٢٠٢٧٢ من حديث أبى ذر .

(٣٤) أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة :

رواه البخارى فى البيوع (٢١٢٥) وأحمد فى مسنده (٦٥٨٥) من حديث عطاء بن يسار قال لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قلت أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة قال أجل والله لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن ﴿يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا﴾ وحرزا للأميين أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ويفتح بها أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا .

(٣٥) انظر تفسير القاسمى ، وتفسير ابن كثير ، والتفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج للأستاذ الدكتور / وهبة الزحيلى رئيس قسم الفقه بجامعة دمشق ٩ / ١١١ ، والتفسير الوسيط للدكتور / محمد سيد طنطاوى : تفسير سورة الأعراف ص ٢٠٧ ، والأساس فى التفسير للأستاذ سعيد حوى .

(٣٦) بعثت بالحنيفية السمحة :

رواه أحمد فى مسنده (٢١٧٨٨) من حديث أبى أمامة قال خرجنا مع رسول الله ﷺ فى سرية من سراياه قال فمر رجل بغار فيه شىء من ماء قال فحدث نفسه بأن يقيم فى ذلك الغار فيقوته ما كان فيه من ماء ويصيب ما حوله من البقل

ويتخلى من الدنيا ثم قال لو أنى أتيت نبى الله ﷺ فذكرت ذلك له فإن أذن لى فعلت وإلا لم أفعل فأتاه فقال يا نبى الله إنى مررت بغار فيه ما يقوتنى من الماء والبقل فحدثتنى نفسى بأن أقيم فيه وأتخلى من الدنيا قال فقال النبى ﷺ إنى لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية ولكنى بعثت بالحنيفية السمحة والذى نفس محمد بيده لغدوة أو روحة فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ولمقام أحدكم فى الصف خير من صلاته ستين سنة . قال الهيثمى في المجمع : رواه أحمد والطبرانى وفيه على بن يزيد الألهانى وهو ضعيف . وقال العراقى فى تخريج الإحياء : أخرجه أحمد من حديث أبى أمامة بسند ضعيف دون قوله «السهلة» وله وللطبرانى ومن حديث ابن عباس «أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة» وفيه محمد ابن إسحاق رواه بالعنعنة . قال المناوى فى فيض القدير : ذكره الخطيب فى تاريخه عن جابر بن عبد الله وفيه على بن عمر الحربى أورده الذهبى فى الضعفاء وقال صدوق ضعفه البرقانى ومسلم بن عبد ربه ضعفه الأزدى ومن ثم أطلق الحافظ ضعف سنده وقال العلائى : مسلم ضعفه الأزدى ولم أجد أحدًا وثقه ولكن له طرق ثلاث ليس يبعد أن لا يترك بسببها عن درجة الحسن .

(٣٧) بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا :

رواه أحمد فى مسنده (١٩٢٠٠) من حديث سعيد بن أبى بردة عن أبيه أن النبى ﷺ بعث معاذا وأبا موسى إلى اليمن فقال بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا وتطاوعا ولا تختلفا قال فكان لكل واحد منهما فسطاطا يكون فيه يزور أحدهما صاحبه.
ورواه البخارى فى العلم (٦٩) من حديث أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال : يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا . رواه مسلم فى الجهاد (١٧٣٢) وأبو داود فى الأدب (٤٨٣٥) وأحمد فى مسنده (٢٧٦٨١) من حديث أبى موسى قال : كان رسول الله ﷺ إذا بعث أحدا من أصحابه فى بعض أمره قال بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا .

(٣٨) تفسير المراغى ٩ /٣ /٨ بتصرف .

(٣٩) أعطيت خمسًا لم يعطهن نبى :

رواه البخارى فى التيمم (٣٣٥) وفى الصلاة ومسلم فى المساجد (٥٢١، ٥٢٣) والنسائى فى الغسل (٤٣٢) وفى المساجد (٧٣٦) والدارمى فى الصلاة (١٣٨٩) وأحمد (١٣٨٥٢) من حديث جابر . ورواه مسلم فى المساجد (٥٢٣) والترمذى فى السير (١٥٥٣) وابن ماجه فى الطهارة (٥٦٧) وأحمد (٧٢٢٥ ، ٧٣٥٥ ، ٩٤١٢) من حديث أبى هريرة . ورواه أبو داود فى الصلاة (٤٨٩) والدارمى فى السير (٢٤٦٧) وأحمد (٢٠٧٩٢) من حديث أبى ذر . ورواه أحمد (٢٢٥٦ ، ٢٧٣٧) من حديث ابن عباس . ورواه أحمد (٧٠٢٨) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . ورواه أحمد (١٩٢٣٦) من حديث أبى موسى.

(٤٠) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج أ . د وهبة الزحيلى بجامعة دمشق دار الفكر المعاصر بيروت دار الفكر دمشق الطبعة الأولى ١٤١١ هـ ١٩٩١ م الكتاب ٩٢٧ .

(٤١) أنتم أعلم بأمر دنياكم :

رواه مسلم فى الفضائل (٢٣٦٣) وابن ماجه فى الأحكام (٢٤٧١) وأحمد فى مسنده (١٢١٣٥ ، ٢٤٣٩٩) من حديث هشام ابن عروة عن أبيه عن عائشة وعن ثابت عن أنس أن النبى ﷺ مر بقوم يلقحون فقال لو لم تفعلوا لصلح قال فخرج شيصا فمر بهم فقال ما لنخلكم قالوا قلت : كذا وكذا قال : أنتم أعلم بأمر دنياكم . تنبيه : لم أظفر به عند البخارى ولم أر من عزاه للبخارى ، فليحرر .

(٤٢) نقلا عن الأساس التفسير للأستاذ سعيد حوى نشر دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة ص . ب ١٦١ بيروت ص . ب ١٣٥٣٣٧ ، وفيه عدة نقول من التوراة تتصل بنزول المن والسلوى ، خلال أربعين سنة حتى جاءوا إلى أرض عامرة ، المجلد الرابع ص ٢٠٣٧ تفسير الآية ١٦٠ من سورة الأعراف .

(٤٣) تفسير ابن كثير ٩٧/١ بتصرف واختصار .

(٤٤) يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى :

رواه مسلم فى البر والصلة والآداب (٢٥٧٧) ، والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٥٩) وابن ماجه ح (٤٢٧٥) وأحمد (٥ / ١٥٤، ١٦٠، ١٧٧) ، وعبد الرزاق ح (٢٠٢٧٢) من حديث أبى ذر.

(٤٥) جاء الحق وزهق الباطل :

رواه البخارى فى المظالم (٢٤٧٨) ، وفى المغازى (٤٢٨٧) وفى التفسير (٤٧٢٠) ، ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٨١) ، وأحمد (٣٥٧٤) والترمذى فى التفسير (٣١٣٨) وقال : هذا حديث حسن صحيح وفيه عن ابن عمر ، ورواه مسلم فى الجهاد والسير (١٧٨٠) ، وأحمد (١٠٥٦٥) من حديث أبى هريرة .

(٤٦) لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا :

قال السيوطى فى الدر المنثور : وأخرج ابن بطة عن أبى هريرة رضى الله عنه «أن رسول الله ﷺ قال : لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل» .

(٤٧) تقاتلون اليهود حتى يختبى أحدهم :

رواه البخارى فى الجهاد (٢٩٢٥) وفى المناقب (٣٥٩٣) ومسلم فى الفتن (٢٩٢١) والترمذى فى الفتن (٢٢٣٦) وأحمد فى مسنده (٥٩٦٩) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : تقاتلون اليهود حتى يختبى أحدهم وراء الحجر فيقول يا عبد الله هذا يهودى ورائى فاقتله .

رواه البخارى فى الجهاد (٢٩٢٦) ومسلم فى الفتن (٢٩٢٢) وأحمد فى مسنده (٢٧٥٠٢) من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودى من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر أو الشجر يا مسلم يا عبد الله هذا يهودى خلفى فتعال فاقتله إلا الغرقد ؛ فإنه من شجر اليهود .

(٤٨) قيل : كان يأتيهم المحق برشوة فيخرجون كتاب الله فيحكمون له به ، فإذا جاءهم المبطل أخذوا منه الرشوة وأخرجوا له كتابهم، الذى كتبوه بأيديهم تحريفًا وتبديلاً لما فى التوراة ، فحكموا له به ، انظر تفسير ابن كثير .

(٤٩) تفسير أبى السعود ٣ / ٢٨٨ .

(٥٠) زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى ٣ / ٢٨٣ طبعة المكتب الإسلامى فى بيروت ، وفى دمشق . لصاحبه زهير الشاويش.

(٥١) قال تعالى ﴿ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم﴾ (النساء : ١٥٤) .

(٥٢) لتأخذن أمرى أو لأرمينكم به :

قال السيوطى فى الدر المنثور : وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : إنى لأعلم لم تسجد اليهود على حرف قال الله تعالى : ﴿وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم﴾ قال : لتأخذن أمرى أو لأرمينكم به ، فسجدوا وهم ينظرون إليه مخافة أن يسقط عليهم ، فكانت سجدة رضيها الله تعالى فاتخذوها سنة .

(٥٣) فى ظلال القرآن ٩ / ١٣٨٩ باختصار .

(٥٤) جاء فى قاموس محيط المحيط للمعلم بطرس البستانى :

النّسع : سير أو حبل من أدم ينسج عريضا على هيئة أعنة النعال ، تشّد به الرحال ، والقطعة منه نسعة وسمى نسعا لطوله ، وجمعه نُسْعٌ وأنساع ونسوع .. وقرقر البعير هدر وصفا صوته ، وبعير قرقار الهدير ، أى صافى الصوت فى هديره والمعنى : عندما تربط الأنساع وهى حبال الرحل على بطن البعير كأنها تقول له الحق بالركب ، قالت له ريح الصبا الطيبة (قرقار) أى : استجب لما يطلب منك ، مع هدير صافى الصوت وحداء جميل .

(٥٥) تفسير أبى السعود ٣ / ٢٩٠ دار إحياء التراث العربى بيروت ا هـ . وقد روى هذا الحديث النسائى وابن جرير ، وابن أبى حاتم، وأخرجه الحاكم فى مستدركه وقال: صحيح الإسناد ، انظر الأساس فى التفسير للأستاذ سعيد حوّى المجلد الرابع ص ٢٠٦١ نقلاً عن تفسير ابن كثير .

(٥٦) كل مولود يولد على الفطرة :

رواه البخارى فى الجنائز (١٣٥٨ ، ١٣٥٩ ، ١٣٨٥) وفى التفسير (٤٧٧٥) وفى القدر (٦٥٩٩) ومسلم فى القدر (٢٦٥٨) ومالك فى الموطإ كتاب الجنائز (٥٦٩) وأبو داود فى السنة (٤٧١٤) والترمذى فى القدر (٢١٣٨) وأحمد فى مسنده (٧١٤١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال النبى ﷺ : كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل ترى فيها جدعاء .

(٥٧) إنى خلقت عبادى حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين :

رواه مسلم فى الجنة (٢٨٦٥) ، وأحمد (١٧٠٣٠ ، ١٧٨٧٤ ، ١٧٨٧٥) من حديث عياض بن حمار المجاشعى أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم فى خطبته : ألا إن ربى أمرنى أن أعلمكم ما جهلتم مما علمنى يومى هذا كل مال نحلته عبدا حلال وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب وقال إنما بعثتك لأبتليك وأبتلى بك وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء تقرؤه نائما ويقظان وإن الله أمرنى أن أحرق قريشا فقلت رب إذا يثلغوا رأسى فيدعوه خبزة قال استخرجهم كما استخرجوك واغزهم نغزك وأنفق فسننفق عليك وابعث جيشا نبعث خمسة مثله وقاتل بمن أطاعك من عصاك قال : وأهل الجنة ثلاثة ذو سلطان مقسط متصدق موفق ، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذى قربى ومسلم ، وعفيف متعفف ذو عيال قال وأهل النار خمسة الضعيف الذى لا زبر له الذين هم فيكم تبعا لا يبتغون أهلا ولا مالا والخائن الذى لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانه ورجل لا يصبح ولا يمسى إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك وذكر البخل أو الكذب والشنظير الفحاش .

(٥٨) يقال للرجل من أهل النار :

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٣٣٤) وفى الرقاق (٦٥٣٨ ، ٦٥٥٧) ومسلم فى صفة القيامة (٢٨٠٥) وأحمد فى مسنده (١١٩٠٣) من حديث أنس يرفعه إن الله يقول لأهون أهل النار عذابا : لو أن لك ما فى الأرض من شىء كنت تفتدى به قال : نعم قال : فقد سألتك ما هو أهون من هذا وأنت فى صلب آدم أن لا تشرك بى فأبيت إلا الشرك .

(٥٩) إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه :

رواه مالك فى الموطإ كتاب الجامع (١٦٦١) وأبو داود فى السنة (٤٧٠٣) والترمذى فى تفسير القرآن (٣٠٧٥) وأحمد فى مسنده (٣١٣) من حديث مسلم بن يسار الجهنى أن عمر بن الخطاب سئل عن هذه الآية ﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾ فقال عمر بن الخطاب سمعت رسول الله ﷺ يسأل عنها فقال رسول الله ﷺ : إن الله خلق آدم ثم مسح ظهره بيمينه فأخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون فقال رجل يا رسول الله ففيم العمل ؟! قال : فقال رسول الله ﷺ : إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله الله الجنة وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله الله النار . قال الترمذى : حديث حسن ، ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر وقد ذكر بعضهم فى هذا الإسناد بين مسلم بن يسار وبين عمر رجلا مجهولا .

(٦٠) تفسير المراغى للأستاذ أحمد مصطفى المراغى ٩ / ١٠٤ .

(٦١) التفسير الوسيط للأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر نقلاً عن تفسير ابن كثير ، بتصرف .

(٦٢) آية الأنعام رقم ١٥٣ ج ٨ تفسير المنار ، وآية البقرة رقم ٢٥٧ ج ٣ ص ٣٤ طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب . ا هـ وانظر تفسير المنار ٩ / ٣٥٠ طبع ونشر الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٦٣) يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث :

بهذا اللفظ ذكره الهيثمى فى المجمع ١٠/١٨٣ وعزاه للطبرانى فى الصغير والأوسط من طريق سلمة بن حرب بن زياد عن أبى مدرك عن أنس ، وسلمة بن حرب : مجهول كشيخه أبى مدرك وقد وثقه ابن حبان وذكر له هذا الحديث فى ترجمته ، وفى الميزان : أبو مدرك قال الدارقطنى : متروك فلا أدرى هو أبو مدرك هذا أو غيره ، وبقية رجاله ثقات ، وانظر : ابن حبان فى الثقات ٦/٣٩٨ ورواه الترمذى فى الدعوات ح ٣٣٥٨ ، من حديث أبى هريرة قال : «وإذا اجتهد فى الدعاء قال : يا حى يا قيوم» ا هـ وقال : حديث غريب ، وذكره فى نفس الباب برقم ٣٤٤٦ ، من حديث أنس بن مالك قال : كان إذا كربه أمر قال : «يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث» ا هـ .

(٦٤) إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها :

رواه البخارى فى الشروط (٢٧٣٦) وفى التوحيد (٧٣٩٢) ومسلم فى الذكر (٢٦٧٧) والترمذى فى الدعوات (٣٥٠٦ ، ٣٥٠٨) وابن ماجه فى الدعاء (٣٨٦٠) وأحمد فى مسنده (٧٤٥٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة . ورواه الترمذى فى الدعوات (٣٥٠٧) وابن ماجه فى الدعاء (٣٨٦١) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إن لله تعالى تسعة وتسعين اسما مائة غير واحد من أحصاها دخل الجنة هو الله الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الغفار القهار .. الحديث . وقال أبو عيسى : هذا حديث غريب حدثنا به غير واحد عن صفوان ابن صالح ولا نعرفه إلا من حديث صفوان بن صالح وهو ثقة عند أهل الحديث وقد روى هذا الحديث من غير وجه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ ولا نعلم فى كبير شىء من الروايات له إسناد صحيح ذكر الأسماء إلا فى هذا الحديث وقد روى آدم ابن أبى إياس هذا الحديث بإسناد غير هذا عن أبى هريرة عن النبى ﷺ وذكر فيه الأسماء وليس له إسناد صحيح .

(٦٥) ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن:

رواه أحمد في مسنده (٣٧٠٤ ، ٤٣٠٦) من حديث عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك ماض فيَّ حكمك عدل فيَّ قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو علمته أحدا من خلقك أو أنزلته في كتابك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي ؛ إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرجا قال فقيل يا رسول الله ألا نتعلمها فقال بلى ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها .

(٦٦) تفسير الآلوسي ٩ / ١٢٣ .

(٦٧) أحكام القرآن لابن العربي ٢ / ٧٩٨ - ٨٠٥ .

(٦٨) لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين :

رواه البخاري تعليقا في الاعتصام باب لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين ووصله في المناقب ٣٦٤٠ ، وفي الاعتصام ٧٣١١ ، ٧٤٥٩ ، والدارمي ٢٤٣٢ ، وأحمد ١٧٦٦٩ ، ١٧٧٠١ من حديث المغيرة . ورواه مسلم في الإمارة ١٩٢٠ ، وأبو داود في الفتن (٤٢٥٢) ، والترمذي في الفتن ٢٢٢٩ ، وابن ماجه في المقدمة ١٠ ، وأحمد ٢١٨٩٧ من حديث ثوبان ابن بجدد . ورواه البخاري في المناقب ٣٦٤١ ، ٧٤٦٠ ، ومسلم في الإمارة ١٠٣٧ ، وأحمد ١٦٤٣٩ ، ١٦٤٨٥ من حديث معاوية . ورواه الدارمي ٢٤٣٣ من حديث عمر بن الخطاب . ورواه أحمد ٨٠٧٥ من حديث عبد الرحمن ، ورواه أحمد ٢٠٣٤٦، ٢٠٣٧٥ من حديث جابر بن سمرة ، ورواه الترمذي ٢١٩٢ ، وابن ماجه ٦ ، وأحمد ١٥١٧٠ ، ١٩٨٤٩ من حديث قرة بن إياس . ورواه مسلم في الإيمان ١٥٦ ، وفي الإمارة ١٩٢٣ ، وأحمد ١٩٣١٠ ، ١٤٦٠٧ من حديث جابر . ورواه أبو داود في الجهاد ٢٤٨٤ ، وأحمد ١٩٣٥٠ ، ١٩٤١٩ من حديث عمران بن حصين . ورواه أحمد ١٦٥١٧ من حديث سلمة بن نفيل . ورواه أحمد ٢١٨١٦ من حديث صدى بن عجلان . ورواه أحمد ١٨٨٠٤ من حديث زيد بن أرقم . ورواه ابن ماجه في المقدمة ٧ من حديث عبد الرحمن . ورواه ابن ماجه في المقدمة ٩ من طريق الحجاج بن أرطاة عن عمرو بن شعيب عن أبيه قال قام معاوية . ورواه أحمد ٢٠٤٢٦ اسم مبهم .

(٦٩) الطبري ١٣ / ٢٨٦ ابن كثير ٢ / ٢٦٩ ، وخرجّه السيوطي في الدر المنثور ٣ / ١٤٩ وزاد نسبته إلى ابن المنذر وأبي الشيخ.

(٧٠) أورده السيوطي في الدر المنثور ٣ / ١٤٩ ونسبه لابن جرير وابن المنذر وعبد بن حميد .

(٧١) قال في الشهاب : إذا رأيت الله أنعم على عبده ، وهو مقيم على معصيته فاعلم أنه استدراج .

(٧٢) إن الله ليملي للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته :

رواه البخاري في التفسير باب : قوله : ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾ (٤٤٠٩) ومسلم في البر والصلة والآداب ، باب : تحريم الظلم (٢٥٨٣) وابن ماجه في الفتن باب العقوبات (٤٠١٨) عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله ليملي للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته» . قال : ثم قرأ : ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾ .

(٧٣) تفسير المنار ٩ / ٣٧٨ .

(٧٤) مقتبس من تفسير المراغي للأستاذ أحمد مصطفى المراغي ٩ / ١٢٤.

(٧٥) تفسير المراغى للأستاذ أحمد مصطفى المراغى ٩ / ١٢٦ .

(٧٦) اغتنم خمسا قبل خمس : حياتك قبل موتك :

ذكره السيوطى فى الجامع الصغير (١٢١٠) ونسبه للحاكم فى المستدرك والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن عباس وأحمد فى الزهد أبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى شعب الإيمان عن عمرو بن ميمون مرسلا . قال المناوى فى فيض القدير : قال الحاكم فى مستدركه على شرطهما وأقره الذهبى فى التلخيص واغتر به المصنف فرمز لصحته وهو عجيب ففيه جعفر بن برقان أورده الذهبى نفسه فى الضعفاء والمتروكين وقال : قال أحمد يخطئ فى حديث الزهرى وقال ابن خزيمة : لا يحتج به . (حم فى الزهد) قال الزين العراقى: إسناد حسن (حل هب عن عمرو بن ميمون) ابن مهران الجوزى سبط سعيد بن جبير تابعى ثقة فاضل (مرسلاً) قال العراقى : فى تخريج الإحياء : أخرجه ابن أبى الدنيا فيه بإسناد حسن ورواه ابن المبارك فى الزهد من رواية عمرو بن ميمون الأزدى مرسلا .

(٧٧) لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها :

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٦٣٥، ٤٦٣٦) وفى الرقاق (٦٥٠٦) وفى الفتن (٧١٢١) ومسلم فى الفتن (١٥٧) وأبو داود فى الملاحم (٤٣٢١) وابن ماجه فى الفتن (٤٠٦٨) وأحمد فى مسنده (٧١٢١) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا رآها الناس آمن من عليها فذاك حين ﴿لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل﴾ .

(٧٨) اللقحة : الشاة الحلوب أو الحامل .

(٧٩) يليط : يطلى حوضه أو حجارته بجص ونحوه ، ليمسك الماء ، انظر زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى ٣ / ٢٩٨ طبع المكتب الإسلامى ، وقد توسع تفسير المنار توسعًا طويلاً ومفيدًا . فى تفسير الآية ج ٩ ص ٣٩١ .

(٨٠) ما المسئول عنها بأعلم من السائل :

رواه البخارى فى الإيمان ح ٥٠ ، وفى تفسير القرآن ح ٤٧٧٧ ، ومسلم فى الإيمان ح ٨ ، ٩ ، والترمذى فى الإيمان ح ٢٦١٠، والنسائى فى الإيمان ح ٤٩٩٠، ٤٩٩١ ، وأبو داود فى السنة ح ٤٦٩٥، وابن ماجه فى المقدمة ح ٦٣، ٦٤، وأحمد ح ٣٦٩، ٣٧٦، ٥٨٢٢، ٦١٢١، من حديث أبى هريرة ، ومن حديث عمر بن الخطاب . وقال الترمذى : حديث حسن صحيح.

(٨١) ، (٨٢) الأستاذ عبدالكريم الخطيب التفسير القرآنى للقرآن الكتاب الأول تفسير سورة البقرة ، والمجلد الثالث ٩ / ٥٣٨ .

(٨٣) انظر تفسير مقاتل بن سليمان تحقيق د . عبد الله شحاتة .

(٨٤) لما حملت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد :

رواه الترمذى فى التفسير (٣٠٧٧) وأحمد فى مسنده (١٩٦١٠) من حديث سمرة عن النبى ﷺ قال : لما حملت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال سميه عبد الحارث فسمته عبد الحارث فعاش وكان ذلك من وحى الشيطان ، وأمره. قال الترمذى: حديث حسن غريب لا نعرفه مرفوعا إلا من حديث عمر بن إبراهيم عن قتادة ورواه بعضهم عن عبد الصمد ولم يرفعه عمر بن إبراهيم شيخ بصرى .

(٨٥) تفسير ابن كثير .

(٨٦) بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا :

رواه البخارى فى العلم (٦٩) من حديث أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا . رواه مسلم فى الجهاد (١٧٣٢) وأبو داود فى الأدب (٤٨٣٥) وأحمد فى مسنده (٢٧٦٨١) من حديث أبى موسى قال كان رسول الله ﷺ إذا بعث أحدا من أصحابه فى بعض أمره قال بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا . ورواه البخارى فى الأدب (٦١٢٤) وفى المغازى (٤٣٤١، ٤٣٤٢) ومسلم فى الأشربة (١٧٣٣) وأحمد فى مسنده (١٩٢٠٠) من حديث أبى موسى قال لما بعثه رسول الله ﷺ ومعاذ بن جبل قال لهما يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا وتطاوعا ، قال أبو موسى : يا رسول الله إنا بأرض يصنع فيها شراب من العسل يقال له البتع وشراب من الشعير يقال له المزر ، فقال رسول الله ﷺ كل مسكر حرام.

(٨٧) فى ظلال القرآن ٩ / ١٤١٩ .

(٨٨) تفسير المنار ٩ / ٤٤٧ ، ٤٤٨ .

(٨٩) يا ابن الخطاب فوالله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل :

رواه البخارى فى التفسير (٤٦٤٢) وفى الاعتصام (٧٢٨٦) من حديث ابن عباس قال قدم عيينة بن حصين بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحر بن قيس وكان من النفر الذين يدنيهم عمر وكان القراء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولا كانوا أو شبانا فقال عيينة لابن أخيه يا ابن أخى هل لك وجه عند هذا الأمير فاستأذن لى عليه قال سأستأذن لك عليه قال ابن عباس فاستأذن الحر لعيينة فأذن له عمر فلما دخل عليه قال هى يا ابن الخطاب فو الله ما تعطينا الجزل ولا تحكم بيننا بالعدل فغضب عمر حتى هم أن يوقع به فقال له الحر يا أمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ : ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ وإن هذا من الجاهلين والله ما جاوزها عمر حين تلاها عليه وكان وقافا عند كتاب الله.

(٩٠) ما هذا يا جبريل :

قال السيوطى فى الدر المنثور: وأخرج ابن أبى الدنيا وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن الشعبى قال: لما أنزل الله : ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ قال رسول الله ﷺ : «ما هذا يا جبريل؟ قال: لا أدرى حتى أسأل العالم ..! فذهب ثم رجع فقال : إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك ، وتعطى من حرمك ، وتصل من قطعك» . وذكره السيوطى فى الجامع الصغير (٣٥١٠) بلفظ: ثلاثة من مكارم الأخلاق عند الله : أن تعفو عمن ظلمك ، وتعطى من حرمك ، وتصل من قطعك . ونسبه للخطيب فى التاريخ عن أنس . وقال: حسن . وقال الهيثمى فى المجمع: وعن على قال: قال لى النبىﷺ: ألا أدلك على أكرم أخلاق الدنيا والآخرة؟ أن تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وأن تعفو عمن ظلمك. رواه الطبرانى فى الأوسط، وفيه الحارث وهو ضعيف .

(٩١) التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلى رئيس قسم الفقه بجامعة دمشق ٩ / ٢١٨ نشر دار الفكر المعاصر بيروت لبنان ، دار الفكر دمشق سورية ط ١ ١٤١١ هـ = ١٩٩١ م .

(٩٢) نقلا عن تفسير المنار ٩ / ٤٤٩.

(٩٣) كيف يا رب والغضب :

قال السيوطى فى الدر المنثور: أخرج ابن جرير عن ابن زيد قال: لما نزلت : ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ (الأعراف: ١٩٩) ، قال رسول الله ﷺ «كيف يا رب والغضب» فنزل : وإما ينزغنك من الشيطان نزغ... الآية .

(٩٤) ولكن الله أعانني عليه فأسلم :

رواه الترمذى فى الرضاع باب ما جاء فى كراهية الدخول على المغيبات (١١٧٢) ، وأحمد (١٣٩١٣) ، والدارمى فى الرقاق باب الشيطان يجرى مجرى الدم (٢٧٨٢) عن مجالد عن الشعبى عن جابر بلفظ: لا تلجوا على المغيبات فإن الشيطان يجرى من أحدكم مجرى الدم قلنا ومنك قال: ومنى ولكن الله أعانني عليه فأسلم . قال أبو عيسى هذا حديث غريب من هذا الوجه وقد تكلم بعضهم عن مجالد بن سعيد من قبل حفظه وسمعت على بن خشرم يقول قال: سفيان بن عيينة فى تفسير قول النبى ﷺ ولكن الله أعاننى عليه فأسلم يعنى أسلم أنا منه قال سفيان والشيطان لا يسلم .

(٩٥) اللهم آت نفوسنا تقواها :

رواه مسلم فى الذكر (٢٧٢٢) والنسائى فى الاستعاذة (٥٤٥٨، ٥٥٣٨) وأحمد فى مسنده (١٨٨٢١) من حديث زيد بن أرقم قال: لا أقول لكم إلا كما كان رسول ﷺ يقول – كان يقول : اللهم إنى أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل والهرم وعذاب القبر اللهم آت نفسى تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها اللهم إنى أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع ومن دعوة لا يستجاب لها .

(٩٦) تفسير المراغى للأستاذ أحمد مصطفى المراغى ٩ / ١٥٢ ، وتفسير المنار ٩ / ٤٥٩ طبع الهيئة .

(٩٧) فى ظلال القرآن ٩ / ١٤٢١ – ١٤٢٣ ، وقارن بكتاب الأساس فى التفسير للأستاذ سعيد حوّى المجلد الرابع ص ٢٠٧٦ – ٢٠٧٨ .

(٩٨) لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب :

رواه البخارى فى الأذان (٧٥٦) ومسلم فى الصلاة (٣٩٤) وأبو داود فى الصلاة (٨٢٢، ٨٢٣) والترمذى فى الصلاة (٢٤٧، ٣١١) والنسائى فى الافتتاح (٩١٠، ٩١١) وابن ماجه فى إقامة الصلاة (٨٣٧) وأحمد فى مسنده (٢٢١٦٩) من حديث عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب .

(٩٩) تفسير المنار ٩ / ٤٦١ مطبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب وأيضًا تفسير المراغى ٩ / ١٥٥ .

(١٠٠) لم يأذن الله لشيء ما أذن للنبى أن يتغنى بالقرآن :

رواه البخارى فى فضائل القرآن (٥٠٢٣، ٥٠٢٤) ومسلم فى صلاة المسافرين(٧٤٨٢، ٧٥٤٤) وأبو داود فى الصلاة (١٤٧٣) والنسائى فى الافتتاح (١٠١٧) والدارمى فى الصلاة (١٤٨٨، ١٤٩١) وفى فضائل القرآن (٣٤٩٠، ٣٤٩١) وأحمد فى مسنده (٧٦١٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أنه كان يقول قال رسول الله ﷺ لم يأذن الله لشيء ما أذن للنبى أن يتغنى بالقرآن وقال صاحب له يريد يجهر به .

(١٠١) ليس منا من لم يتغن بالقران :

رواه البخارى فى التوحيد (٧٥٢٧) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ليس منا من لم يتغن بالقرآن وزاد غيره يجهر به . ورواه أبو داود فى الصلاة (١٤٦٩، ١٤٧١) والدارمى فى الصلاة (١٤٩٠) وفى فضائل القرآن (٣٤٨٨) وأحمد فى مسنده (١٤٧٩) من حديث سعد بن أبى وقاص أن رسول الله ﷺ قال : ليس منا من لم يتغن بالقرآن .

(١٠٢) تفسير المنار ٩ / ٤٦٢ ، وانظر تفسير المراغى ٩ / ١٥٦ .

(١٠٣) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ٩ / ١٤٢٥ .

(١٠٤) تجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الصبح :

رواه البخارى فى الأذان ح (٦٤٩) ، وفى تفسير القرآن ح ٤٧١٧، ومسلم فى المساجد ح ٦٤٩، والترمذى فى التفسير ح (٣١٣٥) ، والنسائى فى الصلاة ح (٤٨٦) ، وابن ماجه فى الصلاة ح(٦٧٠) ، وأحمد ح(٧١٤٥، ٧٥٥٧، ٩٧٨٣) من حديث أبى هريرة أيضًا بلفظ: «فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار فى صلاة الصبح يقول أبو هريرة اقرءوا إن شئتم ﴿وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودًا﴾ . ورواه البخارى فى مواقيت الصلاة ح (٥٥٥) ، وفى التوحيد ح (٧٤٢٩، ٧٤٨٦) ، ومسلم فى المساجد ح(٦٣٢) ، والنسائى فى الصلاة ح(٤٨٥) ، وأحمد ح (٢٧٣٣٦، ٩٩٣٦) ، مالك فى النداء للصلاة ح (٤١٣) ، من حديث أبى هريرة بلفظ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار .. » الحديث .

(١٠٥) يا قوم أربعوا على أنفسكم :

رواه البخارى فى الجهاد (٢٩٩٢) وفى المغازى (٢٤٠٥) وفى الدعوات (٦٣٨٤) وفى القدر (٦٦١٠) وفى التوحيد (٧٣٨٦) ومسلم فى الذكر والدعاء (٢٧٠٤) وأحمد فى مسنده (١٩٠٢٦، ١٩١٠٢، ١٩٢٤٦) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال لما غزا رسول الله ﷺ خيبر أو قال لما توجه رسول الله ﷺ أشرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله فقال رسول الله ﷺ أربعوا على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا إنكم تدعون سميعا قريبا وهو معكم وأنا خلف دابة رسول الله ﷺ فسمعنى وأنا أقول لا حول ولا قوة إلا بالله فقال لى يا عبد الله بن قيس قلت لبيك يا رسول الله قال : ألا أدلك على كلمة من كنز من كنوز الجنة قلت بلى يا رسول الله فداك أبى وأمى ، قال: لا حول ولا قوة إلا بالله .

(١٠٦) اللهم لك سجد سوادى وبك آمن فؤادى :

قال السيوطى فى الدر المنثور: وأخرج ابن أبى شيبة عن ابن عمر رضى الله تعالى عنه أنه كان يقول فى سجوده: اللهم لك سجد سوادى وبك آمن فؤادى ، اللهم ارزقنى علما ينفعنى وعلما يرفعنى . وقال الهيثمى فى المجمع : عن عائشة قالت: كانت ليلتى من رسول الله ﷺ فانسل فظننت أنه انسل إلى بعض نسائه فخرجت غيرى فإذا أنا به ساجدًا كالثوب الطريح فسمعته يقول: سجد لك سوادى وخيالى آمن بك فؤادى رب هذه يدى وما جنيت على نفسى يا عظيم ترجى لكل عظيم فاغفر الذنب العظيم . قالت: فرفع رأسه فقال: ما أخرجك ؟ قالت: ظنا ظننته . قال: إن بعض الظن إثم فاستغفرى الله ، إن جبريل أتانى فأمرنى أن أقول هذه الكلمات التى سمعت فقوليها فى سجودك ، فإنه من قالها لم يرفع رأسه حتى يغفر– أظنه قال – له . رواه أبو يعلى وفيه عثمان بن عطاء الخرسانى وثقة دحيم وضعفه البخارى ومسلم وابن معين وغيرهم . قال العراقى فى تخريج الإحياء : أخرجه الحكم من حديث ابن مسعود وقال صحيح الإسناد وليس كما قال بل هو ضعيف .

(١٠٧) أشيروا على أيها الناس :

ذكره البيهقى فى دلائل النبوة .

(١٠٨) ثلاث من كن فيه وجد :

رواه البخارى فى الإيمان (١٦، ٢١) وفى الأدب (٦٠٤١) وفى الإكراه (٦٩٤١)، ومسلم فى الإيمان (٤٣)، والنسائى فى الإيمان (٤٩٨٨) وابن ماجه فى الفتن (٤٠٣٣) وأحمد فى مسنده (١١٥٩١) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار .

(١٠٩) انظر تفسير أبى السعود وتفسير ابن كثير، والتفسير الوسيط للدكتور / محمد سيد طنطاوى، والتفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية، وهناك روايات متعددة فى أسباب النزول .

(١١٠) أعطيت خمسًا لم يعطهن نبى :

تقدم ص (١٦٠٤) .

(١١١) فينا معشر أصحاب بدر نزلت :

رواه أحمد فى مسنده (٢٢٢٤٧) من حديث أبى أمامة الباهلى قال سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا فى النفل وساءت فيه أخلاقنا فنزعه الله تبارك وتعالى من أيدينا فجعله إلى رسول الله ﷺ فقسمه رسول الله ﷺ فينا عن بواء يقول على السواء .

(١١٢) تفسير أبى السعود ٤ / ٤ .

(١١٣) كيف أصبحت يا حارثة؟ :

قال الهيثمى فى المجمع: عن الحارث بن مالك الأنصارى أنه مر بالنبى ﷺ فقال له : كيف أصبحت يا حارثة؟ قال: أصبحت مؤمنا حقا. قال : أنظر ما تقول ، فإن لكل قول حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ قال: عزفت نفسى عن الدنيا (أى كرهتها) فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى وكأنى أنظر عرش ربى بارزا وكأنى أنظر إلى أهل الجنة فى الجنة يتزاورون فيها وكأنى أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها (أى : يضجون ويتصايحون) فيها . قال: يا حارثة عرفت فالزم . رواه الطبرانى فى الكبير وفيه ابن لهيعة وفيه من يحتاج إلى الكشف عنه . وقال الهيثمى فى المجمع: وعن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ لقى رجلا يقال له حارثة فى بعض سكك المدينة فقال: كيف أصبحت يا حارثة ؟ قال: أصبحت مؤمنا حقا . قال: إن لكل إيمان حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ قال : عزفت نفسى عن الدنيا فأظمأت نهارى وأسهرت ليلى وكأنى بعرش ربى بارزا وكأنى بأهل الجنة فى الجنة يتنعمون فيها وكأنى بأهل النار فى النار يعذبون فقال النبى ﷺ أصبت فالزم ، مؤمن نور الله قلبه . رواه البزار وفيه يوسف بن عطية لا يحتج به .

(١١٤) أشيروا على أيها الناس :

تقدم ص (١٦٧٨) .

(١١٥) إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية :

رواه البخارى فى الحج (١٨٧٦) ومسلم فى الإيمان (١٤٧) وابن ماجه فى المناسك (٣١١١) وأحمد فى مسنده (٧٧٨٧) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها .

ورواه الترمذى فى الإيمان (٢٦٣٠) من حديث زيد بن ملحة أن رسول الله ﷺ قال إن الدين ليأرز إلى الحجاز كما تأرز الحية إلى جحرها وليعقلن الدين من الحجاز معقل الأروية من رأس الجبل إن الدين بدأ غريبا ويرجع غريبا فطوبى للغرباء الذين يصلحون ما أفسد الناس من بعدى من سنتى . قال الترمذى: حديث حسن صحيح . ورواه أحمد فى مسنده (١٦٢٤٩) من حديث عبد الرحمن بن سنة أنه سمع النبى ﷺ يقول: بدأ الإسلام غريبا ثم يعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء قيل يا رسول الله : ومن الغرباء قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس والذى نفسى بيده ليحازن الإيمان إلى المدينة كما يحوز السيل والذى نفسى بيده ليأرزن الإسلام إلى ما بين المسجدين كما تأرز الحية إلى جحرها . ورواه أحمد فى مسنده (١٦٠٧) من حديث سعد بن أبى وقاص قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن الإيكان بدأ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى يومئذ للغرباء إذا فسد الناس والذى نفسى أبى القاسم بيده ليأرزن الإيمان ين هذين المسجدين كما تأرز الحية فى جحرها .

(١١٦) اللهم أنجز لى ما وعدتنى اللهم :

رواه مسلم فى الجهاد (١٧٦٣) والترمذى فى التفسير (٣٠٨١) من حديث عمر بن الخطاب قال : لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاث مائة وتسعة عشر رجلا فاستقبل نبى الله ﷺالقبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه اللهم أنجز لى ما وعدتنى اللهم آت ما وعدتنى اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض فما زال يهتف بربه مادا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال يا نبى الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله عز وجل : ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين﴾ فأمده الله بالملائكة .. الحديث .

(١١٧) اللهم لا تودع منى:

انظر ما قبله .

(١١٨) تفسير أبى السعود ٤ / ٨ .

(١١٩) انظر تفسير أبى السعود حيث قال أيضا (كانت السكينة لبنى إسرائيل كذلك) .

(١٢٠) تفسير أبى السعود ٤ /٩ .

(١٢١) اللهم إنى أنشدك عهدك ووعدك :

رواه البخارى فى الجهاد (٢٩١٥) وفى المغازى (٣٩٥٣) وفى التفسير (٤٨٧٥، ٤٨٧٧) وأحمد فى مسنده (٣٠٣٤) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال النبى ﷺ وهو فى قبة اللهم إنى أنشدك عهدك ووعدك اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم فأخذه أبو بكر بيده ، فقال: حسبك يا رسول الله فقد ألححت على ربك وهو فى الدرع فخرج وهو يقول : ﴿سيهزم الجمع ويولون الدبر بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر﴾ .

(١٢٢) فألقى الشيطان فى قلوبهم الحزن :

قال السيوطى فى الدر المنثور: وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ من طريق ابن جريج عن ابن عباس رضى الله عنهما . أن المشركين غلبوا المسلمين فى أول أمرهم على الماء ، فظمئ المسلمون وصلوا مجنبين محدثين فكانت بينهم رمال ، فألقى الشيطان فى قلوبهم الحزن وقال: أتزعمون أن فيكم نبيا وأنكم أولياء الله وتصلون مجنبين محدثين؟ فأنزل الله من السماء ماء فسال عليهم الوادى ماء ، فشرب المسلمون وتطهروا وتثبتت أقدامهم وذهبت وسوسته .

(١٢٣) بعث الله السماء وكان الوادى دهسا :

قال السيوطى فى الدر المنثور: وأخرج ابن أبى حاتم عن عروة بن الزبير رضى الله عنه قال: بعث الله السماء وكان الوادى دهسا ، وأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه منها ما لبد الأرض ولم يمنعهم المسير ، وأصاب قريشا ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه .

(١٢٤) تفسير الآلوسى ٩ / ١١٧.

(١٢٥) التفسير الوسيط بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الحزب الثامن عشر صفحة ١٥٩٣ .

(١٢٦) تفسير المنار ٤ / ١١٣ نقلاً عن الرازى والنيسابورى .

(١٢٧) شاهت الوجوه :

رواه مسلم فى الجهاد (١٧٧٧) من حديث إياس بن سلمة قال حدثنى أبى قال غزونا مع رسول ﷺ حنينا فلما واجهنا العدو تقدمت فأعلوا ثنية فاستقبلنى رجل من العدو فأرميه بسهم فتوارى عنى فما دريت ما صنع ونظرت إلى القوم فإذا هم قد طلعوا من ثنية أخرى فالتقوا هم وصحابة النبى ﷺ فولى صحابة النبى ﷺ وأرجع منهزما وعلى بردتان متزرا بإحداهما مرتديا بالأخرى فاستطلق إزارى فجمعتهما جميعا ومررت على رسول الله ﷺ منهزما وهو على بغلته الشهباء فقال رسول الله ﷺ لقد رأى ابن الأكوع فزعا فلما غشوا رسول الله ﷺ نزل عن البغلة ثم قبض قبضة من تراب من الأرض ثم استقبل به وجوههم فقال شاهت الوجوه فما خلق الله منهم إنسانا إلا ملأ عينيه ترابا بتلك القبضة فولوا مدبرين فهزمهم الله عز وجل وقسم رسول الله ﷺ غنائمهم بين المسلمين . ورواه الدارمى فى السير (٢٤٥٢) وأحمد فى مسنده (٢١٩٦١) من حديث أبى عبد الرحمن الفهرى قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة حنين فكنا فى يوم قائظ شديد الحر فنزلنا تحت ظلال الشجر فذكر القصة ثم أخذ كفا من تراب قال فحدثنى الذى هو أقرب إليه منى أنه ضرب به وجوههم وقال شاهت الوجوه فهزم الله المشركين قال يعلى فحدثنى أبناؤهم أن أباءهم قالوا فما بقى منا أحد إلا امتلأت عيناه وفمه ترابا . ورواه أحمد فى مسنده (٣٤٧٥) من حديث ابن عباس أن الملأ من قريش اجتمعوا فى الحجر فتعاهدوا باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى لو قد رأينا محمدا قمنا إليه قيام رجل واحد فلم نفارقه حتى نقتله . قال: فأقبلت فاطمة تبكى حتى دخلت على أبيها فقالت هؤلاء الملأ من قومك فى الحجر قد تعاهدوا أن لو قد رأوك قاموا إليك فقتلوك فليس منهم رجل إلا قد عرف نصيبه من دمك قال يا بنية أدنى وضوءا فتوضأ ثم دخل عليهم المسجد فلما رأوه قالوا هو هذا فخفضوا أبصارهم وعقروا فى مجالسهم فلم يرفعوا إليه أبصارهم ولم يقم منهم رجل فأقبل رسول الله ﷺ حتى قام على رءوسهم فأخذ قبضة من تراب فحصبهم بها وقال شاهت الوجوه فما أصابت رجلا منهم حصاة إلا قد قتل يوم بدر كافرا .

(١٢٨) يا رب إن تهلك هذه العصابة :

انظر ما قبله .

(١٢٩) مثل القائم على حدود الله والواقع فيها :

رواه البخارى فى الشركة (٢٤٩٣) والترمذى فى الفتن (٢١٧٣) وأحمد فى مسنده (١٧٨٧٩) من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال: مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا .

(١٣٠) مازالت قدماى حتى علمت أنى خنت الله ورسوله :

قال السيوطى فى الدر المنثور : وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عبد الله ابن قتادة رضى الله عنه قال : نزلت هذه الآية : ﴿لا تخونوا الله والرسول﴾. فى أبى لبابة بن عبد المنذر ، سألوه يوم قريظة ما هذا الأمر ؟ فأشار إلى حلقه أنه الذبح ، فنزلت . قال أبو لبابة رضى الله عنه : ما زالت قدماى حتى علمت أنى خنت الله ورسوله .

(١٣١) ما ظنك باثنين الله ثالثهما :

رواه البخارى فى التفسير (٤٦٦٣) ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٣٨١) والترمذى فى التفسير (٣٠٩٦) وأحمد فى مسنده (١٢) من حديث أنس قال حدثنى أبو بكر رضى الله عنه قال ، كنت مع النبى ﷺ فى الغار فرأيت آثار المشركين قلت: يا رسول الله لو أن أحدهم رفع قدمه رآنا . قال : ما ظنك باثنين الله ثالثهما .

(١٣٢) اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك :

قال السيوطى فى الدر المنثور: أخرج الفريابى وعبد بن حميد والنسائى وابن حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله: ﴿سأل سائل﴾ قال: هو النضر بن الحارث ، قال: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ، وفى قوله : ﴿بعذاب واقع﴾ قال: كائن ﴿للكافرين ليس له دافع * من الله ذى المعارج﴾

قال: ذى الدرجات . والحديث رواه البخارى فى التفسير (٤٦٤٨، ٤٦٤٩) ومسلم فى صفة القيامة (٢٧٩٦) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال أبو جهل اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم فنزلت : ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون * وما لهم أن لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام﴾ ... الآية .

★ ★ ★

تمت الهوامش وتخريج الأحاديث

بحمد الله وبها تم الجزء التاسع

محتويات الكتاب

تم تفسير الجزء التاسع ويليه تفسير الجزء العاشر

إن شاء الله تعالى

تفسير القرآن الكريم

الجزء العاشر من القرآن الكريم

الدكتور

عبد الله شحاته



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ ۞ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾

المفردات :

غنمتم : الغنيمة : من الغنم وهو الفوز ، والمراد بها هنا : ما أخذ من أموال الكفار بالقتال .

الجمعان : جمع المؤمنين وجمع الكفار .

العدوة : طرف الوادي وحافته .

الدنيا : أي: القريبة من المدينة .

القصوى : البعيدة عن المدينة .

الركب : العير وراكبوها وهم أبو سفيان ومن معه .

عن بينة : أي: عن حُجَّةٍ واضحة .

لفشلتم : لجبنتم وتهيبتم لقاء العدو ؛ من الفشل وهو ضعف مع جبن .

بذات الصدور : أي : بما تنطوي عليه القلوب .

التفسير :

٤١- وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ... الآية.

تمهيد :

هذه الآية تفصيل لما أجمل حكمه فى بدء سورة الأنفال ؛ حيث بدأ الله سورة الأنفال بقوله سبحانه : يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ . وفى هذه الآية تفصيل لحكم الغنائم ؛ التى اختص الله هذه الأمة بإحلالها لها ، ولم تحل الغنائم لنبى قبل محمد صلَّى الله عليه وسلم ؛ وقد ذكر القرآن هنا : أن الغنائم تقسم خمسة أخماس ، خمس لمن ذكرتهم الآية ، وأربعة أخماس للمقاتلين .

جاء فى فتح القدير للشوكانى :

وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ .

الغنيمة : مال الكفار إذا ظفر به المسلمون على وجه الغلبة والقهر ، والغنائم شاملة لكل ما غنمه المسلمون من أرض ومال وغيرهما .

فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ .

قال الشافعى: إن الخمس يقسم على خمسة ، وإن سهم الله وسهم رسوله واحد يصرف فى مصالح المؤمنين ، والأربعة الأخماس على الأربعة الأصناف المذكورة فى الآية .

وقول أبى حنيفة : إنه يقسم الخمس على ثلاثة : اليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل .

وقد ارتفع حكم قرابة رسول الله ﷺ ؛ بموته كما ارتفع حكم سهمه . اهـ .

ونلاحظ أن الجهاد فى سبيل الله باب من أبواب الجنة ، وأن الغنائم تأتى أمرا لاحقًا بعد الجهاد ، فهى نافلة ، تأتى زيادة على الجهاد ، والنصر يأتى من عند الله سبحانه وتعالى ؛ ولذلك رضى الله بأن يؤخذ من المقاتلين الخمس ، ويُترك لهم أربعة أخماس .

والخمس كان ينفق منه على رئيس الدولة، فهو مظهر قوتها، وهو يتفقد المحتاجين ويعطى المعوزين؛ وقد أضيف سهم الخمس إلى الله ؛ تشريفًا وتكريمًا . والواقع أن سهم الله هو سهم الرسول أو من ينوب منابه فالخمس الذى يؤخذ من الغنائم يقسم إلى خمسة أخماس توزع على خمس فئات :

١ - الرسول ﷺ ، ومن ينوب منابه من الحكام والخلفاء بعد موته عليه الصلاة والسلام .

٢ - أقارب الرسول ﷺ ، من بنى هاشم وبنى المطلب؛ لأنهم هم الذين آزروه، ودخلوا معه فى شعب بنى هاشم دون بنى عبد شمس ونوفل . روى البخارى : أن رسول الله ﷺ قال : «إنهم لم يفارقونى فى جاهلية ولا إسلام ، إنما بنو هاشم وبنو المطلب شىء واحد»[1] ، وشبّك بين أصابعه .

٣ - اليتامى : وهم أطفال المسلمين الذين مات آباؤهم .

٤ - المساكين : وهم أهل الفاقة والحاجة من المسلمين .

٥ - ابن السبيل : هو المسافر المحتاج الذى انقطعت به السبل ، حتى كأن الطريق أصبح أبًا له .

إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ .

إذا كنتم آمنتم بالله ؛ فاقبلوا بحكمه ، ونفّذوا أوامره ، وقسموا الغنائم كما أمر بتقسيمها .

وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ .

وهو يوم غزوة بدر كان المؤمنون قلة فى عددهم وعدّتهم ، وكان الكافرون يزيدون على ثلاثة أضعافهم .

ولكن الله سبحانه أمدّ المؤمنين بنصره ؛ فانتصرت القلة المؤمنة على الكثرة الكافرة ، فى يوم الفرقان ، الذى فرق الله فيه بين الحق والباطل .

يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ .

جمع المؤمنين وجمع المشركين فى الحرب والنزال ، وقد كان ذلك لسبع عشرة خلت من شهر رمضان، وهو أول مشهد شهده رسول الله ﷺ .

وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ .

فالنصر من عند الله ، ومن قدرة الله أنه نصركم على قلتكم وضعفكم ، وبلوغ عدوكم ثلاثة أضعاف عددكم أو أكثر ، وأيد رسوله وأنجز وعده .

٤٢ - إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ...

إِذْ . بدل من يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ . فى الآية السابقة أى : اذكروا أيها المؤمنون ذلك اللقاء الحاسم بينكم وبين المشركين ، واشكروه على نصره إياكم فيه ، حيثما كنتم فى مواجهة رهيبة مع الأعداء .

إذْ كنتم فى جانب الوادى القريبة من المدينة ، وهى أرض رملية تسوخ فيها الأقدام ، والمشركون نازلون فى جانب الوادى الأخرى البعيدة من المدينة إلى ناحية مكة وهى قريبة من الماء .

وركب أبى سفيان وأصحابه أسفل منكم ، حيث كانوا ناحية الساحل ، ومعهم عيرهم على بعد ثلاثة أميال من بدر. وكان أبو سفيان فى أربعين من قريش ، وهم مع أهل مكة يدافعون دفاع المستميت ، وجميع هذه العوامل لم تكن فى صالح المسلمين ؛ فمكانهم كان ترابيًا رِخْوًا ، ومكان المشركين صلبًا قويًا وليس مع المؤمنين ماء ، وكان مع المشركين ماء ، والركب مع أبى سفيان ظهير ومدد للمشركين عند الحاجة ، والمشركون متحمسون للدفاع عن التجارة ، التى نجا بها أبو سفيان ، وسار بها على ساحل البحر فى طريق منخفض عن بدر.

وتحديد مكان المعركة على هذا النحو ؛ فيه بيان لمنة الله تعالى على المؤمنين ؛ حيث أمدهم بالنصر، وهم أقرب إلى الضَّعْف ، فى عددهم وعدتهم وموقعهم فى مقابل قوة عدوِّهم ، وقدرتهم وتوفر أسباب النصر المادية لهم .

قال الزمخشرى فى تفسير الكشاف :

فإن قلتَ : ما فائدة هذا التوقيت وذكر مراكز الفريقين ، وأن العير كان أسفل منهم ؟

قلتُ : الفائدة فيه الإخبار عن الحال ، الدالة على قوة شأن العدوّ وشوكته ، وتكامل عُدّته ، وتمهد أسباب الغلبة له ، وضعف شأن المسلمين ، وأن غلبتهم فى مثل هذه الحال ليست إلا صُنعا من الله سبحانه ، ودليلا على أن ذلك أمر لم يتيسر إلا بحوله وقوته وباهر قدرته[٢] .

وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي ٱلْمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا .

أى : ولو تواعدتم أنتم والمشركون فى مكان للقتال ؛ لاختلفتم فى الميعاد ، ولم ترغبوا فى لقاء المشركين ؛ هيبة منهم ، ويأسًا من الظفر عليهم ، من جهة . ولأن المشركين كانوا يهابون قتال رسول الله ﷺ، فقد كذَّبوا به عنادًا ، واستكبروا عن الدخول فى الإسلام عن جحود وكراهية لا عن يقين واقتناع .

قال تعالى : **قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ.** (الأنعام: ٣٣)

ولكن الحق سبحانه دبّر هذا اللقاء ، حين وعد المسلمين إحدى الطائفتين ، مبهمة غير مبينة (أى: العير أو النفير) فإما أن ينجحوا فى الاستيلاء على تجارة قريش ، وإما أن ينجحوا فى الانتصار على قريش .

فتحركت همة المسلمين ؛ حتى خرجوا ليأخذوا العير والتجارة وتحركت همة المشركين ؛ دفاعًا عن

تجارتهم ، ورغبة فى التظاهر والسمعة ، وتم اللقاء عند بدر ؛ ليحق الله الحق ، ويقضى أمرًا كان مفعولاً ؛ من إعزاز دينه ، وإعلاء كلمته ، وقطع دابر المشركين وهزيمتهم ، كما قال سبحانه : سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ. (القمر: ٤٥) .

لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ .

أى: فعل الله لقاءكم فى غير ميعاد ؛ لتظهر المعجزة ؛ فى انتصار القلة المؤمنة على الكثرة الكافرة ، فيموت من يموت من الكفار عن حجة بينة عاينها بالبصر ؛ تثبت حقيقة الإسلام ، ويعيش من يعيش من المؤمنين عن حجة شاهدها بإعزاز الله دينه ؛ فيزداد يقينًا بالإيمان ، ونشاطًا فى الأعمال .

وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ .

لا يخفى عليه شىء من أقوال الكافرين والمؤمنين ، ولا من عقائدهم وأفعالهم .

فهو يسمع ما يقول كل فريق منهم ، ويعلم ما يظهره وما يبطنه ، ويجازى كلاً بحسب ما يسمع ويعلم.

والخلاصة : إن غزوة بدر ، قامت بها الحجة البالغة للمؤمنين بنصرهم ، كما بشرهم النبى ﷺ ، وقامت بها الحجة البالغة على المشركين بخذلانهم وانكسارهم ، كما أنذرهم النبى ﷺ .

٤٣- إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ .

تذكّر الآية الرسول الأمين ، والمؤمنين بفضل الله تعالى عليهم ومنته العظيمة ؛ حيث يسّر لهم أسباب النصر على عدو أكثر عددًا وعدة ومددًا .

ومن هذه النعم : إلقاء الشجاعة والقوة فى قلوب المؤمنين ، وإلقاء الاسترخاء والتهاون فى قلوب الكافرين ؛ ذلك أن النبى ﷺ رأى فى منامه أن عدد الكفار قليل ، فأخبر بذلك أصحابه ؛ فكان تثبيتًا لهم ، وتشجيعًا لهم على قتال عدوهم .

قال الشوكانى فى تفسيره فتح القدير :

والمعنى : أن النبى ﷺ رآهم فى منامه قليلاً ؛ فقصّ ذلك على أصحابه ، فكان ذلك سببًا لثباتهم ، ولو رآهم فى منامه كثيرًا ؛ لفشلوا وجبنوا عن قتالهم وتنازعوا فى الأمر هل يلاقونهم أم لا ؟

وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ وعصمهم من الفشل ، فقللهم فى عين رسول الله ﷺ . اهـ.

إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ .

أى : يعلم ما سيكون فيها ، من الجرأة والجبن والصبر والجزع ؛ ولذلك دبّر ما دبّر[٣] .

٤٤ - وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ[٤] إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِيٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ .

أى : واذكروا أيها المؤمنون : الوقت الذى يريكم الله الكفار قبل القتال عددًا قليلاً ، فى رأى العين المجردة ، حتى تجرأتم وارتفعت معنوياتكم ، ويجعلكم بالفعل قلة فى أعين الكفار ، فيغترُّوا ولا يعدُّوا العدة لكم ، حتى قال أبو جهل : إنما أصحاب محمد أكلة جزور ، خذوهم أخذا ؛ واربطوهم فى الحبال .

وأكلة جزور : مثل يضرب فى القلة ، أى : إنهم عدد قليل يكفيهم جزور واحد فى اليوم ويشبعهم لحم ناقة .

و (أَكْلة) . بوزن (كتبه) . جمع آكل ، بوزن فاعل . والجزور : الناقة[٥] .

لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً

أى : فعل كل ذلك ليمهد للحرب ؛ فتكون سبيلاً فى علمه تعالى لنصرة المؤمنين، وإعزاز الإسلام، وهزيمة الكافرين وإذلال الكفر .

وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ .

أى : إلى الله مصير الأمور ومردّها ، وفيه تنبيه على أن أحوال الدنيا غير مقصودة لذواتها ؛ وإنما المراد منها ، ما يصلح أن يكون زادًا ليوم المعاد .

فى أعقاب التفسير

١ - روى ابن أبى حاتم وابن جرير الطبرى ، عن ابن مسعود رضى الله عنه قال: لقد قللوا فى أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبى: أتراهم سبعين ؟ فقال: أراهم مائة ! فأسرنا رجلا منهم ، فقلنا له : كم كنتم ؟ قال : ألفا[٦].

٢ - قال الزمخشرىّ :

فإن قلتَ: الغرض فى تقليل الكفار فى أعين المؤمنين ظاهر ، فما الغرض فى تقليل المؤمنين فى أعينهم ؟

قلتُ : قد قللهم فى أعينهم قبل اللقاء ، ثم كثّرهم فيما بعده ؛ ليجترئوا عليهم ؛ قلة مبالاة بهم ، ثم تفجؤهم الكثرة ، فيبهتوا ويهابوا ، وتقلّ شوكتهم ، حين يرون مالم يكن فى حسابهم وتقديرهم ، وذلك قوله

تعالى : ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾ (آل عمران: ١٣)

ولئلا يستعدُّوا لهم ، وليعظم الاحتجاج عليهم ، باستيضاح الآية البينة من قلتهم أولاً ، وكثرتهم آخرًا .

٣ - قال الفخر الرازى : قال مجاهد : أرى الله النبى ﷺ ، كفار قريش فى منامه قليلاً ؛ فأخبر بذلك أصحابه، فقالوا : رؤيا النبى حق ، القوم قليل ؛ فصار ذلك سببًا لجرأتهم وقوة قلوبهم .

٤ - تفيد كتب السيرة : أن أسيرين من المشركين وقعا فى الأسر ، فسألهما النبى ﷺ عن عدد المشركين، فقالا ليس لدينا علم بعددهم ، فسألهما كم يذبحون من الإبل كل يوم ؛ قالا : يذبحون فى بعض الأيام تسعًا، وفى بعضها عشرًا من الإبل .

فقال ﷺ : القوم بين التسعمائة والألف ؛ أى : أن النبى ﷺ أخبر المسلمين بعدد المشركين فى غزوة بدر ، بناء على اجتهاده ودقة تقديره .

فكيف نوفق بين ذلك ، وبين إخباره لهم بأنه رأى فى الرؤيا أن عددهم قليل ؟

والجواب : أن القلة فى المنام رمز إلى قلة غنائهم وقلة وزنهم فى المعركة ؛ لأنه ينقصهم الإيمان الصحيح الذى يقوى القلوب ، ويدفع النفوس إلى الإقدام والنصر ؛ طلبًا للمثوبة ، وحرصًا على الشهادة فى سبيل الله .

٥ - قال السيد رشيد رضا فى تفسير المنار :

«قد تقدم أن النبى ﷺ قدَّر عدد المشركين بألف ، وأخبر أصحابه بذلك ، ولكنَّه أخبرهم مع هذا ، أنه رآهم فى منامه قليلاً ، لا أنَّهم قليل فى الواقع ، فالظاهر أنهم أوَّلوا الرؤيا بأن بلاءهم يكون قليلاً ، وأن كيدهم يكون ضعيفًا فتجرَّءُوا وقويت قلوبهم» .

٦ - ذكر الدكتور محمد سيد طنطاوى فى تفسير سورة التوبة أثناء تعليقه على تفسير هذه الآيات قوله:

« وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد حكت لنا جانبًا من أحداث غزوة بدر ، بأسلوب تصويرى بديع؛ فى استحضاره لمشاهدها ومواقفها ، وكشفت لنا عن جوانب من مظاهر قدرة الله ، ومن تدبيره المحكم، الذى كان فوق تدبير البشر ، ومن تهيئة الأسباب الظاهرة والخفية التى أدت إلى نصر المؤمنين ، وخذلان الكافرين»[٧] .

★ ★ ★

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٤٥ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ٤٧ وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٤٨ إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٤٩ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٥٠ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٥١ ﴾

المفردات :

فــئــة : جماعة .

ولا تـنـازعـوا : ولا تختلفوا .

تـفـشـلـوا : تجبنوا وتضعفوا . والفشل فى الأصل : الخيبة والنكول عن إمضاء الأمر وأكثر أسبابه : الضعف والجبن ولذلك فسَّروه هنا بهما .

تـذهب ريـحـكـم : تذهب قوتكم .

بـطـرا : طغيانًا وتجبرًا – والبطر فى اللغة : الفخر والاستعلاء بنعمة الغنى أو الرياسة أو غيرهما، يعرف فى الحركات المتكلفة والكلام الشاذ .

رئـاء الـنـاس : مرائين الناس . والرياء والمراءاة : إظهار العمل ؛ رغبة فى ثناء الناس والإعجاب به وهو محبط للأعمال الأخروية .

نكص على عقبيه : رجع القهقرى ، أى : تولى إلى الوراء جهة العقبين ، والمراد : كف الشيطان عن وسوسته وذهب ما خيله من المعونة لهم .

جار لكم : أى : مجير وناصر ، والجار الذى يجير غيره أى: يؤمنه ممًا يخاف .

غر هؤلاء دينهم : أى : خدع هؤلاءِ المسلمين دينهم ، فظنوا أنهم ينصرون به فأقدموا على ما أقدموا عليه مما لا طاقة لهم به .

التفسير:

٤٥ - يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُواْ ...الآية .

هذه الآيات تُعلِّم المسلمين آداب القتال ، وفنون الحرب ، وتحثهم على التخلق بالثبات فى النِّزال ، وعدم التفكير فى الهزيمة أو الفرار .

يروى أن معاوية بن أبى سفيان قال :

فكّرت فى الهزيمة يوم صفين ؛ فتذكرت قول عمرو بن الإطنابة :

أقول لها وقد طارت شعاعًا	**من الأبطال : ويحك لن تراع**
فإنك لو سألت بقاء يوم	**على الأجل الذى لك لم تطاع**
سبيل الموت راحة كلّ حى	**فداعيه لأهل الأرض داع**
ومن لم يعتبط يسأم ويهْرم	**وتسلمه المنون إلى انقطاع**
وما للمرء خير في حياة	**إذا ما عُدّ من سقط المتاع**

ومعنى الآية :

يا أيها الذين آمنوا بالله ورسوله ، إذا حاربتم جماعة من الكفار ، والتقيتم بهم فى ميدان الحرب ، فالواجب عليكم أن تثبتوا فى قتالهم ، وتصمدُوا للقائهم ، وإياكم والفرار من الزحف ، وتوْليتهم الأدبار ، فالثبات فضيلة ، والفرار كبيرة !.

وَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

وعليكم بذكر الله تعالى ذكرًا كثيرًا ، والتضرع إليه بالقلب واللسان ، مع اليقين الجازم بأنه سبحانه على كل شىء قدير ، وبيده الخلق والأمر ، كما فعل المؤمنون السابقون من أتباع طالوت ، حيث رغبوا فى الثبات ، وتذرعوا بالصبر وأخذوا العدّة إلى النصر ، قال تعالى :

وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَآءُ ... (البقرة: ٢٥٠، ٢٥١)

فالنصر حليف الثبات واليقين ، والرغبة فى الشهادة ، والحرص على مرضاة الله : كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ (البقرة: ٢٤٩) .

وذِكْر الله تعالى عون فى الشدائد ، وسبيل إلى النصر ، وباب من أبواب الثواب والأجر .

قال تعالى : وَٱلذَّاكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (الأحزاب : ٣٥)

وذكر الله سبيل إلى الفلاح والنصر، وطريق إلى علو الهمة، واستمداد العون من الله. قال تعالى: وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ .

وهذا يدل على أن ذكر الله تعالى مطلوب فى أحوال العبد كلها ، سلمًا وحربًا ، وصحة ومرضًا . وإقامة وسفرًا ؛ فذكر الله دواء وذكر الناس داء .

من هدى السنّة

أخرج البخارى ومسلم فى كتاب الجهاد : عن عبد الله بن أبى أوفى ، أن رسول الله ﷺ فى بعض أيامه التى لقى فيها العدوّ ، انتظر حتى مالت الشمس ثم قام فى الناس فقال : أيها الناس لا تتمنّوا لقاء العدوّ ، وسلوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا ، واعلموا أنّ الجنة تحت ظلال السيوف ، ثم قال : اللّهُمَّ منزل الكتاب ، ومجرىَ السحاب ، وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم[٨] .

وجاء فى الحديث المرفوع ، يقول الله تعالى : «إن عبدى كل عبدى: الذى يذكرنى ، وهو مناجز قرنه»[٩]

أى : لا يشغله ذلك الحال ، عن ذكرى واستعانتى .

٤٦- وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ .

هذه الآية معطوفة على ما قبلها ، حيث يرسم الحق سبحانه لعباده المؤمنين طريق النصر ، فأمرهم بالثبات وبذكر الله تعالى ، فى الآية السابقة .

وعطف هذه الآية على ما سبق ، فأمرهم بطاعة الله ورسوله ، والتزام أوامرهما ، والابتعاد عما نهى الله ورسوله عنه .

وطاعة الله باب من أبواب السعادة الدنيوية والأخروية ، فمن وجد الله ؛ وجد كل شيء ، ومن فقد الله؛ فقد كل شيء . وقد روى البخاري : أن رسول الله ﷺ قال : يقول الله عز وجل :

«ما تقرب عبدي إلى بشيء أحبُّ إليَّ من أداء ما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبَّه . فإذا أحببته ؛ كنتُ سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي عليها ، ولئن دعاني ؛ لأجيبنّه ، ولئن سألني ؛ لأعطينّه»[١٠] .

النـــزاع

تنهى الآية عن التنازع والاختلاف ، وعندما تختلف طوائف الأمة ، ويحاول كل طرف أن ينزع ما في يد الطرف الآخر ؛ يأتي باب الفشل والإحباط والاصطدام ، فتنحطّ الدولة ، وتذهب ريحها ، وهو كناية عن دوال دولتها ، واضمحلال أمرها .

ومن كلام العرب: هبّت ريح فلان ؛ إذا دالت له الدولة ، وجرى أمره على ما يريد ؛ وركدت ريح فلان ؛ إذا ولّت عنه وأدبر أمره . قال الشاعر :

إذا هبت رياحك فاغتنمها	فإن لكل خافقة سكون
ولا تغفل عن الإحسان فيها	فما تدري السكون متى يكون ؟

ثم تأمر الآية بالصبر ؛ فالصبر طريق الظفر ، وقد ذكر الصبر في القرآن الكريم في أكثر من سبعين موضعًا . والصبر من المؤمن بمنزلة الرأس من الجسد ، من لا صبر له ؛ لا إيمان له ، ومن لا رأس له ؛ لا جسد له . قال تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . (آل عمران : ٢٠٠) .

ويكفي أن الله وعد الصابرين بأن يكون معهم بالعون والتأييد والنصر ؛ فقال سبحانه: إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ.

وبذلك ترى أن الله تعالى يعلّم عباده المؤمنين السبيل إلى النصر ؛ فيأمرهم بما يأتي :

١ – الثبات عند اللقاء .

٢ – ذكر الله ذكرًا كثيرًا في شدة البأساء .

٣ – طاعة الله ورسوله .

٤ – البعد عن التنازع والاختلاف .

٥ – الصبر ، وإعداد العدّة ، والتضحية بالنفس والمال .

وهي في جملتها عوامل أساسية في ترابط بنيان الأمّة ، وقوة شأنها ، وانتصارها على أعدائها .

قال الإمام ابن كثير فى تفسيره لهاتين الآيتين ما يأتى :

وقد كان للصحابة رضى الله عنهم فى باب الشجاعة ، والائتمار بما أمرهم الله ورسوله ، وامتثال ما أرشدهم إليه ، ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم ، ولا يكون لأحد ممن بعدهم ، فإنهم ببركة الرسول وطاعته فيما أمرهم ، فتحوا القلوب والأقاليم شرقًا وغربًا فى المدة اليسيرة ، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم، من الروم والفرس، والترك والصقالبة والبربر، والحبوش، وأصناف السودان، والقبط وطوائف بنى آدم ؛ قهروا الجميع حتى علت كلمة الله ، وظهر دينه على سائر الأديان ، وامتدت الممالك الإسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها ، فى أقل من ثلاثين سنة ، فرضى الله عنهم وأرضاهم ، وحشرنا فى زمرتهم ، إنه كريم وهاب[١١] .

٤٧- وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ.

تستمر هذه الآية فتكمل مع ما سبقها أسباب النصر وهى فى جملتها : البعد عن البطر والكبر والرياء، وعن التعالى على عباد الله ويتبع ذلك الغرور وجنون العظمة ، ثم منع الناس من الهدى ومن طريق الله وهو طريق الحق والخير ، مع أنه تعالى محيط بما يعملون ، ومطلع على نياتهم وسوف يحاسبهم على ذلك.

سبب النزول :

أخرج ابن جرير الطبرى عن محمد بن كعب القُرَظى ، قال : لما خرجت قريش من مكة إلى بدر خرجوا بالقيان والدُّفوف ؛ فأنزل الله : **وَلَا تَكُونُوا۟** ... الآية .

وقال البغوى فى تفسيره :

نزلت فى المشركين حين أقبلوا إلى بدر ، ولهم بغى وفخر ؛ فقال رسول الله ﷺ : «اللهم ، هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادّك ، وتكذب رسولك ، اللهم ، فنصرك الذى وعدتنى»[١٢] .

قالوا : ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره ؛ أرسل إلى قريش : إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ، فقد نجاها الله ، فارجعوا ، فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نرد بدرًا – وكان موسمًا من مواسم العرب يجتمع لهم بها سوق كل عام – فنقيم ثلاثا ، فننحر الجزور ، ونُطعم الطعام ، ونُسقَى الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب ، فلا يزالون يهابوننا أبدًا ، فوافوها فسقوا كؤوس المنايا مكان الخمر ، وناحت عليهم النوائح مكان القيان . فنهى الله عباده أن يكونوا مثلهم ، وأمرهم بإخلاص النية ، والحسبة فى نصر دينه ، ومؤازرة رسوله ﷺ .

ما ترشد إليه الآيات

تأمر الآيات بقواعد حربية ، هى عمد ثوابت فى نظام الحروب ، ولا يمكن لجيش قديم أو حديث أن يتخلى عن هذه النصائح التى تكون سببًا فى إحراز النصر والغلبة وهذه القواعد والنصائح هى ما يأتى:

١ – الثبات عند اللقاء والرغبة فى الشهادة والأجر من الله .

٢ – ذكر الله تعالى ذكرًا كثيرًا والالتجاء إليه بصدق النية مثل قول أصحاب طالوت : رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ (البقرة: ٢٥٠) .

٣ – طاعة الله ورسوله ، فى امتثال الأوامر واجتناب النواهى ، وكذلك طاعة القائد وامتثال أوامره .

٤ – الصبر والتحمل ، فهو طريق الظفر : وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ .

٥ – البعد عن البطر (وهو الفخر والاستعلاء والتكبر) .

٦ – البعد عن التشبّه بالكافرين الذين يصدُّون الناس عن سبيل الله ، ويمنعونهم فى طريق الهدى والرشاد.

٧ – الثقة بأن الله محيط وعالم بكل ما يعمل الإنسان ، وسيجازيه على ذلك ، فيخلص العبدُ النية ، وعليه بالتقرب إلى مولاه ، مع التواضع والانكسار بدلاً من الرياء والافتخار.

٤٨– وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡ ... الآية .

أى : واذكر أيها الرسول للمؤمنين حين زين الشيطان لهؤلاء المشركين أعمالهم فى معاداة الرسول والمؤمنين ؛ بأن وسوس لهم وحسن لهم ما جُبلوا عليه من غرور ومراءاة ، وأوهمهم بأن النصر سيكون لهم فى هذا الحرب .

وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ .

أى : من النبى ﷺ وأصحابه ؛ فألقى الشيطان فى روعهم ، أنّه لن يغلبكم أحد من الناس ؛ لا محمد –ﷺ– وأصحابه ، ولا غيرهم من قبائل العرب .

وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡ .

أى : مجير ومعين وناصر لكم ؛ إذ المراد بالجار هنا الذى يجير غيره ، أى : يؤمِّنه مما يخاف ويخشى.

فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ .

فلما أبصر كل من الفريقين الآخر، وقد رجحت كفة المؤمنين، بإمداد الملائكة لهم؛ بطل كيد الشيطان وتزيينه، وظهر عجزه عن نصرة الكافرين؛ وولى هاربًا على قفاه، راجعًا للوراء، والمراد: بطلان كيده وهزيمته مع شيعته. أى: أنه كفَّ عن تزيينه لهم وتغريره بهم.

يقال: نكص عن الأمر نكوصًا ونكصًا، أى: تراجع عنه وأحجم، والعقب: مؤخر القدم.

وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ .

أى: قال الشيطان للمشركين، إنى برىء من عهدكم وجواركم ونصرتكم، إنى أرى من الملائكة النازلة؛ لتأييد المؤمنين ما لا ترونه أنتم.

إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ . أن يصيبنى بمكروه من قبل ملائكته.

وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ. يحتمل أنه من كلام إبليس الذى حكاه الله عنه، ويحتمل أنه جملة مستأنفة من كلامه عز وجل.

أى: والله شديد العقاب لمن عصاه وخالف أمره.

تزيين الشيطان معنوى أو حسى

ذهب جمهور المفسرين، إلى أن الشيطان ظهر للمشركين يوم بدر، ظهورًا حسيًا يغريهم بالنصر، ويعدهم بالحماية والتأييد[١٣].

وروى عن الحسن والأصم أن تزيين الشيطان كان على سبيل الوسوسة، ولم يتمثل لهم.

فالقول على هذا مجاز عن الوسوسة، والنكوص وهو الرجوع استعارة لبطلان كيده.

وقد ذهب ابن كثير وابن جرير الطبرى وغيرهم على أن التزيين من الشيطان كان تزيينًا حسيًا.

وأوردا روايات كثيرة تدور حول ظهور الشيطان للمشركين، وورد مثل ذلك فى تفسير القرطبى والزمخشرى؛ فروى أن قريشًا لما اجتمعت تريد حرب المسلمين فى بدر؛ ذكرت الذى بينها وبين كنانة من الحرب؛ لأن قريشًا كانت قتلت رجلاً من كنانة، وكانت كنانة تطلب دمه، فلم يأمنوا أن يأتوهم من ورائهم، فتمثل إبليس اللعين، فى صورة سراقة بن مالك بن جشعم الشاعر الكنانى، وقال: أنا جاركم من بنى كنانة، فلا يصل إليكم مكروه منهم، وقال: لا غالب لكم اليوم، فلما رأى إبليس الملائكة تنزل؛ نكص.

وقيل : كانت يده فى يد الحارث بن هشام ، فلما نكص قال له الحارث : إلى أين؟! أتخذلنا فى هذه الحال؟! قال: إنّى أرى مالا ترون ، ودفع صدر الحارث وانطلق وانهزموا .

فلما بلغوا مكة قالوا : هزم الناس سراقة ، فبلغ ذلك سراقة فقال : والله ما شعرت بمسيركم حتى بلغتنى هزيمتكم ، فلما أسلموا ؛ علموا أنّه الشيطان .

وفى موطإ مالك : عن طلحة بن عبيد الله بن كريز أن رسول الله ﷺ قال :

«ما رؤى الشيطان يومًا هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه فى يوم عرفة ، وما ذاك إلا لما يرى من تنزل الرحمة ، وتجاوز الله عن الذنوب العظام ؛ إلاَّ ما رؤى يوم بدر ، قيل : وما رؤى يوم بدر ، قال فإنه قد رأى جبريل يزع [١٤] الملائكة» [١٥]

خلاصة أقوال المفسّرين فى الآية

بمراجعة أقوال المفسرين فى كيفية تزيين الشيطان للمشركين ، نراهم ينقسمون إلى ثلاثة أقسام :

١- قسم منهم سار فى تفسيره على أن التزيين كان حسيًا بمعنى : أن الشيطان تمثل للمشركين فى صورة إنسان وقال لهم ما قال .

وممن فعل ذلك ابن جرير الطبرى ، وابن كثير، والقرطبى .

٢- قسم ذكر : أن فى التزيين وجهين .

أحدهما : أنه وسوسة من غير تمثيل فى صورة إنسان .

ثانيهما : أن إبليس ظهر فى صورة إنسان ، ولم يرجح أحد القولين على الآخر وممن فعل ذلك الزمخشرى، والفخر الرازى ، والآلوسى ، وأبو السعود .

٣- قسم منهم رجّح أن التزيين لم يكن حسيًا ، بل كان عن طريق الوسوسة ، وأن الشيطان ما تمثل للمشركين فى صورة إنسان ، وقد سار فى هذا الاتجاه صاحب المنار مشككًا فى صحة ما سواه ، ونحن نؤمن بالآية وبما أثبته القرآن الكريم من أنّ الشيطان قد زيَّن للمشركين أعمالهم ، وأنه قد نكص على عقبيه .: إلخ . إلا أننا لا نستطيع أن نحدد كيفية ذلك .

وبعبارة أوضح : نحن أقرب إلى الفريق الثانى من المفسرين الذين ذكروا القولين السابقين فى كيفية التزيين دون ترجيح لأحدهما على الآخر .

فالقول محتمل لأن يكون التزيين معنويًا بمعنى : الوسوسة والإغراء والتحريض ، وأن يكون حسيًا بأن يتمثل الشيطان رجلاً يغريهم ثم يخذلهم ويتركهم خائفًا منهزمًا .

وكان موقف «فى ظلال القرآن» ، قريبًا من هذا الاتجاه . حيث قال :

وفى هذا الحادث نص قرآنى يثبت منه أن الشيطان زين للمشركين أعمالهم ، وشجعهم على الخروج... وأنه بعد ذلك نكص على عقبيه ... فخذلهم وتركهم ؛ يلاقون مصيرهم وحدهم .

ولكنّا لا نعرف الكيفية التى زين لهم بها أعمالهم ،والتى قال بها : لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ . والتى نكص بها كذلك ..

الكيفية فقط هى التى لا نجزم بها ؛ ذلك أن أمر الشيطان كله غيب ، ولا سبيل لنا إلى الجزم بشىء من أمره إلا بنص قرآنى ؛ أو حديث نبوى صحيح ، والنص هنا لا يذكر الكيفية ، إنما يثبت الحادث .

إلى هنا ينتهى اجتهادنا ، ولا نميل إلى المنهج الذى تتخذه مدرسة الشيخ محمد عبده ، فى تأويل كل أمر غيبى من هذا القبيل تأويلاً معينًا ، ينفى الحركة الحسية عن هذه العوالم ، وذلك كقول الشيخ رشيد رضا فى تفسير الآية :

وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ ... أى : واذكر أيها الرسول للمؤمنين ، إذ زين الشيطان لهؤلاء المشركين أعمالهم بوسوسته ، قال لهم: بما ألقاه فى هواجسهم لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ ... إلخ ما ذكره الشيخ رشيد فى تفسير الآية . ا هـ .

أى : أنّ (فى ظلال القرآن) لا يستبعد أن يكون التزيين معنويًا بمعنى الوسوسة ، وأن يكون حسيًا بمعنى تمثل الشيطان فى صورة رجل كسراقة بن مالك بن جشعم الكنانى .

وأخيرًا إننا نؤمن بالنص ، ونذكر أنه محتمل لرأيين ، ونفوض حقيقة المراد إلى الله تعالى ، والله أعلم.

٤٩- إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَافِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ... الآية .

تشير الآية إلى موقف المنافقين فى المدينة ، والمشركين فى مكة ، وإلى غيرهم من الأعراب ، ومن لم يتمكن الإيمان فى قلوبهم .

فقد رأوا قلة مؤمنة فى بدر ، ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً ، تخرج للقاء كثرة كافرة ، تزيد على ثلاثة أمثالهم ، وهؤلاء المنافقون ومرضى القلوب ، يزنونَ الأمور بميزان الكثرة المادية ، والأمور الحسيّة .

فقالوا : ما خرج هؤلاء المؤمنون إلاّ غرورًا بدينهم ؛ فقد خدعهم دينهم فخرجوا على قلتهم ؛ لقتال جيش قوى كبير مستعد ؛ فهم يلقون بأنفسهم إلى التهلكة .

وقد تكفل الحق سبحانه بالردّ عن المؤمنين ، الذين أخذوا فى أسباب النصر ، وأعدوا العدة ثم توكلوا على الله . فقال سبحانه :

وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

ومن يفوّض أمره إلى الله ، ويثق به ويلجأ إليه ، مؤمنًا صادقًا عاملاً ، متيقنًا بقدرة خالقه ، وأن بيده الخلق والأمر ؛ فإن الله ينصره ويؤيده ، وما النصر إلا من عند الله .

فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

أى : غالب على أمره حكيم فى فعله .

وقد اقتضت سنته ، أن ينصر الحق على الباطل ، وأن يسلط القليل الضعيف على القوى الكثير .

ورغم أن الآية تشير إلى أحداث غزوة بدر ؛ فإنها عامة فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، إنها تصف طبيعة بعض الناس فى عصرنا وسائر العصور ؛ هؤلاء الذين يسخرون من أصحاب الدعوات المخلصة على قلتهم ، وقلة ما يملكون من تراث الدنيا ، ويقولون : غرّ هؤلاء دينهم وعقيدتهم .

وما علموا أن هؤلاء الدعاة الهداة ، يملكون شيئًا قيّمًا ، هو صدق الإيمان ، وسلامة النية ، وإخلاص الدعوة، وحرارة العقيدة ، وصدق التوكل على الله ، بعد العمل والأمل ، فالله لا يخذلهم بل يمدهم بنصره وعونه : وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

من أسباب النزول :

روى عن مجاهد أنه قال فى تفسير الآية ٤٩ من سورة الأنفال : هم فئة من قريش ، قيْسُ بن الوليد ابن المغيرة ، والحارث بن زَمْعَةَ بن الأسود بن المطلب ، ويعلى بن أمية ، والعاص بن مُنَبِّه ، خرجوا مع قريش من مكة ، وهم على الارتياب ، فحبسهم ارتيابهم ، فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله ﷺ قالوا : غرَّ هؤلاء دينهم ؛ حين أقدموا على ما أقدموا عليه مع قلة عددهم وكثرة عدوهم .

٥٠- وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ... الآية .

أى : ولو عاينت يا محمد حال الكفار حين تتوفاهم الملائكة ببدر وتنزع أرواحهم .

أو المعنى : ولو عاينت وشاهدت أيها العاقل ، أو يا كلُّ من تتأتى منه الرؤية ، حال الكفار حين تتوفاهم الملائكة ، فينزعون أرواحهم من أجسادهم ، ضاربين وجوههم وأقفيتهم وظهورهم بمقامع من حديد . قائلين لهم : ذُوقوا عذاب النار .

وجواب لَوْ محذوف دل عليه المذكور والتقدير : لعاينت أمرًا عظيمًا ، تقشعرُّ من هوله الأبدان .

وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ .

أى : يقولون لهم : ذوقوا عذاب اللهيب المحرق ، والمراد بضرب وجوههم وأدبارهم : ضربهم من كل ناحية .

٥١- ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ .

أى : هذا العذاب الذى ذقتموه بسبب ما كسبت أيديكم ، من سيئ الأعمال فى حياتكم من كفر وظلم ؛ وهذا يشمل القول والعمل .

ونسب ذلك إلى الأيدى ، وإن كان قد يقع من الأرجل وسائر الحواس ؛ أو بتدبير العقل ؛ من أجل أن العادة قد جرت ، بأن أكثر الأعمال البدنية تزاول بالأيدى .

وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ .

لقد جازاكم الله عدلاً لا ظلمًا ؛ لأن الله لا يظلم أحدًا من خلقه ، بل هو الحكم العدل الذى لا يجور أبدًا، قال تعالى : وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ . (الأنبياء: ٤٧) .

جاء فى الحديث القدسى الصحيح ، الذى رواه مسلم : عن أبى ذر رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن الله تعالى يقول : يا عبادى ، إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرمًا ، فلا تظالموا ... يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها عليكم ، فمن وجد خيرًا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه»[١٦].

ظالم وظلام

نجد أن قوله تعالى: وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ . قد جاء فيها التعبير بنفى الظلم عن الله بصيغة المبالغة ظَلَّامٍ . وهل إذا انتفت المبالغة فى الظلم ، أينتفى معها الظلم نفسه ؟

والجواب – والله أعلم – أن صيغة المبالغة هنا ، إنما تكشف عن وجه البلاء الذى وقع بالمشركين ، وأنه بلاء عظيم ، وعذاب أعظم ، وأن الذى ينظر إليه يجد ألاّ جريمة توازى هذا العقاب ؛ وتتوازن معه فى شدته، وشناعته ، حتى ليخيل للناظر أن القوم قد ظُلموا ، وأنه قد بُولغ فى ظُلمهم إلى أبعد حدّ ، فجاء قوله تعالى: وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ . ليدفع هذا الوهم الذى يقع فى نفس من يرى هذا البلاء الذى حل بهؤلاء القوم الضالين ، وهو بلاء فوق بلاء ، فوق بلاء !![١٧]

وجاء فى تفسير القاسمى ما يأتى:

إن قيل : ما سرُّ التعبير بقوله : ظَلَّامٍ . بالمبالغة مع أن نفى نفس الظلم أبلغ من نفى كثرته ، ونفى الكثرة لا ينفى أصله ، بل ربما يُشعر بوجوده ، وبرجوع النفى للقيد ؟

وأجيب بأجوبة :

منها : أن ظلاّما. للنَّسب كعطَّار. أى : لا ينسب إليه الظلم أصلاً .

ومنها : أن العذاب من العِظم ؛ بحيث لولا الاستحقاق لكان المعذِّب بمثله ظلاّما بليغ الظلم متفاقمه ؛ فالمراد : تنزيه الله تعالى ، وهو جدير بالمبالغة[١٨] .

★ ★ ★

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

المفردات :

كدأب : الدأب : العادة التى يدأب عليها الإنسان ويعتادها .

التفسير :

٥٢– كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ.

المناسبة :

ذكر القرآن هلاك المشركين فى غزوة بدر ، ثم بين أن سُنة الله تعالى مستمرة ؛ فهو سبحانه ينعم على الناس بالنعم ، ويمتنّ عليهم بالسمع والبصر ويسخر الليل والنهار ، ويعطيهم الجاه والسلطان ؛ فإذا شكروا الله تعالى ، واستخدموا النعمة فى طاعته ؛ زادهم الله من فضله . وإذا كفروا وكذبوا ، وعاندوا ، أرسل الله عليهم نقمته ، فقد أغرق قوم نوح بالطوفان ، ودمدم الأرض وسوّاها على ثمود ، وأهلك المكذبين بصنوف العذاب ، كما أغرق فرعون وقومه فى البحر .

وقد كان النيل نعمة من الله عليه . فاستخدمها فى العدوان ، وَقَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ . (الزخرف: ٥١، ٥٢) .

فما أشقى هؤلاء الكفار قاطبة ، وليتهم اعتبروا بالعبر والعظات ، وبمن سبقهم فى التاريخ .

المعنى :

إن هؤلاء الكفار فى كفرهم ، وعنادهم ، ومقاومتهم لرسول الله ؛ أشبهوا قوم فرعون ، والأمم التى كانت قبلهم الذين استحبوا العمى على الهدى ، وسارعوا إلى المعصية وإنكار وجود الله ووحدانيته ، وتكذيب الرسل ؛ فأخذهم الله بسبب ذنوبهم وكفرهم أخذًا شديدًا .

إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ . غالب لا يغلبه أحد .

شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ. لمن خرج عن طاعته ، وأصرّ على كفره وعناده .

٥٣- ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

اقتضت سنته تعالى ، ألا ينزع نعمة عن قوم إلا إذا كفروا وفجروا ، وارتكبوا الذنوب والسيئات ، ولم يقابلوا النعمة بالشكر والعرفان ، بل قابلوها بالكفر والنكران ، فاستحقوا عقاب الله العادل وحكمه ؛ جزاء كفرهم وعنادهم .

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى :

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ .. (الرعد: ١١) .

وفى هذه دلالة واضحة على أن استحقاق النعم ؛ منوط بصلاح العقائد ، وحسن الأعمال ، ورفعة الأخلاق ، وأنّ زوال النعم يكون بسبب الكفر والفساد وسوء الأخلاق .

وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . بما نطق به الكافرون من سوء ، وعَلِيمٌ بما ارتكبوه من قبائح ومنكرات ، وقد عاقبهم على ذلك بما يستحقون من عذاب .

وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . (النحل : ٣٣)

من تفسير الفخر الرازى :

جاء فى تفسير الفخر الرازى : قال القاضى: معنى الآية : أنه تعالى أنعم عليهم بالعقل والقدرة وإزالة الموانع وتسهيل السبل ، والمقصود: أن يشتغلوا بالعبادة والشكر ، ويعدلوا عن الكفر ، فإذا صرفوا هذه الأحوال إلى الفسق والكفر ؛ فقد غيروا نعمة الله تعالى على أنفسهم ، فلا جرم استحقوا تبديل النعم بالنقم ، والمنح بالمحن . وهذا من أوكد ما يدل على أنه تعالى ، لا يتبدئ أحدًا بالعذاب والمضرّة .. ا هـ .

٥٤- كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ .

تؤكد هذه الآية ، ما سبق فى الآيتين السابقتين ؛ وهو التكرير لأهمية الموضوع ، وبيان قاعدة أساسية إلهية ، عادلة عمادها : أن نموّ الأمم فى قوة أخلاقها ، وسلامة أفعالها . وأن هلاك الأمم يكون فى كفرها بالنعم ، وانشغالها بالشهوات والملذات ، وإيثار العاجلة على الآجلة .

ومعنى الآية :

شأن هؤلاء المشركين الذين حاربوك يا محمد ، كشأن آل فرعون ومن تقدمهم من الأقوام السابقة ، كقوم نوح وقوم هود ... كذب أولئك جميعًا بآيات ربِّهم التى أوجدها لسعادتهم ، فكان من نتيجة ذلك أن أهلكهم بذنوبهم التى من جملتها التكذيب ، وأغرق الله آل فرعون ، الذين زينوا له الكفر والبطر والطغيان، وأرسل الريح على عاد قوم هود ، والصيحة على غيرهم .

وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ .

أى : أن كلاً من مشركى قريش ، وآل فرعون والذين من قبلهم من المكذبين ، كانوا ظالمين لأنفسهم بكفرهم وعنادهم ، ولأنبيائهم بسبب محاربتهم وتكذيبهم ؛ فاستحقوا الهلاك والعذاب .

وفى سورة العنكبوت ، استعرض القرآن الكريم أمم المكذبين من قوم لوط ، وأصحاب مدين ثم قال سبحانه:

وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ . * وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ * فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِ

فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّن خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . (العنكبوت: ٣٨–٤٠) .

تكرير ذكر فرعون

تكرر ذكر فرعون في آيات متقاربة ؛ لأنه أكثر بغيًا وظلمًا وعدوانًا ، وقد استخف قومه وطلب منهم طاعته ، فأطاعوه نفاقًا لا يقينًا ، ثم أغرق الله الجميع عقابًا عادلاً .

روى البخارى ومسلم وابن ماجة عن أبى موسى الأشعرى أن النبى ﷺ قال :

«إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»[١٩] .

وقد ورد فى السيرة : أن النبى ﷺ لما جاءه خبر مقتل أبى جهل فى بدر ؛ ذهب حتى وقف عليه ثم قال: هذا فرعون هذه الأمة[٢٠] .

وخلاصة القول :

إن ما دوّنه التاريخ من دأب الأمم وعادتها ، فى الكفر والتكذيب، والظلم فى الأرض، ومن عقاب الله إياها. جار على سنته تعالى المطردة فى الأمم ، ولا يظلم ربك أحدًا بسلب نعمة منهم ، ولا بإيقاع أذى بهم، وإنما عقابه لهم أثر طبيعى؛ لكفرهم وظلمهم لأنفسهم، وقد حكى سبحانه جانبا من عناد فرعون ثم قال سبحانه:

فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ * فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ * فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ . (الزخرف: ٥٤–٥٦) .

أى : أن الله جعل منهم عبرة ونموذجًا لكل ظالم يأتى فى الآخرين من بعدهم .

قال تعالى : وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا . (الكهف: ٤٩) .

قال سبحانه : إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . (يونس: ٤٤) .

من حاشية الجمل

جاء فى حاشية الجمل على تفسير الجمل ما يأتى :

فإن قلتَ : ما الفائدة من تكرير هذه الآية مرة ثانية ؟

قلتُ : فيها فوائد منها :

١ – أن الكلام الثانى يجرى مجرى التفصيل للكلام الأوّل ؛ لأن فى الآية الأولى ذكر : أخذهم ، والثانية ذكر: إغراقهم فذلك تفسير للأول .

٢ – ومنها : أنه ذكر فى الآية الأولى : أنهم كفروا بآيات الله، وفى الآية الثانية أنهم كذبوا بآيات ربهم ، ففى الآية الأولى إشارة إلى أنهم كفروا بآيات الله وجحدوها .

وفى الثانية إشارة إلى أنهم كذبوا بها مع جحودهم لها ، وكفرهم بها .

٣ – ومنها : أن تكرير هذه القصة للتأكيد .

★ ★ ★

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٖ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

المفردات :

الـدواب : جمع دابة وهى : كل ما يدب على وجه الأرض .

ينقضون عهدهم : أى : يفكونه ، والمراد : أنهم لا يوفون به .

تثقفنهم : تلقاهم وتجدهم .

فشرد بهم من خلفهم : فافعل بهم فلا يخيف من وراءهم ويشردهم . والتشريد : التبديد والتفريق .

تخافن من قوم خيانة : أى : تتوقع من قوم خيانة بنقض العهد ونكثه .

فانبذ إليهم على سواء : فاطرح إليهم عهدهم على طريق سوى من العدل بأن تخبرهم بذلك .

سبقوا : فاتوا وأفلتوا من عقابنا .

لا يعجزون : لا يفوتون ولا يفلتون من عقاب لله بل هو قادر عليهم .

من قوة : من كل ما يتقوى به فى الحرب .

رباط الخيل : المكان الذى ترابط فيه الخيل المعدّة للقتال .

ترهبون : تخوفون .

لا تعلمونهم : لا تعرفونهم بأعيانهم أو لا تعلمونهم كما هم عليه من العداوة .

التفسير :

٥٥- إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

نزلت هذه الآيات فى جماعات اليهود الذين كانوا يقيمون فى المدينة ويثيرون الفتن والقلاقل .

قال ابن عباس : هم بنو قريظة ؛ فإنهم نقضوا عهد رسول الله ﷺ ، وأعانوا عليه المشركين بالسلاح فى يوم بدر ، ثم قالوا : أخطأنا ؛ فعاهدهم مرة أخرى فنقضوه يوم الخندق[٣١] .

والمعنى :

إن شر جميع ما يدبُّ على وجه الأرض ؛ هم الذين كفروا برسول الله ﷺ ، وأصروا على الكفر ولجُّوا فيه ؛ فلم يفتحوا قلوبهم للإيمان ، ولم يحركوا عقولهم للنظر .

فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . فهم مستمرون على عدم إيمانهم ؛ مع قيام الحجة عليهم ، وثبوت أوصاف النبى محمد ﷺ فى كتبهم ، قال تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . (البقرة: ٦) .

٥٦- ٱلَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ .

لقد تكرر منهم الغدر وعدم الوفاء ، فهذا دأبهم وتلك طبيعتهم ، نقض العهود والمواثيق فى كل وقت ، وهم مع ذلك لا يشعرون بالحرج أو الخجل ، ولا يتقُون الله ، ولا يخشون عقابه لهم على نكثهم العهد ، وما يجرُّه ذلك من نكبات تحلّ بهم .

٥٧- فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ .

أى : إذا كان حالهم ما ذكر من نقض العهد ، فإن ظفرت بهم فى الحرب ؛ فافعل بهم فعلاً قويًا ناجحًا؛ لأنهم يستحقون القتل جزاء غدرهم ونقضهم للعهود ، وإذا عاقبتهم عقوبة رادعة ؛ أدّى ذلك إلى تفريق أعداء

المسلمين ، فإنك إذا نكّلت بمن خان العهد ؛ أدّى ذلك إلى بث الرعب فى قلوب الآخرين ، الذين يتربصون لقتال المسلمين ، ويفكرون فى نقضهم عهودهم .

أى : لعل الأعداء من ورائهم ، يتعظون بما فعلت مع هؤلاء من حرب ونكاية وتشريد ، فيتخذون من ذلك العبرة ويحجمون عن نقض العهود ؛ مخافة أن يصنع بهم مثل ذلك .

قيل لعنترة : أنت أشجع العرب ، قال : لا .

قيل : فبم شاع عنك ذلك ؟

قال : كنت أُقدم إذا رأيت الإقدام عزمًا ، وأحجم إذا رأيت الإحجام حزمًا ، وأعمد إلى الضعيف الجبان فأضربه الضربة الهائلة ؛ يطير لها قلب الشجاع ثم أثنى عليه فأقتله .

٥٨- وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ .

أى : إن توقعت من قوم معاهدين الخيانة ، وغلب ذلك على ظنك ، بأمارات غالبة ، بنقض العهد الذى بينك وبينهم .

فَٱنبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ .

فاطرح إليهم عهدهم ، وأعلمهم بذلك وأنه لا عهد بعد اليوم ، ولتكن أنت وهم فى ذلك العلم وطرح العهد على سواء ، فتكون أنت وهم متساوين فى العلم بنقض العهد ، وبأنك حرب لهم ، وهم حرب لك .

أى : قيام حالة الحرب ؛ لئلا يتهموك بالغدر إن أخذتهم بغتة . والنبذ لغةً : الرمى والرفض ، والسواء: المساواة والاعتدال .

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ .

إن الله يكره الخيانة ، ويعاقب عليها ، حتى ولو فى حق الكفار ، فلا يك منك إخفاء نكث العهد .

من تفسير ابن كثير

أورد الإمام ابن كثير طائفة من الأحاديث النبوية ، تحث على الوفاء وتحرم الغدر ، وتدعو إلى أداء الأمانة إلى أهلها ؛ سواء أكان صاحبها مسلمًا أم كافرًا .

قال الإمام أحمد : عن شعبة عن سليم بن عامر قال : كان معاوية يسير فى أرض الروم ، وكان بينه وبينهم أمدٌ ، فأراد أن يدنو منهم ، فإذا انقضى الأمد غزاهم ، فإذا شيخ على دابة يقول : الله أكبر ، الله أكبر ،

وفاء لا غدرًا ، إن رسول الله ﷺ قال : من كان بينه وبين قوم عهدًا فلا يحلن عُقْدةَ ولا يشدها ، حتى ينقضى أمدها ، أو ينبذ إليهم على سواء ، مبلغ ذلك معاوية فرجع ، فإذا بالشيخ عمرو بن عبسة رضى الله عنه [٢٢].

وروى البيهقى أن النبى ﷺ قال :

«ثلاثة : المسلم والكافر فيهن سواء :

من عاهدته فوفِّ بعهده مسلمًا كان أو كافرًا ؛ فإنما العهد لله ، ومن كانت بينك وبينه رحم فصِلْها ، مسلمًا كان أو كافرًا ، ومن ائتمنك على أمانة فأدِّها إليه ، مسلمًا كان أو كافرًا»[٢٣] .

٥٩- وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ .

هذه الآية إنذار للخائنين بما يحلّ بهم من عقاب ، وتحذير للمشركين ، الذين أفلتوا من القتل يوم بدر وغيره.

والمعنى :

لا يظنن الذين كفروا ، أنهم أفلتوا من الظفر بهم ، ونجوا من عاقبة خيانتهم ، وأنَّهم فاتُونا فلا نقدر عليهم ، وأنهم سبقوا عقاب الله وأفلتوا منه ؛ بل هم تحت قدرتنا وفى قبضة مشيئتنا .

فلا يعجزوننا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

فلهم فى الدنيا الهزيمة والقتل والأسر ، ولهم فى الآخرة عذاب الجحيم .

قال تعالى : لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَاهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ . (النور: ٥٧) .

وقال تعالى مخاطبًا للمشركين : وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ . (التوبة: ٢) .

وفى هذه الآية بشرى للنبى ﷺ بما يطمئن قلبه على مستقبل الدعوة الإسلامية ، وأنها إلى نصر ، وأن أعداءه إلى هزيمة .

٦٠- وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ... الآية .

انتصر المسلمون فى غزوة بدر بفضل الله وعونه ، وأراد القرآن أن ينبِّه المسلمين ، إلى وجوب إعداد القوة الحربية والمادية والأدبية والنفسية والمعنوية ، وكل وسائل القوة يجب إعدادها وتجهيزها ؛ فلا شىء يمنع الحرب مثل الإعداد لها .

والمعنى :

هيئوا لقتال الأعداء ، ما أمكنكم من أنواع القوى المادية والمعنوية ، من كل ما يتقوّى به عليهم فى الحرب؛ من حصون وقلاع وسلاح .

ويشمل ذلك وسائل القوة الحديثة كالمدافع والبوارج ، والدبابات ، والمصفحات ، والمدرعات ، ودراسة الفنون الحربية الحديثة التى تساعد على توجيه الأسلحة ، وإحكام تصويب القتال والرمى ؛ فإن النصر متوقف على استخدام القوة المتاحة ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ .

رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ : هو المكان الذى تربط فيه الخيل عند الحدود ؛ ليحرس فرسانهُ الثغور ، ويراقبوا العدو، وقد كانت الخيول أداة الحرب البرية الرهيبة فى الماضى ، وما تزال لها أهميتها أحيانًا فى الحاضر ، مثل نقل بعض المؤن والذخيرة فى الطرق الجبلية . وإن كان الدور الحاسم اليوم هو لسلاح الطيران ، والمدافع ، والدبابات ، والغواصات البحرية ، المزودة بوسائل التقنية الحديثة ، المساعدة على إحكام الرمى وإصابة الهدف .

ومن الحديث الشريف : «ألا إن القوة الرمى»[٢٤] .

وقد كان الرمى وسيلة لإصابة أهداف العدو من بعيد ؛ فكل ما يحقق النصر يجب اتخاذه من عدد الحرب ؛ لأن المهم تحقيق الأهداف ، وأما الوسائل والآلات ؛ فهى التى يجب إعدادها بحسب متطلبات العصر، ويكون المقصود إعداد جيش دائم ، مستعد للدفاع عن البلاد ، مزود بأحدث الأسلحة وأقدرها على إحراز النصر . مع التدريب المستمر ، وإنفاق المال على تسليح الجيش ؛ بحسب الطاقة .

وقد خص الله الخيل بالذكر ، وإن كانت داخلة فى القوة ؛ تشريفًا لها وتكريمًا ، واعتدادًا بأهميتها .

كما ذكر جبريل وميكائيل مع الملائكة تشريفًا لهما .

تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ .

تبيّن الآية هنا سبب الإعداد وحكمته وهو إرهاب عدوّ الله وعدو المسلمين ، من الكفار الذين ظهرت عداوتهم . مثل مشركى مكة فى الماضى ، وإرهاب العدو الخفى الموالى لهؤلاء الأعداء ، سواء أكان معلومًا لنا أم غير معلوم بل الله يعلمهم ؛ لأنه علام الغيوب ، وهذا يشمل اليهود والمنافقين فى الماضى ، ومن تظهر عداوتهم مثل فارس والروم ، وسلالاتهم فى دول العالم المعاصر .

وقد رجح ابن جرير الطبرى أن المراد بقوله تعالى : ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ . كفار الجن أى : ترهبون بنى آدم وترهبون جنسًا آخر من غير بنى آدم لا ترونهم ولا تعلمونهم ولكن الله يعلمهم ، ورجح الفخر الرازى أن المراد بهم : المنافقون ؛ فعداوتهم للمؤمنين قد تكون خفية ؛ وهم يتربصون بهم الدوائر ؛ فإذا لاحظوا ضعفًا منهم تحرشوا بهم ، ولا شك أن العدو المجاهر والمستخفى إذا عرف قوة استعدادنا الحربى ؛ منعه ذلك من التحرش بنا ، أو التفكير فى أن يجرب حظه معنا .

﴿وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ .

تأتى هذه الفقرة فى أعقاب الحث على الإعداد ؛ لبيان أن الإعداد الملائم للحرب يحتاج إلى المال ، والإنفاق منه فى سبيل الله ، فبينت الآية : أن أى شىء تقدمونه من مال قلّ أو كثر ، فى إعداد الجيوش أو رعاية المحاربين وأسرهم بما يحتاجون إليه ؛ فإن الله يوفّى أجره كاملا للمنفقين ، ويجازيهم عليه على أتمّ وجه ، ولا ينقصون شيئًا من ثواب أعمالهم ، مهما قلت أو كثرت .

من هدى السنة النبوية

روى البخارى : أن رسول الله ﷺ قال :

«من جهز غازيًا فقد غزا ، ومن خلف غازيًا فى أهله بخير فقد غزا»[٢٥] .

وجاء فى رياض الصالحين للإمام النووى عن أبى داود أن رسول الله ﷺ قال : «إن الدرهم يضاعف ثوابه فى سبيل الله إلى سبعمائة ضعف» .

قال تعالى :

﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ . (البقرة: ٢٦١)

مما يتعلق بالآية

١ – لا يزال الإعداد المادىّ والمعنوى ، وتجهيز الجيوش الضارية المقاتلة ؛ هدف كل أمة فى القديم والحديث.

٢ – سبق القرآن إلى دعوة المسلمين وتوجيههم إلى إعداد القوة المادية والمعنوية ، وسائر وسائل الحرب الحديثة ؛ حتى يكونوا أعزة أقوياء ، وقد تمسك المسلمون الأولون بذلك ؛ فتقدموا وانتصروا ، ودالت لهم دول الأكاسرة والقياصرة .

٣ – إن وضع المسلمين الآن لا يسر الصديق ، ولا يكيد العدو ؛ فبلاد المسلمين تتخطف من حولهم ، ويطمع فيها الأعداء ، والمسلمون متقاعسون عن الجهاد وعن الإنفاق فى سبيل الله .

٤ – يجب أن تعود معامل الأسلحة وصيانتها إلى بلاد المسلمين ، وأن نعمل بقول الله تعالى ؛ فنعد العدة التى أمر الله بإعدادها ، ونتلافى ما فرطنا ، ونأخذ بأسباب الوحدة والقوة .

٥ – المقصود من إعداد العدة : إرهاب الأعداء ؛ حتى لا يفكروا فى الاعتداء على المسلمين ، وحتى يعيش المسلمون فى ديارهم آمنين مطمئنين .

وليس المقصود من إعداد العدة إرهاب المسلمين ، أو العدوان على الآمنين ، أو قهر الناس واستغلالهم.

قال تعالى : تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ .

٦ – ينبغى أن نعود إلى هدى القرآن الكريم ، والسنة المطهرة ، وسيرة السلف الصالح ، وأن نهجر الهوى والترف، وأن نبنى الأفراد والأسر والمجتمعات بالخلق السليم ، والتربية الصالحة ، والمحضن الصالح ، والمجتمع المتميز ، والجيش القوىّ .

قال تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً . (الكهف : ٣٠) .

* * *

﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾

المفردات :

جنحوا للسلم : مالوا إلى المسالمة والصلح .

فاجنح لها : فمل إليها .

يخدعوك : يظهروا لك السلم ويبطنوا الغدر والخيانة .

حسبك الله : كافيك الله .

أيــــــــدك : قواك .

ألف بين قلوبهم : جمع بين قلوب الأوس والخزرج .

التفسير :

٦١- وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ .

بعد ما أمر الله تعالى بالاستعداد للحرب . ولا يمنع الحرب مثل الاستعداد لها – ذكر هنا حكم ما إذا طلب الأعداء الصلح ، ومالوا إلى السلم .

قال الزمخشرى : السلم تؤنث تأنيث نقيضها وهى الحرب .

قال العباس بن مرداس :

السلم تأخذ منها ما رضيت به　　　والحرب يكفيك فى أنفاسها جرع

فالآيات مرتبطة بالآيات السابقة .

والمعنى : عليك أيها الرسول الكريم ، أن تنكل فى الحرب بأولئك الكافرين ؛ المناقضين لعهودهم فى كل مرة ، وأن تهيئ لهم ما استطعت من قوة لإرهابهم .

فإن مالوا بعد ذلك إلى المسالمة والمصالحة ، وطلبوا عقد الهدنة ؛ فأعطهم ما طلبوا ، وعاهدهم على السلام والمصالحة ، وتوكل على الله ، وفوض أمرك إليه ؛ فهو وحده الذى يستطيع أن ينصرك ، ويحفظك من خيانتهم ، على أن يقترن ذلك بالحذر منهم .

إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ . لأقوالهم ٱلْعَلِيمُ . بأفعالهم ؛ فيؤاخذهم بما يستحقون ويرد كيدهم فى نحرهم .

قال الزمخشرى فى تفسير الكشاف :

والأمر فى الآية موقوف على ما يرى فيه الإمام صلاح الإسلام وأهله ، من حرب أو صلح ، وليس يختم أن يقاتلوا أبدًا ، أو يجابوا إلى الهدنة أبدًا .

وهذه الآية أصل عظيم من أصول الإسلام ، فهو دين سلام لا حرب .

فالله اسمه السلام ، والجنة اسمها دار السلام ، والقرآن نزل فى موكب من السلام ، والمؤمن بعد الصلاة يبدأ الدنيا كلها بالسلام ، والمسلم لا يرفض دعوة السلام وقد حارب المسلمون مضطرين ؛ لردع العدوان ، ولتمكين الضعفاء والنساء واليتامى والصغار من حرّية الاختيار ، ولإزالة طواغيت الكفر والشرك .

قال تعالى : وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ . (الشورى: ٤١)

وقال سبحانه : أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ... (الحج : ٣٩، ٤٠) .

٦٢- وَإِن يُرِيدُوٓا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ... الآية .

أى : وإن يريدوا بالصلح خديعة ليتقوا ويستعدوا ، فالله يكفيك أمرهم ، وينصرك عليهم ، فهو كافيك وحده ، وعاصمك من مكرهم وخديعتهم ، ومن تولّى الله كفايته وحفظه ؛ لا يضرّه شىء .

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ .

هو الذى أنزل عليك نصره فى بدر بدون إعداد العدّة الكافية ، وأيدك بالمؤمنين من الأنصار والمهاجرين ونفذ ما قضى وحققه .

والتأييد ليس إلا من الله لكنه على قسمين :

أحدهما: ما يحصل من غير واسطة أسباب معلومة معتادة. والثانى: ما يحصل بواسطة أسباب معلومة.

فالأول : هو المراد من قوله : أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ .

والثانى : هو المراد من قوله : وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ . [٣٦]

وهذه الآيات دليل واضح على جنوح الإسلام إلى السلم ؛ ما دام فيه مصلحة الإسلام وأهله ولهذا لما طلب المشركون عام الحديبية الصلح ، ووضع الحرب بينهم وبين رسول الله ﷺ عشر سنين ؛ أجابهم إلى ذلك، مع ما اشترطوا من شروط مجحفة فى حق المسلمين .

هل هذه الآية منسوخة

زعم بعض المفسرين أن هذه الآية منسوخة ؛ آية السيف فى براءة : قَٰتِلُوا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ . (التوبة : ٢٩) .

وقد ذكر الإمام الزركشى فى كتابه : «البرهان فى علوم القرآن» نقلاً عن الشاطبى فى الموافقات :

أن هذا ليس نسخًا ولكنه تدرج فى التشريع ؛ فحينما كان المسلمون ضعافًا ؛ أمروا بالجنوح إلى الصلح والسلام .

ولما كانوا أقوياء قادرين ؛ أمروا بالقتال وإخراج المشركين من جزيرة العرب .

وجاء في تفسير ابن كثير ما يأتي :

قال ابن عباس، ومجاهد، وزيد بن أسلم، وعطاء الخراساني، وعكرمة، والحسن، وقتادة : إن هذه الآية منسوخة ، بآية السيف في براءة .

وفيه نظر أيضًا ؛ لأن آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك .

فأما إذا كان العدوّ كثيفًا ؛ فإنه يجوز مهادنتهم ، كما دلت عليه الآية الكريمة : وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا ...

وكما فعل النبي ﷺ يوم الحديبية . فلا منافاة ولا نسخ ولا تخصيص .

وإذا تأملت الآية ، وجدتها تقرر مَبْدَأً عامًّا في معاملة الأعداء ؛ هو أنه من الجائز مهادنتهم ومسالمتهم ؛ ما دام ذلك في مصلحة المسلمين .

فالحاكم المسلم له بصيرته وحسن تقديره للأمور، وله مشورته للمسلمين ، واختيار الأصلح والأنسب؛ فله أن يختار الحرب ، وله أن يختار المفاوضة والصلح ؛ والحكمة ضالة المؤمن ، والحكمة : هي حسن التأنّي للأمور ، ووضع الأمور في نصابها ، واختيار الأنسب والأوفق والأولى .

قال تعالى : يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ .
(البقرة : ٢٦٩)

٦٣- وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.

تستمر هذه الآيات في تشجيع الرسول ﷺ، على السير في طريق الصلح ، مادام فيه مصلحة للإسلام والمسلمين ، وتبشّره بأن الله سينصره وسيكفيه أمر الأعداء ، حتى لو أرادوا المخادعة والمراوغة ، وتضرب لذلك مثالاً عمليًا شاخصًا للعيان .

فهؤلاء الأوس والخزرج كانوا في الجاهلية أبناء عمومة ، وكانت بينهم حروب لا تهدأ ، وثارات لم تنطفئ ، ولم يجتمعوا تحت راية ، حتى جاء الإسلام ، ودخل فيه من الأوس ومن الخزرج ؛ وتحولت البغضاء والإحن ، والأحقاد والعداوة ، إلى حب عظيم في الله وفي دينه ، وفي رسوله وفي كتابه، وألف الله بين قلوبهم، بقدرته ورحمته ، فقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمان يقلبها كيف يشاء ؛ فالحبّ والهداية والإيمان كلها من خلق الله ، وذلك لأن الألفة والمودة والمحبة الشديدة إنما حصلت بفضل الله ومتابعة الرسول ﷺ .

﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾.

أى : لو جمعت ما فى الأرض من ذهب وفضة ، وأنفقته لتقضى على ما كان بينهم من التنازع والتخاصم والفرقة ؛ وتزرع بدلاً منه المودة والألفة والرحمة ؛ ما استطعت إلى ذلك سبيلاً بوسائلك المادية؛ ولكن الله تعالى ، أماط عنهم البغضاء والشحناء ، وزرع مكان ذلك الحب والمودة والإيثار ؛ لأنه سبحانه هو مقلب القلوب وولى تصريفها .

وكان من دعاء الرسول ﷺ : «اللَّهم يا مقلب القلوب والأبصار ، ثبت قلبى على دينك» .

فقالت عائشة : يا رسول الله ، أراك تكثر من هذا الدعاء . فقال ﷺ : «يا عائشة ، إن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمان يقلبها كيف يشاء» [٢٧] .

ومن الدعاء المأثور: «اللَّهم آت نفسى تقواها وزكِّها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها»[٢٨]

﴿إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

إنه سبحانه غالب على أمره ، لا يعجزه أمرٌ أراده حَكِيمٌ ، لا يخرج شىء عن حكمته .

وقد ذكر الزمخشرى فى تفسير الكشاف كلامًا نفيسا فى وصف حالة العرب فى الجاهلية ، وما كانوا فيه من الحميَّة والعصبية ، ثم بيان أثر هداية الإسلام فى وحدتهم وألفتهم وتعاونهم . ا هـ .

وفى الصحيحين : أن رسول الله ﷺ لما خطب الأنصار فى شأن غنائم حنين ؛ قال لهم : يا معشر الأنصار ، ألم أجدكم ضُلالاً فهداكم الله بىّ ؟ وعالة فأغناكم الله بى ؟ وكنتم متفرقين فألَّفكم الله بىّ ؟! فقالت الأنصار : نعم يا رسول الله ، ولله ولرسوله الفضل والمنَّة[٢٩] .

وذكر الحافظ أبو بكر البيهقى عن ابن عباس قال : «قرابة الرحم تقطع ، ومنه النعمة تُكْفَر ، ولم يُرَ مثل تقارب القلوب» : يقول الله تعالى : ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾.

* * *

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٤ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ۝٦٥ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ۝٦٦ ﴾

المفردات :

حرض المؤمنين : حثهم وحضهم .

لا يفقهون : لا يدركون ولا يفهمون .

التفسير:

٦٤- يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ .

أى : كافيك الله تعالى .

فالله تعالى وحده كافيك ، وكافى أتباعك فلا يحتاجون معه إلى أحد .

وهذه الآية لون من ألوان التكريم الإلهى ، لهذا النبى ولهؤلاء الرجال الكرام ، الذين آووه ونصروه ، يكفى أن يكون الله العلى القدير ، هو وليهم وناصرهم وكافيهم ، ومتولّى الدفاع عنهم ؛ إنّ هذه الآية حصن أمان لهذا النبى ولمن اتبعه من المؤمنين .

ونظير هذا قوله تعالى : أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ . (الزمر : ٣٦) .

وقوله سبحانه : فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب . (الشرح: ٧، ٨) .

وقوله عز شأنه : وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَاهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ . (التوبة: ٥٩) .

والآية لون أيضًا من ألوان صدق العقيدة ،وإخلاص التوحيد ؛ فمن كان الله كافيه وحافظه ؛ فهو فى حصن مشيد ، وأمن سعيد .

وفي تفسير القاسمي ، شرح طويل لهذه الآية .

فقد نقل عن العلامة ابن القيم في زاد المعاد وجوه إعراب الآية .

وخلاصة ذلك ما يأتي :

١- الواو عاطفة لـ مَنْ على الكاف المجرورة .

والمعنى : كافيك الله ، ومن معك من المؤمنين في تحقيق النصر ، أي : أن الله يكفيك وينصرك ، وينصر من معك من المؤمنين .

٢- مَنْ في موضع رفع عطف على اسم الله ، ويكون المعنى : حسبك الله ، وأتباعُك.

وابن القيم يرفض هذا المعنى الثاني ؛ لأن الحسب والكفاية لله وحده ؛ كالتوكل والتقوى والعبادة .

قال الله تعالى : وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ . (الأنفال: ٦٢) .

ففرّق بين الحسب والتأييد ، فجعل الحسب له وحده وجعل التأييد له بنصره وبعباده . انتهى .

قال الخفاجيّ (في العناية) : وتضعيفه الرفع لا وجه له ، فإن الفرّاء والكسائيّ رجّحاه ، وما قبله وما بعده يؤيده .

وترى فيما سبق اتجاهين للعلماء .

الاتجاه الأول :

لابن القيم وغيره من المفسرين يرون أن الله وحده هو حسب النبي وكافيه ،وقدرته لا مردّ لها .

وذهبوا إلى إضافة ٱلْمُؤْمِنِينَ إلى النبي ؛ فهي معطوف على كاف الخطاب .

بمعنى : يا أيها النبي حسبك الله ، وحسب المؤمنين .

أي : يكفي أن يكون الله ناصرًا لك وللمؤمنين .

الاتجاه الثاني :

للفراء والكسائي والخفاجي وغيرهم يقولون : عطف المؤمنين على لفظ الجلالة ليس ضعيفًا بل قويًّا؛ ونرى أن معنى الآية مرتبط بما قبلها وما بعدها ؛ وسياق الكلام يرجّح أن جملة وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ . في موضع رفع ، وهي معطوفة على اسم ٱللَّهُ . وهذا الاتجاه يؤيده قوله تعالى : هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ

وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ . ، ويضيف إلى المؤمنين شرفًا وتكريمًا ، فهم جند الله ورجاله ، الذى أيد بهم الرسول ﷺ والآية التالية بتحريض المؤمنين على القتال، بحيث إن المؤمن لا يجوز أن يفرّ من عشرة أفراد .

هو نوع لاحق من تشريف المؤمنين ورفع أقدارهم ، وأنهم بما فى قلوبهم من إيمان ؛ فى منزلة لا ينالها الكافرون والمشركون[٣٠] .

٦٥- يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ ... الآية .

يا أيها النبىّ ، رغب المؤمنين فى القتال ، وبين لهم فضله وأجره ومنزلته ، وثواب الشهداء عند الله تعالى .

وقد كان القرآن حافلاً بالحث على الجهاد وبيان فضله ، وكان المسلمون يقرءون سورة الأنفال عند الغزو ، أو كان أحدهم يقرؤها بصوتٍ مرتفع ، تحريضًا وتشجيعًا ، وبثًا لروح الحميّة والدفاع .

كما حفلت السنة المطهرة ، ببيان ثواب الشهداء وفضل الجهاد والمجاهدين .

وفى الحديث الشريف : «لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها ، ولقاب قوس أحدكم فى الجنة خير من الدنيا وما فيها»[٣١] .

وروى البخارى فى صحيحه : أن رسول الله ﷺ قال : «لولا أن أشق على أمتى ما قعدت خلف سرية ، ولوددت أن أقتل فى سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ، ثم أحيا ثم أقتل»[٣٢] .

وفى صحيح مسلم : أن رسول الله ﷺ كان يحرِّض أصحابه عند صفِّهم للقتال ، ومواجهة العدوّ، كما قال لهم يوم بدر ؛ حين أقبل المشركون فى عددهم وعُددهم : «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض» فقال عمير بن الحمام : عرضها السماوات والأرض ، بخ بخ !! ثم تقدم فقاتل حتى قتل رضى الله عنه[٣٣] .

إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ .

أى : إن يكن منكم عشرون ، صابرون ، محتسبون أجرهم عند الله ؛ يغلبوا مائتين .

وليس المراد منه الإخبار ، بل المراد الأمر : كأنه قال : فليصبروا وليجتهدوا ، وليثبتوا فى مواقعهم.

فهم بصبرهم ، وفقههم وإيمانهم ، ومعرفتهم بأسرار الحرب ، وأهدافها وغاياتها ، والإخلاص فيها؛ أهل لأن يغلبوا مائتين .

وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ . وترى أن القرآن اشترط الصبر ، وهو الثبات وتحمّل المشاق ، والالتجاء إلى الله ، وإخلاص النية ، وتصحيح العقيدة .

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ .

«أى : بسبب أنهم جهلة بالله تعالى واليوم الآخر ، لا يقاتلون احتسابًا وامتثالاً لأمر الله تعالى ، وإعلاء لكلمته ، وابتغاءً لرضوانه ، كما يفعله المؤمنون .

وإنما يقاتلون للحمية الجاهلية ، اتباع خطوات الشيطان ، وإثارة ثائرة البغى والعدوان ؛ فلا يستحقون إلا القهر والخذلان»[٣٤] .

٦٦- ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ .

أى : الآن خفف الله عنكم إيجاب ثبات الواحد لعشرة ، وقد علم أن فيكم ضعفًا فى أبدانكم أو كثرة أعبائكم ؛ أو دخول جموع من الأعراب ؛ والأتباع الذين أسلموا تبعًا لقادتهم ، ولم يستقر الإيمان كاملاً فى قلوبهم؛ فاستوجب ذلك التخفيف من الله العليم القدير .

فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ . عند اللقاء ثابتة فى محاربة الأعداء ، مطمئنة إلى نصر الله للصابرين ؛ فإنهم يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ . من الأعداء .

وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ . صابرون يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ . بالنصر والمعونة الإلهية بِإِذْنِ ٱللَّهِ . وقوته وقدرته ، وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ . بتأييده ورعايته ونصره .

وفيه تنبيه على أسباب النصر ، ومنها : الصبر والثبات ، والإعداد المادى والنفسى ، والمعرفة بحقائق الأمور ومقاصد الجهاد ، ومصاولة اليأس ، ومقاومة الشائعات والأراصف ، والبعد عن أسباب الخلاف والفرقة ، وطاعة الرحمان .

القول بالنسخ

ذهب بعض المفسرين إلى أن الآية ٦٦ ناسخة للآية السابقة عليها ، واستشهدوا بمارواه البخارى عن ابن عباس قال : لما نزلت : إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ . شق ذلك على المسلمين ، حين فرض عليهم ألا يفرّ الواحد من عشرة .

فجاء التخفيف فقال : ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ ...

وقال الجصاص فى أحكام القرآن :

لا محالة قد وقع النسخ عن المسلمين فيما كلفوا به أولا ، ولم يكن أولئك القوم قد نقصت بصائرهم، ولا قل صبرهم ، إنما خالطهم قوم لم يكن لهم مثل بصائرهم ونياتهم ، وهم المعنيون بقوله تعالى : ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ .

وذهب آخرون إلى أنه لا نسخ بين الآيتين : «فإن القول بالنسخ يقتضى أن يكون بين الآيتين - الناسخة والمنسوخة - مسافة زمنية ، بحيث يكون لتغيُّر الحكم ونسخه بحكم آخر مقتضى اقتضاه تغير الحال بامتداد الزمن ، وليس هناك دليل يدل على أن فارقًا زمنيا وقع بين نزول الآيتين .. بل ظاهر الآيتين ينبئ عن أنهما نزلتا معا فى وقت واحد ، وقد قيل : إنهما نزلتا فى غزوة بدر ، وقيل : قبل بدء القتال[٣٠].

وقد ذهب الأستاذ على حسب الله فى كتابه أصول التشريع الإسلامى إلى أنه لا نسخ بين الآيتين .

فالآية الأولى تمهيد للآية الثانية ؛ حتى يتحمل المسلمون الثبات أمام ضعف عددهم بنفس ثابتة مطمئنة.

وذلك كما يقول أستاذ لتلميذه : أنا أعرف أنك ذكى مجتهد تستطيع أن تقرأ مائة صفحة من هذا الكتاب ، ومع ذلك فإنى أطلب منك أن تقرأ عشرين صفحة بصبر وتفهم ووعى .

واختار الشيخ حسنين محمد مخلوف فى كتابه : «صفوة البيان لمعانى القرآن» :

أن الآية الثانية رخصة كالفطر للمسافر ؛ فإذا كان المسلمون فى شدة وحرج وخطر ، واقتضى الأمر ثبات الواحد لعشرة ؛ وجب أن يثبتوا .

وإذا كانوا فى سعة ويسر ؛ جاء التخفيف ، وفرض على الواحد الثبات للاثنين من الكفار ، ورخص له فى الفرار ؛ إذا كان العدو أكثر من اثنين .

والجمهور على أن الآية الثانية ناسخة للأولى .

ويرى بعض العلماء أنه يمكن العمل بالآيتين ، فالآية الأولى عند القوة والحاجة ، والآية الثانية عند السعة واليسر.

يقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب :

«وقد فعل المسلمون هذا فعلاً ، فى سيرتهم مع الإسلام ، وفى انتصارهم على أعداء تكثرهم أكثر من عشرة أضعاف . فإن كنت فى شك من هذا فاسأل التاريخ .. بكم من المسلمين فتح خالد بن الوليد مملكة فارس؟! وبكم من المسلمين فتح أبو عبيدة بن الجراح بلاد الروم ؟!

وكم كانت أعداد المسلمين الذين فتح بهم عمرو بن العاص مصر ؟! وبكم من المسلمين اقتحم طارق ابن زياد بلاد الأندلس ، واستولى على زمام الأمر فيها ؟!

وجواب التاريخ هنا شهادة قاطعة : بأن المسلم إذا استنجد بإيمانه بالله ؛ كان وحده كتيبة تغلب العشرات ، لا العشرة من جند العدوّ»[٣٦] .

من تفسير المنار

يقول السيد رشيد رضا في تفسير المنار :

«والآية تدلّ على أن من شأن المؤمنين ، أن يكونوا أعلم من الكافرين ، وأفقه منهم بكل علم وفن يتعلق بحياة البشر ، وارتقاء الأمم ، وأن حرمان الكفار من هذا العلم ؛ هو السبب في كون المائة منهم دون العشرة من المؤمنين الصابرين .

وهكذا كان المؤمنون من قرونهم الأولى ... أما الآن ، فقد أصبح المسلمون غافلين عن هذه المعاني الجليلة ؛ فزال مجدهم !».

★ ★ ★

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾

المفردات :

أسرى : جمع أسير وهو من يؤخذ في الحرب حيًا ، وتُشَدّ يده بالإسار وهو القيد .

يثخن في الأرض: أي يبالغ فيه بالقتل والجرح ؛ حتى تظهر شوكة المسلمين وقوتهم .

عرض الدنيا : حطامها – سمى عرضا ؛ لسرعة زواله .

لمسكم فيما أخذتم: أى : لأصابكم بسبب ما أخذتموه من الفدية .

خيانتك : أى : الغدر بك بنقض العهد .

فأمكن منهم : فأقدرك عليهم قتلاً وأسرًا .

التفسير:

٦٧- مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

سبب النزول :

روى أن النبى ﷺ استشار أصحابه فيما يعمله فى أسرى بدر فأشار أبو بكر بالفدية وقال: هم قومك وأهلك ؛ استبقهم لعل الله يتوب عليهم ، وخذ منهم فدية تقوى بها أصحابك ، واستشار عمر فأشار بالقتل قائلا : اضرب أعناقهم ؛ فإنهم أئمة الكفر والله أغناك عن الفداء ، مكن عليا من عقيل ، وحمزة من العباس ، ومكنى من فلان نسيب له فلنضرب أعناقهم ، وقد مال الرسول ﷺ إلى رأى أبى بكر فنزلت الآية وقد ختم الله سياق الكلام فى القتال بذكر حكم يتعلق بالأسرى .

تمهيد :

الأسير : عدو من الكفار وقع فى يد المسلمين ، والحكم فيه أن الإمام يتصرف فيه تبعًا للمصلحة العامة فيعرض عليه الإسلام فإن أسلم فبها ، وإلا قتله الإمام أو قبل الفداء منه ، أو استرقه ، أو من عليه بدون فداء . هذا إذا كان للأمة الإسلامية دولة وصولة أما فى مبدإ الأمر ، كما هنا عند قيام الدولة بالرأى ألا يبقوا على الأسرى ولا يحملوهم معهم بل يقتلوهم قتلاً ؛ إذ هم عالة عليهم وضغث على إبالة ، وإن بقى الأسير ربما تظاهر بالإسلام وكان جاسوسًا على المسلمين وفى هذا المعنى كانت الآية الكريمة .

المعنى :

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أى: ما صح له وما استقام أبدًا أى : لا ينبغى أن يكون له أسرى ثم يبقى عليهم ، ويقبل الفدية ؛ فإن فى هذا خطرًا على الدولة ، وما كان له ذلك حتى يكثر القتل فى الكفار ويبالغ فيه ؛ إذْ فى هذا إعزاز المسلمين ، وإضعاف للكفار وكسر لشوكتهم ، أتريدون بقبول الفداء والإبقاء عليهم عرضًا من أعراض الدنيا وحطامها الزائل : والله يريد لكم ثواب الآخرة ، أو يريد إعزاز دينه ، والقضاء على أعدائه ، وهذا سبب الوصول إلى ثواب الآخرة ، والله عزيز يعز أولياءه ، وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ . (المنافقون : ٨) ، حكيم فى أفعاله وأعماله فامتثلوا أمره ؛ فهو يهديكم إلى سبيل الرشاد والخير .

٦٨- لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ .

أى : لولا حكم من الله سبق إثباته فى اللوح المحفوظ ، وهو ألاَّ يعاقب المخطئ فى اجتهاده ؛ لأن المسلمين والنبى الأمين قد اجتهدوا ورجَّحوا قبول الفداء على القتل ؛ وخفى عليهم أن قتلهم أعز للإسلام ، وأهيب لمن وراءهم ، وأضعف لشوكتهم .

وقيل : إن الحكم الذى سبق هو ألا يعذب أهل بدر ؛ فهم مغفور لهم .

أو ألا يعذب قوما إلا بعد تأكيد الحجة والبيان ، والتصريح المتقدم بالنهى عن الفداء ، ولم يكن قد تقدم نهى عن ذلك .

والمعنى :

لولا هذا الحكم الإلهى السابق إبرامه – لولا هذا لأصابكم بسبب ما أخذتم من الفداء عذاب عظيم وقعه، شديد هوله ، وفى هذا تهويل لخطر ما فعلوا .

٦٩- فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

روى : أنهم أمسكوا عن الغنائم ، ولم يمدُّوا أيديهم إليها ، حتى نزلت هذه الآية .

أى : أبَحْتُ لكم الغنائم ؛ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ من الفدية ، حال كونه حَلَـٰلًا لكم ، طَيِّبًا ، أى : لذيذًا هنيئًا ؛ لا شبهة فى أكله لا ضرر .

وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ . فى كل أحوالكم بأن تخشوه وتراقبوه .

إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . فقد غفر لكم ما أخذتم من الفداء ؛ فسبحانه من إله واسع الرحمة والمغفرة لمن اتقاه ؛ وتاب إليه توبة صادقة .

٧٠- يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

روى : أنه كان من بين الأسرى العباس بن عبد المطلب وقد كلفه النبى أن يفدى ابن أخيه عقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحارث فقال : يا محمد ، تركتنى أتكفف قريشًا ما بقيت فقال له النبى ﷺ : «فأين الذهب الذى دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك من مكة ؟» وكان هذا إخبارًا بالغيب حيث لم يكن يعلم بهذا

إلا الله فقال العباس : والله ما كان عندى ريب قبل هذا ولكن الآن لا ريب ، وفى رواية : قال العباس : فأبدلنى الله خيرًا مما أخذ منى .

والمعنى :

يا أيها النبى ، قل لمن فى ملككم من الأسرى : إن يعلم الله فى قلوبكم إخلاصًا وحسن نية ؛ يؤتكم خيرًا مما أخذ منكم فى الفداء ، ويغفر لكم والله غفور ، ستار للذنوب . وقيل : المراد من الآية : أن يعرض النبى على الأسرى الإسلام ويمنيهم بالخير والمغفرة .

٧١- وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

المعنى :

وإن يريدوا خيانتك ، ونقض عهدك ؛ فاعلم أنهم قد خانوا الله من قبل ذلك ؛ بنقضهم الميثاق المأخوذ على الناس جميعا أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؛ وإذا كان كذلك فلا يهمنك أمرهم فالله أمكنك منهم وسلطك عليهم فهزمتهم، وهذا كلام مسوق ؛ لتسلية النبى ﷺ بطريق الوعد له والوعيد عليهم ، وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بكل النيات حَكِيمٌ فى فعل ما تقتضيه الحكمة البالغة .

أو هم خانوا الله فى رفضهم قبول دعوة الإسلام ، وفى محاربتهم للمؤمنين ؛ فأمكن الله منهم المسلمين فى غزوة بدر .



﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌۢ (٧٥) ﴾

المفردات :

آووا : أى : آووا المهاجرين فى المدينة وأسكنوهم .

ما لكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا : أى : ما لكم من توليهم فى الميراث وإن كانوا من أقرب أقاربكم حتى يهاجروا .

تكن فتنة فى الأرض : تحصل فتنة بظهور الشرك .

ورزق كريم : فى الجنة .

فأولئك منكم : أى : من جملتكم أيها المهاجرون والأنصار .

أولو الأرحام : أصحاب القرابات .

التفسير :

٧٢- إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلاَّ عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ .

المناسبة :

ما مضى كان فى الكلام على الكفار وأسرهم وكيفية معاملتنا لهم ، ضاربين بقرابتهم عرض الحائط مستبدلين بها قرابة الإسلام ، ولذا تكلم القرآن هنا على رابطة الإسلام .

والمعنى :

إن الذين آمنوا بالله ورسوله إيمانًا صادقًا كاملاً وهاجروا فى سبيله ، تاركين أوطانهم الحبيبة إلى نفوسهم ، وأموالهم ، كل ذلك لله ، وجاهدوا فى سبيله ، وبذلوا النفس والنفيس ؛ أولئك هم المهاجرون الذين تركوا مكة وعزهم وشرفهم ونسبهم فيها إلى يثرب التى قطنها الرسول الكريم .

إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ . المهاجرين وأنزلوهم ديارهم وشاركوهم فى أموالهم ، وَّنَصَرُوٓاْ . رسول الله ومنعوه مما يمنعون منه أزواجهم وأولادهم فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ . هؤلاء المهاجرين والأنصار بعضهم أولياء بعض يتولون أنفسهم بالرعاية والعناية والسهر على المصالح ؛ فهم جسد الأمة الإسلامية ، إذ اشتكى عضو منه ؛ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ، فرابطة الإسلام بينهم أقوى رابطة ، والإيمان هو الصلة المحكمة، وهكذا المسلمون فى كل زمان ومكان اجتمعوا على الإيمان بالله والتقوى ، وعلى محبة الرسول الأكرم ولذا يقول الله فيهم : إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ . فالإخوة فى الإسلام إذا ما كانت لله حقًا كانت هى الدعامة الوحيدة لتماسك بناء الأمة ، وقيل : المراد بالولاية هنا : الميراث ونسخت الآية بآية المواريث ، والذين آمنوا بالله ورسوله ولم يهاجروا بأن اعترضتهم عقبات لم يستطيعوا التغلب عليها ، هؤلاء ليس لكم ولاية عليهم وليس بينكم توارث وإن كانوا ذوى قربى حتى يهاجروا . هكذا كانت الهجرة فى مبدإ الإسلام .

ولكن إن استنصروكم فى الدين ، وطلبوا إليكم أن تمدوا إليهم يد المساعدة لهم على أعدائهم ، بقدر الطاقة ؛ فانصروهم ، إلا على قوم بينكم وبينهم معاهدة وميثاق ، والله بما تعملون بصير .

من أحكام الآية

١ – فضل المهاجرين الأولين ، وتضحيتهم بالنفس والمال من أجل الإسلام .

٢ – فضل الأنصار ، الذين استقبلوا المهاجرين وقاموا بحق الضيافة والنصرة .

٣ – ظاهر الآية : تقديم المهاجرين على الأنصار وتفضيلهم عليهم .

قال ابن كثير : وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء لا يختلفون فى ذلك .

٤ - تقديس الوفاء بالعهود والمواثيق فى شرعة الإسلام ؛ وإن مس ذلك مصلحة بعض المسلمين .

قال القاسمى فى تفسير الآية :

يظهر أن هذه الآية كسوابقها مما نزل إثر واقعة بدر ، وطُلب من كل من آمن من أن يهاجر ؛ ليكثر سواد المسلمين ، ويظهر اجتماعهم ، وإعانة بعضهم لبعض ، فتتقوى بألفتهم شوكتهم ، ولم يُزل طلب الهجرة إلاّ بفتح مكة ؛ لقوله ﷺ : «لا هجرة بعد الفتح»[٣٧] رواه البخارى .

٧٣- وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ .

والذين كفروا بعضهم أولياء بعض ليس لكم أن تولّوهم أو تتخذوهم أصدقاء مهما كانوا من القرابة والصلة ، إن لم تفعلوا هذا وتقوموا بهذا الأمر ؛ تحصل فتنة فى الأرض وفساد كبير ، وذلك بضعف الإسلام وكسر شوكته وظهور الكفر ، وعلو رايته ... يا سبحان الله ! أنت عالم الغيب والشهادة ، وأنت الخبير فلقد ظل الإسلام كما هو حتى اتخذ المسلمون بطانتهم من غيرهم، ووالوا أعداء الدين بحجة السياسة مرة ، أو لحاجة أخرى ، فأصبحوا ولا حول لهم ولا قوة ، وظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدينا نعم وسنظل على ذلك حتى نعود إلى الدين والقرآن ، نفعل ما يريده ونتجنب ما ينهى عنه .

وقال الدكتور محمد سيد طنطاوى : فى تفسير الآية :

إلاّ تفعلوا أيها المسلمون ما أمرتكم به من التناصر والتواصل وتولّى بعضكم بعضًا ، ومن قطع العلائق بينكم وبين الكفار ؛ تحصل فتنة كبيرة فى الأرض ، ومفسدة شديدة فيها ؛ لأنكم إذا لم تصيروا يدًا واحدة على الشرك ؛ يضعف شأنكم ، وتذهب ريحكم ، وتسفك دماؤكم ، ويتطاول أعداؤكم عليكم ، وتصيرون عاجزين عن الدفاع عن دينكم وعرضكم ، وبذلك تعمّ الفتنة وينتشر الفساد .

٧٤- وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ .

تصف الآية فريقين :

١ - المهاجرين الذين آمنوا بالله ، وهاجروا من مكة إلى المدينة فى تضحية بالغالى والنفيس من أجل مرضاة الله ، وقد جاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم .

٢ - الأنصار الذين آووا الرسول وعزروه ونصروه ، وأحسنوا استقبال المهاجرين وآثروهم على أنفسهم.

أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا .

شهد الله تعالى لهم بحقيقة الإيمان ، وصدقه وقد برهنوا على ذلك ، بصدق الهجرة للمهاجرين ، وبصدق الإيواء والنصرة للأنصار ، وبعد هذا الثناء وعدهم الله تعالى بالمغفرة وبالرزق الكريم فى الجنة ، وهو الرزق الحسن الكثير الطيب الشريف ، الدائم المستمر الذى لا ينقطع أبدًا .

وهذه الآية لتأكيد فضل المهاجرين والأنصار ، وقد أثنى الله عليهم فى غير ما آية فى كتابه الكريم .

قال الفخر الرازى :

ولا تكرار بين هذه الآية والآية السابقة ؛ فالآية السابقة لإيجاب التواصل بين المهاجرين والأنصار ، وهذه الآية لبيان تعظيم شأنهم وعلوّ درجتهم ؛ وبيانه من وجهين .

الأول : أن الإعادة تدل على مزيد الاهتمام بحالهم ، وذلك يدل على الشرف والتعظيم .

والثانى : وهو أن الله تعالى أثنى عليهم ها هنا فى ثلاثة أوجه :

أولها – قوله : أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا فقوله : أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ . يفيد الحصر ، وقوله : حَقًّا يفيد المبالغة فى وصفهم بكونهم محقين محققين فى طريق الدين وقد كانوا كذلك؛ لأن من لم يكن محقًا فى دينه، لم يتحمل ترك الأديان السالفة ، ولم يفارق الأهل والوطن ، ولم يبذل النفس والمال ، ولم يكن فى هذه الأحوال من المتسارعين المتسابقين .

وثانيها – قوله : لَّهُم مَّغْفِرَةٌ . والتنكير يدل على الكمال. أى : مغفرة تامة كاملة .

وثالثها – قوله : وَرِزْقٌ كَرِيمٌ . والمراد منه : الثواب الرفيع الشريف . انتهى .

٧٥- وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ ... الآية .

أى : من جملتكم أى : المهاجرين والأنصار ، فى استحقاق ما استحققتموه من الموالاة والمناصرة ، وكمال الإيمان ، والمغفرة ، والرزق الكريم .

وتشير الآية إلى من أسلم بعد أن قويت شوكة الإسلام ، وأصبحت له دولة وصولة .

قيل : هم أهل الهجرة الثانية التى وقعت بعد الهجرة الأولى وكانت الهجرة الثانية بعد صلح الحديبية.

وقيل : هم من آمن بعد غزوة بدر.

وقيل : هم من آمن بعد نزول هذه الآية .

فيكون الفعل ءَامَنُواْ . وما بعده بمعنى : المستقبل أى : والذين سيؤمنون من بعد ، ويشتركون معكم فى الهجرة والجهاد ؛ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ .

أى : أنهم كالمهاجرين الأولين والأنصار؛ فى الموالاة والتعاون والتناصر والفضل والجزاء . وقد مدح الله من جاء بعد المهاجرين والأنصار فقال :

وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ . (الحشر : ١٠) .

وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ .

أى : وأصحاب القرابات ، بعضهم أحق ببعض فى التوارث بالقرابة .

وبذلك النص ؛ انتهى حكم التوارث بالمؤاخاة ، والحلف والمعاهدة والتبنّى ، وثبت حكم التوارث بالقرابة.

فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ . أى : فى حكمته وقسمته ، أو فى اللوح المحفوظ ، أو فى القرآن ؛ لأن كِتَٰبِ ٱللَّهِ . يطلق على كل منها .

إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ .

تذييل قصد به وجوب العمل بما جاء فى هذه السورة ؛ فعلمه سبحانه واسع محيط بكل شىء من مصالحكم الدنيوية والأخروية ، وبكل ما شرعه فى هذه السورة من أحكام فى السلم والحرب ، والغنائم والأسرى ، والعهود والمواثيق ، والولاية العامة والخاصة بين المؤمنين ، وصلة الأرحام . ونظير ذلك قوله تعالى : وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . (الأعراف : ٥٢) .

من هدى السنة

أخرج الطيالس والطبرانى وغيرهما عن ابن عباس قال :

آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه ، وورث بعضهم من بعض ؛ حتى نزلت هذه الآية : وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ . فتركوا ذلك وتوارثوا بالنسب .

فى ختام السورة

إن سورة الأنفال تختم بهذا الفضل الإلهى الذى يسجل جهد المهاجرين والأنصار ، ويبارك أعمالهم وأعمال المؤمنين من بعدهم .

وقد حثت السورة الجميع على التناصر والتعاون والتآلف ، ورفعت من شأن رابطة الرحم ، وحثت على الجهاد فى سبيل الله وأمرت بالوفاء بالعهود ، وبالوقوف صفًا واحدًا ، فالمسلم للمسلم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا .

والحمد لله الذى بحمده تتم الصالحات وصلى اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

تم تفسير سورة الأنفال بحمد الله فى سلطنة عمان (مسقط) مساء الأحد ١٦ من ذى الحجة ١٤١٣هـ

الموافق ١٩٩٣/٦/٦ ، والحمد لله رب العالمين

★ ★ ★



تفسير سورة التوبة

دروس من سورة التوبة [٣٨]

أسماء السورة

عرفت سورة التوبة من العهد الأول للإسلام بجملة أسماء ، تدل بمجموعها على ما اشتملت عليه من المبادئ والمعانى التى تجب مراعاتها فى معاملة الطوائف كلها : مؤمنهم، ومنافقهم، وكتابيهم، ومشركهم.

وأشهر هذه الأسماء «سورة التوبة» ، وهو يشير إلى ما تضمنته السورة من تسجيل توبة الله وتمام رضوانه على المؤمنين الصادقين الذى أخلصوا فى مناصرة الدعوة ، وصدقوا فى الجهاد مع النبى ﷺ ، حتى وصل بهم إلى الغاية المرجوة ، وذلك فى قوله تعالى :

لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَاجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ * وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ . (التوبة ١٧٧ ، ١١٨).

ولا ريب أن تسجيل هذه التوبة للمؤمنين – بعد أن كابدوا الجهد والمشقات فى سبيل نصرة الحق – لمما يقوى روح الإيمان فى قلوبهم ويبعد بهم عن مزالق المخالفة أو التقصير .

وقد تخلف ثلاثة من المسلمين عن الاشتراك فى الجهاد ولم يساهموا فى أعباء جيش العسرة ؛ فأمر النبى بمقاطعتهم ومعاقبتهم . ومكثوا فترة من الزمن فى عزلة تامة . بغرض تأديبهم . وتهذيبهم ثم تاب الله عليهم وقبل توبتهم وكان ذلك درسًا تعليميًا للمسلمين ؛ حتى لا يتخلفوا عن الجهاد ، ولا يقصروا فى القيام بأعباء الدين وتعاليمه .

ومن أسماء السورة «براءة» ، وهى تشير إلى غضب الله ورسوله على من أشرك بالله وجعل له ندًا وشريكًا وإعلام الناس فى يوم الحج الأكبر .

أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ . (التوبة : ٣) .

وقد عرفت السورة بعد ذلك بأسماء أخرى فكانت تسمى : الكاشفة ، والمثيرة ، والفاضحة ، والمنكلة ، وغير ذلك مما حفلت به كتب التفسير وهى ألفاظ أطلقت عليها باعتبار ما قامت به من كشف أسرار المنافقين وإثارة أسرارهم وفضيحتهم بها وتنكيلها بهم .

ورد أن ابن عباس رضى الله عنه قال : سورة التوبة هى الفاضحة ؛ مازالت تنزل فى المنافقين وتنال منهم حتى ظننا أنها لا تبقى أحدا إلا ذكرته بقولها : ومنهم ، ومنهم ، ومنهم .

وهو يشير إلى ما جاء فى هذه السورة من أصناف المنافقين مثل :

وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ . (التوبة : ٤٩) .

وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ . (التوبة : ٥٨) .

وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ . (التوبة : ١٠١) .

أين البسملة ؟

من خصائص سورة التوبة أنه لم يذكر فى أولها : بسم الله الرحمن الرحيم ؛ لأنها تبدأ بإعلان الحرب الشاملة ، ونبذ العهود كافة ، والبسملة تحمل روح السلام والطمأنينة ؛ لذلك لم تبدأ بها سورة الحرب والقتال.

وربما كان سبب عدم وجود التسمية فى أولها ، الاشتباه فى أنها جزء من سورة الأنفال خصوصًا وأن سورة الأنفال تحكى جهاد المسلمين فى معركة بدر وسورة التوبة تصف جهاد المسلمين فى معركة تبوك ، فقصة الأنفال شبيهة بقصة سورة التوبة من ناحية الهدف العام، والتحريض على الجهاد، والتحذير من التخلف عن أمر الله ورسوله ؛ لذلك تركت سورة التوبة مع سورة الأنفال ، ووضع بينهما فاصل السورة ولم يكتب فى أول التوبة : بسم الله الرحمن الرحيم ؛ احترازًا من الصحابة أن يضيفوا أى شىء إلى رسم القرآن إلا بتوجيه من النبى ﷺ .

وروى الترمذى بإسناده : عن ابن عباس قال: قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهى من المثانى وإلى براءة وهى من المئين وقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر: بسم الله الرحمن الرحيم. ووضعتموها فى السبع الطوال – ما حملكم على ذلك ؟

فقال عثمان : كان رسول الله – ﷺ – مما يأتى عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذات العدد فكان إذا أنزل عليه الشىء ؛ دعا بعض من كان يكتب فيقول : ضعوا هذه الآية فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا، وكانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة وكانت براءة من آخر ما نزل من القرآن وكانت قصتها شبيهة بقصتها ، وخشيت أنها منها ، وقبض رسول الله ﷺ ، ولم يبين لنا أنها منها . فمن أجل ذلك قرنت بينهما، ولم أكتب بينهما سطر: بسم الله الرحمن الرحيم ، ووضعتها فى السبع الطوال .

أهداف سورة التوبة

سورة التوبة هى السورة التاسعة فى ترتيب المصحف وهى من السور المدنية وقد نزلت فى أواخر السنة التاسعة من الهجرة ، وهى السنة التى خرج فيه النبى ﷺ بالمسلمين إلى تبوك بقصد غزو الروم كما خرج أبو بكر فى أواخر سنة تسع على رأس المسلمين لحج بيت الله الحرام .

هدفان أصليان

وقد كان للسورة بحكم هذين الحادثين العظيمين فى تاريخ الدولة الإسلامية هدفان أصليان :

أحدهما : تحديد القانون الأساسى الذى تشاد عليه دولة الإسلام ، وذلك بالتصفية النهائية بين المسلمين ومشركى العرب ؛ بإلغاء معاهدتهم ، ومنعهم الحج ، وتأكيد قطع الولاية بينهم وبين المسلمين ، ويوضع الأساس فى قبول بقاء أهل الكتاب فى جزيرة العرب وإباحة التعامل معهم .

ثانيهما : إظهار ما كانت عليه نفوس أتباع النبى ﷺ حينما استنفرهم ودعاهم إلى غزو الروم ، وفى هذه الدائرة تحدثت السورة عن المتثاقلين منهم والمتخلفين والمثبطين ، وكشفت الغطاء عن فتن المنافقين وما انطوت عليه قلوبهم من أحقاد وما قاموا به من أساليب النفاق .

وقد عرضت السورة من أولها للهدف الأول ، واستغرق ذلك سبعة وثلاثين آية فى أول السورة ، وقد تضمنت هذه الآيات ما يأتى :

أولاً : تقرير البراءة من المشركين ورفع العصمة عن أنفسهم وأموالهم .

ثانيًا : منحهم هدنة مقدارها أربعة شهور .

ثالثًا : إعلان الناس جميعا يوم الحج الأكبر (وهو يوم عيد الأضحى) بهذه البراءة . .

رابعًا : إتمام مدة العهد لمن حافظ منهم على العهد .

خامسًا : بيان ما يعاملون به بعد انتهاء أمد الهدنة أو مدة العهد .

سادسا: تأمين المستجير حتى يسمع كلام الله .

سابعًا : بيان الأسباب التى أوجبت البراءة منهم وصدور الأمر بقتالهم .

ثامنًا : إزالة وساوس قد يخطر فى بعض النفوس أنها تبرر مسالمة المشركين أو الإبقاء على عهودهم.

رحمة الله بالعباد

لقد برئ الله من المشركين ومن فعالهم ؛ لأن الشرك والكفر ظلم عظيم وجحود بحق الله الخالق الرازق، الذى يستحق العبادة وحده ، لكن الله أمهل المشركين مدة أربعة أشهر ؛ لتمكينهم من النظر والتدبير لاختيار ما يرون فيه مصلحتهم من الدخول فى الإسلام أو الاستمرار على العداء .

ولعل الحكمة فى تقدير تلك المهلة بأربعة أشهر ؛ أنها هى المدة التى كانت تكفى لتحقيق ما أبيح لهم من السياحة فى الأرض والتقلب فى شبه الجزيرة على وجه يمكنهم من التشاور والأخذ والرد مع كل من يريدون أخذ رأيه فى تكوين الرأى الأخير ، قال تعالى :

بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ . (التوبة : ١، ٢) .

ومن رحمة الإسلام أيضا إباحة تأمين المشرك ، وتقرير عصمة المستأمن وقد أوجب الله على المسلمين حماية المستأمن فى نفسه وماله ما دام فى دار الإسلام وجعل لأفراد المسلمين حق إعطاء ذلك الأمان (فالمسلمون عدول يسعى بذمتهم أدناهم) .

والإسلام يبيح بهذا الأمان التبادل التجارى والصناعى والثقافى ، وسائر الشئون مالم يتصل شىء منها بضرر الدولة . وقد كان للإسلام من مشروعية الأمان وسيلة قوية ؛ لنشر دعوته وإيصال كلمة الله إلى كثير من الأقاليم النائية من غير حرب ولا قتال . قال تعالى :

وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ . (التوبة : ٦).

فالإسلام يمنح الجوار والأمان للمشرك الذى يبحث عن الحقيقة ، ويريد أن ينظر فى الإسلام نظر تأمل ودراسة ، فيسمح له بالدخول فيما بين المسلمين والتعامل معهم ، والاختلاط بهم حتى يفهم حكم الله ودعوته ، فإن اطمأن ودخل الإيمان فى قلبه ؛ التحق بالمؤمنين ، وصار فى الحكم كالتائبين ، وإن لم يشرح صدره للإسلام وأراد الرجوع إلى جماعته ؛ حرم اغتياله ووجبت المحافظة عليه حتى يصل مكان أمنه واستقراره .

وبذلك بلغ الإسلام شأوًا بعيدًا فى حماية الفكر والنظر ، وتذليل الطريق أمام الباحثين والمفكرين وحمايتهم حتى يصلوا إلى مواطن الأمان أيا كانت معتقداتهم ، وصدق الله العظيم :

لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ . (البقرة : ٢٥٦) .

غـزوة تبـوك

فى السنة التاسعة من الهجرة وصلت للرسول ﷺ أنباء تفيد : أن الروم قد جمعوا جموعهم ، واعتزموا غزو المسلمين فى بلادهم ، فأمر النبى أن يتجهز المسلمون وأن يأخذوا عدتهم ويخرجوا إلى تبوك لقتال الروم فى بلادهم قبل أن يفاجئوه فى بلده .

أعلن النبى النفير العام ، وكان ﷺ قلَّما يخرج إلى غزوة إلا ورى بغيرها ؛ مكيدة فى الحرب ، إلا ما كان من هذه الغزوة – غزوة تبوك – فقد صرح بها ؛ لبعد الشقة وشدة الزمان إذ كان ذلك الوقت فى شدة الحر حين طابت الظلال ، وأينعت الثمار وحبب إلى الناس المقام .

عندئذ وجد المنافقون فرصة سانحة للتخذيل فقالوا : لا تنفروا فى الحر ، وخوفوا الناس بعد الشقة وحذروهم شدة بأس الروم ، وكان لهذا كله أثره فى تثاقل بعض الناس عن الخروج للجهاد .

كذلك أخذ المنافقون يستأذنون فى التخلف عن الغزو معتذرين بالأعذار الكاذبة الواهنة كما دبر بعضهم المكائد للنبى ﷺ فى ثنايا الطريق .

ولم يكن بد من هذا الامتحان ؛ ليكشف الله المنافقين ، ويثبت المؤمنين الصادقين فالشدائد هى التى تكشف الحقائق وتظهر الخبايا .

وقد ظهر الإيمان الصادق من المؤمنين المخلصين ؛ فسارعوا إلى تلبية الدعوة بأموالهم وأنفسهم ، يجهزون الجيش ويعدون العدة وقد خرج أبو بكر حينئذ عن كل ما يملك ، كما قام بنصيب الأسد فى التجهيز عثمان بن عفان ، بذل الآلاف وجهز المئات من البعير والخيل ، وجهز هو وغيره الفقراء الأقوياء الذين جاءوا إلى النبى ﷺ بأنفسهم ؛ ليحملهم فقال لهم :

لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ . (التوبة : ٩٢) .

ثم يستمر سياق سورة التوبة فى الحديث عن المنافقين وما يظهر منهم من أقوال وأعمال تكشف عن نواياهم التى يحاولون سترها فلا يستطيعون ، فمنهم : من ينتقد النبى ﷺ فى توزيع الصدقات ويتهم عدالته فى التوزيع ، وهو المعصوم ذو الخلق العظيم ، ومنهم : من يقول : هو أذن يستمع لكل قائل ، ويصدق كل ما يقال ، ومنهم : من يتخفى بالقولة الفاجرة الكافرة ، حتى إذا انكشف أمره استعان بالكذب والحلف ؛ ليبرئ نفسه من تبعة ما قال ، ومنهم : من يخشى أن ينزل الله على رسوله سورة تفضح نفاقهم وتكشفهم للمسلمين.

ثم تقارن السورة بين المنافقين والمؤمنين ؛ لتبين الفرق الواضح بين صفات المنافقين، وصفات المؤمنين الصادقين ، الذين يخلصون العقيدة ولا ينافقون ، فقد خرج المؤمنون للجهاد مع رسول الله ﷺ وقطعوا مسافة طويلة فى الصحراء الجرداء تقدر بنحو ٦٩٢ كيلو مترا ، وكان المؤمنون يتدافعون إلى الجهاد ويشتاقون إلى الشهادة . ولما أحس الروم بقدوم المسلمين انسحبوا من أطراف بلادهم إلى داخلها ، فلما وصل المسلمون إلى تبوك لم يجدوا للروم أثرا وقد عقد النبى ﷺ معاهدات مع أمراء الحدود وعاد إلى المدينة مرهوب الجانب محفوظًا بعناية الله .

وقد استقبل النبى ﷺ المتخلفين عن الجهاد فى غزوة تبوك ، فمنهم: أصحاب الأعذار الحقيقية ؛ وهؤلاء معذورون معفون من التبعة ، ومنهم : القادرون الذين قعدوا بدون عذر ؛ فعليهم تبعة التخلف ووزر النكوص عن الجهاد .

ثم تمضى سورة التوبة فتتحدث عن الأعراب فتذكر طبيعتهم وصنوفهم وموقفهم من الإيمان والنفاق.

ثم تقسم الجماعة الإسلامية كلها عند غزوة تبوك وبعدها ، إلى طبقاتها ودرجاتها وفق مقياس الإيمان والأعمال .

فهناك : السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان .

وهناك : المنافقون الذين تمرسوا بالنفاق وتعودوا عليه سواء كانوا من الأعراب أو من أهل المدينة .

وهناك : الذين خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا واعترفوا بذنوبهم .

وهناك : الذين أخطئوا وأمرهم متروك لله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم .

وهناك : فئة أخلصت لله فى الإيمان ، وتخلفت من غير عذر ثم ندمت ندمًا عميقًا ، وضاقت الدنيا فى وجهها ، ولجأت إلى الله تطلب مغفرته ورحمته ، فتاب الله عليهم وألهمهم طريق التوبة والسداد ؛ إن الله هو التواب الرحيم .

علاقات المسلمين بغيرهم

سورة التوبة هى آخر سور القرآن نزولاً ، وفى هذه السورة نجد القول الفصل فى علاقات الأمة المسلمة بالمشركين وبأهل الكتاب وبالمنافقين وهذا هو موضوعها الذى تدور حوله .

لقد كانت بين المسلمين وبعض المشركين عهود ولم يكن المشركون يحافظون على عهودهم إلا ريثما تلوح لهم فرصة ، يحسبونها مواتية للكرة على المسلمين ، وكان المشركون – حتى بعد فتح مكة – يطوفون بالبيت عرايا ، على عادتهم فى الجاهلية ، ويصفقون ويصفرون مخلين بكرامة البيت العتيق ، فلم يكن بد أن تخلص الجزيرة العربية للإسلام ، وأن تتخلص من الشرك .

والجهاد هو الوسيلة لتطهير الجزيرة من رجس المشركين والمنافقين ، ومن ثم تناولت السورة موضوع الجهاد بالنفس ، والمال ، وبينت شرفه وأجره ، وأنحت على المتخلفين القاعدين ، واستجاشت وجدان المسلمين إلى قتال الكفار المنافقين بما صورت من كيدهم للمسلمين وحقدهم عليهم ، وتمنى الشر لهم ، وما تحمله لهم نفوسهم من الخصومة والبغضاء ، وما وقع منهم للرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين ، وبذلك كانت سورة التوبة تحمل القول الفصل فى علاقات المسلمين بغيرهم وتحدد موقفهم الحاسم الأخير.

وقد لونت السورة أساليب الدعوة إلى الجهاد ، فحينًا تنكر على المؤمنين تثاقلهم وإخلادهم إلى الأرض، وحينا آخر تهتم بتطهير الجيش من عناصر الفتنة والخذلان ، ومرة أخرى توضح أن سنة الله ماضية لا تتخلف ، وأن من قوانين الحق سبحانه ، أن البقاء والعزة والسلطان إنما يكون للعاملين المجاهدين ، أما المتباطئون والمتثاقلون الذين يؤثرون حياتهم ويضنون بأنفسهم وأموالهم ويخلدون إلى الأرض ، ويعرضون عن دعوة الجهاد فى سبيل حريتهم وبقائهم ، فإنهم ولابد ذاهبون ، وهم لا محالة مستذلون مستعبدون .

فضل الرسول الأمين

تعرضت سورة التوبة لبيان فضل رسول الله ﷺ ومكانته السامية ومناقبه الكريمة ، فذكرت أن الله أنزل السكينة عليه وأيده بجنود من الملائكة فى يوم حنين حين انهزم المؤمنون وولوا مدبرين .

ومن كرامة الرسول ﷺ أن الله نصره عند الهجرة مع صاحبه الصديق ، وكان الله معهما بتأييده وإنزاله الطمأنينة والأمان عليهما وحفظهما فى الغار حتى عميت عنهما عيون الكفار ، وجعل الله كلمة المؤمنين فى ارتفاع وانتصار ، وشأن الكافرين فى هزيمة واندحار ، وقد أوجبت سورة التوبة على المؤمنين عدة واجبات تجاه نبيهم منها :

١ – وجوب محبته ﷺ والتزام هديه والعمل بسنته كما نجد ذلك فى الآية ٢٥ .

٢ – تحرى مرضاته ؛ لأن رضاه من رضى الله سبحانه ، ونجد ذلك فى الآية ٦٢.

٣ – وجوب طاعته والنصح له ووجوب نصره .

٤ – تحريم إيذائه وتحريم معاداته وتحريم القعود عن الخروج معه فى الجهاد .

وتختم السورة آياتها بذكر صفات رسول الله ﷺ فهو الرحمة المهداة ؛ لتطهير المؤمنين وتزكيتهم وتعليمهم ، والدعاء لهم ، فحبه فريضة ، وبغضه كفر وحرمان وقد تكفل الله بنصر رسوله حتى ولو تخلى عنه جميع الناس ، فإن معه الله القوى القدير.

قال تعالى : ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ * فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ . (التوبة : ١٢٨، ١٢٩).

أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم

﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ ﴾

المفردات :

براءة من الله ورسوله : المراد من البراءة : قطع العهد بين الرسول ﷺ وبين الناكثين للعهد من المشركين .

عاهدتم : عاقدتم .

فسيحوا فى الأرض : فسيروا فيها أحرارا .

غير معجزى الله : أى : غير مفلتين من انتقامه .

مخزى الكافرين : مذلُّهم فى الدنيا والآخرة .

وأذان : الأذان : الإعلام بأمر مهم ، وشاع إطلاق الأذان على النداء للصلاة .

يوم الحج الأكبر : المراد به : يوم عيد النحر وقيل : يوم عرفة .

وبشر الذين كفروا بعذاب أليم : أى : وأنذرهم بعذابه فإن التبشير كما يستعمل كثيرا فى الإخبار بما يسر ، يستعمل قليلا فى الإخبار بما يسوء ، لغرض الإهانة والتحقير .

ولم يظاهروا عليكم : أى : ولم يعينوا عليكم .

التفسير:

١- ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ .

قال الفخر الرازى : روى أن النبى ﷺ لما خرج إلى غزوة تبوك وتخلف المنافقون ، وأرجفوا الأراجيف، جعل المشركون ينقضون العهد ، فنبذ رسول الله ﷺ العهد إليهم .

وتفيد كتب التفسير والسير :

أن النبى ﷺ أرسل أبا بكر رضى الله عنه أميرًا على الحج فى السنة التاسعة للهجرة ، فلما سافر نزلت سورة براءة ، متضمنة نقض عهود المشركين ، فأرسل النبى ﷺ علىّ بن أبى طالب ، على ناقة رسول الله ﷺ العضباء حتى أدرك أبا بكر بالطريق ، فلما رآه أبو بكر قال : أمير أو مأمور ؟ قال : بل مأمور ، ثم مضيا، فأقام أبو بكر للناس الحج ، والعرب إذْ ذاك فى تلك السنة على منازلهم من الحج التى كانوا عليها فى الجاهلية ، حتى إذا كان يوم النحر؛ قام على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فقرأ عليهم آيات من أول سورة براءة ، ثم قال – فيما رواه الترمذى والنسائى وأحمد – بعثت بأربع : ألاَّ يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين النبى ﷺ عهد فهو إلى مدته ، ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر ، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يجتمع المسلمون والمشركون فى الحج بعد عامهم هذا [٣٩] .

ومعنى الآية :

هذه براءة واصلة من الله ورسوله ، إلى الذين عاهدتم من المشركين ، بسبب نقضهم لعهودهم ، وإصرارهم على باطلهم[٤٠] .

قال الشوكانى :

المعنى : الإخبار للمسلمين ، بأن الله ورسوله قد برئا من تلك المعاهدات ، بسبب ما وقع من الكفار من النقض ، فصار النبذ إليهم بعهدهم ، واجبًا على المعاهدين من المسلمين .

٢- ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ .

أى : فسيروا فى الأرض آمنين على أنفسكم من قتال المسلمين منذ أربعة أشهر ، لا تتعرضون للإيذاء فيها ، ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ﴾ . أى : واعلموا أن هذا الإمهال ليس لعجز ، ولكن لمصلحة ؛ ليتوب من أراد التوبة ولتكون لديهم فرصة للاستعداد للقتال ، إذا أصروا على شركهم وعداوتهم ، وهذا منتهى التسامح. والإنذار حكمته ألاَّ يتهم المسلمون بأخذهم الأعداء فجأة على غرة .

وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَافِرِينَ . فى الدنيا بالهزيمة ، وفى الآخرة بسوء العذاب ، وقد علم من الآية الكريمة أن الناكثين لعهودهم ، يمهلون أربعة أشهر ، سواء أكانت مدتهم كذلك أم أقل منها أم أكثر ، وابتداء هذا الأجل من يوم الحج الأكبر ، أى : من العاشر من ذى الحجة ، إلى العاشر من ربيع الآخر سنة عشر للهجرة .

ويتصل بهذه الآية ما يأتى :

١ - عقد المعاهدات إنما هو حق للجماعة يوافق عليه أصحاب الرأى والاختصاص ، ثم يباشرها الإمام بعد ذلك نيابة عن الجماعة .

٢ - متى رأى الإمام مصلحة الأمة فى نبذ العهود لمن كان بيننا وبينه عهد جاز له ذلك ، كأن خيف منهم خيانة ، أو نقضوا شيئًا من شروط المعاهدة ، أو وضعت المعاهدة على غير شرط احترامها الشرعى .

قال تعالى : وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ . (الأنفال : ٥٨) .

٣ - الحكمة فى تقدير هذه المهلة بأربعة أشهر ما يأتى :

هذه هى المدة التى كانت تكفى - إذ ذاك بحسب ما يألفون - لتحقيق ما أُبيح لهم من السياحة فى الأرض ، والتقلب فى شبه الجزيرة على وجه يمكنهم من التشاور ، والأخذ والرد مع كل من يريدون أخذ رأيه فى تكوين الرأى الأخير وفيه فوق ذلك مسايرة للوضع الإلهى ، فى جعل الأشهر الحرم من شهور السنة أربعة.

على أنا نجد القرآن جعل الأربعة الأشهر أمدًا فى غير هذا ، فمدة إيلاء الرجل من زوجته أربعة أشهر ، وعدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر ، ولعل ذلك ؛ لأنها المدة التى تكفى بحسب طبيعة الإنسان ، لتقليب وجوه النظر فيما يحتاج إلى النظر ، وتبدل الأحوال على وجه تستقر فيه إلى ما يقصد فيه ويؤخذ من تقرير الهدنة للأعداء فى هذا المقام ، تقرر مبدإ الهدنة والصلح فى الإسلام ، طلبها العدوّ أم تقدم بها المسلمون[٤١]، وأصل ذلك مع هدنة المشركين قوله تعالى : وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ... (الأنفال : ٦١) .

وأن مدتها تكون على حسب ما يرى الإمام ، وأرباب الشورى المقررة فى قوله تعالى : وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ. (آل عمران : ١٥٩) .

ونلاحظ أن مدة الهدنة فى صلح الحديبية كانت عشر سنين ، ومدتها هنا كانت أربعة أشهر ، وذهب الجمل فى حاشيته على تفسير الجلالين : أن المقرر فى الفروع أنه إذا كان بالمسلمين ضعف ؛ فقد جاز عقد الهدنة عشر سنين فأقل ، وإذا لم يكن بهم ضعف ؛ لم تجز الزيادة على أربعة أشهر[٤٢] . ا هـ.

والأولى أن نقول: إن تقدير مدة الهدنة بين المسلمين وأعدائهم يترك تحديده إلى أهل الحل والعقد ، بما يتفق مع المصلحة العامة ؛ لأن هذا من الأمور المتغيرة بحسب الزمان والمكان ، خصوصًا بعد التطور المستمر فى وسائل الحرب وعدتها وطبيعتها .

٣- وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ...

أى : وإعلان وإيذان من الله ورسوله إلى الناس عامة ، يوم الحج الأكبر – وهو يوم عيد النحر – حيث تجتمع الخلائق فى أكبر تجمع لهم ، بأن الله ورسوله قد برئا من عهود المشركين ، وأن هذه العهود قد نبذت إليهم ، بسبب إصرارهم على شركهم ونقضهم لمواثيقهم ، وأسند سبحانه الأذان إلى الله ورسوله ، كما سندت البراءة إليهما؛ إعلاء لشأن ذلك، وتأكيدًا لأمره ولا تكرار بين ما جاء فى هذه الآية ، وما جاء فى الآية الأولى؛ فإن الأولى فيها إخبار بثبوت البراءة من الناكثين لعهدهم ، وأما هذه ففيها إعلام جميع الناس بذلك .

قال الزمخشرى :

فإن قلتَ : أى فرق بين معنى الجملة الأولى والثانية .

قلتُ : فى تلك إخبار بثبوت البراءة ، وهذه إخبار بوجوب الإعلام بما ثبت . ا هـ .

وذهب بعض العلماء إلى أن يوم الحج الأكبر هو يوم عرفة وقيل : جميع أيام الحج ، ورجح الإمام ابن جرير الطبرى وغيره ، أن يوم الحج الكبر هو يوم النحر ، «ويوم عرفة مقدمة ليوم النحر بين يديه ؛ فإن فيه يكون الوقوف والتضرع ، ثم يوم النحر تكون الوفادة والزيارة .. ويكون فيه ذبح القرابين وحلق الرءوس، ورمى الجمار ، ومعظم أفعال الحج»[٤٣] .

«وقد ثبت فى الصحيحين أن أبابكر وعليًا أذنا بذلك يوم النحر لا يوم عرفه ، وفى سنن أبى داود بأصح إسناد أن رسول الله ﷺ قال : «يوم الحج الأكبر يوم النحر» ، وكذا قال أبو هريرة وجماعة من الصحابة»[٤٤] .

وقد ساق ابن كثير طائفة من الأحاديث الشريفة تفيد : أن عليا كان ينادى بأربع :

١ – لا يطوف بالبيت عريان .

٢ – لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة .

٣ – لا يحج بعد عامنا هذا مشرك .

٤ – من كان له عهد عند رسول الله ﷺ فعهده إلى مدته .

فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ .

أى : فإن رجعتم خلال هذه المهلة عما أنتم فيه من الشرك وسائر المعاصى ، فرجوعكم هذا أنفع لكم فى دنياكم وأخراكم ...

أى : وإن أعرضتم عن الإيمان ، وأبيتم إلا الإقامة على باطلكم. فَاعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ . أى : فأيقنوا أنكم لا مهرب لكم من عقاب الله ، ولا إفلات لكم من أخذه وبطشه ؛ لأنكم أينما كنتم فأنتم فى قبضته، وتحت قدرته .

وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . أى : وبشر أيها الرسول من أنكر رسالتك ، ولم يؤمن بالله وملائكته ، بعذاب مؤلم شديد الألم فى الآخرة ، والتعبير بالتبشير عن الإنذار ؛ لغرض التهكم والسخرية ، بمن يتولى ويعرض عن الإيمان بالرسول ﷺ ، مع وضوح الحق فى جانبه .

٤- إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَـٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا ... الآية .

أمر الله تعالى فى الآيات السابقة أن ينبذ المسلمون عهود المشركين ، وجاءت هذه الآية ؛ لتبين أن هذا النبذ ليس عامًّا ، بل هو خاص بأولئك الذين تلاعبوا بعهودهم ، وظاهروا على المسلمين .

والمعنى :

ولا تمهلوا الناكثين لعهودهم فوق أربعة أشهر ، لكن المعاهدين الذين عاهدتموهم ، ثم لم ينقصوكم شيئًا من شروط العهد ، ولم يعاونوا عليكم عدوًّا ، كبنى ضمرة وبنى كنانة ؛ فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ . أى: أدوا إليهم عهدهم تامًّا غير ناقص ، إلى المدة التى عاهدتموهم إليها ، وإن كانت أكثر من أربعة أشهر ، إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ . أى : الموفين بعهدهم ، وفيه تنبيه على أن الوفاء بالعهد إلى نهايته ، مع الموفين بعهدهم، من تقوى الله ، التى يحبها لعباده ، ويحبهم بسببها .

جاء فى تفسير المنار :

والآية تدل على أن الوفاء بالعهد ، من فرائض الإسلام ، مادام العهد معقودًا ، وعلى أن العهد المؤقت لا يجوز نقضه إلا بانتهاء وقته ، وأن شروط وجوب الوفاء به علينا ، محافظة العدو المعاهد لنا عليه بحذافيره ، فإن نقض شيئًا من شروط العهد ، وأخلّ بغرض مّا من أغراضها ؛ عُدّ ناقضًا ؛ لقوله تعالى : ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا .

ولفظ شيء أعم الألفاظ ، وهو نكرة في سياق النفي ، فيصدق بأدنى إخلال بالعهد ، ومن هذا الإخلال مظاهرة عدونا أي : مساعدته ومعاونته ؛ لأن الغرض الأول من المعاهدات ترك قتال كلاً من الفريقين المتعاهدين للآخر ، فمظاهرة أحدهما لعدو الآخر ومساعدته ، كمباشرته للقتال بنفسه .

دلالة الآيات :

تدل الآيات السابقة على ما يلي :-

١ – نقض معاهدات المشركين المطلقة غير المؤقتة بزمن ؛ لأنهم نكثوا العهد ، وأخلوا بشروط التعاهد .

٢ – من كان له عهد دون أربعة أشهر تكمل له مدة أربعة أشهر .

٣ – مدة الأمان أربعة أشهر من يوم النحر (عاشر ذي الحجة) إلى العاشر من شهر ربيع الآخر سنة عشر.

٤ – من كان له عهد مؤقت ، فيبقى على عهده إلى انتهاء مدته ، مهما كان مالم ينقض العهد ، أو يخل بشرط من شروطه .

٥ – الإسلام يقدس العهود ، ويوجب الوفاء بها ، ويجعل احترامها نابعًا من الإيمان ، وملازمًا لتقوى الله .

٦ – إن افتتاح السورة بالبراءة وبدون بسملة ، يدخل في النفس الرهبة الشديدة والخوف الأشدّ .

★ ★ ★

﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾

المفردات :

انسلخ : انقضى .

وخذوهم : وأسروهم ، والأخيذ : الأسير.

واحصروهم : وضيقوا عليهم وامنعوهم من الإفلات .

واقعدوا لهم كل مرصد : وراقبوهم في كل مكان يرى فيه تحركهم ؛ حتى تمنعوهم من التجمع ضدكم ، أو الفكاك منكم .

فخلوا سبيلهم : أي : فاتركوهم أحرارًا .

استجارك : أى : سأل جوارك ؛ ليكون فى حماك وأمنك .

فأجره : أى : فأمنه .

التفسير:

٥- فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ ... الآية .

المراد بالأشهر الحرم : الأشهر الأربعة ، التى أبيح فيها للمشركين الناكثين لعهد الرسول ﷺ ، أن يسيحوا فى الأرض آمنين ، وجعلت حرمًا ؛ لأن الله حرم قتالهم فيها .

وهذه الأشهر تبدأ من يوم النحر إلى العاشر من ربيع الآخر ، أما الأشهر الحرم التى قال فيها القرآن : إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٌ . (التوبه : ٣٦) فهى ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب .

والمعنى : فإذا انقضت الأشهر الأربعة ، التى حرم فيها قتال المشركين الناكثين لعهودهم – لعلهم يثوبون فيها إلى رشدهم – فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم فى حل أو حرم ؛ لإصرارهم على الخيانة والشرك .

وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖ .

وَأسروهم ، فإن الأخيذ هو الأسير .

وَٱحۡصُرُوهُمۡ . الحصر : منعهم من التصرف فى بلاد المسلمين إلا بإذن منهم .

وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖ . المرصد : الموضع الذى يرقب فيه العدو ، أى : اقعدوا لهم فى المواضع التى ترتقبونهم فيها .

وترى أن هذه الوسائل الأربعة – القتل ، والأسر ، والمحاصرة ، والمراقبة – هى الوسائل الكفيلة بالقضاء على الأعداء ، ولا يخلو عصر من العصور ، من استعمال بعضها أو كلها عند المهاجمة .

وهكذا نرى تعاليم الإسلام ، تحض المسلمين على استعمال كل الوسائل المشروعة ؛ لكيد أعدائهم ، والعمل على هزيمتهم ، ويستثنى من ذلك النساء ، والرهبان ، والشيوخ ، والصبيان ، والضعفاء ؛ فهؤلاء لا يتعرض لهم بقتل ولا تضييق ، إلا إذا عاونوا أولئك الناكثين .

فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

استخدمت الآية كل الوسائل المشروعة فى الترهيب والترغيب ؛ فقد أمرت المسلمين بأن يستعملوا مع أعدائهم كل الوسائل المشروعة لإرهابهم ، فإذا رجع المشركون عن الشرك ، فأسلموا وأقاموا الصلاة بشروطها فى أوقاتها ، وأدوا الزكاة لمستحقيها ، برهانا على صدق إيمانهم ؛ فخلوا سبيلهم ولا تتعرضوا لهم بشىء مما تقدم ، إن الله عظيم الغفران والرحمة ، فلهذا يقبل توبتهم من الغدر والكفر .

وقد استند أبو بكر رضى الله عنه ، إلى هذه الآية فى قتال مانع الزكاة ، حيث قال : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ؛ فإن الزكاة حق المال .

وقد روى الشيخان : أن رسول الله ﷺ قال : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدو ألا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة»[٤٥] .

والمراد بالآية : اقتلوا المشركين الذين يحاربونكم [٤٦] .

وفى الحديث المتواتر : الذى رواه الشيخان وغيرهما عن ابن عمر رضى الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال:

«أمرت أن أقاتل الناس – أى : مشركى العرب بالإجماع – حتى يشهدوا ألا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك ؛ عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله»[٤٧] .

وجاء فى أحكام القرآن للجصاص ٣/٨١:

قوله تعالى : فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ .

خاص فى مشركى العرب دون غيرهم .

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : أبى الله أن يقبل الصلاة إلا بالزكاة ثم قال : يرحم الله أبا بكر ما كان أفقهه ! [٤٨] .

٦– وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ...

المعنى : وإن طلب أحد من المشركين أن يكون فى جوارك ، وفى أمانك وحمايتك ، بعد انقضاء مدة الأمان المحددة له فَأَجِرْهُ أى : فأمنه وأجبه إلى طلبه .

حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ ٱللَّهِ. أى : لكى يسمع كلام الله ويتدبره ، ويطلع على حقيقة ما يدعو إليه ، من تعاليم مقنعة للعقول السليمة ، ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ . ثم أبلغه مكان أمنه إن لم يسلم ، أى : عليك يا محمد أن تجيره حتى يسمع كلام الله ويتدبره ، ولا يبقى له عذر فى الإصرار على شركه ، فإن آمن صار من أتباعك ، وإن بقى على شركه ، وأراد الرجوع إلى جماعته ؛ فعليك أن تحافظ عليه ؛ حتى يصل إلى مكان أمنه واستقراره ، وهو ديار قومه ، ثم بعد ذلك يصبح حكمه كحكم المصرِّين على الشرك ، ويعامل بما يعاملون به .

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ .

أى : ذلك الذى أمرناك به من إجارة المستجير من المشركين ، وإبلاغه مأمنه إذا لم يسلم ، بسبب أنهم لا يعلمون الإسلام ، ولا حقيقة ما تدعوهم إليه ، فلابد من تمكينهم من ذلك ، ببذل الأمان لهم ؛ حتى يزول عذرهم ، وتقوم لك الحجة عليهم .

ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من الآية ما يأتى : –

١ – أن المستأمن لا يؤذى ، بل يجب على المسلمين حمايته فى نفسه وماله وعرضه ؛ مادام فى دار الإسلام، وقد حذر الإسلام أتباعه من الغدر أشد تحذير ، ومن ذلك ؛ مارواه البخارى والنسائى عن النبى ﷺ أنه قال : «من أمَّن رجلاً على دمه فقتله ؛ فأنا برىء من القاتل ، وإن كان المقتول كافرًا» [٤٩] .

وروى الشيخان وأحمد : عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : «لكل غادر لواء ، يعرف به يوم القيامة»[٥٠].

٢ – يلحق بالمستجير الطالب لسماع كلام الله ، من كان طالبًا لسماع الأدلة على كون الإسلام حقًّا، ومن كان طالبًا للجواب عن الشبهات ، التى أثارها أعداء الإسلام .

٣ – على الإمام أو من يقوم مقامه أن يعطى المستأمن المهلة التى يراها كافية لفهمه حقائق الإسلام ، وأن يبلغه مأمنه بعد انقضاء حاجته ، وأن لا يمكنه من الإقامة فى دار الإسلام ، إلا بمقدار قضاء حاجته.

٤ – أخذ العلماء من هذه الآية وجوب التفقه فى الدين ، وأنه لابد من النظر والاستدلال وأنه لابد من الحجة والدليل .

★ ★ ★

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾

المفردات :

فما استقاموا لكم : فما وفوا بعهدهم لكم

يظهروا عليكم : يغلبوكم

لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة : لا يراعوا فيكم قرابة ولا عهدا .

التفسير :

٧ - كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ... الآية

أي : محال أن يثبت لهؤلاء عهد وهم أضداد لكم، مضمرون للغدر، ينتهزون الفرص؛ لينقضوا عهودكم.

إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ .

أي : ولكن الذين عاهدتم عند المسجد الحرام - أي : قرب المسجد الحرام - وهم بنو مدلج ، وبنو ضمرة من قبائل بني بكر ، وكانوا قد وفوا بعهودهم مع المسلمين .

فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ . فأي وقت استقام أولئك المشركون ، الذين عاهدتموهم عند المسجد الحرام ، وكانوا أوفياء بمعاهدتهم ؛ فاستقيموا لهم ، بإتمام عهدهم إلى مدتهم ؛ فإن هذا من التقوى ، والله يحب المتقين .

٨ - كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً .

في تكرار الاستفهام بكيف، تكرار وتأكيد لاستبعاد ثباتهم على العهد، وحذف الفعل؛ لكونه معلومًا، أي : كيف يكون لهم عهد .

والمعنى : كيف يكون للمشركين عهد معتد به ، ومراعاة لأحكامه عند الله وعند رسوله ، والحال أنهم إن يظهروا عليكم أيها المؤمنون ، ويظفروا بكم ويغلبوكم .

لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ . لا يراعوا فى شأنكم .

إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً . أى : قرابة ولا عهدًا .

قال ابن جرير الطبرى بعد أن ساق أقوالا فى معنى الإلّ : وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب أن يقال : والإلّ : اسم يشتمل على معان ثلاثة وهى : العهد والعقد ، والحلف ، والقرابة ...

وإذا كانت الكلمة تشمل هذه المعانى الثلاثة ، ولم يكن الله خص من ذلك معنى دون معنى ، فالصواب أن يعم ذلك معانيها الثلاثة .

وقال الدكتور/ محمد سيد طنطاوى ، فى تفسير الآية :

والمعنى : بأية صفة أو بأية كيفية يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ، والحال المعهود منهم، أنهم إن يظفروا بكم ويغلبوكم ، لا يراعوا فى أمركم لا عهدًا ولا حلفًا ولا قرابة ، ولا حقًّا من الحقوق . ا هـ

وجاء فى التفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر :

فإذا كانوا لا يرعون عهودهم وقرابتهم معكم ، فكيف تحافظون على عهود ضيعوها ونكثوها ، وشرط وجوب مراعاة حقوق العهد ، أن تكون محترمة من المُتعاقدين ، فإن ضيعها أحدهما ؛ حل للآخر معاملته بالمثل .

يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ .

أى : يقولون بألسنتهم ، ما فيه مجاملة ومحاسبة لكم ؛ طلبًا لمرضاتكم ، وتطييب قلوبكم ، وقلوبهم تأبى ذلك وتخالفه ، وتودّ ما فيه مساءتكم ومضرتكم .

قال الزمخشرى :

وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ . متمردون خلعاء ، لا مروءة تمنعهم ، ولا شمائل مرضية . تردعهم . ا هـ .

وتخصيص الأكثر بوصف الفسق والغدر ، لما فى بعض الكفرة من البعد عن الغدر ، والتعفف عما يؤدى إلى سوء الأحدوثة ، وقبح السيرة .

قال الدكتور محمد سيد طنطاوى :

وبذلك نرى أن الآية الكريمة قد وصفت هؤلاء المشركين ، وصفًا فى نهاية الذم والقبح ؛ لأنهم إن كانوا أقوياء فجروا ، وأسرفوا فى الإيذاء ، نابذين كل عهد وقرابة وعرف ...

أما إذا شعروا بالضعف فإنهم يقدمون للمؤمنين الكلام اللين ، الذى تنطق به ألسنتهم ، وتأباه قلوبهم الحاقدة الغادرة . أى : أن الغدر ملازم لم فى حال قوتهم وضعفهم ؛ لأنهم فى حالة قوتهم لا يرقبون فى مؤمن إلاً ولا ذمة وفى حالة ضعفهم يخادعون ويداهنون حتى تحين لهم الفرصة للانقضاض على المؤمنين [٥١] .

★ ★ ★

﴿ ٱشْتَرَوْاْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

المفردات :

اشتروا بآيات الله : استبدلوا بالقرآن .

فصدوا عن سبيله : فأعرضوا عن دينه الموصل إليه .

التفسير:

٩ - ٱشْتَرَوْاْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ... الآية

استبدل المشركون بالقرآن الذى هو أعظم آيات الله التنزيلية - استبدلوا به شيئًا حقيرًا من حطام الدنيا ؛ هو اتباع أهوائهم وشهواتهم .

فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ .

أى : أعرضوا عن سبيل الحق وعدلوا عنه ، أو صرفوا غيرهم عنه وقيل : هم الأعراب الذين جمعهم أبو سفيان وأطعمهم .

إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ .

أى : إنهم بئس الذى كانوا يعملون ، من إعْراضهم عن الحق ، وإقبالهم على الباطل .

١٠ – لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ...

لا يراعى المشركون فى مؤمن قرابة ولا عهدًا فى أى حال ؛ فقلوبهم مفعمة بكراهيتهم ، وهذه الآية توكيد لما جاء فى الآية السابقة بأن الغدر فى طبيعتهم فى جميع الأحوال .

وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ.

قال الشوكانى : أى : المجاوزون الحلال إلى الحرام بنقض العهد . أو البالغون فى الشر والتمرد إلى الغاية القصوى .

★ ★ ★

﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ ﴾

التفسير:

١١ – فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ... الآية

يفتح الإسلام صَدْره لكل راغب ؛ بشرط صدق التوبة ، وأداء شعائر الإسلام .

والمعنى : إن تابوا عن شركهم بالله ، وآمنوا بالله ربًّا واحدًا لا شريك له ، وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ . أى : أدوها بشروطها وأركانها ، باعتبارها عماد الدين .

وَآتَوُا الزَّكَاةَ . على الوجه الذى أمر الله به ، فهم فى هذه الحالة إخوانكم فى الدين ، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم ، وهذه الأخوة تجبُّ ما قبلها من عداوات .

وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

وتبين الآيات المتعلقة بأحوال المشركين من الناكثين وغيرهم ، الموضحة لأحكامهم حالتى الكفر ، والإيمان ، نبيِّنها لقوم يعلمون ، ويفهمون ما فيها من الأحكام ، فيطبقونها عند مقتضياتها .

★ ★ ★

﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

التفسير :

١٢– وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ ... الآية

أى : إن نقض هؤلاء المشركون ما أبرم معهم من عهود ، وطعنوا فى دينكم ، أى : عابوا القرآن والنبى ﷺ ، واستهزءوا بالمؤمنين كما كان يفعل شعراؤهم ، وزعماء الكفر فيهم ؛ فهم أئمة الكفر وقادته ورؤساؤه، فقاتلوهم قتالاً عنيفًا ؛ إنهم لا عهود لهم ولا ذمة ؛ لأنهم لما لم يفوا بها ؛ صارت كأن لم تكن ، وذلك لتكون المقاتلة سببًا فى انتهائهم ورجوعهم ، عما هم فيه من الكفر والعناد والضلال ، وهذا من غاية كرم الله وفضله على الإنسان فقوله : لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ . أى : عن كفرهم وباطلهم وإيذائهم المسلمين .

وفيه دليل على أن الذمى إذا طعن فى الإسلام ؛ فقد نكث عهده ، وعلى أن القتال ليس بقصد المنافع الدنيوية أو الغنائم أو إظهار الاستعلاء ، وحب السيطرة ، وإرادة الانتقام ، وإنما هو من أجل التمكين من قبول دعوة الإسلام ، وما الحرب إلا ضرورة يقتصر فيها على قدر الضرورة .

قال ابن كثير : والصحيح أن الآية عامة، وإن كان سبب نزولها مشركى قريش فهى عامة لهم ولغيرهم.

قتل من طعن فى الدين

استدل بعض العلماء بهذه الآية ، على وجوب قتل كل من طعن فى الدين ؛ إذ هو كافر ، والطعن أن ينسب إليه مالا يليق ، أو يعترض بالاستخفاف على ما هو من الدين ، لما ثبت من الدليل القطعى ، على صحة أصوله واستقامة فروعه .

وقال ابن المنذر : أجمع عامة أهل العلم على أن من سب النبى ﷺ ؛ عليه القتل ، وممن قال ذلك مالك والليث وأحمد وإسحاق ، وهو مذهب الشافعى ، وقد حكى عن أبى حنيفة أنه قال : لا يقتل من سب النبى ﷺ من أهل الذمة ، وإنما يقتل بالحرابة والقتل [٥٢] .

قتل من سب النبى ﷺ .

أكثر العلماء على أن من سب النبى ﷺ من أهل الذمة ، أو عرض به ، أو استخف بقدره ، أو وصفه بما لا يليق ، فإنه لم نعطه الذمة أو العهد على هذا ورأى أبو حنيفة والثورى : أنه لا يقتل ، ما هو عليه من الشرك أعظم ، ولكن يعزّر ويؤدب [٥٣] .

★ ★ ★

﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

التفسير:

١٣ – أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ... الآية

المناسبة :

بعد أن قال تعالى : قَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ . أتبعه بذكر السبب الذى يبعث على مقاتلتهم ، وهو نقض العهد واعتداؤهم على المؤمنين وبدؤهم لهم بالقتال ، وهمهم بإخراج الرسول من بلده .

معنى الآية :

هذا حض وتحريض على قتال المشركين الناكثين أيمانهم وعهودهم وذلك لأسباب ثلاثة ذكرها الله تعالى فى هذه الآية :

١ – **نكثهم العهد** : إنهم نقضوا عهودهم التى أقسموا عليها .

قال ابن عباس : نزلت فى كفار مكة الذين نكثوا أيمانهم بعد عهد الحديبية ، وأعانوا بنى بكر على خزاعة، وهذا يدل على أن قتال الناكثين أولى من قتال غيرهم من الكفار ؛ ليكون ذلك زجرًا لغيرهم ، والعهد الذى نقضوه هو صلح الحديبية ؛ لمناصرة قريش حلفاءهم بنى بكر ، على خزاعة حلفاء النبى ﷺ ، ليلا بالقرب من مكة ، على ماء يسمى : (الهجير) . فسار إليهم رسول الله ﷺ ، وفتح مكة سنة ثمان هجرية ، فى العشرين من رمضان .

٢ – **الهم بإخراج الرسول** ، حين تشاوروا فى دار الندوة على التخلص منه ، وتداولوا الأمر وفكروا فى حبسه أو نفيه أو قتله .

قال تعالى : وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ (الأنفال : ٣٠) .

٣ – **بدؤهم بالقتال** ، فقد بدءوا بالقتال يوم بدر وكذلك فى أحد والخندق وغيرها ، وبعد أن ذكر الله هذه الأمور الموجبة لقتالهم ، اتجه بالحديث إلى المؤمنين ؛ ليهيجهم ويحمّسهم فقال : أَتَخۡشَوۡنَهُمۡ أى : أتخافونهم

أيها المؤمنون فتتركوا قتالهم ؛ خوفًا على أنفسكم ؟ لا ينبغى ذلك منكم ، ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ﴾ أى : فالله أولى بالخشية ؛ لأنه صاحب القدرة المطلقة التى تدفع الضرر المتوقع ، وهو القتل ، ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾؛ فالإيمان قوة دافعة على الإقدام ، أى : إن كنتم مؤمنين ؛ فأقبلوا على قتالهم ، ولا تخافوا ولا تجبنوا ؛ إذ شرط الإيمان الخوف من الله وحده دون سواه ؛ لأن بيده النفع والضر. وفى هذا دلالة على أن المؤمن، الذى يخشى الله وحده ، يجب أن يكون أشجع الناس وأجرأهم على القتال .

★ ★ ★

﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

التفسير:

١٤ - ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾ ...

بعد أن بين فيما سبق ما يوجب قتال المشركين ويحث عليه ، أتبع ذلك بالأمر الصريح بقتالهم ورتب على ذلك عددًا من الفوائد .

أى : قاتلوهم أيها المؤمنون ، فإن قاتلتموهم يعذبهم الله بأيديكم ، بسبب ما تنزلونه بهم ، من قتل وأسر وجراحات بليغة ، واغتنام للأموال .

﴿وَيُخۡزِهِمۡ﴾ بالقتل والأسر والهزيمة، ﴿وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ بأن يجعل كلمتكم هى العليا، وكلمتهم هى السفلى، ﴿وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾ . امتلأت غيظًا من أفعال المشركين بهم فى مكة ، وهم بنو خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ ، كما قال مجاهد .

١٥- ﴿وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡ﴾ .

أى : قلوب هؤلاء المؤمنين على المشركين من غدرهم وظلمهم وشدة إيذائهم ، أو يذهب غيظ قلوبكم لما لقيتم من شدة المكروه منهم .

جاء فى تفسير أبى السعود :

﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ بما كابدوا من المكارة والمكايد ، ولقد أنجز الله سبحانه جميع ما وعدهم به ، على أجمل ما يكون ، فكان إخباره ﷺ بذلك قبل وقوعه معجزة عظيمة [٥٤] .

﴿ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ﴾ . هذا كلام مستأنف . ينبئ عما سيكون من إيمان بعض المشركين، أى : ويتوب الله على من يشاء أن يتوب عليه من عباده ، فيوفقه للإيمان ، ويشرح صدره للإسلام ، وقد حدث ذلك فعلاً، فأسلم أناس من أهل مكة ، وحسن إسلامهم ، مثل : أبى سفيان ، وعكرمة بن أبى جهل ، وسليم بن أبى عمرو.

﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ بما يصلح عباده ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فى أفعاله وأقواله الكونية والشرعية ، فيفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ؛ فامتثلوا أمره ، واجتنبوا نهيه .

★ ★ ★

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

المفردات :

ولما يعلم الله : لما : حرف يفيد نفى وقوع الفعل إلى زمن المتكلم مع توقع وقوعه فى المستقبل ، والمراد أنه إلى الآن لم يتحقق وقوع الجهاد منكم ؛ لعدم حصوله وقت نزول الآية ، ولكنه ينتظر وقوعه وفق ما فى علم الله .

وليجة : الوليجة : الصديق الذى تطلعه على سرك وخفايا أمرك من الولوج وهو الدخول ، ويطلق عليه: لفظ بطانة أيضًا ؛ لأنك تباطنُهُ بأسرارك .

التفسير:

١٦ - ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ ﴾ ... الآية

هذه الآية مرتبطة بما قبلها ، والمعنى فيما سبق : ألا تقاتلون أولئك المشركين الذين نقضوا العهود واعتدوا عليكم ، وهموا بإخراج الرسول .. إلى آخر ما ذكر ، وهنا يبين بعض الحكم التى من أجلها شرع الجهاد .

ومعنى الآية :

أم حسبتم أيها المؤمنون أن تتركوا وشأنكم مهملين ، بغير اختبار بأمور يظهر فيها أهل العزم الصادق من الكاذب ، من طريق الجهاد الذى يتبين فيه المخلصون ، المجاهدون بالنفس والمال ، والذين لم يتخذوا بطانة من الكفار أولياء ، يُسرّون إليهم بأحوال المسلمين وأمورهم وأسرارهم . بل هم فى الظاهر والباطن على النصح لله ولرسوله ، متميزين عن المنافقين الذين يطلعون الولائج على أسرار الأمة وسياستها، وقد اكتفى بأحد القسمين عن الآخر ؛ للعلم به ضمنًا .

قال الجصاص : قوله : وَلَمْ يَتَّخِذُواْ .. وَلِيجَةً يقتضى لزوم اتباع المؤمنين ، وترك العدول عنهم ، كما يلزم اتباع النبى ﷺ .

وفيه دليل على لزوم حجة الإجماع ، وهو كقوله : وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ ... (النساء : ١١٥)

وقال ابن جرير : وَلِيجَةً أى : بطانة ومداخلة من الولوج فى الشىء أى : الدخول فيه .

وإنما عنى بها فى هذا الموضع : البطانة من المشركين ، نهى الله أن يتخذوا من عدوهم من المشركين أولياء ، يفشون إليهم أسرارهم .

وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ أى : أن علمه شامل لجميع أعمالكم فيجازيكم عليها ؛ فهو سبحانه مطلع على كل شىء ، محيط به علمًا ، ونظير الآية فى الاختبار قوله تعالى : الٓمٓ * أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ . (العنكبوت : ١ – ٣)

وقال عز شأنه :

أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ . (آل عمران : ١٤٢) .

ونظير الآية فى النهى عن اتخاذ الوليجة أو البطانة قوله تعالى : يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ . (آل عمران : ١١٨).

والخلاصة : أن الله تعالى لما شرع لعباده الجهاد ، بين حكمته ، وهى اختبار عبيده ، من يطيعه ممن يعصيه ، وهو سبحانه قبل ذلك وبعده العالم بما كان ، وما يكون وما لم يكن ، ويتبين من الآية أن الله تعالى عالم بالنيات والأغراض ، مطلع عليها ، لا تخفى عليه خافية ؛ فعلى الإنسان التركيز على أمر النية ، وجعلها خالصة لوجه الله .

★ ★ ★

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾

المفردات :

ما كان للمشركين : أى ما صح ولا استقام لهم .

شاهدين على أنفسهم بالكفر : المراد من شهادتهم على أنفسهم : إظهارهم آثاره ، من نصب الأوثان حول البيت وعبادتها ، وإن أبوا أن يعترفوا بكونهم كفارًا .

حبطت أعمالهم : أى : بطلت فلا ينتفعون بها .

مساجد الله : أى : أماكن عبادته .

سبب النزول :

أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس : أن جماعة من رؤساء قريش ، أسروا يوم بدر ، منهم العباس ابن عبد المطلب ، فأقبل عليهم نفر من أصحاب رسول الله ﷺ يعيّرونهم بالشرك ، وجعل على بن أبى طالب يوبّخ العباس ، بسبب قتال رسول الله ﷺ وقطيعة الرحم ، فقال العباس : ما لكم تذكرون مساوئنا ، وتكتمون محاسننا ، فقيل له : وهل لكم محاسن ؟! قال : نعم ونحن أفضل منكم ، إنا لنعمر المسجد الحرام ، ونحجب الكعبة – أى : نخدمها – ونسقى الحجيج ، ونفك العانى – أى : الأسير – فنزلت هذه الآية [٥٥] .

والمراد : أن الآية تضمنت الرد على العباس وأمثاله ، لا أنها نزلت عقب قوله ؛ لأن غزوة بدر كانت فى السنة الثانية من الهجرة ، وهذه الآية نزلت ضمن سورة التوبة بعد الرجوع من غزوة تبوك [٥٦] .

التفسير :

١٧– مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ .

أى : ما صح ولا استقام فى دين الله وشرعه ، أن يتولى المشركون عمارة الأماكن المُعدة لعبادة الله، المبنية على اسمه وحده لا شريك له ، فضلاً عن عمارتهم المسجد الحرام الذى هو أشرفها وأعزها .

وهم شاهدون على أنفسهم بالكفر ، أى : بشهادة الحال والمقال ، بأن يعبدوا الأصنام ، وأن يطوفوا بالبيت عراة ، وكلما طافوا بالأصنام سجدوا لها ، وقيل : هو قولهم : «لبيك لا شريك لك ، إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك» فهذه شهادتهم بالكفر ، ثابتة قولاً وعملاً ، فهم بهذا جمعوا بين الضدين ، وبين أمرين متنافيين ، لا يعقل الجمع بينهما على وجه صحيح : عمارة بيت الله والكفر به .

أُوْلَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَـٰلِدُونَ .

أى : أولئك المشركون ، قد فسدت أعمالهم التى كانوا يفتخرون بها ، مثل : العمارة ، والحجابة ، والسقاية ؛ لأنها مع الكفر لا قيمة لها .

قال تعالى : وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ . (الأنعام : ٨٨) .

وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَـٰلِدُونَ . يوم القيامة بسبب كفرهم وإصرارهم على باطلهم .

١٨ - إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ... الآية.

أى : إنما يستحق عمارة المساجد ، وتستقيم منه العمارة ويكون أهلاً لها ، من آمن بالله وحده معبودًا، على النحو المبين فى القرآن الكريم ، وآمن باليوم الآخر موعدًا ومصيرًا ، وحسابًا وجزاء ، وأدى الصلاة على وجهها المشروع فى مواقيتها ، وأعطى الزكاة بأنواعها ومقاديرها ، لمستحقيها المعروفين ، كالفقراء، والمساكين، وأبناء السبيل ، ولم يخش فى قوله وعمله إلا الله وحده ، دون غيره من الأصنام والعظماء الذين لا ينفعون ولا يضرون فى الحقيقة ، وإنما النفع والضر بيد الله ، هؤلاء الموصوفون بهذه الصفات ، هم الذين يقتصر عليهم عمارة المساجد ، الحسية بالبناء والتشييد والترميم ، والمعنوية بالعبادة والأذكار وحضور دروس العلم ، دون من أشرك بالله ، وكفر برسول الله ﷺ ، هؤلاء المشركون الضالون الذين يجمعون بين الأضداد فيشركون بالله ، ويسجدون للأصنام ، ثم يقدمون بعض الخدمات للمسجد الحرام .

فَعَسَىٰٓ أُوْلَـٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ .

وهو تذييل قصد به حسن عاقبة المؤمنين الصادقين ، أى : فعسى أولئك المتصفون بتلك الصفات الجليلة ، أن يكونوا من المهتدين إلى الجنة ، وما أعد فيها من خير عميم ورزق كبير .

والتعبير بعسى هنا ، مقصود به قطع أطماع الكافرين ، أى : إذا كان هؤلاء المؤمنون - وهم من هم- يدور أمرهم بين لعل وعسى ، فكيف يقطع المشركون - وهم بين المخازى والقبائح - أنهم مهتدون [٥٧] .

وقد ذكر العلماء : أن كلمة عسى إذا جاءت من الله تعالى ؛ فهى بمعنى : وجب واستحق كما قال تعالى :

وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا . (الإسراء : ٧٩) .

أما معنى عسى فى النحو: فهو الترجى .

كما قال الشاعر :

عسى فرج يأتى به الله إنّه ... لـه كل يـوم فـى خليقته أمر

قال الآلوسى فى تفسيره :

«وفى التعبير بعسى قطع اتكال المؤمنين على أعمالهم ، وإرشادهم إلى ترجيح جانب الخوف على جانب الرجاء» .

ومن الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هاتين الآيتين ما يأتى :

١ – أعمال البر الصادرة عن المشركين كإطعام الطعام ، وإكرام الضيف ... إلخ. لا وزن لها عند الله ؛ لاقترانها بالكفر والإشراك به سبحانه .

وذهب الشيخ محمد عبده ، وتلميذه السيد رشيد رضا ، إلى موقف آخر ، حيث رجحوا أن يجازيهم الله تعالى على هذه الأعمال فى الآخرة .

واستشهدوا بعدل الله القائل : فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ . (الزلزلة : ٧ ، ٨).

وقوله عز شأنه : إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا . (النساء : ٤٠).

٢ – إن عمارة مساجد الله من حق المؤمنين وحدهم ، أما المشركون فإنهم لا يصح منهم ذلك ؛ بسبب كفرهم ونجاستهم .

«والأصح أنه يجوز استخدام الكافر فى بناء المساجد ، والقيام بأعمال لا ولاية فيها كنحت الحجارة والبناء والنجارة ، فهذا لا يدخل فى المنع المذكور فى الآية .

ولا مانع أيضًا من قيام الكافر ببناء مسجد أو المساهمة فى نفقاته ، بشرط ألا يتخذ أداة للضرر ، وإلا كان حينئذ كمسجد الضرار ... [٥٨] .

جاء فى حاشية الجمل على الجلالين :

«لا يصح للمشركين أن يعمروا مساجد الله بدخولها والقعود فيها ، فإذا دخل الكافر المسجد بغير إذن من مسلم ؛ عزر وإن دخل بإذنه ؛ لم يعزر ، لكن لابد من حاجة ، فيشترط للجواز الإذن والحاجة» [٥٩].

ونلاحظ أن رسول الله ﷺ أنزل وفد ثقيف فى المسجد وهم كفار ، وشدّ ثمامة بن أثال الحنفى فى سارية من سوارى المسجد الحرام وهو كافر [٦٠].

ونجاسة الكافر نجاسة معنوية ، فإذا دخل المسجد لغرض من الأغراض ، وأخذ إذنًا من الجهات المختصة ؛ جاز ذلك .

٣ – يؤخذ من الآيتين التنويه بشأن المساجد والتعبد فيها ، وإصلاحها ، وخدمتها ، وتنظيفها ، والسعى إليها ، واحترامها ، وصيانتها عن كل ما يتنافى مع الغرض الذى بُنيت لأجله ، وقد وردت أحاديث كثيرة فى هذا المعنى ، منها ما يأتى :

١ – روى الشيخان والترمذى : عن عثمان رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من بنى لله مسجدًا يبتغى به وجه الله ؛ بنى الله له بيتًا فى الجنة» [٦١].

٢ – وروى الشيخان والحافظ أبو بكر البزار ، وعبد بن حميد عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ «إنما عمار المساجد هم أهل الله» [٦٢].

٣ – وروى أحمد والترمذى وابن ماجة والحاكم وابن مردوية : عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال : «إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد ؛ فاشهدوا له بالإيمان ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [٦٣].

٤ – وروى الشيخان : عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «من غدا إلى المسجد أو راح – أى : سار قبل الزوال أو بعده لعبادة الله فى المسجد – ؛ أعدّ الله له نزلا – أى : مكانًا طيبًا فى الجنة – ؛ كلما غدا أو راح» [٦٤].

★ ★ ★

﴿ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَـٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

المفردات :

سقاية الحاج : المراد من الحاج : جنس الحجاج ومن سقايتهم إعطاؤهم ما يشربون .

التفسير :

١٩ – أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَـٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ...

المناسبة :

هذه الآية مرتبطة بما قبلها ، ومكملة لها ، فالآية السابقة أوضحت أن عمارة المسجد الحرام مقبولة إذا كانت عن إيمان ؛ فهى للمسلمين دون المشركين ، وهذه الآية أبانت أن الإيمان والجهاد أفضل مما كان يفخر به المشركون من عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج .

سبب النزول :

روى : أن المشركين سألوا اليهود قائلين : نحن سقاة الحاج ، وعُمّار المسجد الحرام ؛ أفنحن أفضل أم محمد وأصحابه ؟ فقالت اليهود عنادًا لرسول الله ﷺ : أنتم أفضل ؛ فردّ الله على الجميع منزلاً هذه الآية الكريمة .

والمعنى : أجعلتم أهل سقاية الحاج ، وأهل عمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر ، وجاهد فى سبيل الله ؟!

فالإيمان بالله واليوم الآخر ، والجهاد فى سبيل الله بالمال والنفس أفضل وأعظم درجة من أعمال السقاية والسدانة أو العمارة .

لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ .

أى : لا يستوى المشركون – وإن تقربوا بالسقاية وعمارة المسجد الحرام – مع المؤمنين ، المجاهدين فى سبيل الله .

وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ .

والله لا يوفق القوم الظالمين ولا يرشدهم ؛ لأنهم قد آثروا الشرّ على الخير ، والضلالة على الهدى .

من تفسير المنار

قال صاحب المنار – بعد أن ساق عددًا من الروايات فى سبب نزول هذه الآية – : والمعتمد من هذه الروايات حديث النعمان ؛ لصحة سنده [١٥] .

حديث النعمان فى صحيح مسلم

أورد ابن جرير الطبرى وغيره من المفسرين ، ما رواه مسلم وأبو داود وابن المنذر عن النعمان ابن بشير قال :

كُنت عند منبر رسول الله ﷺ ، فقال رجل : ما أبالى أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج وقال آخر : ما أبالى أن لا أعمل عملاً بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام ، وقال آخر : الجهاد فى سبيل الله أفضل مما قلتم ؛ فزجرهم عمر وقال : لا ترفعُوا أصواتكم عند منبر رسول الله ﷺ – وذلك يوم الجمعة – ولكن إذا صليت الجمعة دخلت واستفتيته فيما اختلفتم فيه ، فأنزل الله عز وجل :

أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ... الآية .

وهذا المساق يقتضى أن الآية نزلت ؛ عند اختلاف المسلمين فى الأفضل من هذه الأعمال .

قال صاحب المنار : المعتمد أن موضوع الآيات فى المفاضلة أو المساواة بين خدمة البيت وحُجَّاجه من أعمال البِّر الهينة المستلذة ، وبين الإيمان والجهاد بالمال والنفس والهجرة وهى أشق العبادات البدنية والمالية ا هـ .

بعض المفسرين يرجح أن الآية رد على المشركين

ذكر بعض المفسرين : أن هنا إشكال ؛ لأن تمام الآية يقول : وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ . وهذا مشكل بالنسبة للمسلمين ؛ فإنهم جميعا مهديون وليسوا بظالمين .

وأجيب عن هذا الإشكال بأنه : لما قرأ النبى ﷺ الآية ظن الراوى أنها نزلت حينئذ ؛ فقال : إنها نزلت بهذا السبب فى حين أن النبى ﷺ ، لما استفتاه عمر فيما اختلفوا فيه قرأ النبىّ ﷺ الآية التى نزلت من قبل بشأن المشركين ، مستدلاً بها على أن الجهاد أفضل من سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام ؛ ليعلم المختلفون الحكم ، فالآية فى الحقيقة لم تنزل بسبب هذا الخلاف ، والراوى أخطأ فى ظنّه نزولها بسببه ، أو تسامح فى التعبير .

قال القرطبي نقلاً عن غيره : لا يستبعد أن يُنتزع مما أنزل في المشركين أحكام تليق بالمسلمين .

قال عمر : إنا لو شئنا لاتخذنا سلائق وشواءً ؛ وتوضع صحفة ، وترفع أخرى ، لكنّا سمعنا قول الله تعالى : أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا . (الأحقاف : ٢٠) .

وهذه الآية نص في الكفار ، ولكن عمر رضي الله عنه فهم منها زجر المسلمين أيضًا عمّا يناسب أحوال الكافرين ، بعض المناسبة ، ولم ينكر عليه أحد من الصحابة ، فهذه الآية من هذا النوع .

قال القرطبي : وهذا تأويل نفيس وبه يزول الإشكال ا هـ [٦٦] .

ويترجح عندي ما ذهب إليه القرطبي ، فهو أرجح في تقديري مما ذهب إليه صاحب المنار .

فالآية نزلت في سياق الردّ على المشركين ، ولكن المسلمين استفادوا بمضمونها عندما اختلفوا في اختيار أفضل الأعمال ؛ لأنها جعلت الإيمان ، والجهاد في سبيل الله أفضل الأعمال .

والله تعالى أعلى وأعلم .

★ ★ ★

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

المفردات :

وهاجروا : تركوا مكة إلى المدينة ؛ خوفًا على دينهم وأمنا على أنفسهم من أذى المشركين .

يبشرهم : البشارة : الإعلام بالخبر السّار ، وسمِّيت بذلك ؛ لظهور أثرها على البشرة .

التفسير :

٢٠ - ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ... الآية

أي : أن المؤمنين بالله ورسوله ، المهاجرين من مكة إلى المدينة ، المجاهدين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ولإعلاء كلمة الله ، هم أعظم درجة ، وأرفع مقامًا ومكانة من القائمين بأعمال أخرى كالسقاية والعمارة.

وَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ .

أى : وأولئك المنعوتون بهذه الصفات ، هم الفائزون بفضل الله وكرامته ومثوبته .

من تفسير الفخر الرازى

قال الفخر الرازى : فإن قيل : لما أخبرتم أن هذه الصفات كانت بين المسلمين والكافرين ، كما جاء فى بعض روايات أسباب النزول ، فكيف قال فى وصفهم أعظم درجة ؛ مع أنه ليس للكفار درجة ؟

قلنا : الجواب عنه من وجوه :

الأول : أن هذا ورد على حسب ما كانوا يقدِّرون لأنفسهم من الدرجة والفضيلة عند الله ، ونظيره قوله سبحانه : ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (النمل : ٥٩) .

الثانى : أن يكون المراد : أولئك أعظم درجة من كل من لم يكن موصوفًا بهذه الصفات ؛ تنبيهًا على أنهم لما كانوا أفضل من المؤمنين الذين ما كانوا موصوفين بهذه الصفات فبأن لا يقاسوا إلى الكفار أولى.

الثالث : أن يكون المراد : أن المؤمن المجاهد أفضل ممن على السقاية والعمارة ، والمراد منه : ترجيح تلك الأعمال . ولا شك أن السقاية والعمارة من أعمال الخير ، وإنما بطل ثوابها فى حق الكفار ؛ بسبب كفرهم.

٢١- يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّـٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ .

يخبرهم الله مبشرًا برحمة واسعة ، ورضوان كامل ، وجنات لهم فيها نعيم دائم ، وهم فى هذا النعيم خالدون على الدوام إلى ما شاء الله تعالى .

قال الآلوسى : ذكر أبو حيان : أنه لما وصف المؤمنين بثلاث صفات : الإيمان ، والهجرة ، والجهاد بالنفس والمال ؛ قابلهم على ذلك بالتبشير بثلاث : الرحمة ، والرضوان ، والجنة .

٢٢- خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ .

لقد عوضهم الله جزاء الإيمان والهجرة والجهاد جنات خالدين فيها لا يخرجون منها أبدًا ؛ فإن الله لديه أجر عظيم ؛ فلا يبخل به على أوليائه .

روى الشيخان والترمذى والنسائى : عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ؛ فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى،

وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحدًا من خلقك ؟! فيقول : أنا أعطيكم أفضل من ذلك ، فيقولون : ربنا ، وأى شيء أفضل من ذلك ؟! فيقول : أحلّ عليكم رضوانى ، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا» (٦٧) .

فى ختام الآيات ١٩ - ٢٢

دلت الآيات على أن الجهاد مع الإيمان أفضل الأعمال ؛ لأنه بذل للنفس أو المال ؛ بقصد إعلاء كلمة الله.

ومراتب فضل المجاهدين كثيرة ، فهم أعظم درجة عند الله من كل ذى درجة ، فلهم المزية والمرتبة العليا ، وهم الفائزون الظافرون الناجون ، وهم الذين يبشرهم ربهم ويعلمهم فى الدنيا بما لهم فى الآخرة من النعيم المقيم ، وهم الخالدون إلى الأبد ، وإلى ما شاء الله فى جنات الخلد ، ولهم ثواب عظيم أعده الله لهم فى دار كرامته .

★ ★ ★

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

المفردات :

أولياء : أحباء وأصفياء .

وعشيرتكم : أى : أقرباؤكم ، من العشرة وهى الصحبة .

فتربصوا : فانتظروا .

لا يهدى القوم الفاسقين: أى : لا يعينهم على الهدى ؛ لخروجهم عن طاعة الله بموالاة أعدائه .

التفسير:

٢٣ - يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ ... الآية

سبب النزول:

أخرج الفريابى عن ابن سيرين عن على بن أبى طالب أنه قال لقوم قد سمّاهم: ألا تهاجروا، ألا تلحقوا برسول الله ﷺ ؟؟ فقالوا: نقيم مع إخواننا وعشائرنا ومساكننا؛ فأنزل الله: قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ ... الآية كلها.

المناسبة:

جاء فى تفسير الكشاف للزمخشرى:

كان قبل فتح مكة، من آمن لم يتم إيمانه إلاّ بأن يهاجر، ويصارم أقاربه الكفرة، ويقطع موالاتهم، فقالوا: يا رسول الله: إن نحن اعتزلنا من خالفنا فى الدين قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشائرنا؛ وذهبت تجارتنا وهلكت أموالنا، وخربت ديارنا، ويقينا ضائعين؛ فنزلت هذه الآية، فهاجروا؛ فجعل الرجل يأتيه ابنه أو أبوه أو أخوه أو بعض أقاربه؛ فلا يلتفت إليه ولا ينفق عليه، ثم رخّص لهم بعد ذلك. وقيل: نزلت فى التسعة الذين ارتدوا ولحقوا بمكة؛ فنهى الله عن موالاتهم. اهـ. والآية عامة، وإن كان السبب خاصًا.

قال الدكتور وهبة الزحيلي فى التفسير المنير:

والخلاصة: أن الدين يغير المفاهيم، فيجعل رابطة الدين أعلى، وأقوى وأولى من رابطة العصبية الجنسية وصلة القرابة والانتماء للأسرة، ويقرر أن ثمرة الهجرة والجهاد لا تظهر إلا بترك ولاية المشركين، وإظهار طاعة الله والرسول على كل شيء فى الحياة [٦٨].

والمعنى:

يا أيها المصدقون بالله ورسوله، لا يتخذ أحد منكم أباه أو أخاه حبيبًا يصافيه، ويخلص له الودّ؛ إن استحب الكفر على الإيمان، وأصرّ عليه إصرارًا لا يرجى منه الإقلاع عنه.

والنهى عن موالاتهم فى تلك الحالة يقتضى جواز موالاتهم قبلها، على أمل أن تؤدى بهم إلى الإسلام، بسبب شعورهم بسماحته.

وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ.

ومن يحبُهم ويخلص لهم الودّ، أو يطلعهم على أسرار المسلمين العامة أو الحربية، فأولئك هم الظالمون لأنفسهم وأمتهم؛ لأنهم خالفوا الله ورسوله بموالاة الكفار بدلاً من التبرؤ منهم.

قال ابن عباس : هو مشرك مثلهم ؛ لأنه رضى بشركهم ، والرضا بالكفر كفر ، كما أن الرضا بالفسق فسق.

٢٤ – قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ ... الآية .

أى : إن كنتم تفضلون هذه الأنواع الثمانية ، على محبة الله ورسوله أى : طاعتهما والجهاد فى سبيل الله.

فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ . فانتظروا حتى يأتى الله بما يأمر به من عقوبة عاجلة أو آجلة لكم ، والجملة الكريمة قصد بها : التهديد والوعيد .

وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ . تذييل قصد به : تأكيد التهديد السابق ، أى : والله تعالى لا يوفق القوم الخارجين عن حدود دينه وشريعته إلى ما فيه مثوبته ورضاه .

جاء فى تفسير الكشاف : وعن الحسن : هى عقوبة عاجلة أو آجلة ، وهذه أشياء شديدة لا نرى أشد منها، كأنّها تنعى على أناس ما هم فيه من رخاوة عقد الدين ، واضطراب حبل اليقين . ا هـ .

ويمكن تصنيف الأنواع الثمانية الواردة فى الآية بأربعة :

١ – مخالطة الأقارب وذلك يشمل الآباء والأبناء والإخوان والأزواج ، ثم بقية العشيرة .

٢ – الميل إلى إمساك الأموال المكتسبة .

٣ – الرغبة فى تحصيل الأموال بالتجارة .

٤ – الرغبة فى البناء والدور المخصصة للسكنى ، وقد بين الله تعالى أن رعاية الدين خير من رعاية هذه الأمور .

ونلاحظ أن محبة هذه الأشياء الثمانية لها شديد ارتباط بالإنسان ومجتمعه ؛ فمحبة الأب والابن والإخوة والزوجة والعشيرة فطرة إنسانية ؛ وحب المال ، والتجارة الرابحة ، والمسكن المريح ، طبيعة نفسية؛ فهى وسائل التملك والتفاخر والتظاهر وبالرغم من مظاهر الحب وحقائقه لهذه الأنواع الثمانية ؛ أمر الله بإيثار حبّه وطاعته ، والجهاد فى سبيله على هذه الأشياء .

فالله سبحانه وتعالى مصدر النعم ، وملجأ لدفع الكروب والمحن ، قال تعالى : وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ (البقرة : ١٦٥)

الآداب والأحكام

أخذ العلماء من هاتين الآيتين الآداب والأحكام الآتية :-

١ - لا يتم إيمان المؤمن ، إلا إذا كانت محبته لله ورسوله مقدمة على كل محبوب . فقد ثبت في الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال : «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين» (٦٩) .

وروى أحمد والبخاري : عن عبد الله بن هشام قال : كنَّا مع رسول الله ﷺ ، وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال عمر : والله يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي ، فقال رسول الله ﷺ «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه» ، فقال عمر : فأنت الآن والله أحب إلي من نفسي ، فقال رسول الله ﷺ : «الآن يا عمر» (٧٠) .

٢ - قال المفسرون : هاتان الآيتان في بيان حال من ترك الهجرة وآثر البقاء مع الأهل والمال .

٣ - الإحسان إلى الوالدين والأقارب وتقديم الهدايا لهم - مع كفرهم - لا يتعارض مع ولاية الله ورسوله بدليل ما أخرجه البخاري : قالت أسماء : يا رسول الله ، إن أمي قدمت علي راغبة وهي مشركة أفأصلها؟ قال : نعم : «صلي أمك» (٧١) .

٤ - قال بعض العلماء : وليس المطلوب من قوله تعالى : ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ﴾ ... إلخ ، أن ينقطع المسلم عن الأهل والعشيرة والزوج والولد ، والمال والعمل والمتاع واللذة ، ولا أن يترهبن ويزهد في طيبات الحياة ، كلا ، إنما تُريد هذه العقيدة أن يخلص لها القلب ، ويخلص لها الحب ، وأن تكون هي المسيطرة الحاكمة ، وهي المحركة الدافعة ، فإذا تمَّ لها هذا ؛ فلا حرج عندئذ أن يستمتع المسلم بكل طيبات الحياة ؛ على أن يكون مستعدًا لنبذها كلها ، في اللحظة التي تتعارض مع مطالب العقيدة .

ومفرق الطريق هو أن تسيطر العقيدة ، أو يسيطر المتاع ، وأن تكون الكلمة الأولى للعقيدة أو لعرض من أعراض هذه الحياة ؟ فإذا اطمأن المسلم إلى أن قلبه خالص لعقيدته ؛ فلا عليه بعد هذا أن يستمتع بالأبناء والإخوة والعشيرة والزوج . ولا عليه أن يتخذ الأموال والمتاجر والمساكن ، ولا عليه أن يستمتع بزينة الله والطيبات من الرزق ، في غير سرف ولا مخيلة .

بل إن المتاع حينئذ لمستحب ، باعتباره لونًا من ألوان الشكر لله ، الذي أنعم بها ؛ ليتمتع بها عباده، وهم يذكرون : أنه الرازق المنعم الوهاب (٧٢) .

★ ★ ★

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾

المفردات :

حـنـين : وادٍ بين مكة والطائف ، حدثت فيه المعركة التى نسبت إليه وكانت عقب فتح مكة .

رحـبت : أى : برحبها وسعتها ، والباء فيه بمعنى : «مع» .

سكينته : رحمته التى تسكن عندها النفوس .

التفسير:

٢٥- لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ...

بين الله فى آيات سابقة فضل الجهاد ، وحث عليه وبين فى هذه الآيات أنه سبحانه عوّدهم النصر حين يخلصون فى جهادهم .

والمعنى : لقد نصركم الله أيها المؤمنون فى مواقع كثيرة ؛ كبدر وقريظة والنضير والحديبية وخيبر ومكة ؛ وذلك لأنكم نصرتموه بصدق جهادكم فهيأ لكم ثمار النصر .

قال مجاهد : هذه أول آية نزلت من (براءة) يذكر الله تعالى فضله عليهم ، وإحسانه لديهم فى نصره إياهم فى مواطن كثيرة من غزواتهم مع رسول الله ﷺ ، وأن ذلك من عنده تعالى وبتأييده وتقديره ، لا بعَددهم ولا بعُددهم ، ونبههم على أن النصر من عنده ، سواء قل الجمع أو كثر ، فإن يوم حنين أعجبتهم كثرتهم ، ومع هذا ما أجدى ذلك عنهم شيئًا ، فولوا مدبرين إلا القليل منهم ، مع رسول الله ﷺ ، ثم أنزل الله نصره وتأييده على رسوله وعلى المؤمنين الذين معه ؛ ليعلمهم أن النصر من عنده تعالى وحده ، وبإمداده وإن قل الجمع : كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ . (البقرة : ٢٤٩) .

وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا .

أى : ونصركم يوم حنين مع أنكم قصرتم فيه إذ أعجبتكم كثرتكم ، حتى قال بعض المسلمين : (لن نهزم اليوم من قلة) وكان عدد المسلمين (١٢) اثنى عشر ألفًا ، عشرة آلاف من المسلمين الذين فتحوا مكة ، وألفان من الطلقاء ، أى : من أهل مكة الذين أسلم كثير منهم وعفا عنهم النبى ﷺ وقال لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء وكان فيهم بعض المشركين .

واتكل المسلمون على قوتهم فى مبدإ الأمر ؛ فانهزموا ، ثم لما عدلوا عن غرورهم ، وتضرعوا إلى ربهم كان النصر حليفهم .

أضواء من التاريخ على وقعة حنين

كانت هوازن قوة كبيرة بعد قريش ، وكانت تنافسها فلما بلغها فتح مكة ؛ نادى سيدهم مالك ابن عوف النصرى بالحرب ، وهو من بنى نصر بن مالك .

واجتمع إليه مع هوازن ثقيف كلها ، ونصر ، وجشم ، وسعد بن بكر وأجمع السير إلى رسول الله ﷺ ، وساق مع جيشه أموالهم ومواشيهم ونساءهم وأولادهم ، وزعم أن ذلك يحمى نفوسهم به ويقوى شوكتهم ، وكان على ثقيف كنانة بن عبيد ، وشهد الحرب دريد بن الصمّة وكان شيخًا كبيرًا له رأى وحكمة ، ونزلوا بأوطاس ، وادٍ فى ديار هوازن عند الطائف ، كانت فيه وقعة حنين ، ولما علم رسول الله بأمرهم ؛ أزمع السير إليهم ، وخرج معه اثنا عشر ألفًا .

والتقى الجيشان فاقتتلوا قتالاً شديدًا ، فانكشف المسلمون منهزمين ، حتى قال أبو سفيان بن حرب، لا تنتهى هزيمتهم دون البحر .

وقال أخ لصفوان أبن أمية : الآن بطل السحر ، فقال له صفوان وهو على شركه :

اسكت فض الله فاك ، والله لأن يحكمنى رجل من قريش خير من أن يحكمنى رجل من هوازن .

وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ .

أى : إن كثرتكم لم تنفعكم شيئًا من النفع فى أمر العدو ؛ بل انهزمتم أمامه فى أول الأمر ، وضاقت فى وجوهكم الأرض مع رحابتها وسعتها ، فقد خيِّل إليكم أن رحابها أغلقت فى وجوهكم ، فلا تجدون فيها موضعًا تطمئنون فيه وتثبتون كما قال الشاعر :

كأن بلاد الله وهى عريضة ... على الخائف المطلوب كفة حابل

ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ .

ثم انصرفتم من وجه العدو متقهقرين لا تلوون على شىء .

لقد صورت الآية الكريمة ما حدث من المؤمنين فى غزوة حنين ، تصويرًا بديعًا معجزًا .

فهى تنتقل من سرورهم بالكثرة ، إلى تصوير عدم نفعهم بهذه الكثرة ، إلى تصوير شدة خوفهم حتى لكأن الأرض على سعتها تضيق بهم ، وتقفل فى وجوههم ، إلى تصوير حركاتهم الحسيّة ، فى تولية الأدبار، والنكوص على الأعقاب .

٢٦- ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ .

ثبت رسول الله ﷺ على بغلته ثبات الواقع حين يقع ، وثبت نفر من المؤمنين قرابة مائة .

أى : أنزل الله طمأنينته وثباته على رسوله ، وكان فى حاجة إلى هذه الطمأنينة ؛ فهو مع ثباته وشجاعته ، ووقوفه فى وجه الأعداء كالطود الأشم ؛ أصابه الحزن والأسى ؛ لفرار هذا العدد الكبير من أصحابه .

وكان المؤمنون الذين ثبتوا معه فى حاجة إلى هذه السكينة ؛ ليزدادوا ثباتًا مع ثباتهم ، وكان الذين فرُّوا فى حاجة إلى هذه السكينة ؛ ليعود إليهم ثباتهم فيقبلوا على قتال أعدائهم بعد أن دعاهم رسول الله ﷺ إلى ذلك .

وأمر النبى العباس - وكان جهورى الصوت - أن ينادى بأعلى صوته : يا أصحاب بيعة العقبة ، يا أصحاب بيعة الشجرة ، فقالوا جميعًا : لبيك لبيك ، ونادى رسول الله ﷺ : إلىَّ عباد الله ، إلىَّ عباد الله، فتوافد المسلمون ، وأمرهم النبى ﷺ أن يصدقوا فى حملتهم على عدوهم ، وأخذ النبى قبضة من التراب ودعا ربه، واستنصره قائلاً : «اللهم أنجز لى ما وعدتنى» ثم رمى بالتراب فى وجوه القوم ، فما بقى إنسان إلا أصابه منها فى عينه وفمه ما شغله عن القتال ، ثم انهزموا فتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ، ثم جاءوا بالأسرى بين يدى رسول الله ﷺ .

وكان السبى ستة آلاف رأس ، والإبل أربعة وعشرين ألفًا ، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة ، وأربعة آلاف أوقية فضة ، وكانت تلك أكبر غنيمة غنمها المسلمون [٧٢] .

وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا . أى : أنزل ملائكة تكثر سواد المسلمين وتثبتهم ، وتلقى الرعب فى قلوب المشركين ؛ حتى طارت قلوبهم فزعًا وخوفًا ، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون .

وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ .

أى : أنزل بالكافرين الهزيمة والقتل والجرح والسبى وغنيمة الأموال ، روى أن عليًا رضى الله عنه قتل بيده أربعين رجلاً فى هذه الغزوة وذلك غير ما فعله سواه من المقاتلين .

وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ .

أى : وذلك الذى نزل بهؤلاء الكافرين من التعذيب ؛ جزاء لهم على كفرهم ؛ وصدهم عن سبيل الله .

٢٧- ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

أى : ثم يتجاوز الله بعد هذا التعذيب الذى حدث فى الحرب ، على من يشاء من الكفار .

يعنى : ومع كل ما جرى عليهم من الخذلان ، فإن الله تعالى قد يتوب على بعضهم ، بأن يزيل عن قلبه الكفر ، ويهديه إلى الإسلام .

من كلام المفسرين

قال ابن كثير :

وقوله : ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ... قد تاب الله على بقية هوازن فأسلموا ، وقدموا على رسول الله مسلمين ، ولحقوه وقد قارب مكة عند الجعرانة ، وذلك بعد الواقعة بقريب من عشرين يومًا ؛ فعند ذلك خيّرهم بين سبيهم وأموالهم ؛ فاختاروا سبيهم ، وكانوا ستة آلاف أسير ، ما بين صبى وامرأة فرده عليهم، وقسم الأموال بين الغانمين ، ونفل أناسًا من الطلقاء ؛ لكى يتألف قلوبهم على الإسلام ؛ فأعطاهم مائة مائة من الإبل، وكان من جملة من أعطاهم مائة من الإبل : مالك بن عوف النصرى واستعمله على قومه [٧٤] .

وأخيرًا فإن هذه الآيات قد ذكّرت المسلمين بجانب نعم الله عليهم ، وأرشدتهم إلى أنّ النصر لا يتأتى لمن أعجبوا بكثرتهم ، فانشغلوا بها عن الاعتماد عليه سبحانه ، إنما النصر يتأتى لمن أخلصوا لله فى السر والعلانية ، وباشروا الأسباب التى شرعها الله تعالى ؛ للوصول إلى الفوز والظفر .

قال الإمام ابن القيم :

افتتح الله تعالى غزوات العرب بغزوة بدر ، وختم غزوهم بغزوة حنين ؛ لهذا يقرن بين هاتين بالذكر، فقال : بدر وحنين وإن كان بينهما سبع سنين ... وبهاتين الغزوتين طفئت جمرة العرب لغزو رسول الله ﷺ والمسلمين ، فالأولى : خوفتهم وكسرت من حدّتهم ، والثانية : استفرغت قواهم ، واستنفذت سهامهم ، وأذلت جمعهم ؛ حتى لم يجدوا بدًا من الدخول فى دين الله [٧٥] .

★ ★ ★

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

المفردات :

نجس : المراد بنجاستهم : خبث باطنهم فكأنهم عين النجاسة ؛ لشدة خبثهم وكراهتهم للإسلام والمسلمين.

عيلة : فقرًا .

التفسير:

٢٨- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ... الآية

قال الشوكاني في فتح القدير :

المراد : نجاسة الشرك والظلم ، والأخلاق والعادات السيئة، والكافر ليس بنجس الذات؛ لأن الله سبحانه أحلّ طعامهم ، وثبت عن النبي ﷺ أنه أكل في آنيتهم ، وشرب منها ، وتوضأ فيها ، وأنزلهم في مسجده .

والمراد بالمشركين في رأي الأكثرين : هم عباد الأوثان . وقد نهى الله سبحانه وتعالى المؤمنين عن نكاح المشركات ، وإنكاح المشركين .

فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا .

أي : لا يدخلوا الحرم المكي ومنه المسجد الحرام ، ولو لحج أو عمرة ، فليس لهم أن يحجوا أو يعتمروا، والنهي وإن كان موجهًا إلى المشركين ، إلا أن المقصود منه : نهي المؤمنين عن تمكينهم من ذلك .

بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا . سنة تسع للهجرة ، وهي السنة التي حج فيها أبو بكر على الموسم ، فيمنعون من دخوله ابتداء من سنة عشر للهجرة .

قال ابن كثير :

«أمر الله عباده المؤمنين الطاهرين دينًا وذاتًا ، بنفي المشركين الذين هم نجس دينًا ، عن المسجد الحرام ، وألاَّ يقربوه بعد نزول هذه الآية ، وكان نزولها في سنة تسع ، ولهذا بعث رسول الله ﷺ عليًا صحبة أبي بكر رضي الله عنهما ، عامئذ ، وأمره أن ينادي في المشركين : أن لا يحج بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، فأتم الله ذلك ، وحكم به شرعًا وقدرًا» .

وخلاصة المعنى :

يا أيها الذين آمنوا ، لا تمكنوا المشركين من أداء مناسك الحج والعمرة ، بعد عامهم هذا ؛ حتى لا يحج البيت إلا من يوحِّد الله ويمجده وحده دون سواه .

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ .

أى : وإن خفتم أيها المسلمون فقرًا بسبب قلة جلب الأقوات ، وأنواع التجارات التى كان المشركون يجلبونها ؛ فاطمئنوا فسوف يغنيكم الله من فضله بوجوه أخرى، وييسر لكم موارد المعيشة ، والأرزاق والمكاسب؛ إن الله عليم بأحوالكم ، حكيم بما يشرعه لكم من أمر ونهى ، وهو أيضًا حكيم فيما يعطى ويمنع لأنه الكامل فى أفعاله وأقواله ، العادل فى حكمه وأمره تعالى .

وهذا إخبار عن غيب فى المستقبل ، وقد تحقق الخبر ، وأنجز الله وعده ؛ فأرسل السماء عليهم مدرارًا، ووفق أهل اليمن وجرش وغيرهم فأسلموا ، وصاروا يحملون الأطعمة إلى مكة ، وأسلم المشركون أنفسهم ؛ وجاءت الثروات والخيرات من كل مكان ، ثم فتح الله عليهم البلاد والغنائم ، وتوجه إليهم الناس من أطراف الأرض قاصيها ودانيها .

من أحكام الآية ما يأتى

١ – قال العلامة أبو السعود : الصحيح أن الشافعية والمالكية يحرمون دخول الكفار جميع المساجد . اهـ .

وقد أباح الحنفية للكافر دخول المساجد كلها فى الحرم وغيره ، لحاجة أو لغير حاجة ؛ لأن المقصود بالآية النهى عن حج المشركين واعتمارهم ، فلا يمنع اليهود والنصارى ، من دخول المسجد الحرام ولا غيره ، ولا يمنع دخول المسجد الحرام إلا المشركون وأهل الأوثان .

٢ – فى هذه الآية دليل على أن تعلق القلب بأسباب الرزق جائز ، ولا ينافى فى ذلك التوكل ، وإن كان الرزق مقدَّرا ، ولكن الله علقه بالأسباب ؛ لحمل الناس ، على العمل . والسبب لا ينافى التوكل ، بدليل ما أخرجه البخارى من قوله ﷺ : «لو توكلتم على الله حق التوكل ؛ لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا» [٣٦] .

أى : تغدو بكرة وهى جياع ، وتروح عشية وهى ممتلئة الأجواف والبطون .

★ ★ ★

﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

المفردات :

الجزية : هى ضريبة لنا على أهل الكتاب ؛ جزاء حمايتهم وحقن دمائهم .

عن يد وهم صاغرون : أى : عن يد مواتية منقادة وهم خاضعون .

يضاهئون : المضاهأة والمضاهات : المشابهة .

أنى يؤفكون : كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل .

التفسير :

٢٩- قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ... الآية

يأمر الله تعالى المؤمنين فى هذه الآية بقتال أهل الكتاب ، بعد ما أمرهم من قبل بقتال المشركين ، ومنعهم من قرب المسجد الحرام بحج أو عمرة .

والغاية من قتال أهل الكتاب فى هذه الآية : هى اعترافهم بالدين الحق ، وعدم إلزامهم بالدخول فيه؛ والاكتفاء بالتصالح معهم ؛ ليستوطنوا فى دار الإسلام بأمان وسلام ، مع إخضاعهم لأحكام الإسلام المدنية والجزائية ، وما عدا ذلك فإنا أمرنا بتركهم وما يدينون به فى عباداتهم وشئونهم ، مع أخذ الجزية منهم جزاء حمايتهم ، وتوفير الأمن والأمان لهم ، ويصبحون عند ذلك من أهل الذمة والعهد (٧٧) .

قال ابن كثير :

«هذه الآية أول أمر نزل بقتال أهل الكتاب – اليهود والنصارى – وكان ذلك سنة تسع ؛ ولهذا تجهز رسول الله ﷺ لقتال الروم ، ودعا الناس إلى ذلك ، وأظهره لهم ، وبعث إلى أحياء العرب حول المدينة ،

فندبهم فخرجوا معه ، واجتمع من المقاتلة نحو ثلاثين ألفًا ، وتخلف بعض الناس من أهل المدينة ومن حولها من المنافقين وغيرهم ، وكان ذلك في عام جدب ، ووقت قيظ وحر ، وخرج رسول الله ﷺ ، يريد الشام لقتال الروم ، فبلغ تبوك ونزل بها ، وأقام بها قريبًا من عشرين يومًا ، ثم استخار الله في الرجوع ، فرجع عامه ذلك ؛ لضيق الحال ، وضعف الناس ...» [٧٨] .

والمعنى : قاتلوا أهل الكتاب إلى أن يستسلموا ويدفعوا الجزية ، عن مقدرة عليها منهم ، وفي نفس الوقت عن عرفان منهم بمقدرة المسلمين وكفاءتهم ؛ ونلاحظ أن الآية بينت أسباب قتال أهل الكتاب وهي ثلاثة أسباب :

١ – عبرت عنهم باسم الموصول فقالت :

قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ...

وأهل الكتاب يدعون أنهم يؤمنون بالله وباليوم الآخر ، لكنهم ادعوا أن لله ولدًا ، وادعوا أن الله ثالث ثلاثة.

جاء في حاشية الجمل على الجلالين :

إن إيمانهم باليوم الآخر ليس كإيمان المؤمنين ، وذلك لأنهم يعتقدون بعث الأرواح دون الأجساد ، وأن أهل الجنة لا يأكلون فيها ، ولا يشربون ولا ينكحون ، ويرون أن نعيم الجنة وعذاب النار، معان روحية فقط كالسرور والهمّ، فهم لا يؤمنون بحياة مادية كاملة في عالم الآخرة، وهذا مناف لما أخبر به القرآن، ومن أنكر البعث الجسماني ؛ فقد أنكر صريح القرآن" [٧٩].

٢ – وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ .

فهم لا يحرمون ما حرمه موسى وعيسى ، عليهما السلام بل حرّفوا التوراة والإنجيل ، وشرعوا لأنفسهم أحكامًا تخالف أصل دينهم .

فترى اليهود يستحلون أكل أموال الناس بالباطل .

قال تعالى : وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ . (النساء : ١٦١) .

والنصارى استباحوا ما حُرم عليهم في التوراة كالشحوم والخمور ، وقد استحلوا الرهبانية ، وفسق بعضهم بها عن حكم الله وهدايته .

قال تعالى : ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ . (الحديد : ٢٧) .

٣ - وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ .

أى : الدين الثابت الناسخ لجميع الأديان وهو دين الإسلام .

قال تعالى : ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا . (المائدة : ٣).

وقال تعالى : وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ . (آل عمران : ٨٥).

ويصح أن يكون المراد بدين الحق : ما يشمل دين الإسلام ، وغيره من الأديان السماوية التى جاء بها الأنبياء السابقون . أى : ولا يدينون بدين من الأديان التى أنزلها الله على أنبيائه ، وشرعها لعباده ، وإنما هم يتبعون أحبارهم ورهبانهم فيما يحلونه لهم ويحرمونه عليهم [٨٠] .

مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ .

أى : الذين أعطاهم الله التوراة وهم اليهود ، أو الإنجيل وهم النصارى .

والمراد بالكتاب : جنسه الشامل للتوراة والإنجيل . أى : قاتلوا من أعطاهم الله التوراة والإنجيل عن طريق موسى وعيسى ، ولكنهم لم يعملوا بتعاليمها ؛ وإنما عملوا بما تمليه عليهم أهواؤهم وشهواتهم ، والمقصود بقوله : مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ تميزهم عن المشركين عبدة الأوثان فى الحكم ؛ لأن عبدة الأوثان فى بلاد العرب يخيَّرون بين أمرين الإسلام أو القتال .

أمَّا أهل الكتاب فإنهم يخيَّرون بين ثلاثة أشياء : الإسلام ، أو القتال ، أو الجزية .

والجزية : كلمة فارسية هى (كزيت) ؛ وكانت نظامًا معمولاً به عند الفرس وغيرهم .

وقد عمل به الإسلام ؛ لمن أراد البقاء على دينه من أهل الكتاب ؛ فأعفاه الإسلام من دخول الجيش أو الدفاع عن الدولة ، حيث إنه لا يعتقد بعقيدة الإسلام ، فأعفاه الإسلام من الاشتراك فى الجندية ، وأخذ منه ما يشبه البدل النقدى الذى يؤخذ من بعض المتخلفين عن الخدمة فى الجيش فى هذه الأيام .

وقد اشترط الإسلام على المسلمين حماية أهل الذمة ، والدفاع عنهم مقابل أخذ الجزية ، فإذا لم يستطع المسلمون الدفاع عن أهل الكتاب ؛ ردّوا عليهم الجزية .

وقد فعل ذلك خالد بن الوليد حين شُغل بالقتال ، عن الدفاع عن بعض أهل الكتاب فردّ عليهم الجزية، وقال : إنما أخذنا الجزية جزاء حمايتكم والدفاع عنكم ، فإذا شُغلنا عنكم رددنا الجزية لكم ، فاعترف أهل الكتاب له بالشكر وبحسن المعاملة .

حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ .

أى : أن الغاية من قتال أهل الكتاب ، هو اتفاقهم مع المسلمين ، والاعتراف لهم بحقّهم ، وإن لم يدخلوا فى الإسلام ؛ فإذا دخلوا مع المسلمين فى معاهدة ، أصبحت لهم ذمة الله ورسوله ؛ ولذلك كانوا يسمّون : أهل الذمة ؛ أى : أهل المعاهدة .

وإذا أسلموا سقطت عنهم الجزية باتفاق الفقهاء ؛ لما رواه أحمد وأبو داود والبيهقى والدارقطنى : عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : «ليس على مسلم جزية» [٨١] .

وفى رواية للطبرانى : عن ابن عمر «من أسلم فلا جزية عليه» [٨٢] .

ملحق بتفسير الآية

جاء فى التفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، ص ١٦٨٩ ما يأتى :

معنى : عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ .

(أ) اليد هنا يحتمل أن تكون كناية عن الاستسلام والانقياد ، أى : حتى يعطوا الجزية عن خضوع وانقياد وطاعة.

(ب) ويحتمل أن تكون كناية عن الدفع نقدًا بدون تأجيل ، أى : حتى يعطوها نقدًا بدون تسويف أو تأخير .

(جـ) ويحتمل أن تكون بمعنى : الغنى ، ولذلك لم تجب على الفقير العاجز من أهل الكتاب والمعنى : حتى يدفعوا الجزية عن مقدرة منهم على دفعها ، مع الاعتراف للمسلمين بالسيادة .

وهذه المعانى الثلاثة إذا أريد باليد: يد الكتابى، أمّا إذا أريد باليد: اليد الآخذة وهى يد الحاكم المسلم؛ ففى هذه الحالة يكون معناها : القوة والقهر والغلبة والحماية .

أى : حتى يعطوها للمسلمين عن يد قاهرة مستولية ؛ وهى يد المسلمين ، أو حتى يعطوها للمسلمين عن يد من المسلمين .أى : إنعام من المسلمين عليهم ؛ لأن قبول الجزية منهم وترك أرواحهم لهم نعمة عظيمة [٨٣] .

وجاء في تفسير سورة التوبة للدكتور محمد سيد طنطاوى ما يأتى :

وَهُمْ صَٰغِرُونَ : وهم خاضعون لولايتكم عليهم ؛ وقد ذهب بعض المفسّرين إلى أن معنى : وَهُمْ صَٰغِرُونَ أنّهم يؤدُّونها فى ذلة وانكسار ومهانة .

قال الزمخشرى فى تفسير الكشاف :

وَهُمْ صَٰغِرُونَ .

تؤخذ منهم على الصغار والذلّ ، وهو أن يأتى بنفسه ماشيًا غير راكب ، ويسلمها وهو قائم والمتسلم جالس ، وأن يتلتل تلتلة ، ويؤخذ بتلابيبه ويقال له : أدّ الجزية ، ويدفع فى قفاه [٨٤] .

وقال السيوطى : استدل بقوله تعالى : وَهُمْ صَٰغِرُونَ من قال : إنها تؤخذ بإهانة بأن يجلس الآخذ ؛ ويقوم الذمىّ ويطأطئ رأسه ، ويحنى ظهره ... إلخ .

وقد رد الإمام ابن القيّم على هذا القائل بقوله : هذا كلّه مما لا دليل عليه ، ولا هو من مقتضى الآية؛ ولا نقل عن رسول الله ﷺ ولا عن أصحابه .

والصواب فى الآية : أن الصّغار هو التزامهم بجريان أحكام الله عليهم وإعطاء الجزية فإن ذلك هو الصغار ، وبه قال الشافعى [٨٥] .

ونرى أن كلام الإمام ابن القيم أقرب إلى المعقول والمنقول ؛ ويتفق مع عدالة الإسلام وسماحته ورحمته بالناس أجمعين خاصة ونحن فى زمن صار العالم كله قرية واحدة ، وصار بعضهم يدّعى الدفاع عن حقوق الإنسان ، وديننا هو الذى كرّم إنسانية الإنسان ؛ فقد خلق الله آدم بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له الملائكة ، واستخلفه فى إعمار الأرض ، وقال سبحانه : وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ .

مقدار الجـزية

لم يحدد القرآن مقدار الجزية ، وقد اختلف الفقهاء فى تقديرها .

(أ) قال الشافعى : هى فى السنة دينار على الغنى والفقير من الأحرار البالغين ، وإن صولحوا على أكثر من دينار ؛ جاز لهم وتؤخذ فى آخر السنة [٨٦] .

(ب) وقال المالكية : إنها أربعة دنانير على أهل الذهب ؛ وأربعون درهمًا على أهل الفضّة ، الغنى والفقير سواء.

(جـ) وقال الحنفية : ١٢ درهمًا على الفقراء الذين لهم كسب ، ٢٤ درهمًا عى الأوساط ، ٤٨ درهمًا على الأغنياء ؛ وتؤخذ فى أول السنة ، ولا تؤخذ من فقير لا كسب له (٨٧) .

ولعلك بالتأمل ترى أن الجزية عطاء مرتبط بقوة المسلمين ، وقدرتهم على حماية أهل الكتاب والدفاع عنهم .

هذا أمر متغيّر متقلب، ونسبة الجزية تتأثر بمدى قوة المسلمين ومدى ضعف الآخرين. وربما كان من المناسب أن نقول : إنّ مقدار الجزية يترك تقديره إلى كل حالة بما يناسبها ، أو إلى تقدير أهل الحلّ والعقد.

وتقدير الحنفية أقرب إلى روح العصر ؛ لأنها تراعى حالة الكتابىّ من الفقير أو الغنى وتؤخذ منه حسب حالته.

من أحكام الآية

ذكر الأستاذ الدكتور محمد سيد طنطاوى فى تفسير سورة التوبة : أن العلماء قد أخذوا من هذه الآية الأحكام الآتية :

١ – إن هذه الآية أصل فى مشروعية الجزية ، وأنها لا تؤخذ إلا من أهل الكتاب عند كثير من الفقهاء؛ لأن أهل الكتاب هم الذين يخيرون بين الإسلام أو القتال أو الجزية ، أما غيرهم من مشركى العرب فلا يخيرون إلا بين الإسلام أو القتال .

قال القرطبى ما ملخصه :

وقد اختلف العلماء فيمن تؤخذ منه الجزية ؛ فقال الشافعى : لا تقبل الجزية إلا من أهل الكتاب خاصة، عربًا كانوا أو عجمًا ؛ لهذه الآية ؛ فإنهم هم الذين خصوا بالذكر فتوجه الحكم إليهم دون من سواهم ؛ لقوله تعالى : فى شأن المشركين : ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ . ولم يقل : حتى يعطوا الجزية كما قال فى أهل الكتاب .

وقال الشافعى : وتقبل من المجوس لحديث «سنّوليهم سنة أهل الكتاب» أى : فى أخذ الجزية منهم .

وبه قال أحمد وأبو ثور : وهو مذهب الثورى وأبى حنيفة وأصحابه .

وقال الأوزاعى : تؤخذ الجزية من كل عابد وثن أو نار أو جاحد أو مكذب .

وكذلك مذهب مالك : فإنه يرى أن الجزية تؤخذ من جميع أجناس الشرك والجحد ، عربيًا أو عجميًا، تغلبيًا أو قرشيًا ، كائنا من كان إلا المرتد (٨٨) .

٢ – إن أخذ الجزية منهم إنما هو نظير ما ينالهم وكفنا عن قتالهم ، ومساهمة منهم فى رفع شأن الدولة الإسلامية التى أمنتهم وأموالهم وأعراضهم ومعتقداتهم ، ومقدساتهم .. وإقرار منهم بالخضوع لتعاليم هذه الدولة وأنهم متى التزموا بدفعها ؛ وجب علينا حمايتهم ، ورعايتهم ، ومعاملتهم بالعدل والرفق والرحمة .

وفى تاريخ الإسلام كثير من الأمثلة التى تؤيد هذا المعنى ، ومن ذلك ما جاء فى كتاب الخراج لأبى يوسف أنه قال فى خطابه لهارون الرشيد : «وينبغى يا أمير المؤمنين – أيدك الله – أن تتقدم فى الرفق بأهل ذمة نبيك وابن عمك محمد ﷺ – والتفقد لهم ؛ حتى لا يظلموا ولا يؤذوا ولا يكلفوا فوق طاقتهم ، ولا يؤخذ شىء من أموالهم إلا بحق يجب عليهم ؛ فقد روى عن رسول الله ﷺ . أنه قال : «من ظلم من أمتى معاهدًا أو كلفه فوق طاقته ؛ فأنا حجيجه» .

وكان فيما تكلم عمر بن الخطاب عند وفاته : أوصى الخليفة من بعدى بذمة رسول الله ﷺ . أن يوفى لهم بعهدهم ، وأن يقاتل من ورائهم ولا يكلفوهم فوق طاقتهم [٨٩] .

وجاء فى كتاب «أشهر مشاهير الإسلام» :

وأن جيوش التتار ، لما اكتسحت بلاد الإسلام من حدود الصين إلى الشام ، ووقع فى أسرهم من وقع من المسلمين والنصارى ثم خضد المسلمون شوكة التتار ودان ملوكهم بالإسلام ، خاطب شيخ الإسلام ابن تيمية ، أمير التتار بإطلاق الأسرى فسمح له بالمسلمين وأبى أن يسمح بأهل الذمة ، فقال له شيخ الإسلام : لابد من إطلاق جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا ولا ندع أسيرًا لا من أهل الملة ، ولا من أهل الذمة ، فأطلقهم له [٩٠] .

وجاء فى كتاب «الإسلام والنصرانية» للأستاذ الإمام محمد عبده ما ملخصه :

«... الإسلام كان يكتفى من الفتح بإدخال الأرض المفتوحة تحت سلطانه ، ثم يترك الناس وما كانوا عليه من دين . ثم يكلفهم بجزية يدفعونها ؛ لتكون عونًا على صيانتهم والمحافظة على أمنهم فى ديارهم، وهم فى عقائدهم ومعابدهم وعاداتهم بعد ذلك أحرارًا ، لا يضايقون فى عمل ، ولا يضامون فى معاملة.

خلفاء المسلمين كانوا يوصون قوادهم باحترام العبّاد الذين انقطعوا عن العامة فى الصوامع والأديرة للعبادة ، كما كانوا يوصونهم باحترام دماء النساء والأطفال وكل من لم يُعن على القتال .

جاءت السنة بالنهى عن إيذاء أهل الذمة ، وبتقرير ما لهم من الحقوق على المسلمين ، «لهم ما لنا وعليهم ما علينا» و «من آذى ذميًا فليس منا» .

واستمر العمل على ذلك ما استمرت قوة الإسلام . ولست أبالى إذا انحرف بعض المسلمين عن هذه الأحكام عندما بدأ الضعف فى أبناء الإسلام فضيق الصدر من طبع الضعيف .

ثم قال : أما المسيحية فترى لها حق القيام على كل دين يدخل تحت سلطانها تراقب أعمال أهله ، وتخصهم دون الناس بضروب من المعاملة لا يحتملها الصبر مهما عظم ، حتى إذا تمت لها القدرة على طردهم – بعد العجز عن إخراجهم من دينهم – طردتهم عن ديارهم ، وغسلت الديار من آثارهم ، كما حصل ويحصل فى كل أرض استولت عليها أمة مسيحية استيلاءً حقيقيًا .

ولا يمنع غير المسيحى من تعدى المسيحى إلا كثرة العدد أو شدة العضد ، كما شاهد التاريخ ، وكما يشهد كاتبوه .

ثم قال : فأنت ترى الإسلام يكتفى من الأمم والطوائف التى يغلب على أرضها ، بشىء من المال ، أقل مما كانوا يؤدونه من قبل تغلّبه عليهم ، وبأن يعيشوا فى هدوء ، لا يعكرون معه صفو الدولة ، ولا يخلُون بنظام السلطة العامة ، ثم يرخى لهم بعد ذلك عنان الاختيار فى شئونهم الخاصة بهم ، لا رقيب عليهم فيها سوى ضمائرهم .

٣٠– وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ... الآية

فى هذه الآية وما بعدها يكشف الله سبحانه عن الشُّبه التى وردت على أهل الكتاب ، فأفسدت عليهم دينهم؛ وأدخلتهم فى مداخل المشركين أو الكافرين، فوصفوا بقوله تعالى فى الآية السابقة : وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ.

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ .

ذلك أنه مر على قرية قديمة ، قبورها دارسة ، وقد عمَّها الصمت والسكون والموت ؛ فقال : أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَـٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ... فلما رآه اليهود ؛ قالوا : عزيرٌ ابن الله ؛ لأن الله بعثه بعد موته.

وقيل : إن التوراة قد ضاعت أيام الأسر البابلى ، فلما عاد اليهود من الأسر ، وأعادوا بناء الهيكل ؛ لم يجدوا التوراة ، وكان عزير أو عزرا قد ملأ الله صدره نورًا ؛ فإذا التوراة محفوظة فى قلبه ، تجرى كلماتها على لسانه . ثم جمع أحبارهم وأملى عليهم التوراة من حفظه ؛ وحدث بعد هذا أن عثروا على التوراة الضائعة، فقارنوا بها ما أملاه عزرا فإذا هى هى، فكان عندهم عزرا كائنا علويًا سماويًا فنسبوه إلى الله وجعلوه ابنًا له.

والمحققون من المؤرخين يقولون : إن عزيرًا (عزرا) ، جمع محفوظات من صدور القوم ؛ ومن أوراق متناثرة وسماها : التوراة ، ولا يوجد دليل على أنها طبق الأصل ؛ فإن الأصل مفقود ، كما أن فيها وصف الله بما لا يليق به ، كالندم والضعف أمام إسرائيل ، وغير ذلك مما يقطع بوضعها [٩١] .

وقال السيد رشيد رضا فى تفسير المنار :

جاء فى دائرة المعارف اليهودية الإنكليزية - طبعة ١٩٠٣ - أن عصر عزرا هو ربيع التاريخ المِلّى لليهودية ، الذى تفتحت فيها أزهاره ، وعبق شذا ورده ، وأنه جدير بأن يكون هو ناشر الشريعة .

وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ .

أى : أن النصارى قالوا فى المسيح عيسى ابن مريم ما قالته اليهود فى عزير ؛ فقد قالوا : إنه ابن الله، وشبهتهم فى ذلك أن المسيح قد ولد من رحم امرأة دون أن تتصل برجل .

وقد فصَّل القرآن القول فى ذلك فى سورة مريم ، وآل عمران وغير ذلك من السور ؛ فالمسيح قد خلق بقدرة الله ، وأراد الله أن يجعل منه آية على هذه القدرة .

فقد خلق الله آدم من غير أب ولا أم ، وخلق حواء من أب دون أمّ ، وخلق المسيح من أم دون أب ؛ قال تعالى : إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ . (آل عمران : ٥٩) .

وقد ردَّ الله على النصارى وناقشهم ، ودحض حجتهم فى آيات كثيرة . أحيانًا حاكمهم إلى العقل فبين أن المسيح بشر جعله الله رسولاً ، وما ينبغى لبشر أن يرسله الله ثم يدعى هذا البشر الألوهية ويطلب من الناس أن يعبدوه هو ؛ بل ينبغى للرسول الأمين ، أن يدعو الناس إلى عبادة الله ربِّ الجميع .

قال تعالى : مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ . (آل عمران : ٧٩) .

وأحيانًا خاطب العقل مع العاطفة والوجدان مثل قوله تعالى :

وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا * تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا * وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا * لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا . (مريم ٨٨ - ٩٥) .

كذلك فإن المسيح أعطاه الله معجزات تؤيد رسالته مثل إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله ، فقالوا : إن المسيح ما كان يستطيع أن يفعل ذلك إلا لأنه ابن الله .

وفى القرآن : أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ... (الأنعام : ١٠١) .

أى : كيف يكون لله ولد مع أنه لا زوجة له ؟!

وجهلوا أن ميلاد عيسى كان بأمر الله : ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ . (مريم : ٢١) .

كما أن معجزات عيسى لتأييد نبوَّته ؛ كان شأنها كشأن معجزات الأنبياء السابقين ، كناقة صالح ، وعصا موسى ؛ هى بمثابة تصديق الله له فى دعواه الرسالة .

﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ . أى : هو قول يلقى على عواهنه ؛ مجرد كلام ، لم يحتكم فيه إلى عقل أو منطق.. إنه كلام .. لا أكثر ليس بينه وبين الحق نسب .

قال الشوكانى فى فتح القدير :

﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ .

أى : إن هذا القول لما كان ساذجًا ليس فيه بيان ، ولا عضَّده برهان ، كان مجرد دعوى ليس فيها إلا كونها خارجة من الأفواه ؛ غير مفيدة لفائدة يعتد بها .

﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ﴾ .

يشابهون بهذه المقالة عبدة الأوثان فى قولهم : اللات والعزى ومناة بنات الله ، والملائكة بنات الله.

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب فى التفسير القرآنى للقرآن :

ويمكن أن يكون الذين كفروا من قبل ، كل من سبق اليهود والنصارى ؛ من الذين كانوا يعتقدون بهذا المعتقد الذى يجعل لله ابنا يُعبد من دون الله ، أو يعبد مع الله ، مثل تلك المعتقدات التى كان يعتقدها اليونان فى توليد الآلهة ، بعضهم من بعض ، وكما كان يعتقد الفراعنة فى آلهتهم ، وإضافة ملوكهم إلى آلهة سماوية علوية ، وكما يعتقد المعتقدون فى بوذا وأنه مولود إلهى ا هـ .

وجاء فى تفسير المنار :

وقد علمنا من تاريخ قدماء الوثنيين فى الشرق والغرب : أن عقيدة الابن لله والحلول والتثليث ، كانت معروفة عند البراهمة فى الهند وفى الصين واليابان وقدماء المصريين وقدماء الفرس .

وهذه الحقيقة التاريخية – والتى بينها القرآن فى هذه الآية – من معجزاته ؛ لأنه لم يكن يعرفها أحد من العرب ولا ممن حولهم ، بل لم تظهر إلا فى هذا الزمان [٩٢] .

والمعنى : إن هؤلاء الضالين الذين قال بعضهم : عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ . وقال البعض الآخر : ٱلْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ.

ليس لهم على قولهم الباطل هذا دليل ولا برهان ؛ ولكنهم يشابهون ويتابعون فيه قول الذين كفروا من قبلهم من الأمم [١٣] .

قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ . أى : لعنهم الله ، أو طردهم من رحمته ورضوانه ، أو أهلكهم الله ؛ لأن من قاتله الله ؛ هلك روى ابن جرير عن ابن عباس أن معنى قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ لعنهم الله ؛ وكل شىء فى القرآن قتل فهو لعن .

والمقصود من هذا التعبير : التعجب من شفاعة قولهم حكى النقاش أن أصل قاتله الله : الدعاءُ ، ثم كثر فى استعمالهم حتى قالوه فى التعجب فى الخير والشر . وهم لا يريدون الدعاء ، وأنشد الأصمعى :

يا قاتل الله ليلى كيف تعجبنى وأخبر الناس أنّى لا أباليها

أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ .

كيف يصرفون عن الحق مع قيام الدليل عليه ؟!

يُؤْفَكُونَ . من الإفك بمعنى : الانصراف عن الشيء ؛ والابتعاد عنه ، يقال : أفكه عن الشىء يأفه إفكا؛ أى : صرفه عنه وقلبه ، ويقال : أفكت الأرض إفكا ، أى : صرف عنها المطر .

والغرض من الاستفهام هنا : التعجب والتوبيخ .

أى : إن ما قالوه ظاهر البطلان وهو محل عجب العقلاء واستنكارهم وغضبهم ،فالمسيح بشر يأكل الطعام ، وتجرى عليه أحكام البشر ، فكيف يكون إلها ؟!

قال تعالى : مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ . (المائدة : ٧٥).

وقال سبحانه : لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ . (النساء : ١٧٢) .

★ ★ ★

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

المفردات :

أحبارهم : جمع حبر بكسر الحاء وفتحها لغتان كما قال الفراء - ويطلق على العالم مطلقا وغلب فى عالم اليهود .

ورهبانهم : جمع راهب مأخوذ من الرهبة وهى الخوف ، والمراد به هنا : عابد النصارى الذى اعتزل ملذات الحياة .

التفسير :

٣١- ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ... الآية

أى : اتخذ اليهود علماء دينهم أربابًا من دون الله ؛ فأطاعوهم فى تحريم ما أحل الله ، وتحليل ما حرّم الله ، وجعلوهم بطاعتهم لهم ؛ كأنهم آلهة لهم يطاعون فيما يشرعون . واتخذ النصارى رهبانهم . أى : علماءهم المتعبدين - اتخذوهم آلهة من دون الله بأن أطاعوهم فيما لم يحل ، كما يطاع الله فيما شرعه لعباده ، مع أنهم آثمون .

قال الشوكانى فى فتح القدير :

كانوا إذا أحلُّوا لهم شيئًا ، استحلوه ، وإذا حرموا عليهم شيئًا حرَّموه ، أطاعوهم فيما يأمرونهم به ، وينهونهم عنه فيما يخالف أحكام الله تعالى ؛ فنسخوا بذلك ما فى كتب الله ، فكانوا بمنزلة المتخذين لهم أربابًا ؛ لأنهم أطاعوهم كما تطاع الأرباب .

وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ .

أى : واتخذ النصارى المسيح ابن مريم ربًّا معبودًا وكان ذلك على صور شتى ، فمرة : عبدوه على أنه ابن الله ، وأخرى : عبدوه على أنه إله ، وثالثة : على أنه ثالث آلهة ثلاثة .

قال صاحب تفسير المنار :

جمع الله بين اليهود والنصارى ؛ فى اتخاذ رجال دينهم أربابًا ؛ بأن أعطوهم حق التشريع فيهم ، وذكر بعد ذلك : ما انفرد به النصارى دون اليهود من اتخاذهم المسيح ربًّا وإلهًا يعبدونه ، واليهود لم يعبدوا عزيرًا ، ولم يؤثر عمن قال منهم : إنه ابن الله ، أنهم عنوا ما يعنيه النصارى من قولهم فى المسيح : إنه هو الله الخالق المدبّر لأمور العباد [٩٤] .

وقال الشوكانى :

اتخذ النصارى المسيح ربًّا معبودًا وفيه إشارة إلى أن اليهود لم يتخذوا عزيرًا ربًّا معبودًا .

وَمَا أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَـٰهًا وَاحِدًا .

أى : وما أمرهم الله فى كتبه التى أنزلها إليهم إلا ليطيعوا إلهًا واحدًا فيما أمرهم به أو نهاهم عنه .

لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

أى : هو الله المتفرد بالألوهية ، ولا إله إلا هو ، ولا رب سواه ، فلا يصلح أن يطاع أو يعبد غيره .

سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

أى : تنزه الله عز وجل ، وتقدس عن الشركاء والنظراء والأعوان ، والأضداد والأولاد ، فهو رب العالمين وخالق الخلائق أجمعين .

قصة إسلام عدى بن حاتم الطائى

روى الإمام أحمد والترمذى وابن جرير الطبرىّ : عن عدّى بن حاتم ، أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فرّ إلى الشام وكان قد تنصر فى الجاهلية .

ثم أُسرت أخته وجماعة من قومه ، ثم منّ الرسول ﷺ على أخته وأعطاها ، فرجعت إلى أخيها فرغبته فى الإسلام ، وفى القدوم على رسول الله ﷺ فقدم عدى إلى المدينة ، وكان رئيسا فى قومه طىء ، وأبوه حاتم الطائى المشهور بالكرم ؛ فتحدث الناس بقدومه ، فدخل عدى على رسول الله ﷺ وفى عنق عدى صليب من فضة .

وكان الرسول ﷺ يقرأ هذه الآية : ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ...

فقال عدىٌّ للرسول ﷺ : إنهم لم يعبدوهم !

فقال الرسول ﷺ : بلى ، إنهم حرموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم.

وقال رسول الله ﷺ : «يا عدىّ ، ما تقول ؟ أيضرّك أن يقال : الله أكبر ؟ فهل تعلم شيئًا أكبر من الله ؟ ما يضرك ؟ أيضرك أن يقال : لا إله إلا الله؟ فهل تعلم إلهًا غير الله ؟

ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم ، وشهد شهادة الحق ؛ فاستبشر وجه الرسول بإسلامه ثم قال : «إن اليهود مغضوب عليهم ، والنصارى ضالون» [٩٥].

٣٢- يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ .

هذا نوع آخر من ضلالهم ، وهو ما راموه من إبطال الحق ، بأقاويلهم الباطلة ، والمجادلات الزائفة.

ونُورَ ٱللَّهِ يطلق على الإسلام ، الذى بُعث به الرسول محمد عليه الصلاة والسلام ، كما يطلق على القرآن الذى أوضح الله به وجه الحق ، وكذبهم فى دعاوى بنوة عزير وعيسى لله ، وربوبية الأحبار والرهبان والمسيح ابن مريم ، وبيّن شرائع الله على وجهها الحق .

وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ .

أى : ولا يريد الله إلا أن يتم نوره بإعلاء كلمة الإسلام ، وإتمام مجده ولو كره الكافرون ذلك .

فسواء رضى أهل الكتاب أم كرهوا ، فنور الإسلام سيتم ويعم المشارق والمغارب .

وكلمة يَأْبَى ٱللَّهُ معناها : لا يريد أو لا يرضى .

أى : أن الله تعالى يبشر المؤمنين بإتمام الدين ، ويقرر سنته التى لا تتغير ولا تتبدل فى جعل العاقبة للحق وأهله ، فهذا ما يريده ويأبى نقيضه .

قال الزمخشرى : أى : لا يريد الله إلا أن يتم نوره .

وقال الآلوسى :

فى الكلام استعارة تمثيلية ؛ حيث شبّه سبحانه حال أهل الكتاب فى محاولة إبطال نبوة النبىّ عن طريق تكذيبهم له ، بحال من يريد أن ينفخ فى نور عظيم مثبت فى الآفاق ؛ ليطفئه بنفخة .

وروعى فى كل من المشبه ، والمشبه به معنى الإفراط والتفريط حيث شبه الإبطال والتكذيب بالإطفاء بالفمّ ، ونسب النور إلى الله تعالى العظيم الشأن .

وفى شأن النور المضاف إليه سبحانه أن يكون عظيمًا فكيف يطفأ بنفخ الفم [٩٦] .

والآية وعد من الله تعالى للمؤمنين بإظهار دينهم وإعلاء كلمتهم ؛ لكى يمضوا قدمًا إلى تنفيذ ما كلفهم الله به ، بدون إبطاء أو تثاقل ، وهى فى الوقت نفسه تتضمن فى ثناياها الوعيد لهؤلاء الضالين وأمثالهم .

٣٣- هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ .

هو الذى بعث رسوله محمدًا ﷺ بِٱلْهُدَىٰ أى : ما يهدى به الناس من البراهين والمعجزات والأحكام التى شرعها الله لعباده . وَدِينِ ٱلْحَقِّ وهو الإسلام الذى هو الاعتقاد الحق ، والتوحيد الخالص ، الخالى عن صرف العبادة لأى مخلوق مهما كان عظيمًا ؛ ليعلى شأن هذا الدين على جميع الأديان كلها ، ولو كره المشركون ذلك الإظهار .

وقد تحقق وعد الله ونصره لهذا الدين بالغلبة والقهر لغيره ، وبإظهار الحجة والبرهان على عدالة الإسلام وسلامة نظامه .

وقد ساق الإمام ابن كثير طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة ؛ التى بشرت الأمة الإسلامية بظهور الإسلام وانتصاره ، ونقلها الدكتور وهبة الزحيلى فى التفسير المنير ، والدكتور محمد سيد طنطاوى فى تفسير سورة التوبة . ا هـ .

وهذه طائفة من هذه الأحاديث الشريفة :

١ - ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنّه قال : «إن الله زوى لى الأرض مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتى ما زوى لى منها» [٩٧] .

٢ - وروى الإمام أحمد : عن المقداد بن الأسود يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «لا يبقى على وجه الأرض بيت مدر ولا وبر إلا دخلته كلمة الإسلام ، يعزّ عزيزًا ، ويذلّ ذليلاً ، إما يعزّهم الله فيجعلهم من أهلها ، وإما يذلّهم فيدينون لها» [٩٨] .

ورُوى هذا الحديث أيضا عن تميم الدارى ، وكان تميم الدارى إذا روى هذا الحديث يقول : قد عرفت ذلك فى أهل بيتى ، لقد أصاب من أسلم منهم الشرف والخير والعزّ ، ولقد أصاب من كان كافرًا منهم الذل والصغار والجزية .

٣ - وفى مسند أحمد أيضًا عن عدى بن حاتم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «فوالذى نفسى بيده ليتمن الله هذا الدين حتى تخرج الظعينة من الحيرة ، حتى تطوف بالبيت من غير جوار أحد ، ولتفتحن كنوز

كسرى بن هرمز ، قلت : كسرى بن هرمز ؟! قال : نعم كسرى بن هرمز ، وليبذلن المالُ حتى لا يقبله أحد» .

قال عدى بن حاتم : فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت من غير جوار أحد ، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز ، والذى نفسى بيده لتكونن فى الثالثة ؛ لأن رسول الله ﷺ قد قالها [٩٩] .

وفى ختام هذه الآيات نجد أن الحق سبحانه قد نعى على أهل الكتاب اتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله ، وأرشدهم سبحانه إلى الطريق الصحيح ، وعبادة الإله الواحد ، وبشر المؤمنين بظهور دينهم على الأديان كلها ، وهذا المعنى الذى نجده فى الآيات ٣١ – ٣٣ من سورة التوبة ، قد ورد أيضًا فى سورة الصف فى قوله سبحانه وتعالى :

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَـٰمِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ * يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ * هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ . (الصف : ٧ – ٩) .

ويؤخذ من هذه الآيات ما يأتى :

١ – عظَّم اليهود والنصارى ، أحبارهم ورهبانهم ، وأطاعوهم فيما حللوا وحرموا ، فتركوا أوامر الله فى التوراة والإنجيل واتبعوا أوامر الأحبار والرهبان ، مع مخالفتها للتوراة والإنجيل ، فكأنهم جعلوهم شركاء لله فى الأمر والتكليف والتشريع ، وليس المراد أنَّهم جعلوهم آلهة وعبدوهم ، بل المراد : طاعوهم فى أوامرهم ونواهيهم ، وتركوا أوامر الكتاب .

قال الآلوسى فى تفسيره :

والآية ناعية على كثير من الفرق الضالة الذين تركوا كتاب الله ، وسنة رسوله ، لكلام علمائهم ورؤسائهم ، والحق أحق بالاتباع ، فمتى ظهر الحق فعلى المسلم اتباعه ، وإن أخطأه اجتهاد مقلده .

٢ – أفادت الآيات قوة الإسلام وجمال شريعته ، المشتملة على الصواب والصلاح ، المطابقة للحكمة والمنفعة فى الدنيا والآخرة . وأن الإسلام يعلو على كل الأديان ، فلا دين يصمد أمام النقاش العلمى والعقلى، غير دين الإسلام ، والتاريخ على ممر الزمان ، يؤكد إنجاز هذه الوعود علانية فى اقتناع كبار العلماء فى كل اختصاص إنسانى أو علمى ، بأحقيته فى التدين والاعتقاد ، وإصلاح الحياة البشرية .

وظهر الإسلام على كل الأديان في الماضي ، ثم تأخر الإسلام ، والصواب أن يقال : تأخر أهله أما هو فباق ما بقي الليل والنهار ، وإذا عاد المسلمون إلى العمل به والتزموا بهديه وروحه ؛ عادت لهم السيادة والنصر إن شاء الله .

★ ★ ★

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ (٣٤) يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ (٣٥) ﴾

المفردات :

لياكلون أموال الناس بالباطل : المراد بأكلها بالباطل : أخذها بغير حق .

يكنزون : أي : يجمعون ، والكنز لغة : الضم والجمع ، ويطلق أيضا على كل شيء مجموع بعضه إلى بعض في بطن الأرض أو على ظهرها .

فبشرهم بعذاب أليم : أي : فأنذرهم ، والتعبير بالتبشير عن الإنذار ؛ للتهكم وتشديد الوعيد .

جباههم : جمع جبهة ، وهي من الوجه ما بين الحاجبين إلى منابت شعر الناصية .

التفسير :

٣٤ - ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ... ﴾

تحدثت آيات سابقة عن هؤلاء الذين اتخذهم اليهود والنصارى أربابًا من دون الله ، وذكرت كراهيتهم للإسلام الذي هو نور الله .

وهنا يبين سوء أخلاق أولئك الأحبار والرهبان ، الذين أفسدوا على الناس معتقدهم في الله ، فإنهم إنما فعلوا ذلك ؛ ليتسلطوا على أكل السحت والرشوة والمال الحرام ، وتغيير الأحكام والشرائع ؛ إرضاء لمن يرشونهم ، كما كانوا يأخذون من أتباعهم ضرائب وفروضًا باسم الكنائس وشئون الدين ، ويستولون عليها أو على بعضها لشهواتهم وأغراضهم ، ولا يكتفون بذلك بل يصدون أتباعهم ، ويمنعونهم عن الدخول في دين الإسلام ، واتباع محمد ﷺ .

ولقد كان الإسلام حكيمًا وسليمًا ، حين فتح باب المناجاة والتوبة والصلة بالله ، أمام الناس جميعًا، بدون وسيط فالله أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد ، وهو يقبل التوبة ويغفر الذنب ، ويجيب الدعاء .

قال تعالى : وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (البقرة : ١٨٦) .

وأكل الأحبار والرهبان أموال الناس بالباطل يتناول ما كانوا يأخذونه بغير وجه حق ، كالفتاوى الباطلة ، والرشوة والتدليس ، والتحاليل على تحليل الحرام وتحريم الحلال .

وأسند سبحانه هذه الجريمة إلى كثير من الأحبار والرهبان ، ولم يسندها إلى جميعهم ؛ إنصافًا للعدد القليل منهم ، الذى لم يفعل ذلك .

وهذا من دقائق التعبير ، وتحرى الحق فى عبارات الكتاب العزيز .

فهو لا يحكم على الأمة الكبيرة بفساد جميع أفرادها، أو فسقهم أو ظلمهم، بل يسند ذلك إلى الكثير أو الأكثر.

مثل قوله تعالى – فى اليهود – وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ . (المائدة : ٦٢) .

وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ .

أى : أنهم يصرفون الناس عن الدين الحق ، وعن الطريق الموصلة إلى الله ، وهى دين الإسلام ، ويصرفون أتباعهم عنه بشتّى الوسائل ، كأن يصفوه لأتباعهم بأنّه دين باطل ، أو بأن رسوله ليس هو الرسول الذى بشّرت به التوراة والإنجيل والكتب السماوية السابقة .

وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ .

وهذه الفقرة تتحدث عن طائفة الأحبار والرهبان ، بأنهم يكنزون المال ويبخلون به عن المستحقين، كما أن معناها يتناول البخلاء من المسلمين الذين يمنعون الزكاة ، ولا ينفقون من أموالهم على المحتاجين، أو المتضررين فى الكوارث والزلازل وأشباه ذلك .

فاللفظ مطلق عام ، يشمل البخلاء الكانزين المانعين للزكاة والنفقة الواجبة ؛ سواء أكانوا من الأحبار والرهبان أم من المسلمين .

وهناك من قصر هذه الفقرة على الأحبار والرهبان ، وفريق ثان ذكر أنها جملة مستأنفة تتحدث عن المسلمين وفريق ثالث ذكر أن معناها عام يشمل أهل الكتاب ويشمل المسلمين .

ولما نزلت هذه الآية ظن المسلمون أنه لا يحل لهم كنز المال ، وأنه يجب إنفاقه كلّه في سبيل الله ، فكبر ذلك على المسلمين ، فقال ﷺ : «ما أُدِّى زكاته فليس بكنز» [١٠٠] . أى : فليس بكنز معاقب عليه بما جاء في هذه الآية .

وكان أبو ذر الغفارى يرى أن الكنز ما فضل عن الحاجة وجمهور المسلمين على أن الكنز ما لم يؤدَّ زكاته ؛ فما أدىّ زكاته فليس بكنز ؛ فقد جعل الله الزكاة طهرة للمال .

قال تعالى : خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ... (التوبة : ١٠٣) .

وحمل أبو ذر على الأغنياء ؛ رغبة منه في أن يخرجوا عمًّا زاد عن حاجتهم ونفقتهم ، وحدث خلاف بين أبى ذر ومعاوية في تفسير الآية .

فقال معاوية : نزلت في أهل الكتاب .

وقال أبو ذر : نزلت فينا وفيهم ، واشتد الخلاف بينهما .

فكتب معاوية إلى عثمان : يشكو من أبى ذر ، فاستقدمه عثمان إلى المدينة ، فتكاثر عليه الناس ، فأخرجه عثمان إلى الربذة ؛ وعاش أبو ذر وحده بعيدًا عن الناس ، ومات وحده ، ويُبعث وحده يوم القيامة.

قال القرطبى :

وتفسير الكنز بأنه ما فضل عن الحاجة ، انفرد به أبو ذر وهو من شدائده المنقولة عنه . ا هـ .

وقيل : الكنز ما لم تؤد منه الحقوق العارضة ، كفك الأسير وإطعام الجائع، وغير ذلك من الحقوق التى تجب على الأغنياء في وقت شدة الحاجة ، ولا يكون في بيت المال ما يكفى المحتاجين ، ولا يجوز ادخار الذهب والفضة في مثل تلك الحال .

وخصّ الذهب والفضة بالذكر ؛ لأنهما الأصل الغالب في الأموال ، ولأنهما هما اللذان يقصدان بالكنز أكثر من غيرهما ، ولا يكنزهما إلا من فضلا عن حاجته ومن كثرا عنده حتى يكنزهما لم يعدم سائر أجناس المال ؛ فكان ذكر كنزهما دليلا على ما سواهما [١٠١].

وقد سلك الإسلام منهجًا معتدلا بالنسبة للمال ؛ فأباح جمعه وتثميره بلا حدود ما دام قد جمع من حلال ، وأنفق في حلال بالطرق المشروعة .

ومع ذلك أمر الله بالقصد فى الدنيا والاعتدال فى جمع المال ؛ ثقة بأن العبد عليه أن يسعى ، وأن رزقه عند الله الرازق .

وما ذهب إليه معاوية فى أن الآية خاصة بأهل الكتاب رأى ضعيف ، وما ذهب إليه السدّى فى أن الآية فى مانعى الزكاة من المسلمين خاصة رأى ضعيف أيضًا ؛ لأن سياق الآية يرشحها لأن تكون شاملة لأهل الكتاب ولمانعى الزكاة من المسلمين وهو الرأى الراجح.

وجاء فى التفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية فى الأزهر .

والمعنى : والذين يجمعون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها فى سبيل الله ،وهو ما تشتد حاجة المسلمين إليه من زكاة ، وفك أسير ، وإطعام جائع ، وتفريج ضائقة ، وغير ذلك من الحقوق التى أوجبها الشرع فى المال ؛ فأنذرهم بعذاب أليم .

٣٥- يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ ... الآية .

أى : يعذب الكانزون يوم توقد النار على أموالهم ؛ التى لم يؤدّوا حق الله فيها .

فتكوى بها جباههم التى كانوا يترفّعون بها على الناس ؛ وجنوبهم التى طالما انتفخت من كثرة الشبع وغيرها جائع ، وظهورهم التى طالما أداروها للفقراء .

قال الزمخشرى :

لأنهم كانوا إذا أبصروا الفقير عبسُوا ، وإذا ضمّهم وإياه مجلس ازوروا عنه ، وتولّوا بأركانهم وولوه ظهورهم .

هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ .

أى : يقال لهم : هذا ما كنزتموه لتنتفعوا به فهذا نفعه ، على طريقة التهكم والتوبيخ .

فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ .

أى : ذوقوا وبال كنزكم للمال وسوء عاقبته .

عن ابن عمر فى هذه الآية قال : إنما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة ، فلما نزلت الزكاة جعلها الله طهرة للأموال .

ثم قال : ما أبالى لو كان عندى مثل أحد ذهبًا ، أعلم عدده وأزكيه ، وأعمل فيه بطاعة الله .

من هدى السنة

ورد فى السنة المطهرة والأحاديث الصحيحة : أن مانع الزكاة يعذّب عذابًا شديدًا فى النار .

ففى حال يمثّل المال فيه ثعبانًا ، وفى حال يكون صفائح من نار ، وفى حال يكون رَضْفًا (حجارة محماة).

روى البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته ؛ مُثّل له يوم القيامة شجاعًا أقرعا له زبيبتان يطوّقه يوم القيامة ، ثم يأخذ بلهزمتيه – يعنى : شدقيه – ثم يقول : أنا مالك أنا كنزك ...» (١٠٢) .

وأورد ابن كثير طائفة من الأحاديث النبوية عند تفسير هذه الآية .

ثم قال ابن كثير : وفى الصحيح : أن رسول الله ﷺ قال لأبى ذر : «ما يسرنى أن عندى مثل أحد ذهبًا، يمر على ثلاثة أيام وعندى منه شيء ، إلا دينار أرصده لدين» (١٠٣) . فهذا والله أعلم هو الذى حدا بأبى ذر إلى القول بأن كل ما زاد عن النفقة فهو كنز يذم فاعله .

من كلام المفسّرين

١ – قال الزمخشرى فى تفسيره لهذه الآية :

فإن قلتَ : فما تصنع بما روى سالم بن الجعد رضى الله عنه أنها لما نزلت قال رسول الله ﷺ : «تبًّا للذهب ، تبًّا للفضة» قالها ثلاثًا فقالوا له : أى مال نتخذ ؟ قال : «لسانًا ذاكرًا ، وقلبًا خاشعًا ، وزوجة تعين أحدكم على دينه» (١٠٤) . وبقوله عليه الصلاة والسلام : «من ترك صفراء أو بيضاء كوى بها ..» (١٠٥) .

قلتُ : كان هذا قبل أن تفرض الزكاة ، فأما بعد فرض الزكاة : فالله أعدل وأكرم من أن يجمع عبده مالاً من حيث أذن له فيه ، ويؤدّى عنه ما أوجب عليه فيه ، ثم يعاقبه ؛ ولقد كان كثير من الصحابة كعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة بن عبيد الله ، وعبيد الله رضى الله عنهم ؛ يقتنون الأموال ، ويتصرفون فيها وما عابهم أحد ... (١٠٦) .

٢ – قال القرطبى فى تفسيره :

«قرر الشرع ضبط الأموال ، وأداء حقها ، ولو كان ضبط المال ممنوعًا ؛ لكان حقه أن يخرج كله ، وليس فى الأمة من يلزم هذا ، وحسبك حال الصحابة وأموالهم –رضوان الله عليهم – وأمّا ما ذكر عن أبى ذر فهو مذهب له ...» .

٣ – جاء فى تفسير القاسمى ما يأتى :

قال ابن عبد البّر : وردت عن أبى ذر آثار كثيرة تدل على أنه كان يذهب إلى : أنّ كل مال مجموع يفضل عن القوت ، وسداد العيش فهو كنز يذم فاعله ، وأن آية الوعيد نزلت فى ذلك .

وخالفه جمهور الصحابة ومن بعدهم ، وحملوا الوعيد على مانعى الزكاة ، وأصح ما تمسكوا به حديث طلحة وغيره فى قصة الأعرابى ، قال : هل علىّ غيرها ؟ قال : «لا إلا أن تطوع» . ا هـ .

وحديث طلحة الذى أشار إليه ابن عبد البرّ ورد فى صحيح البخارى ، وخلاصته : أن أعرابيًا سأل رسول الله ﷺ عن الصلاة فقال له الرسول ﷺ : «خمس صلوات فى اليوم والليلة» ؛ قال الأعرابى : هل على غيرها ؟ قال : «لا إلا أن تطوّع» .

فسأله عن حق الله فى المال ؛ فأخبره النبى ﷺ عن الزكاة ، فقال الإعرابى : وهل على غيرها ؟ قال: «لا إلا أن تطوّع» .

قال : فأدبر الرجل وهو يقول : والذى بعثك بالحق لا أزيد عليها ولا أنقص .

فقال رسول الله ﷺ : «أفلح إن صدق» [١٠٧] .

جاء فى تفسير الفخر الرازى لهذه الآية ما يأتى :

اعلم أن الطريق الحق أن يقال : الأولى أن لا يجمع الرجل الطالب للدّين المال الكثير ؛ إلا أنه لم يمنع عنه فى ظاهر الشرع ، فالأوّل : محمول على التقوى ، والثانى : على ظاهر الفتوى .

أما بيان أن الأولى الاحتراز عن طلب المال الكثير فبوجوه منها :

١ – إن كثرة المال سبب لكثرة الحرص فى الطلب ، والحرص متعب للروح والنفس والقلب ... والعاقل هو الذى يحترز عما يتعب روحه ونفسه وقلبه .

٢ – إن كسب المال شاق شديد ، وحفظه بعد حصوله أشد وأشق وأصعب ، فيبقى الإنسان طول عمره تارة فى طلب التحصيل ، وأخرى فى تعب الحفظ ...

٣ – إن كثرة الجاه والمال تورث الطغيان كما قال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ . ا هـ .

(العلق : ٦ ، ٧)

★ ★ ★

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾

المفردات:

عدة الشهور: أى: عددها.

فى كتاب الله: المراد به: إما علمه تعالى، أو اللوح المحفوظ، أو ما كتبه وأوجبه.

حرم: جمع حرام، والمراد من كون الشهر حرامًا: أن القتال محرم فيه.

الدين القيم: الدين المستقيم السليم من العوج.

كافة: جميعا.

التفسير:

٣٦- **إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَابِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ ...** الآية.

يخبر الله تعالى عن أشهر السنة فيقول:

إنّ عدة الشهور فى علمه تعالى وحكمه، وفيما كتبه وأوجب الأخذ به، وأثبته فى نظام دورة القمر، وفى اليوم الذى خلق فيه السماوات والأرض، وخلق العالم؛ اثنا عشر شهرًا على النحو المألوف اليوم والمراد: الأشهر القمرية؛ لأن الحساب بها يسير؛ يعتمد على رؤية القمر، من كل الناس المتعلمين والعوام والمراد بقوله: **فِى كِتَابِ ٱللَّهِ**. فيما كتبه الله وقدره.

قال أبو السعود: فى اللوح المحفوظ، أو فيما أثبته وأوجبه.

والمراد بقوله: **يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ**.

أى: يوم أبدع نظام الكون منذ خلق الله الأجرام والحركات والأزمنة، وأوجد الليل والنهار، وأضاء الليل بالقمر، ونور النهار بالشمس، وأوجد نظامًا بديعًا متكاملاً تحفظه يد القدرة الإلهية.

مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ .

أى : من هذه الشهور الاثنى عشر ، أربعةٌ حرم ، وحرَّم الله فيها القتال منذ شريعة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وهذه الشهور الأربعة هى : «ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب» . منها ثلاثة متوالية سرد، وواحد فرد ؛ هو رجب الذى بين شعبان وجمادى .

قال ابن كثير :

وإنما كانت الأشهر المحرمة أربعة ، ثلاثة سرد ، وواحد فرد ؛ لأجل أداء مناسك الحج والعمرة، فحرم قبل الحج شهرين وهما ذو القعدة ، وذو الحجة ؛ لأنهم يوقعون فيهما الحج ، ويشتغلون بأداء المناسك ، وحرم بعدهما شهرًا آخر هو المحرم ؛ ليرجعوا فيه إلى أقصى بلادهم آمنين ، وحرم رجب فى وسط الحول ؛ لأجل زيارة البيت والاعتمار به لمن يقدم إليه من أقصى جزيرة العرب ، فيزوره ثم يعود إلى وطنه آمنًا .

من هدى السنة

روى الإمام أحمد ، والبخارى فى التفسير : عن أبى بكرة : أن النبى ﷺ خطب فى حجة الوداع فقال:

«ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض ؛ السنة اثنا عشر شهرًا منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب مُضر الذى بين جمادى وشعبان ...»[١٠٨]. إلى آخر الحديث ومعنى : استدارة الزمان كهيئته : رجوع الأشهر إلى ما كانت عليه من الحل والحرمة ؛ كل منها فى موضعه من الزمان ، وعاد الحج إلى ذى الحجة فى حجة الوداع فى سنة عشر ، وكانت حجة أبى بكر فى ذى القعدة سنة تسع ، قبل حجة النبى ﷺ مباشرة[١٠٩] .

ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ

ذلك التحريم لهذه الشهور فى مواضعها هو الدين القويم الذى دان به إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وكانت العرب قد تمسكت به وتوارثته عنهما ، وكانوا يعظمون الأشهر الحرم ؛ ويكرهون القتال فيها حتى أنه لو لقى رجل قاتل أبيه أو أخيه لم يتعرض له ، وسمُّوا رجبا : شهر الله الأصمّ أى : الذى لا تسمع فيه قعقعة السيوف .

فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ .

أى : لا تهتكوا حرمتها ، بارتكاب ما حُرم فيها من القتال أو المعاصى .

قال أبو السعود فى التفسير :

والجمهور : على أن حرمة القتال فيهن منسوخة ، وأن الظلم فيهن : ارتكاب المعاصى فى هذه الأشهر الحرم ؛ فإنه أعظم وزرًا ، كما أن ارتكاب المعاصى فى الحرم أعظم وزرًا . وعن عطاء : إن تحريم القتال فى الاشهر الحرم ثابت محكم لم ينسخ بهذه الآية ، إلا أن يبدأ العدو بالقتال فيها فنقاتله لقوله تعالى : ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ . (البقرة: ١٩٤) .

ويؤيد رأى الجمهور أن النبى ﷺ : حاصر الطائف ، وغزا هوازن بحنين فى شوال وذى القعدة .

وعن قتادة : أن الله اصطفى صفايا من خلقه ، اصطفى من الملائكة رسلاً ، ومن الناس رسلاً ، واصطفى من الكلام ذكره ، واصطفى من الأرض المساجد ، واصطفى من الشهور رمضان والأشهر الحرم ، واصطفى من الأيام يوم الجمعة ، واصطفى من الليالى ليلة القدر ، فعظموا ما عظم الله ، فإنما تعظم الأمور بما عظمها الله عند أهل الفهم .

﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ﴾ .

أى : قاتلوا المشركين مجتمعين غير متفرقين ؛ كما يقاتلونكم كذلك .

قال الآلوسى فى التفسير :

وكلمة ﴿كَآفَّةً﴾ . من الكلمات التى لا تثنَّى ولا تجمع ولا تدخلها ال ولا تعرب إلا حالاً فهى ملتزمة للإفراد والتأنيث مثل : عامة وخاصة . ا هـ .

أى : قاتلوا المشركين حال كونكم مجتمعين متعاونين متناصرين غير مختلفين ولا متخاذلين ، كما يقاتلونكم كذلك .

ومن العلماء من قال : إن الآية أوجبت القتال على كل قادر ، ثم نسخ ذلك فجعل فرض كفاية .

وقد بين المرحوم الأستاذ عبد الكريم الخطيب : أن الدين الإسلامى دين عقيدة ، لا إكراه فيه ، ولا يُجبر أحد على اعتناقه ، ووجوب قتال المشركين كافة ؛ كان مرتبطا بحال معينة هى وضع المشركين فى جزيرة العرب الذين كونوا طابورًا خامسًا ؛ يتجسسون على المسلمين ، وينقلون عوراتهم إلى أعدائهم .

وأنكر ابن عطية أن هذه الآية أوجبت القتال على كل قادر ؛ فقال : لم يعلم قط عن شرع النبى ﷺ أنه ألزم الأمة جميعًا النَّفر والقتال ، وإنما معنى هذه الآية : الحضّ على قتال المشركين وجمع الكلمة .

وجاء فى التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلى :

وهذا القول بإباحة القتال فى الأشهر الحرم هو المعتمد شرعًا ، ويحتمل أن يكون قوله تعالى : وَقَاتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً . منقطعًا عما قبله ، وأنه حكم مستأنف ، للتحريض على قتال المشركين ، أى : كما يجتمعون لحربكم إذا حاربوكم ؛ فاجتمعوا أنتم أيضًا لهم إذا حاربتموهم ، وقاتلوهم بنظير ما يفعلون . ا هـ .

وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ .

أى : واعلموا أن الله مع عباده المتقين بالعون والنصر ، والمعونة على الأعداء ؛ فكونوا مع الله مبتعدين عن معاصيه ، واجعلوا بينكم وبين المعاصى وقاية من تقوى الله ومخافته ، وبهذا يكون الله معكم معينًا وناصرًا ، ومن وجد الله وجد كل شىء ، ومن فقد الله فقد كلّ شىء .

* * *

﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٣٧) ﴾

المفردات :

النسىء : تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر .

ليواطئوا : ليوافقوا .

عدة : عدد .

التفسير :

٣٧- إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا ... الآية .

تكشف هذه الآية عن عبث المشركين بحرمات الله ، والاستخفاف بها ، والاحتيال على خداع أنفسهم بتزيين الباطل ، وإلباسه ثوب الحق ؛ فقد كان المشركون فى الجاهلية يحرمون هذه الأشهر الحرم التى هى بعض البقية الباقية لهم من شريعة إبراهيم التى كانوا يدينون بها ، ثم أدخلوا عليها من أهوائهم ما أفسدها حتى هذه الأشهر الحرم ، فقد استثقلوها ، وضاقوا بأن تظلهم ثلاثة أشهر متوالية دون قتال ، وهى : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم .

فكانوا يعمدون إلى شهر المحرم فينسئوونه ، أى : يؤخرونه إلى صفر ويقيمون صفر مقامه .

وبهذا يخلعون على المحرم اسم صفر، ويبيحون فيه القتال، ويسمّون صفر: محرما ويحرمون فيه القتال.

وكأن المقصود عندهم عدد الشهور لا ذاتها . أليسوا قد حرّموا أربعة أشهر ؟ وماذا فى استبدال شهر بشهر آخر ؟ فيحلون المحرم عامًا إذا جاءوهُم محاربون ؛ ليستبيحوا فيه القتال ، ويحرمون المحرم فى عام آخر، إذا لم تدع للقتال داعية عندهم .

والمعنى :

إنما تأخير حرمة شهر إلى شهر آخر زيادة فى الكفر، لما فيه من تحليل ما حرمه الله ، وتحريم ما أحله الله ، فهو كفر آخر مضموم إلى كفرهم بالله ، وبذلك يكونون قد جمعوا بين الكفر فى العقيدة ، والكفر فى التشريع .

يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ . أى : إن الذى سنّ لهم ذلك ؛ يجعلهم ضالين بهذه السنّة السيئة .

يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ .

أى : يحلّون الشهر الحرام عامًا ، ويجعلون مكانه فى التحريم شهرًا حلالاً ، ويحافظون على حرمته كما كان فى شرع إبراهيم عامًا آخر، إذا لم يتعلق بتغييره غرض من أغراضهم .

يفعلون ذلك ؛ لكى يوافقوا عدد ما حرم الله من الأشهر الحرم .

لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ .

أى : ليوافقوا بما فعلوه عدة الأشهر الحرم ، بحيث تكون أربعة فى العدد ، وإن لم تكن عين الأشهر المحرمة فى شريعة الله .

جاء فى تفسير الفخر الرازى :

قال ابن عباس: ما أحل المشركون شهرًا من الأشهر الحرم ؛ إلا حرموا مكانه شهرًا من الأشهر الحلال، وما حرموا شهرًا من الحلال إلا أحلوا مكانه شهرا من الأشهر الحرم ؛ لكى يكون عدد الأشهر الحرم أربعة . ا هـ .

ونلاحظ أنهم خالفوا التخصيص الذى أوجبه الله ، وهو تحريم أربعة أشهر بعينها ، وترتب على ذلك: أنهم أحلوا ما حرم الله مثل : المحرم ، وحرموا ما أحل الله مثل : صفر .

قال تعالى : فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ .

أى : من الأشهر الحرم التى أبْدلوها بغيرها .

زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَافِرِينَ .

أى : زين لهم الشيطان والرؤساء الأعمال السيئة التى يعملونها ومن جملتها : النَّسىء .

وقد اقتضت حكمة الله أن يمد المتقين بأسباب الهداية ، أما الكافرين الذين اختاروا العمى على الهدى، وآثروا طريق الغىّ على طريق الرشاد ؛ فإن الله لا يهديهم إلى طريقه القويم .

فى أعقاب تفسير الآيات

١- يستنبط من كلام ابن كثير فى تفسيره : أنه يميل إلى القول : بأن المنهى عنه هو ابتداء القتال فى الأشهر الحرم لا إتمام القتال فيها متى بدأ الأعداء ذلك ، وهو قريب من قول القائل : لا يحل القتال فيها ولا فى الحرم إلاّ أن يكون دفاعًا .

٢- ذكر المفسرون روايات متعددة فى اسم أول من أخَّر حرمة شهر إلى آخر .

قيل : أول من أحدث النسىء : جنادة بن عوف الكنانى ، وكان مطاعًا فى الجاهلية ، كان يقوم على جبل فى الموسم فينادى بأعلى صوته : إن آلهتكم قد أحلت لكم المحرم فأحلوه ، ثم يقوم فى العام القابل فيقول: إن آلهتكم قد حرمت عليكم المحرم فحرموه .

وقال آخرون : هو رجل من بنى كنانة يقال له : القلمس ، ولعله ظهر بعد موت من سبقه .

وكان بعض أهل الجاهلية يتفاخر بهذا النسىء ، فيقول شاعرهم : ومنّا ناسئ الشهر القلمّس .

ويقول آخر :

ألسنا الناسئين على معد شهور الحلّ نجعلها حرامًا

٣- عدد الشهور القمرية ١٢ شهرًا ، والواجب فى شريعتنا الاعتماد على السنة القمرية فى العبادات كالصوم والحج وغيرها ؛ وذلك حتى يصوم المسلم ويحج فى سائر شهور العام وفصوله ؛ فيعبد الله فى الصيف والشتاء والربيع والخريف .

قال تعالى :

يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ . (البقرة : ١٨٩) .

وينبغى أن ننبه المسلمين إلى العناية بالتاريخ الهجرى العربى ، فيحافظوا على ذكره ومعرفته مع التاريخ الميلادى الشمسى أو القبطى . يجب أن نذكرهما معًا . ونعتز بتاريخنا ولا نهمل حفظه

ومعرفته؛ فذلك جزء من شعائر الدين . قال تعالى : ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ . (الحج: ٣٢) .

٤- نلاحظ أن سورة التوبة من بدايتها إلى نهاية الآية ٣٧ قد حددت العلاقات النهائية ، بين المسلمين وبين أعدائهم من المشركين وأهل الكتاب ، كما نراها أبرزت الأسباب التى دعت إلى هذا التحديد بأسلوب حكم مؤثر يقنع العقول ويشيع العواطف .

وفى الآيات القادمة تنتقل السورة إلى الحديث عن غزوة تبوك ، وما يتصل بها من أحداث متنوعة ، وقد استغرق هذا الحديث معظم آيات السورة لا سيما فيما يتعلق بهتك أستار المنافقين والتحذير منهم .

★ ★ ★

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾

المفردات :

انفروا فى سبيل الله : اخرجوا للجهاد فى سبيله .

اثاقلتم : تباطأتم .

متاع الحياة الدنيا : المراد من متاعها : التمتع بلذائذها .

التفسير:

٣٨- يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ ... الآية .

سبب نزول هذه الآيات وما بعدها : أن النبى ﷺ استنفر أصحابه ؛ ليخرجوا معه فى غزوة تبوك ، وكانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام .

وكان الحر شديدًا ، وبالناس عسر وقحط ، وقد نضجت ثمار المدينة وطابت ظلالها .

وتبوك فى منتصف الطريق بين المدينة ودمشق ، تبعد عن الأولى ٦٩٠ كم ، وعن الثانية ٦٩٢ كم ؛

فالشقة بعيدة ، والعدو قوى وكثير ، فشق عليهم ذلك ، وتباطؤوا فى الاستجابة ، فنزلت هذه الآيات ؛ تحثهم على التضحية بالنفس والمال فى سبيل الله .

والمعنى :

يا أيها المؤمنون بالله ورسوله ، أىّ شىء حصل لكم ؟ فثبطكم عن النهوض للجهاد ؟ حين قال لكم الرسول الأمين : انفروا فى سبيل الله لقتال الروم الذين تجهزوا لقتالكم ؛ تثاقلتم وتكاسلتم وملتم إلى الراحة وطيب الثمار ، والتفيؤ فى الظلال ، وكرهتم مشاق الغزو ومتاعبه .

من كتب السيرة

جاء فى سيرة ابن هشام وغيرها من كتب السيرة النبوية : أن سبب هذه الغزوة ؛ استعداد الروم والقبائل العربية المتنصرة من لخم وجذام وغيرهم ، وتجهيز جيش كثيف لغزو المدينة بقيادة (قباذ) وعدد جنده أربعون ألفًا .

فندب النبى ﷺ الناس للخروج لمقاتلتهم وكان عثمان قد جهَّز عيرًا إلى الشام للتجارة ، فقال: يا رسول الله ، هذه مائتا بعير بأقتابها وأحلاسها ، ومائتا أوقية (من الفضة) ، فقال النبى ﷺ : «ما ضر عثمان ما فعل بعد اليوم»[١١٠] .

«ولما لم يجد النبى من يقاتله عاد إلى المدينة ، بسبب انسحاب الروم ، وعدولهم عن فكرة الزحف ؛ واقتحام الحدود ، ولكن كان لهذه الغزوة أثر معنوى كبير ، فى نظر العرب والروم ، فكانت كفتح مكة ؛ لأنها كانت احتكاكا بأعظم قوة حينذاك ، وأثَّرت على المدى البعيد فى نفوس الأعداء ، بعد أن كان العرب يخشون غزو الروم فى عقر دارهم ، وقد مهد الله بهذه الغزوة . لغزو المسلمين للشام فى عهد الخليفتين : أبى بكر وعمر[١١١]» .

أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ .

أرضيتم بلذات الحياة الدنيا الزائدة بدلاً من الآخرة ونعيمها الدائم ؟

إن كنتم فعلتم ذلك ؛ فقد تركتم الخير الكثير فى سبيل الشىء الحقير ؛ فما متاع الحياة الدنيا فى جنب متاع الآخرة إلا قليل ؛ لا ينبغى أن يُحرص عليه ؛ لأنه لا يصلح عوضًا عن المتاع الكثير فى الآخرة .

روى الإمام أحمد ومسلم والترمذى : عن المستورد أخى بنى فهر قال : قال رسول الله ﷺ : «ما الدنيا فى الآخرة إلاّ كما يجعل أحدكم إصبعه هذه فى اليم فلينظر بم ترجع؟»[١١٢] وأشار بالسبابة .

وروى ابن أبى حاتم : عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الله يجزى بالحسنة ألفى ألف حسنة»، ثم تلا هذه الآية : فَمَا مَتَاعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ . (١١٢).

٣٩- إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ... الآية .

أى : إن تباطأتم أيها المؤمنون عن الجهاد ؛ يعذبكم الله عذابًا أليما ، ويستبدل بكم قومًا سواكم لنصرة نبيه ، ولن تضروه شيئًا من الضرر بسبب تقاعسكم ؛ لأنكم أنتم الفقراء إليه والله هو الغنى الحميد .

وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا .

الضمير يمكن أن يعود إلى الله عز وجل . أى : لا تضروا الله شيئًا بتولِّيكم عن الجهاد وتثاقلكم ؛ فهو القاهر فوق عباده .

وقيل : الضمير للرسول أى : ولا تضروه ؛ لأن الله وعده أن يعصمه من الناس ، وأن ينصره ، وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُ . (الحج: ٤٧).

وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ .

فهو سبحانه قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم وقد وعد رسوله بالنصر ، وإظهار دينه ، فإن لم يكن هذا الإظهار بأيديكم ، فلابد أن يكون بأيدى غيركم ؛ وهو سبحانه فعال لما يريد .

وقد اشتملت هذه الآية والآية التى قبلها على أقوى الأساليب التى ترغّب فى الجهاد ، وترهّب من النكوص عنه ، وتبعث على الطاعة لله ورسوله .

★ ★ ★

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

المفردات :

ثانى اثنين : أى : أحد اثنين ، هما الرسول ﷺ ، وأبو بكر رضى الله عنه .

الـغـار: هو في اللغة : فجوة في الجبل تشبه البيت ، كالمغارة والكهف ، والمراد به هنا : غار جبل ثور الواقع على بعد ساعة سيرًا من مكة ، وقد مكثا فيه ثلاثة أيام .

سكينته: طمأنينته التي تسكن عندها القلوب .

التفسير:

٤٠- **إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا** ... الآية

أي : إن تركتم نصرة الرسول ﷺ ؛ فالله تعالى متكفل به ، فقد نصره في مواطن القلة ، وأظهره على عدوّه بالغلبة والقهر .

أو المعنى : فسينصره من نَصَرَه حين لم يكن معه إلا رجل واحد وقت إخراج الذين كفروا له ، وهو واحد من اثنين فحسب ، إذ كان معه أبو بكر رضي الله عنه فقد حفظهما الله تعالى وهما يسيران وحدهما نحو الغار للاختفاء فيه ، حتّى ينقطع الطلب عنهما ، ثم حفظهما في الغار ثلاث ليال ، وأعمى عنهما عيون الأعداء ، حيث كان الكفار فوق الغار ؛ فقال أبو بكر : يا رسول الله : لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ، فقال له الرسول ﷺ : يا أبا بكر ، ما بالك باثنين الله ثالثهما **لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا** . أي : بالعون والحماية من المكاره؛ فلن تصل إلينا أيديهم بسوء .

روى أحمد والشيخان عن أنس قال : «حدثني أبو بكر قال : كنت مع النبي ﷺ في الغار ، فرأيت آثار المشركين ، فقلت : يا رسول الله ، لو أن أحدهم رفع قدمه لأبصرنا تحت قدمه ؛ فقال : يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين ، الله ثالثهما ، وفي رواية أحمد : «لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه» [١١٤] .

فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا .

أي : فأنزل الله طمأنينته وتأييده ونصره عليه أي : على الرسول ﷺ في أشهر القولين وقيل : على أبي بكر حتى هدأ واطمأن .

وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا .

أيد الله رسوله بجنودٍ خفية لم تقع عليها أبصاركم ، فلم يستطع أعداؤه بسبب هذه الحراسة الربانية أن يصلوا إلى مأربهم ، وإن وصلوا إلى الغار الذي يؤويه وعادوا خائبين .

روى : أن قريشًا أتت بقائف معروف بقفاء الأثر ، حتى وقف على الغار ، فقال : هنا انقطع الأثر فنظروا فإذا العنكبوت قد نسج على فم الغار من ساعته [١١٥] .

قصة الهجـرة

رغبت قريش فى قتل الرسول ﷺ فبيتوه ورصدوه ، واجتمعوا على باب منزله طوال ليلتهم ؛ ليقتلوه إذا خرج ، فأمر النبى ﷺ على بن أبى طالب أن ينام على فراشه ، وفى هذه مخاطرة من علىٍّ بحياته؛ لحماية الرسول ﷺ . ودعا النبى ﷺ أن يعمى الله عليهم أثره ؛ فطمس الله على أبصارهم ؛ فخرج وقد غشيهم النوم.

فلما أصبحوا خرج عليهم علىٌّ وأخبرهم: أن ليس فى الدار أحد ؛ فعلموا أن رسول الله ﷺ قد فات ونجا.

وخرج رسول الله ﷺ إلى بيت أبى بكر ، ثم خرجا من خوخة (ثغرة) فى ظهر دار أبى بكر ؛ ونهضا نحو الغار فى جبل ثور .

واتفقا مع عبد الله بن أريقط ، أن يأتى إليهما بعد ثلاث ليال إلى الغار ، وكان عارفًا بالطريق ، فاستأجراه ؛ ليدلّ بهما إلى المدينة ، وكان كافرًا على دين قومه ، لكنهما وثقا به ودفعا إليه راحلتين ؛ ليأتى بهما إلى الغار .

وكان عبد الله بن أبى بكر يستمع ما يقول الناس ، وينقله إليهما ، وكانت أسماء بنت أبى بكر تأتيهما بالطعام ، وكان عامر بن فهيرة يرعى غنمه إلى الغار ، فيخفى آثار عبد الله وأسماء .

عناية الله إن تولت ضعيفًا		تعبت فى مراسه الأقوياء

وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

أى : قضى الله على دولة المشركين ، وجعل كلمتهم وضيعة مقهورة .

وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَاۗ . أى : كلمة التوحيد ، ودعوة الإسلام ، ودعوة الإسلام : صفتها الدائمة أنّها فوق كل كلمة ، والإسلام يعلو ولا يعلى عليه .

وقد مكن الله رسوله من الهجرة إلى المدينة ، وحفظه فى الغار ، ويسر الله له طرق الجهاد حتى فتحت مكة ودخل الناس فى دين الله أفواجًا .

وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . أى: هو سبحانه غالب قاهر ، لا يفعل إلا ما فيه حكمة وصواب .

ويؤخذ من الآيات ما يأتى

١- فضل أبى بكر الصديق ؛ فهو صاحب الرسول وعونُه ورفيقه فى الغار ؛ فى وقت تكالب عليه الأعداء .

٢- جواز الاستعانة بالمشركين ؛ كما استعان النبى بعبد الله بن أريقط ، وائتمنه على سره وعلى الراحلتين.

قال المهلب : وفى هذا من الفقه ائتمان أهل الشرك على السرِّ والمال ؛ إذا علم منهم وفاء ومروءة ، كما ائتمن النبى هذا المشرك على سرِّه فى الخروج من مكة وعلى النّاقتين .

وقال ابن المنذر : فيه استئجار المسلمين الكفار على هداية الطريق .

٣- عناية الله لرسوله وحفظه وحراسته وهو أمام عدو قوى عنيد .

٤- من وجد الله ؛ وجد كل شىء ومن فقد الله ؛ فقد كل شىء[١١٦] .

٥- ساق الإمام فخر الدين الرازى ، والشيخ رشيد رضا فى تفسير المنار اثنى عشر وجها فى فضل أبى بكر الصديق ، فهو أول من أسلم من الرجال ، وهو وزير النبى وصاحبه فى الغار ، وخليفته على الصلاة ، وقائد المسلمين فى حروب الردّة ، والمنفق ماله فى سبيل الله ، وورد فضله فى الأحاديث الصحيحة.

★ ★ ★

﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) ﴾

المفردات :

انفروا خفافا وثقالا : أى : اخرجوا للجهاد على أى حال ، سواء سهل على نفوسكم فخفت ونشطت ، أو شق عليها فثقلت.

عرضا قريبا : نفعًا سهل المأخذ .

سفرا قاصدا : سفرًا قريبًا سهلاً .

الشقة : المسافة التى تقطع بمشقة .

التفسير:

٤١ – ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ... الآية

أى : اخرجوا للجهاد فى سبيل الله على أى حال كنتم ، من يسر أو عسر ، صحة أو مرض ، غنًى أو فقر، شغل أو فراغ منه ، كهولة أو شباب .

وجاهدوا أعداءكم ببذل أموالكم ، وببذل أنفسكم فى سبيل الله ، أى : فى سبيل إعلاء كلمة الله ونصرة دينه .

ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ .

ذلكم المأمور به من النَّفْر والجهاد فى سبيل الله ؛ خير لكم فى دنياكم وآخرتكم من التثاقل عنهما؛ إن كنتم من أهل العلم بحقيقة ما بيَّن لكم خالقكم على لسان رسوله ﷺ .

روى الشيخان والنسائى : عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : «تكفَّل الله للمجاهد فى سبيله، إن توفاه أن يدخله الجنة ، أو يردَّه إلى منزله بما نال من أجر أو غنيمة»[١١٧] .

من أحكام الآية

تدل هذه الآية على أن الجهاد والنفير العام كان فرض عين فى غزوة تبوك ؛ نظرًا لبعد الشقة وكثرة العدوّ.

روى ابن عباس عن أبى طلحة فى قوله تعالى : خِفَافًا وَثِقَالاً . قال : شبابًا وكهولاً ، ما قبل الله عذر أحد فى التخلف عن الجهاد ؛ فخرج أبو طلحة إلى الشام فجاهد حتى مات .

ومن العلماء من يرى أن هذه الآية قد نسخت بآيات أخرى .

فروى عن ابن عباس وآخرون : أنها منسوخة بقوله تعالى : لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلاَ عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ (التوبة : ٩١).

وجاء فى حاشية الجمل على تفسير الجلالين :

«والصحيح أن هذه الآية منسوخة ؛ لأن الجهاد من فروض الكفاية وأنه ليس على الأعيان» .

قال القرطبى فى تفسيره :

والصحيح أنها ليست بمنسوخة ، ويبقى الجهاد فرض عين إذا تعيَّن بغلبة العدوّ على قطر من الأقطار؛ فيجب حينئذ على جميع أهل تلك الدار ، أن ينفروا ويخرجوا إلى الجهاد خفافًا وثقالاً ، شبَّانًا وشيوخًا ، كلٌّ

على قدر طاقته ، يخرج الابن بغير إذن أبيه ، ولا يتخلف أحد يقدر على الخروج ، فإن عجز أهل تلك البلدة عن القيام بدحر العدوّ ، كان على من قاربهم وجاورهم أن يخرجوا ؛ لتحقيق الهدف المرجوّ ؛ فالمسلمون كلهم يد واحدة على من سواهم ، حتى إذا قام هؤلاء بدفع العدو ؛ سقط الغرض عن الباقين .

ولو قارب العدو دار الإسلام ، ولم يدخلوها ؛ لزم المسلمين أيضًا الخروج إليه ؛ حتى تعلو كلمة الله ، وتصان البلاد ويخزى العدو[١١٨] ا هـ .

الخلاصة :

الجهاد قد يكون فرض عين ، وقد يكون فرض كفاية . فيكون فرض عين إذا تغلب العدو على قطر من الأقطار ؛ فيجب الجهاد على جميع أهل ذلك القطر ، ويجب مساعدتهم على من جاورهم ، ويكون الجهاد فرض كفاية ، فيعفى منه الضعفاء والمرضى وأصحاب الأعذار ومن لا يجيد الحرب ، إذا قام الجيش بالدفاع عن البلد وذكر الإمام محمد أبو زهرة : أن الحرب الآن صارت فنًّا متقدمًا يستفرغ الشاب عمره فى إجادة فن من فنونه؛ وتحتاج الحرب الآن إلى تخصص دقيق وتنظيم معين ، ويؤدى كل فرد واجبه فى تخصصه الذى يتقنه ويجيده.

ونلاحظ أن الصحابة رضوان الله عليهم ؛ قد بادروا إلى امتثال أمر الله فى الدعوة إلى الجهاد ، فخرجوا فى سبيل الله خفافًا وثقالاً ؛ وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله .

روى ابن جرير الطبرى : عن أبى راشد الحرانى قال : وافيت المقداد بن الأسود فارس رسول الله جالسًا على تابوت من توابيت الصيارفة بحمص ، وهو يريد الغزو ، وقد تقدمت به السنّ ، فقلت له : لقد أعذر الله إليك.

فقال : أتت علينا سورة البعوث «أى : سورة براءة»: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً﴾ .

وجاء فى التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلى :

والجهاد واجب بالنفس والمال إذا قدر عليهما ، أو على أحدهما على حسب الحال والحاجة .. كما فعل عثمان رضى الله عنه فى تجهيز جيش العسرة ، وكما فعل غيره من أغنياء الصحابة .. ولما أصبح فى بيت المال وفْر وسعة ؛ صار الحكام يجهزون الجيوش من بيت المال ، وهذا هو المتبع الآن، حيث تخصص بنود من الميزانية كل عام لنفقات الحرب والدفاع وتزداد الميزانية عند الحاجة . ا هـ .

٤٢ - ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ ... الآية .

قال الفخر الرازى : نزلت هذه الآية فى المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك . ا هـ .

وقد وبّخ الله فيها المنافقين الذين استأذنوا النبى ﷺ فى التخلف مظهرين أنهم ذو أعذار وكانوا كاذبين .

والمعنى :

لو كان الأمر الذى دعوتهم إليه غنيمة أو منفعة قريبة المنال ، أو سفرًا سهلاً قريبًا لا عناء فيه : لاتبعوك ؛ طمعًا فى الحصول على المغانم القريبة السهلة ، ولكنهم تخلفوا حينما رأوا أن السفر شاق إلى مسافة بعيدة إلى الشام ، ويحتاج إلى تضحيات جسيمة ؛ فآثروا الجبن والراحة والسلامة ، والتفيوّ فى الظلال وقت الحر والقيظ ؛ فدلّ ذلك على أنهم جماعة نفعيون ماديون دنيويون .

وشبيه بهذه الفقرة من الآية قول الرسول ﷺ فى شأن المتخلفين عن صلاة الجماعة فى الحديث المتفق عليه : «لو يعلم أحدهم أنه يجد لحمًا سمينًا ، أو عظمًا عليه لحم لشهد العشاء»[١١٩] .

وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ .

قال الفخر الرازى : أخبر الله رسوله عن المنافقين ، إثر عودته من غزوة تبوك ، بأنهم سيحلفون له؛ والأمر لما وقع ، كما أخبر الله تعالى ؛ كان هذا إخبارًا عن الغيب فكان معجزًا .

والمعنى :

وسيقسمون بالله باليمين الكاذبة عند رجوعك من غزوة تبوك ، قائلين على سبيل الاعتذار عن تخلفهم: لو كنا نستطيع الخروج معك إلى تبوك لخرجنا إليها ؛ فإننا لم نتخلف عن الخروج معكم إلا مضطرين، فقد كانت لنا أعذارنا القاهرة التى حملتنا على التخلف .

يهلكون أنفسهم بهذه اليمن الفاجرة ، يقسمون بها على الادعاء الكاذب .

وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . فقد كانوا يستطيعون الخروج ، ولم يكن لهم عذر فى التخلف ، ولكنهم آثروا الدِّعة والراحة ، وزهدوا فى الجهاد ثم تجرءوا على اليمين الغموس كذبًا على الله ورسوله .

وفى الحديث الشريف : عن خيثمة بن سليمان أن رسول الله ﷺ قال : «اليمين الغموس تدع الديار بلاقع»[١٢٠] .

واليمين الغموس من الكبائر ، ولايكفّرها إلا الغمس فى نار جهنم .

ولكن المنافقين ، وهنت عزيمتهم وضعف يقينهم ؛ فآثروا الراحة ،واستهانوا بالأيمان : ليرضوا بها الناس، وكان الأولى بهم أن يرضوا رب الناس . قال تعالى : يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَاسِقِينَ . (التوبة ٩٦) .

★ ★ ★

﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

المفردات :

عفا الله عنك : لم يؤاخذك بالإذن لهم فى التخلف .

ارتـــابت : وقعت فى الريب وهو الشك .

يـــترددون : يتحيرون .

التفسير :

٤٣ - عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ .

أى : سامحك الله بإذنك لهم ، لم أذنت لهم بالتخلف ، وهلاّ استأنيت بالإذن وانتظرت ، وهلاّ تركتهم لما استأذنوك ؛ لتعلم الصادق من الكاذب عن طريق أصحابك ، أو فراستك فيهم ، ومعرفة أحوالهم .

قال مجاهد : أنزلت هذه الآية فى أناس قالوا :استأذنوا رسول الله ، فإن أذن لكم فاقعدوا ، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا .

وذهب فريق من العلماء ، كالإمام القرطبى والإمام فخر الدين الرازى ؛ بأن كلمة عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ. تدل على مبالغة الله تعالى فى تعظيم الرسول وتوقيره ، كما يقول الرجل لغيره إذا كان معظمًا عنده عفا الله عنك؛ ما صنت فى أمرى .

وقال القرطبى : قيل : هو افتتاح كلام كما تقول : أصلحك الله وأعزّك ورحمك كان كذا وكذا .

ومن لطائف الشعر قول على بن الجهم يخاطب المتوكل وقد أمر بنفيه .

عفا الله عنك ، ألا حرمة   تعوذ بعفوك أن أبعدا

ألم تر عبدًا طوره   ومولى عفا ورشيدًا هدى

أقلنى أقالك من لم يزل   يقيك ويصرف عنك الردى[١٢١]

٤٤- لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ...

أى : ليس من عادة المؤمنين الصادقين ، أن يستأذنوك فى الجهاد بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله، بل يبادرون إليه من غير توقف ولا ارتقاب منهم لوقوع الإذن منك فضلاً عن أن يستأذنوك فى التخلف .

وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ .

أى : أنه تعالى محيط علمه بهؤلاء الذين لم يستأذنوا وما اشتملت عليه قلوبهم من الإخلاص فى سبيل الله والاستجابة لداعى الجهاد بنشاط وهمة فيجزيهم على ذلك الجزاء الأولى .

٤٥- إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ .

أى : إذا كان أهل الإيمان لا يستأذنون منك عادة ، فإن الذى يستأذنك فى التخلف عن الجهاد من غير عذر؛ إنما هم المنافقون ، الذين لا يصدقون بالله واليوم الآخر ولا يرجون ثواب الآخرة ، ولذلك تصعب عليهم مشاق الجهاد ، فقلوبهم متحيرة بين الإقدام والإحجام ، والشك والإيمان ، فهم مرتابون فى الدّين ، حائرون لا يهتدون إلى طريق الصواب .

ويؤخذ من أدب الآيات ما يأتى

١- لا ينبغى الاستئذان فى أداء شىء من الواجبات ، ولا فى الفضائل والفواضل من العادات كقرى الضيف، وإغاثة الملهوف ، وسائر عمل المعروف .

٢- قال قتادة : عاتب الله رسوله فى هذه الآية ، ثم رخّص له فى سورة النور . فقال : فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ . (النور: ٦٢) .

٣- دلّ قوله : لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ... على وجوب الاحتراز من العجلة ، ووجوب التثبت والتأنى ، وترك الاغترار بظواهر الأمور ، والمبالغة فى التفحص والتريث .

★ ★ ★

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

المفردات :

انبعاثهم : نهوضهم للخروج .

فثبطهم : فحبسهم وعوّقهم .

خبالا : فساداً وشراً .

ولأوضعوا خلالكم : ولسعوا فيما بينكم بالنميمة والوشاية ، وهو مأخوذ من أوضعت البعير .. أى : حملته على السرعة، يقال : وضع البعير أى : أسرع ، وأوضعته أنا ، أى : جعلته يسرع .

يبغونكم الفتنة : يطلبون لكم الفتنة والشر بإيقاع الخلاف بينكم .

التفسير :

٤٦- وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ ...

تستمر الآيات فى توضيح قبائح المنافقين وبيان خطرهم وتحذير المؤمنين من مكائدهم .

والمعنى :

ولو أراد هؤلاء المنافقون ؛ الخروج معك إلى القتال ؛ لاستعدوا وتأهبوا لذلك بإعداد السلاح ، والزاد، والراحلة ، ونحو ذلك من الأشياء التى لا يستغنى عنها المسافر ، والتى كانت فى مقدورهم وطاقتهم .

وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ ...

أى : أبغض الله خروجهم مع المؤمنين ؛ لما فيه من أضرار .

فَثَبَّطَهُمْ . أى : أخّرهم وعوقهم بما أحدث فى قلوبهم من المخاوف ، وفى نفوسهم فى الكسل والفتور .

وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَاعِدِينَ .

أى : قال بعضهم لبعض ، أو قال الشيطان لهم ، أو أذن الرسول لهم بالقعود مَعَ ٱلْقَاعِدِينَ . من النساء والأطفال والمرضى والعجزة الذين شأنهم القعود فى البيت كما قال تعالى : رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ . (التوبة : ٨٧)

وهم القاعدون والمتخلفون عن الجهاد .

قال الآلوسى :

وقوله: وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَاعِدِينَ . تمثيل لخلق الله داعية القعود فيهم ، وإلقائه كراهة الخروج فى قلوبهم ، بالأمر بالقعود ، أو تمثيل لوسوسة الشيطان بذلك ، فليس هناك قول حقيقة .

ويجوز أن يكون حكاية قول لبعضهم لبعض ، أو حكاية لإذن الرسول ﷺ لهم فى القعود ، فيكون القول على حقيقته . ا هـ .

٤٧- لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ... الآية .

طمأن الله المسلمين ، وبين أن عدم خروجهم مع المسلمين فى غزوة تبوك مصلحة للجيش .

والمعنى :

لو خرج هؤلاء المنافقون فيكم ما زادوكم شيئًا من القوة والمنعة ؛ بل زادوكم اضطرابًا فى الرأى، وفسادًا فى العمل والنظام .

وَلأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ...

ولأسرعوا بالسعى بينكم بالنميمة والبغضاء ، وتفريق الكلمة ، وبذر بذور التفرقة والاختلاف ، وإشاعة الخوف والأراجيف من الأعداء وتثبيط الهمة .

وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ .

أى : وفيكم ضعاف ، يتأثرون ويهتمون بسماعهم ونقل نمائمهم .

قال محمد بن إسحاق : كان الذين استأذنوا فيما بلغنى : من ذوى الشرف ، منهم : عبد الله بن أبى بن سلول، والجد بن قيس ، وكانوا أشرافًا فى قومهم ، فثبطهم الله لعلمه بهم ، فإذا خرجوا أفسدوا على النبى جنده، وكان فى جنده قوم أهل محبة لهم ، وطاعة فيما يدعونهم إليه لشرفهم ، فقال .وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ .[١٢٢]

وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ .

أى : والله تعالى لا تخفى عليه خافية من أحوال هؤلاء الظالمين ؛ فهو يعلم ما كان وما يكون لهم ، ومجازيهم على أعمالهم كلها .

من أحكام الآيات

١- يجب الاستعداد للجهاد قبل وقوعه ، والاستعداد للأمور قبل وقوعها ، كما قال تعالى : وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ (الأنفال: ٦٠) . وقال سبحانه: وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً (التوبة: ٤٦) .

٢- وضّحت الآيات أن خروج المنافقين فى جيش المسلمين كانت ستترتب عليه ثلاث مفاسد :-

١- زيادة الاضطراب والفوضى وإفساد النظام .

٢- تفريق كلمة المسلمين بالنميمة والوشاية والإشاعات الكاذبة .

٣- استدراج فئة من ضعاف الإيمان والحزم إلى صفوفهم وسماع كلامهم .

ثم تأكد ذلك بآيات أخرى منها قوله تعالى :

فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ . (التوبة : ٨٣) .

★ ★ ★

﴿ لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾

المفردات :

ابتغوا الفتنة : طلبوا تفريق المسلمين .

وقلبوا لك الأمور : واجتهدوا فى استعراضها ؛ لتدبير المكايد من أجلك .

ولا تفتنى : ولا توقعنى فى المعصية بتخلُّفِى من غير إذن .

التفسير:

٤٨- لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ ...

هنا يذكّر الحق سبحانه رسوله بموقف المنافقين المتخاذل فى غزوة أحد حين تخلّف عبد الله بن أبى بثلث الناس ، وقال : علام نقتل أنفسنا هنا أيها الناس ؟! ورغبوا فى إيقاع الشرور والمفاسد فى صفوف المسلمين من قبل ما حدث منهم فى غزوة تبوك .

وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ .

أى : أنهم قلبوا وجهات النظر كلها ، ودبروا أمورهم لاختيار أنسب الأمور فى الكيد لك ، وفتنة المؤمنين من حولك .

حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ .

وكان الله سبحانه ينصر نبيه ويرفع شأنه ويؤازره حتى ظهر الحق على الباطل وانتصر عليه، فقد انتصر الرسول ﷺ فى كثير من غزواته حتى فتح مكة وفتح خيبر وانتصر فى غزوة حنين والطائف ، وبذلك دحر الشرك والمشركين ، وانتصر على اليهود داخل المدينة وخارجها .

وَهُمْ كَٰرِهُونَ .

أى : المنافقون وأشباههم كارهون لذلك ؛ فهم يكرهون انتصار الإسلام ؛ لأن هذا النصر خيّب آمالهم وأحبط مكرهم .

جاء فى تفسير ابن كثير :

لما قدم النبى ﷺ المدينة ، رمته العرب عن قوس واحدة ، وحاربته يهود المدينة ومنافقوها . فلما نصره الله يوم بدر وأعلى كلمته ، قال عبد الله بن أبىّ وأصحابه : هذا أمر قد توجّه (أى : أقبل) فدخلوا فى الإسلام ظاهرًا ، ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله غاظهم ذلك وساءهم ، ولهذا قال تعالى :

حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ .

وهذه الآية والتى قبلها لتسلية الرسول والمؤمنين عن تخلف المنافقين ، وبيان ما ثبطهم الله لأجله، وهتك أستارهم ، وإزاحة أعذارهم .

٤٩- وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّىٓ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ...

أى : ومن المنافقين من يطلب من النبى ﷺ الإذن له بالقعود عن الجهاد ؛ خشية أن يقع فى الفتنة بمشاهدة نساء الروم والإعجاب بهن .

لكن هؤلاء المنافقين قد وقعوا وسقطوا فى أشد أنواع الفتنة وهى الكفر بالدين والجبن والخوف وعدم الامتثال لهدى سيد المرسلين .

جاء فى تفسير ابن كثير وغيره فى روايات عن ابن عباس ، وأخرى عن جابر بن عبد الله : أن هذه الآية نزلت فى الجدّ بن قيس قال له رسول الله ﷺ : يا جدّ بن قيس (وكان من شيوخ المنافقين) ما تقول فى مجاهدة بنى الأصفر ، فقال : يا رسول الله ، أتأذن لى ؛ فإنى رجل أحب النساء ، وإنى أخشى إنْ أنا رأيت نساء بنى الأصفر أن أفتتن ، فقال رسول الله ﷺ وهو معرض عنه : قد أذنت لك ، فنزلت الآية [١٢٣].

ولما نزلت الآية قال النبى ﷺ لبنى سلمة – وكان الجدّ بن قيس منهم : من سيدكم يا بنى سلمة ؟ قالوا : جدّ بن قيس ، غير أنه بخيل جبان ، فقال النبى ﷺ : وأى داء أدوى من البخل ؟ بل سيدكم الغنى الأبيض بشر بن البراء بن معرور .

قال الآلوسى : وفى التعبير عن الافتتان بالسقوط فى الفتنة ، تنزيل لها منزلة المهواة المهلكة ، المفصحة عن ترديهم فى دركات الردى أسفل سافلين . ا هـ .

وقال الفخر الرازى : وفيه تنبيه على أن القوم إنما اختاروا القعود ؛ لئلا يقعوا فى الفتنة ، فالله تعالى بين أنهم فى عين الفتنة واقعون ؛ لأن أعظم أنواع الفتنة الكفر بالله وبرسوله ، والتمرد على قبول التكاليف التى كلفنا الله بها ... ا هـ .

وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ .

وهذا وعيد وتهديد لهؤلاء المنافقين ؛ بأن نار جهنم ستحاصرهم يوم القيامة ؛ لكثرة خطاياهم فلا يجدون عنها محيصًا ولا مهربًا ؛ كما قال تعالى :

بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ . (البقرة: ٨١) .

★ ★ ★

﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

المفردات :

حسنة : نعمة ، والمراد بها هنا : النصر والغنيمة .

مصيبة : شدة ، كهزيمة أحد .

كتب الله : أثبت فى علمه أو فى اللوح المحفوظ .

مولانا : متولى أمورنا

تربصون : .أصله تتربصون فخفف بحذف إحدى التاءين ومعناه : تنتظرون .

الحسنيين : الغايتين المستحسنتين النصر والشهادة فى سبيل الله .

التفسير :

٥٠- إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ .

سبب النزول :

أخرج ابن أبى حاتم : عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : جعل المنافقون الذين تخلفوا بالمدينة، يخبرون عن النبى ﷺ أخبار السوء ، يقولون : إن محمدًا وأصحابه قد جهدوا فى سفرهم وهلكوا ، فبلغهم تكذيب حديثهم ، وعافية النبى ﷺ وأصحابه ؛ فساءهم ذلك ؛ فأنزل الله : إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ... الآية .

المناسبة :

الآيات السابقة واللاحقة فى تعداد قبائح المنافقين ، وبيان نوع آخر من كيدهم ومن خبث بواطنهم، وشماتتهم بالمؤمنين إذا أصيبوا بمصيبة ، وفرحهم إذا تعرضوا لحسنة .

المعنى :

إن عرضتْ لك فى بعض الغزوات حسنة ، أى : نصر وغنيمة كما حدث فى غزوة بدر ؛ ساءهم ذلك وأورثهم حزنًا وغمًّا ، بسبب شدة عداوتهم لك ولأصحابك .

وإن تصبك مصيبة – من هزيمة أو شدّة – كما حدث فى غزوة أحد ؛ قال هؤلاء المنافقون : قد اتخذنا ما يلزمنا من الحذر والتيقظ ، من قبل وقوع المصيبة التى حلت بالمسلمين ، ولم نُلق بأيدينا إلى التهلكة كما فعل هؤلاء المسلمون ؛ بل تخلفنا عن الجهاد معهم ، ولم نتعرض للهلاك ؛ لأنّا متوقعون هذه الهزيمة ، وانصرفوا إلى أهليهم وشيعتهم – والفرح يملأ جوانبهم – ليبشروهم بما نزل بالمسلمين من مكروه .

٥١– قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ .

هذه الآية رد على هؤلاء الشامتين الشانئين وتوجيه وتعليم للمسلمين بالصبر على البأساء والرضا بأسباب القضاء .

أى : قل لهم يا محمد : لن يصيبنا أبدًا إلا ما كُتب وخطّ فى اللوح المحفوظ ؛ فنحن تحت مشيئته وقدره، هُوَ مَوْلَىٰنَا . أى: ناصرنا ومتولّى أمورنا، ونتولاه ونلجأ إليه فى كل أحوالنا، وعلى الله وحده فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ، وهو حسبنا ، ونعم الوكيل .

والآية أساس فى صدق اليقين ، والإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره ، حلوه ومره . واللجوء إلى الله فى الشدة والرخاء ، والاعتماد عليه فى العسر واليسر ، والمنشط والمكره مع اتخاذ ما يجب من أسباب النصر المادية والمعنوية ، كإعداد العدة اللازمة ، وتوقّى المنازعات التى تؤدى إلى الفشل وتفرّق الكلمة .

والتوكل : تفويض الأمر إلى الله ، بعد اتخاذ الأسباب المطلوبة عادة .

وقد وردت آيات كثيرة ، وأحاديث نبوية صحيحة تحث المؤمنين على الصبر على المصائب ، والرضا بالقضاء والقدر ، والثبات فى الشدائد ، والانتصار على الحزن والهم والغم .

فالحياة دائرة بين العسر واليسر ، والشدة والفرج . والمؤمن واثق بأن الله قد قدّر أزلاً رزقه وعمره وأجله ، وسعادته أو شقاوته ؛ وبهذا لا يحزن على مفقود ولا يكثر الفرح بموجود ، بل هو هادئ رزين إن أصابته نعماء شكر فكان خيرًا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له .

قال تعالى : مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ . (الحديد : ٢٢) .

وفى معنى هذه الآية وردت طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة بعضها فى صحيح البخارى ، وبعضها فى كتب السنة المطهرة ومن هذه الأحاديث ما يأتى :

١- «ما يصيب المؤمن من هم ولاحزن ولا تعب ولا وصب حتى الشوكة يشاكها ؛ إلا كفر الله بها من خطاياه »[١٢٤] .

٢- «ما يزال البلاء يصيب المؤمن حتى يمشى على الأرض وما عليه خطيئة»[١٢٥] .

٣- «أشدكم بلاء الأنبياء ، ثم الأولياء ، ثم الأمثل ، فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه»[١٢٦] .

٤- «استعن بالله ولا تعجز ولا تقل : لو أنِّى فَعلت كذا لكان كذا بل فلتقل : قدّر الله وما شاء فعل»[١٢٧].

٥- «ما من عبد يبتلى بمصيبة فيقول: اللهم اؤجرنى فى مصيبتى وعوضنى خيرًا منها إلاّ عوضه الله خيرًا مما فقده»[١٢٨] .

٦- «من علامة الإيمان ، الشكر على النعماء ، والصبر على البأساء ، والرضاء بالقضاء»[١٢٩].

٧- «عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير إن أصابته نعماء شكر فكان خيرًا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»[١٣٠] .

٥٢- قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ...

أى : قل يا محمد لهؤلاء المنافقين :

هل تنتظرون إلا أن يقع لنا إحدى العاقبتين الحسنتين ، إما النصر والظفر ، وإما الشهادة والثواب العظيم.

فإن عشنا عشنا أعزة كرامًا مؤمنين ، وإن متنا متنا شهداء مأجورين لنا الأجر والثواب .

جاء فى تفسير الآلوسى :

والحاصل : أن ما تنتظرونه بنا – أيها المنافقون – لا يخلو من أحد هذين الأمرين ، كل منهما عاقبته حسنى ، لا كما تزعمون من أن ما يصيبنا من القتل فى الغزو سوء ، ولذلك سررتم به .

وصح من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال :

«تكفَّل الله تعالى ، لمن جاهد فى سبيله ، لا يخرجه من بيته إلا الجهاد فى سبيله ، وتصديق كلمته ؛ أن يدخله الجنة ، أو يرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه مع ما نال من أجر وغنيمة ، أو أجر إن لم يغنم»[١٣١].

وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا .

أما نحن فننتظر بكم إحدى السوءتين من العواقب : إما أن يصيبكم الله بعذاب من عنده ، وهو قارعة من السماء ، كما نزلت على عاد وثمود .

وإما أن يصيبكم عذاب بأيدينا ، وهو الإذن لنا فى قتالكم وقتلكم .

فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ .

أى : إذا كان هذا أمرنا وأمركم ، فانتظروا بنا ما ذكرنا من عواقبنا ؛ فإنا معكم متربصون بكم ما هو عاقبتكم ، فلابد أن يلقى كل منا ما يتربصه لا يتجاوزه فنحن على بينة من ربنا ، ولا بينة لكم ، لا تشاهدون إلا ما يسرنا ، ولا نشاهد إلا ما يسوءكم ، فانتظروا أنتم مواعد الشيطان ، إنا منتظرون مواعد الرحمان .

وبهذا ترى الآيات قد حكت طرفًا من رذائل المنافقين ، ومسالكهم الخبيثة لكيد الدعوة الإسلامية ، وردت عليهم بما يكبتهم ويفضحهم على رءوس الأشهاد .

★ ★ ★

﴿ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

المفردات :

طوعًا أو كرهًا : أى : طائعين أو كارهين .

فاسقين : متمردين خارجين على حدود الله بإبطان الكفر مع إظهار الإيمان وبغير ذلك من المعاصى .

وتزهق أنفسهم : وتخرج بصعوبة ، والزهوق الخروج بمشقة .

التفسير :

٥٣- قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ .

سبب النزول :

أخرج ابن جرير الطبرى عن ابن عباس قال : قال الجد بن قيس : إنى إذا رأيت نساء الروم لم أصبر حتى أفتتن ، ولكن أعينك بمالى ، قال : ففيه نزلت : أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ .

أى : لقوله : أعينك بمالى ، فهذه الآية نزلت فى الجدّ بن قيس حين تخلف عن غزوة تبوك ، وقال لرسول الله ﷺ : هذا مالى أعينك به فاتركنى .

والمعنى :

قل أيها الرسول لهؤلاء المنافقين : مهما أنفقتم من نفقة طائعين راضين ، أو متورطين كارهين ، فلن يتقبل الله منكم ، ولن يثيبكم ؛ لأن الإيمان لم يدخل قلوبكم ، والإخلاص لله لم يصل إلى نفوسكم : إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ .

أى : عتاة متمردون خارجون عن الإيمان ، والأعمال إنما تصح بالإيمان .

ثم صرح بأن هذا الفسوق ليس فسوق المعصية المحدودة ، بل فسوق الكفر بالله فقال سبحانه :

٥٤- وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ .

بين الحق سبحانه ثلاثة أسباب لعدم قبول الله نفقتهم ، وإخراج أموالهم للجهاد .

الأول : كفرهم بالله وبرسوله ، فهم لا يؤمنون بالله تعالى ولا يصدقون برسالة محمد ، وادعاؤهم الإيمان كلام تستّروا خلفه .

الثانى : لا يؤدّون الصلاة إلا وهم كسالى ، فليس فى قلوبهم نشاط ولا إيمان ، ولا همة أو عزيمة ؛ لأن صلاتهم رياء وتظاهر .

الثالث : أنهم لا ينفقون أموالهم رغبة فى ثواب الله ومرضاته ، بل ينفقونها ؛ رعاية للمصلحة الظاهرة وسترا للنفاق وقد أخبر النبى ﷺ: «إن الله لا يملّ حتى تملوا»[١٣٢]. وقال : «إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا»[١٣٣]؛ لأن الله تعالى إنما يتقبل من المتقين الراغبين فى مرضاته وهؤلاء ينفقون وهم كارهون ، ولا ينفقون عن رغبة واختيار. وفى الحديث الصحيح : «إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى»[١٣٤] .

٥٥- فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ .

أى : فلا تعجبك أيها النبى ، وأيها السامع ، أموالهم ولا أولادهم ، ولا سائر نعم الله عليهم .

فإنما هى من أسباب المحن والآفات عليهم ، وهى استدراج لهم ؛ حيث شغلتهم دنياهم عن أخراهم ، وغفلوا عما أعدّ لهم من عذاب مقيم .

أما أموالهم فهم يتعبون فى تحصيلها ، والحفاظ عليها بصحبة الهم والقلق ، والتهديد بالضياع والخسران ، وقد يصحب ذلك الطغيان ، وعدم الشكر لربهم الذى أعطاهم ، ثمّ ترك ما يجب عليهم من الزكاة فيها، والتصدق بما يجب التصدق به .

وأما الأولاد ، فقد يموتون فى الجهاد فيحزنون عليهم أشد الحزن ، وقد يؤمنون فيحترق الآباء غيظًا عليهم .

فقد كان لعدد من المنافقين أبناء أتقياء ، كحنظلة بن أبى عامر الذى غسلته الملائكة ، وعبد الله بن عبد الله بن أبى شهد بدرًا ، وكان من الله بمكان .

والابن إذا صار من الأتقياء العاملين لخدمة الإسلام ؛ تأذى به الأب المنافق ، وصار مصدرًا لاستيحاشه وعذابه[١٣٥] .

وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ .

المعنى : إن الله يريد أن تخرج أرواحهم حال كفرهم ؛ لعدم قبولهم لما جاء به الأنبياء ، وتصميمهم على الكفر ، وتماديهم فى الضلالة .

قال الإمام فخر الدين الرازى :

«ومن تأمل هذه الآيات عرف أنها مرتبة على أحسن الوجوه ؛ فإنه سبحانه لما بين قبائح أفعالهم ، وفضائح أعمالهم ؛ بين مالهم فى الآخرة من العذاب الشديد ، وما لهم فى الدنيا من وجوه المحنة والبلية .

ثم بين بعد ذلك أن ما يفعلونه من أعمال البر لا ينتفعون به يوم القيامة البتة .

ثم بين فى هذه الآية أن ما يظنونه من منافع الدنيا ، فهو فى حقيقته سبب لعذابهم وبلائهم وتشديد المحنة عليهم ، وعند ذلك يظهر أن النفاق جالب لجميع الآفات فى الدنيا والدين ، ومبطل لجميع الخيرات فى الدين والدنيا..»[١٣٦] . ا هـ .

★ ★ ★

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

المفردات :

يفرقون : يخافون .

ملجأ : مكانا حصينًا يلجأون إليه .

مغارات : كهوفًا في الجبال .

مدخلا : نفقًا فى الأرض .

لولوا إليه : لانصرفوا نحوه .

وهم يجمحون : وهم يسرعون أشد الإسراع .

التفسير :

٥٦- وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ .

تستمر هذه الآيات فى كشف المنافقين وفضح دخائلهم ؛ فهم يقسمون بالله كذبًا : إنهم من جملتكم فى الدين والعمل . والحقيقة أنهم ليسوا منكم أيها المؤمنون ؛ فقلوبهم خالية من الإيمان الذى امتلأت به قلوبكم.

وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ .

يقال : فرق فرقا ؛ إذا اشتد خوفه وهلعه من أمر يتوقع حصوله .

أى : إن هؤلاء المنافقين لشدة خوفهم وهلعهم من لقاء الأعداء وجبنهم عنهم ، يحلفون لكم كذبًا أنهم منكم .

وقيل : المراد : إنهم يخافون أن ينزل بهم ما نزل بالمشركين من القتل والسبى؛ فيظهرون لكم الإسلام؛ تقية منهم لا عن حقيقة .

٥٧- لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئًا أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ .

لو يجد أولئك المنافقون مكانًا حصينًا فى جبل أو قلعة أو نحوهما يلجئون إليه ، أو كهوفا خفية يخفون فيها أنفسهم ، أو نفقًا فى الأرض يدخلون فيه ويندسُّون ؛ لانصرفوا إليه عنكم ، وهم يسرعون إسراع الفرس الجموح الذى لا يثنيه اللجام ؛ لأنهم إنما يعيشون معكم كرهًا ، لا محبة وودًا ، ولكن للضرورة أحكام.

ولهذا لا يزالون في هم وحزن وغمّ ؛ لأن الإسلام وأهله في تقدم ورفعة ، وعز ونصر وذلك كله يسوؤهم.

★ ★ ★

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

المفردات :

يلمزك : يعيبك سرا .

في الصدقات : في شأن قسمة أموال الزكاة .

يسخطون : يغضبون .

حسبنا الله : أي : كافينا .

التفسير :

٥٨- وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ .

سبب النزول :

روى البخاري والنسائي : عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : قال: بينما رسول الله ﷺ يقسم قسمًا، إذ جاءه ذو الخُويْصِرة التميمي – وهو حُرْقوص بن زهير – أصل الخوارج – فقال : اعدل يا رسول الله ، فقال: ويْلك ، ومن يعدل إذا لم أعدل ، فقال عمر بن الخطاب : ائذن لي أن أضرب عنقه ، فقال رسول الله ﷺ: دَعْه؛ فإن له أصحابًا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، يمْرُقون من الدين كما يمرق السهم من الرَّمِيَّة(١٣٧) .

فنزلت فيهم : وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَاتِ ... الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن جابر: نحوه ، وروى ابن جرير عن داود بن أبي عاصم قال : «أتى النبيّ ﷺ بصدقة، فقسمها ههنا وههنا ، حتى ذهبت ، ورأى ذلك رجل من الأنصار فقال : ما هذا بالعدل ، فنزلت هذه الآية».

ومجموع الروايات يدل على أن الطاعنين من المنافقين .

المعنى :

ومن هؤلاء المنافقين – يا محمد – من يعيبك ويطعن عليك فى قسمة الصدقات والغنائم، زاعمين أنك لست عادلاً فى قسمتك .

فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ .

إن رضاهم وغضبهم لأنفسهم لا للدِّين، وما فيه صلاح أهله؛ لأن الرسول ﷺ استعطف قلوب أهل مكة يوم النصر فى غزوة حنين والطائف، فضجر المنافقون فقال تعالى : فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ ...

وقيل : نزلت فى المؤلفة قلوبهم؛ كان يعطيهم النبى ﷺ للتأليف، وقيل : هو ابن ذى الخويصرة رأس الخوارج. وقيل : هو أبو الجواظ من المنافقين قال : ألا ترون إلى صاحبكم ؟ إنما يقسم صدقاتكم فى رعاة الغنم، وهو يزعم أنه يعدل؛ فقال رسول الله ﷺ : لا أبالك، أما كان موسى راعيًا، أما كان داود راعيًا ؟! فلما ذهب؛ قال عليه الصلاة والسلام : احذورا هذا وأصحابه فإنّهم منافقون .

فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ ...

أى : إن أعطوا من الزكاة أو من الغنائم ولو بغير حق رضوا، وإن لم يعطوا منها فاجؤوك بالسخط، وإن لم يستحقوا العطاء، فهم إنما يغضبون لأنفسهم ولمنافعهم، لا للمصلحة العامة، فليس طعنهم أو نقدهم بريئًا، ولكن لهدف خاص .

قال الإمام الرازى :

اعلم أن المقصود من هذا : شرح نوع آخر من قبائحهم وفضائحهم، وهو طعنهم فى الرسول ﷺ بسبب أخذ الصدقات من الأغنياء، ويقولون : إنه يؤثر بها من يشاء من أقاربه وأهل مودته، وينسبونه إلى أنه لا يراعى العدل[١٢٨] .

٥٩– وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَاهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَاغِبُونَ .

ترشد الآية إلى أدب عظيم لهؤلاء وغيرهم، يتمثل هذا الأدب فى الرضا والقناعة، فطالب الدنيا وحدها إذا لم يكن قنوعًا راضيًا؛ ربما جرّه ذلك إلى النفاق .

وقد اشتملت الآية على مراتب أربع :

١ – الرضا بما آتاهم الله ورسوله؛ لأنه سبحانه حكيم منزّه عن العبث، والرسول ﷺ أمين صادق عادل .

٢ - أن تظهر آثار الرضا على اللسان وهو قوله : حَسْبُنَا ٱللَّهُ . أى : الرضا بحكم الله وقضائه .

٣ - الأمل فى فضل الله وعوضه فيقول : سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ . إمّا فى الدينا ، وإمّا فى الآخرة .

٤ - أن يقول : إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ . أى : لا نبغى بالإيمان مكاسب الدنيا من مال وجاه ؛ وإنما نريد الفوز بسعادة الآخرة .

فالآية ترسم طريقًا سليمًا ، وتذكر سلوكًا عمليًّا يعتمد على الرضا والقناعة ، واليقين بما عند الله، والأمل فى المستقبل ، وأن رزق الله لا ينفد ، ثم الرغبة المستمرة فى فضل الله وعطائه ونعمائه ، التى لا تعدّ ولا تحصى .

وجواب لَوْ . فى الآية محذوف ، والتقدير : ولو أنهم فعلوا ذلك لكان خيرًا لهم .

وفى تفسير الفخر الرازى ، نجد أن هذه الآية منهج عملى فى تعليم القناعة والرضا وحسن الأمل .

قال الإمام الرازى :

والآية تدل على أن من طلب الدنيا بطمع وشراهة ؛ آل أمره فى الدين إلى النفاق .

وأما من طلب الدنيا بتوسط ، وبغرض التوصل إلى مصالح الدين ؛ فهذا هو الطريق الحق . والأصل فى هذا الباب أن يكون راضيًا بقضاء الله . ا هـ .

★ ★ ★

﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠) ﴾

المفردات :

للفقراء : جمع فقير وهو من لا مال له ، أو له مال لا يقع موقعًا من كفايته .

والمساكين : جمع مسكين ، وهو من لا مال له ، أو له مال يقع موقعًا من كفايته ، فالفقير أسوأ حالاً من المسكين وبالعكس.

التفسير :

٦٠- إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

المناسبة :

جاءت هذه الآية وسط الحديث عن المنافقين ؛ ذلك أن المنافقين كانوا ينتظرون أن توزع عليهم الزكاة، فإذا أعطاهم النبى منها ؛ رضوا وشكروا ، وإذا لم يعطهم ؛ غضبوا وسخطوا .

وفى الآية ٥٨ من سورة التوبة : وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ .

قال الشوكانى فى تفسيره : «لما لمز المنافقون رسول الله ﷺ فى قسمة الصدقات ؛ بين الله لهم مصرفها؛ دفعًا لطعنهم وقطعًا لشغبهم . عن زياد بن الحرث قال : «أتى النبىَّ رجلٌ فقال: أعطنى من الصدقة فقال له: «إن الله لم يرضَ بحكم نبى ولا غيره فى الصدقات ، حتى حكم هو فيها ؛ فجزأها ثمانية أصناف ، فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك» . اهـ .

وكنت ألّفت كتابًا فى فقه العبادات ، أصدرته الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٧١م ، وصدرت منه عدّة طبعات بعد ذلك تحدثت فيه عن الزكاة وذكرت فقرة عن مصارف الزكاة ، رأيت أن أنقلها فى هذا المكان .

مصارف الزكاة

لم يترك الإسلام أمر الزكاة إلى تقدير ولى الأمر بل بين المصارف وعينها بالنص القرآنى الذى لا يقبل التأويل قال الله تعالى : إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (التوبة: ٦٠) . هذا هو النص القرآنى المحكم الذى عدد أصناف المستحقين للزكاة[١٣٦] ولنبين كل صنف بكلمة موضحة :

أولا: ٱلْفُقَرَآءِ : وهم الذين لا يملكون أموالاً يزكّون عنها ، أى : أن أموالهم لا تبلغ النصاب وإنما لديهم قليل من المال لا يكفى لكل حاجاتهم ، وقيل : من لا يملكون قوت يوم وليلة .

ثانيا : ٱلْمَسَٰكِينِ: قيل فى تفسير المسكين : السائل . وقيل : بأن المسكين أشد حاجة من الفقير ، وروى عن عكرمة مولى عبد الله بن عباس : إن الفقراء فقراء المسلمين والمساكين فقراء أهل الكتاب ، ويزكى هذا

الرأى أن عمر بن الخطاب فسر المساكين : بضعفاء أهل الكتاب ، فإنه يروى أنه رأى ذميًا مكفوفًا مطروحًا على باب المدينة فقال له عمر رضى الله عنه : مالك؟ قال : استكرهونى فى هذه الجزية ، حتى إذا كف بصرى تركونى وليس لى أحد يعود على بشىء ! فقال الفاروق : ما أنصفت إذن ! وأجرى له ما يقوته وما يصلحه ، وقال : هذا من الذين قال الله فيهم : إِنَّمَا ٱلصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَاكِينِ. وهم زمنى أهل الكتاب أى : ذوو العاهات المانعة من الكسب ، والمرضى بمرض لا يرجى البرء منه .

ونرى من هذا أن الزكاة على هذا التفسير تعطى لمساكين أهل الذمة العاجزين عن الكسب ؛ وهو غير ما عليه جمهور الفقهاء الذين يرون أن الزكاة لا تعطى لغير المسلمين .

ثالثًا : ٱلْعَامِلِينَ عَلَيْهَا : وهم الذين يعملون فى الزكاة فى جمعها من أربابها وتوزيعها على مستحقيها وهم يعطون على قدر أعمالهم ، وكفاية أمثالهم ، ولأن العمل فى الزكاة له أجر والأجير يأخذ سواء أكان غنيا أم فقيرا.

رابعًا : ٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ : وهم قوم يعطون من الزكاة ؛ تأليفا لقلوبهم أو قلوب ذويهم ، أو تمكينا للإسلام فى قلوبهم . أو قلوب ذويهم ، وقد قال أبو يعلى فى الأحكام السلطانية : «والمؤلفة قلوبهم أربعة أصناف: صنف منهم تتألف قلوبهم ؛ لمعونة المسلمين ، وصنف تتألف قلوبهم ؛ للكف عن المسلمين ، وصنف تتألف قلوبهم ؛ لترغيبهم فى الإسلام ، وصنف تتألف قلوبهم ؛ ترغيبا لقومهم وعشائرهم فى الإسلام فيجوز أن يعطى كل واحد من هذه الأصناف من سهم المؤلفة قلوبهم مسلما كان أو مشركًا» .

وعطاء هؤلاء من قبيل الدفاع عن الإسلام والدعوة له ، فإعطاء المؤلفة قلوبهم هو من قبيل ما نسميه اليوم : (الدعاية) ، ولذلك كان حقًا أن نجعل من مصارف الزكاة تمويل الدعاية للإسلام ، وبيان مزاياه ، وخواصه ؛ ليعلم حقيقته من لم يكن يعلم .

خامسًا : فِى ٱلرِّقَابِ : أى : فى فك أسر الأرقاء ، فقد كان من عادة العرب أن يعين الواحد لرقيقه مالاً إذا أداه له ؛ تحرر من أسره . فأمر الله الحكومة الإسلامية أن تمد هؤلاء الأسرى بأموال الزكاة ؛ ليتحرروا من رقهم، وقد ذهب الرق تقريبًا من العالم .

ونريد أن نسجل فى هذا المقام أن الدولة الإسلامية هى أول دولة حاربت الرق فى الوجود وحسبها أن جعلت جزءًا من ميزانيتها لفك الرقاب ، ولم يذكر التاريخ أى نظام سياسى أو فلسفى سبق الإسلام فى ذلك .

سادسًا : ٱلْغَارِمِينَ : وهم الذين ركبهم الدّين ولا وفاء عندهم ، وهم ثلاثة أقسام :

١ - قسم يستدين فى سفاهة وإسراف ؛ لينفق فى المحلل والمحرم والأكثرون من الفقهاء يرون أن هذا لا يوفى عنه دينه ، إلا إذا تاب وصار من أهل الصلاح والتقى والتدبير.

٢ – من استدان لصالح نفسه كتاجر لزمته ديون فى تجارته وهو يحسن تدبيرها ولكن اضطرب الميزان الاقتصادى ، وأحاط الدين بماله ولم يف ما عنده من المال بدينه ، فما بقى من ديون بعد ذلك عليه يسدد من الزكاة .

٣ – من ركبه دين فى مصلحة عامة لا لمصلحة نفسه ، كمن تحمل ديات للصلح بين الناس ، فقد قال الفقهاء: إنه يسدد عنه دينه ، ولو كان غنيا يبقى له بعد سداد الدين من ماله نصاب ، وهذا للتشجيع على المروءة والصلح بين الناس .

وإذا مات مدين وليس فى تركته ما يفى بدينه يؤدى باقى دينه من مال الزكاة .

والجدير بالذكر : أن الإسلام يجعل الديون العادلة تؤدى من بيت مال الزكاة ، وبهذا سبق الشرائع الإنسانية كلها سبقًا بعيدًا ، وخصوصًا الشرائع التى عاصرت نشأته ، وحسبك أنك تعلم أن القانون الرومانى[١٤٠] فى بعض أدواره كان يسوغ للدائن أن يسترق المدين ، أما الإسلام فقد جعل دين المعسر تؤديه الدولة عنه وفى ذلك تشجيع للناس على المروءة والقرض الحسن ؛ لأن صاحب المال إن علم أن ماله لن يضيع أبدًا ؛ أقرض القرض الحسن . ويصحب القياس على ذلك أن يقرض من مال الزكاة القرض الحسن ؛ لأنه إذا كانت الديون العادلة تؤدى فأولى أن تعطى منها القروض الخالية من الربا ؛ لترد إلى بيت المال .

سابعاً : ٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ : والمراد به : المسافر الذى لا يجد مالاً يوصله إلى وطنه ، فإنه يعطى من مال الزكاة ما يوصله إلى وطنه .

وأما إذا كان غنيًا فيعطيه بيت المال قرضًا ليسترد ما أعطاه عند الرجوع إلى أهله وذويه .

ثامنًا : فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ : والمراد به : الصرف على الغزاة والمرابطين لحماية الثغور فينفق من الزكاة على الجيش وكل ما يتصل به ما دام الجيش يجاهد فى سبيل الله .

ولقد فسر بعض الفقهاء كلمة فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بما يعم كل مصالح المسلمين ، فقد جاء فى التفسير الكبير للفخر الرازى ما نصه :

«واعلم أن ظاهر اللفظ لا يوجب القصر على كل الغزاة ، فلهذا المعنى نقل «القفال» فى تفسيره عن بعض الفقهاء : أنهم أجازوا صرف الصدقات إلى جميع وجوه الخير : من تكفين الموتى ، وبناء الحصون ، وعمارة المساجد ؛ لأن قوله تعالى : فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ عام فى الكل» .

ويشمل فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ إعداد دعاة إلى الإسلام والإنفاق عليهم لإظهار جمال الإسلام وسماحته وتبليغ أحكامه والرد على خصومه ، والإنفاق على الكتب التى تتولى هذه المهمة .

ويجوز إعطاء الزكاة للمؤسسات الخيرية : كالمستوصفات الخيرية ، والمياتم ، والمدارس الخيرية ؛ لأن هذه المؤسسات جعلت لصالح الطبقة الفقيرة .

هل تصرف الزكاة على جميع مستحقيها ؟ يرى جمهور الفقهاء خلافا للشافعى أنه لا يلزم المزكى استيعاب كل مصارف الزكاة ، بل فى أيها وضعت أجزأت ، ويلزم الإمام العناية بالأهم اجتماعيًا فالمهم .

حكمة الزكاة

١- الزكاة فريضة واجبة ، وسبيل إلى علاج الشح والبخل ، وارتقاء بالنفس والروح والوجدان ؛ حيث يعطى المؤمن ماله ، ويدخره لينفعه فى قبره ، أو فى يوم القيامة ؛ فهو فعلاً ادخار فى بنك الآخرة ، وتغذية لرصيدنا الحقيقى ؛ فإن مالك ما أنفقت ؛ ومال وارثك ما أبقيت .

٢- الزكاة علاج صالح متعيِّن ؛ لإزالة حُبّ الدنيا عن القلب ، وكسر شدة الميل إلى المال ، والمنع من انصراف النفس بالكلية إليه ، وهو المراد من قوله تعالى : خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا . (التوبة : ١٠٣) .

٣- تربية النفس عن طريق الشعور بآلام الآخرين ، والإحسان إلى الناس ، والسعى فى إيصال الخيرات إليهم، ودفع الآفات عنهم ، وهذا من صفات الله وفى الحديث الشريف: «تخلّقوا بأخلاق الله» .

٤- توفير محبة الفقراء للأغنياء ، والدعاء لهم ببقاء النعمة ، عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «جبلت القلوب على حُبّ من أحسن إليها وبغض من أساء إليها»[١٤١] .

٥- الحد من ارتكاب الجرائم ، ومن اللحقاق بالأعداء ، فلو لم ينفق الأغنياء على الفقراء ؛ لأقدم الفقراء على الأفعال المنكرة كالسرقة أو على الالتحاق بأعداء المسلمين .

★ ★ ★

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ ﴾

المفردات :

أذن : يسمع كل ما يقال ويصدقه ، كأنه من فرط استماعه صار آلة للسماع .

يحادد : يجانب ويخالف ويعادى .

الخزى : الذل والهوان .

التفسير :

تعرض هذه الآيات لونًا آخر من ألوان إيذاء المنافقين لرسول الله ﷺ ، ووصفهم إياه بالغفلة وعدم الحذر وتصديق كل ما يقال ، أى : ليس له ذكاء ولا تعمق فى الأمور .

جاء فى تفسير أبى السعود :

نزلت فى فرقة من المنافقين قالوا فى حقه ﷺ مالا ينبغى ؛ فقال بعضهم : لا تفعلوا فإنا نخاف أن يبلغه ذلك فيقع بنا ، فقال الجلاس بن سويد : نقول ما شئنا ، ثم نأتيه فننكر ما قلنا ، ونحلف فيصدقنا بما نقول ؛ إنما محمد أذنٌ سامعة[١٤٢] .

وذكر القرطبى : أن الآية نزلت فى عتّاب بن قشير قال: إنما محمد أذن يقبل كل ما قيل له .

٦١– وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ ... الآية .

أى : ومن المنافقين قوم يؤذون رسول الله ﷺ بالكلام فيه ويعيبونه فيقولون : هُوَ أُذُنٌ . يسمع كل ما يقال ويصدقه .

وجاء فى تفسير أبى السعود :

وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ . أى : يسمع كل ما قيل من غير أن يتدبر فيه ، ويميِّز بين ما يليق بالقبول لمساعدة أمارات الصدق له ، وبين مالا يليق ، وإنما قالوه ؛ لأنه ﷺ كان لا يواجههم بسوء ما صنعوا ؛ ويصفح عنهم حلمًا وكرمًا ، فحملوه على سلامة القلب ، وقالوا ما قالوا .

قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ .

أى : قل لهم يا محمد : هو أذن كما تقولون يستمع لكم ؛ لكن نعم الأذن هو ؛ لكونه يسمع الخير ولا يسمع الشر.

أى : هو مستمع خير لما يجب استماعه .

كما يقال : فلان رجل صدق وشاهد عدل .

فهو ﷺ يعرف الصادق من الكاذب ؛ لكنه يعامل المنافقين بأحكام الشريعة وآدابها ، فلا يفضح أحدًا منهم ، وهو صاحب الخلق الكامل ، والإنسان المثالى .

يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ .

أى : من مظاهر كونه ﷺ أذن خير ، أنه يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ؛ إيمانًا حقًا لا يحوم حوله شىء من الرياء ، أو الخداع أو غيرهما من ألوان السواء .

وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ . أى يصدقهم فيما يقولونه من أقوال توافق الشرع ؛ لأنهم أصحابه الذين أطاعوه واتبعوه ؛ فهم أهل للتصديق والقبول .

من تفسير الفخر الرازى :

إن قيل : لماذا عدَّى الإيمان إلى الله بالباء ، وإلى المؤمنين باللام فقال : يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ .

قلنا : لأنَّ الإيمان المعدَّى إلى الله : المراد منه : التصديق الذى هو نقيض الكفر فعدِّى بالباء .

والإيمان المعدى إلى المؤمنين : المراد منه : الاستماع منهم ، والتسليم لقولهم فعدِّى باللام .

كما فى قوله : وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا . أى : بمصدق لنا ، وقوله : أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ . وقوله : قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ . اهـ .

وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ . أى : وهو ﷺ رحمة للذين أظهروا الإيمان منكم ، إذ قَبِله لا تصديقًا لهم ، بل رفقًا بهم ، فلم يهتك لهم سترًا ، ولم يكشف لهم سرًا ، بل أحسن إليهم ؛ وتجاوز عن سيئاتهم ؛ رجاء أن يتوبوا من نفاقهم ، ويخلصوا الإيمان لربهم .

وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ . ﷺ بتهوين شأنه ، والانتقاص من قدره لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . فى دنياهم وآخرتهم .

ما يؤخذ من الآيـة

١ - دلت الآية على أن النبى ﷺ صاحب الخلق الكامل ، والفهم الشامل ، والذكاء الخارق ؛ فسكوته عن المنافقين ليس عن غباء أو اعتزاز، وإنما عن حكمة وبصيرة ؛ فقد كان يقبل ظواهرهم ، ويترك بواطنهم إلى الله ؛ رجاء هدايتهم .

٢ - وصفت الآية الرسول بأوصاف ثلاثة :

فهو يؤمن بالله ، ويؤمن للمؤمنين ، ورحمة لمن آمن ؛ وهذه الأوصاف توجب كونه أذن خير .

٣ - إيذاء الرسول ﷺ فيما يتعلق برسالته كفر ؛ يترتب عليه العقاب الشديد . مثل : التهوين من أمره ، أو اتهامه بالغفلة . وتصديق كل ما يقال ؛ فقد اختاره الله ، وأدّبه وميزه بالخلق العظيم . ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ . (الأنعام : ١٢٤) .

٦٢- يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ .

سبب النزول :

كان المنافقون فى خلواتهم يطعنون على النبى ﷺ ؛ فإذا أبلغ ذلك إلى المؤمنين ؛ جاء المنافقون فحلفوا لهم على أنهم لم يقولوا ما بلغ عنهم .

قال القرطبى :

روى : أن قومًا من المنافقين اجتمعوا وفيهم غلام من الأنصار يدعى : عامر بن قيس فحقروه وتكلموا فقالوا : إن كان ما يقوله محمد حقًا ؛ لنحن شر من الحمير ؛ فغضب الغلام ، وقال : والله إن ما يقوله محمد ﷺ لحق ، ولأنتم شر من الحمير! ثم أخبر النبى ﷺ بقولهم ، فحلفوا إن عامرًا كاذب ؛ فقال عامر : هم الكذبة، وحلف على ذلك . وقال : اللهم ، لا تفرق بيننا حتى يتبين صدق الصادق ، وكذب الكاذب، فأنزل الله هذه الآية .

ومعنى الآية :

يُقسم هؤلاء المنافقون بالله لكم أيها المؤمنون : أنهم ما ساءوا إلى الرسول ﷺ بكلام يعيبه أو ينقص من قدره ، يريدون بذلك أن ترضوا عنهم ، بتصديقهم فى نفى ما نقل عنهم من قالة السوء .

وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ .

أى : هم يحلفون لكم ، والحال أن الله ورسوله أحق بالإرضاء منكم ؛ لأن الله هو خالقهم ورازقهم ومالك أمرهم ، وهو العليم بما ظهر وبطن من أحوالهم .

ولأن رسوله هو المبلغ لوحى الله ، وإرضاء الرسول هو عين إرضاء الله عز وجل .

حيث قال تعالى : مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ . (النساء : ٨٠) ؛ لأن مصدر الرسالة واحد ، والأوامر والنواهى واحدة ؛ هذا إذا كانوا مؤمنين حقًّا كما يدعون ويحلفون، فمن كان مؤمنًا ؛ فليرض الله ورسوله ، وإلا كان كاذبًا .

٦٣- أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ .

أى : أغاب عن هؤلاء المنافقين ولم يصل إلى علمهم أنه من يعادى الله ورسوله ، ويخالفه بتجاوز حدوده ، أو يلْمِزْ رسوله فى أعماله كقسمة الصدقات ، أو فى أخلاقه كقولهم : هو أذنٌ يسمع كل ما يقال له، وكان فى حدٍّ ، والله ورسوله فى حد ؛ فجزاؤه جهنم خالدًا فيها أبدًا ، ذلك العذاب الدائم الذى بلغ الغاية فى الهول والشدة . هو العار الفاضح ، والذل الدائم ، والشقاء الكبير .

★ ★ ★

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

المفردات :

يحذر : يخاف .

استهزئوا : استخفوا واسخروا .

مخرج : مظهر .

نخوض : ندخل ونمضى فى الكلام نشغل به أنفسنا .

ونلعب : ونعبث .

لا تعتذروا : لا تطلبوا قبول المعذرة والحجة التى تبرئون بها أنفسكم .

مجرمين : مرتكبين للجرم وهو الذنب العظيم .

التفسير :

٦٤- يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ .

سبب النزول :

قال السدّى : قال بعض المنافقين : والله لوددت لو أنى قدمت فجلدت مائة ، ولا ينزل فينا شىء يفضحنا ؛ فنزلت الآية .

وأخرج أبو الشيخ ابن حيان عن قتادة قال : كانت هذه السورة تسمّى : الفاضحة فاضحة المنافقين .

وكان يقال لها : المنبئة ؛ لأنها أنبأت بمثالبهم وعوارتهم .

تمهيد :

كان المنافقون يخافون من نزول القرآن فاضحًا لهم ؛ كاشفًا استهزاءهم بآيات الله ، وكلامهم الذى ينتقصون فيه رسول الله ﷺ .

يَحْذَرُ ٱلْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِم ... الآية .

أى : يخاف المنافقون ويتحرزون أن تنزل على المؤمنين سورة تكشف أحوالهم ، وتفضح أسرارهم ، وتبيِّن نفاقهم ، وتخبرهم بما أخفى المنافقون فى قلوبهم ؛ وبما كانوا يتحدثون به فيما بينهم ، من سخرية واستهزاء بالرسول ، وبما أنزل الله عليه من كتاب ، واستخفاف بالمؤمنين .

قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ .

أى : قل لهم يا محمد : استهزئوا بآيات الله كما تشاؤون ، وهو أمر يقصد به : التهديد والوعيد .

وبالِغوا أيها المنافقون فى حذركم وتخفّيكم ما أردتم ؛ إن الله تعالى معلن ومظهر ما تخافون إظهاره؛ وتخشون انكشافه ، بإنزال الآيات القرآنية التى تفضحكم على رءوس الأشهاد ، وتهتك أستاركم .

٦٥- وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ... الآية .

سبب النزول :

أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم : عن قتادة قال : بينما رسول الله ﷺ فى غزوته إلى تبوك ؛ إذ نظر إلى أناس بين يديه من المنافقين يقولون : أيرجو هذا الرجل أن تفتح له قصور الشام وحصونها ؟! هيهات هيهات ؛ فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك ، فقال : احبسوا على الركب ، فأتاهم . فقال ﷺ : قلتم : كذا وكذا ؛ قالوا : يانبى الله ، إنما كنا نخوض ونلعب ؛ فنزلت .

والمعنى :

والله لئن سألتهم يا محمد عما كانوا يتحدثون به من استهزاء وسخرية من الرسول والمؤمنين .

ليقولن معتذرين كذبًا : إنما كنا ندخل ونمضى فى أحاديث مختلفة للتسلية ، وتخفيف وطأة السفر ، ولم نكن جادّين فيما تحدثنا به ؛ بل كنَّا لاهين ولاعبين ، لا نقصد بذلك سخرية ولا استهزاء .

قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ .

أى : قل لهؤلاء المنافقين ، المستهزئين بما يجب إجلاله ، واحترامه ، وتوقيره – قل لهم ، غير ملتفت إلى اعتذارهم فليسوا فيه بصادقين ، قل لهم تقريعًا ، وتوبيخًا : ألم تجدوا ما تستهزئون به فى مزاحكم ولعبكم كما تزعمون سوى أوامر الله القادر على كشف أسراركم ، وآيات الله المجيدة ، ورسوله الصادق ، الذى جاء لهدايتكم وإخراجكم من الظلمات إلى النور .

٦٦- لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ... الآية .

أى : لا تشغلوا أنفسكم بتلمس المعاذير وانتحالها ؛ رغبة فى دفع اللوم والعتاب عنكم ؛ لتحقق كذبها وبطلانها ؛ فإن الاستهزاء بالله كفر محض وشر مستطير ، وكذلك الاستهزاء بالرسول وأخلاقه وأعماله .

أى : لا تفعلوا مالا ينفع ؛ فقد ظهر كذبكم ونفاقكم وكفركم ؛ بالاجتراء على الله والاستهزاء به وبآياته ورسوله ، بعد أن أعلنتم الإيمان وأظهرتم الإسلام .

إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ .

أى : إذا صفحنا عن جماعة منهم لصدق توبتهم ، وإخلاص إيمانهم وابتعادهم عن الإيذاء والاستهزاء بعد أن خاضوا فى ذلك مع الخائضين .

نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ .

أى : نعاقب جماعة أخرى على الكفر والنفاق ؛ لإصرارهم على ذلك ومضيهم فى السخرية والاستهزاء.

من كتب التفسير

١- جاء فى تفسير الفخر الرازى ما يأتى :

الاستهزاء بالدين يعدّ من باب الكفر، إذ إنّه يدل على الاستخفاف ، والأساس الأوّل فى الإيمان تعظيم الله تعالى ، بأقصى الإمكان ، والجمع بينهما محال .

٢- جاء فى تفسير ابن كثير ما يأتى :

قال ابن إسحاق : كان جماعة من المنافقين منهم وديعة بن ثابت ، ومنهم رجل من أشجع ، حليف لبنى سلمة يقال له : «مخَشّ بن حمير» يسيرون مع رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك ، فقال بعضهم : أتحسبون جلاد بنى الأصفر – أى : الروم – كقتال العرب بعضهم ؟ والله لكأنّا بكم غدًا مقرنين فى الحبال ؛ إرجافًا وترهيبًا للمؤمنين .

فقال مِخَشّ بن حمير : لوددت أن أقاضِىَ على أن يُضرب كل رجل منا مائة جلدة ، وأننا ننجو من أن ينزل فينا قُرآن لمقالتكم هذه ، وقال رسول الله ﷺ – فيما بلغنى – لعمار بن ياسر : «أدرك القوم فإنهم قد احترقوا ، فسلهم عما قالوا فإن أنكروا فقل : بلى ، قلتم : كذا وكذا» ؛ فانطلق إليهم عمار فقال ذلك لهم ؛ فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه .

فقال وديعة بن ثابت – ورسول الله ﷺ واقف على راحلته – : يا رسول الله ، إنما كنّا نخوض ونلعب.

فقال مِخَشُّ[١٤٣] بن حمير : يارسول الله ، قعد بى اسمى واسم أبى ، فكان الذى عفى عنه فى هذه الآية هو مخشّ بن حمير ، فتسمى : عبد الرحمن ، وسأل الله أن يُقتل شهيدًا ، لا يعلم مكانه ؛ فقتل يوم اليمامة ولم يوجد له أثر[١٤٤] .

★ ★ ★

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

المفردات :

المنافقون والمنافقات : هم الذين يظهرون غير ما يضمرون .

بعضهم من بعض : أى : متشابهون فى النفاق والبعد عن الإيمان .

يقبضون أيديهم : كناية عن شدة بخلهم .

نسوا الله فنسيهم : أى : تركوا حق الله عليهم ؛ فحرمهم فضله .

الفاسقون : الخارجون عن دين الله .

التفسير :

٦٧– ٱلْمُنَافِقُونَ وَٱلْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ... الآية .

تستمر الآيات فى بيان فضائح المنافقين وقبائحهم ، وتبين الآية هنا صفات المنافقين ، والفروق الواضحة بين صفات المنافقين ، وصفات المؤمنين .

ولما كان المؤمنون والمؤمنات يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، كان المنافقون عكسهم .

ٱلْمُنَافِقُونَ وَٱلْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ .

أى : الرجال والنساء يشبه بعضهم بعضًا ، فى صفة النفاق والبعد عن الإيمان ، وفى الأخلاق والأعمال.

كما يقول إنسان لآخر : أنت منى وأنا منك ، أى : أمرنا واحد لا مباينة ولا مخالفة .

يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ .

هنا تفصيل وبيان ؛ لتشابه ذكورهم وإناثهم فى الأعمال المنكرة والأفعال الخبيثة .

فهم يأمرون بالمنكر، وهو ما أنكره الشرع ونهى عنه: كالكذب، والخيانة، وخلف الوعد، ونقض العهد.

أخرج الشيخان والترمذى والنسائى عن أبى هريرة : أن رسول الله ﷺ قال :

«آية المنافق ثلاث : إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان»[١٤٥] .

وفى رواية : «وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر» .

وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ .

وهو كل ما عرف عن الشرع حسنه ، وأقره العقل والطبع كالجهاد والإيمان والإخلاص ، وبذل المال فى سبيل الله .

وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ .

أى : يمسكون أيديهم بالمال ضنًا به وشحًا ، فلا يبسطون أيديهم بالنفقة والعطاء للمحتاجين ، قال تعالى عنهم : هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ . (المنافقون: ٧) .

نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ .

أى: تركوا طاعة الله وخشيته ومراقبته ؛ فتركهم سبحانه وحرمهم من هدايته ورحمته وفضله .

والمقصود بالنسيان هنا : لازمه وهو الترك والإهمال ؛ لأن حقيقة النسيان على الله تعالى محال.

والمراد : أن الله جازاهم بمثل فعالهم ، وعاملهم معاملة من نسيهم ، بحرمانهم من لطفه وفضله وتوفيقه فى الدنيا ؛ ومن الثواب فى الآخرة .

كما قال تعالى : وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ .(الجاثية: ٣٤) .

إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ .

أى : إن المنافقين الذين تقدم شرح حالهم ، هم الخارجون عن طريق الحق والاستقامة ، الداخلون فى طريق الضلالة ، المتمردون فى الكفر ، المنسلخون من كل خير .

★ ★ ★

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

المفردات :

حسبهم : كافيهم .

ولعنهم : وطردهم من رحمته .

مقيم : دائم لا يزول ولا يتحول .

فاستمتعوا بخلاقهم: فتمتعوا بنصيبهم الذى قدر لهم من الملاذ والشهوات .

وخضتم : ومضيتم فى أحاديث الاستهزاء والسخرية .

حبطت : بطلت وضاع ثوابها .

التفسير :

٦٨- وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَافِقِينَ وَٱلْمُنَافِقَاتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ ... الآية .

تُبيِّن هذه الآية سوء مصيرهم ، وعقابهم فى الآخرة وكذلك عقاب الكفار الصرحاء فى الكفر .

والمعنى :

إن المنافقين والمنافقات والكفار ، أوعدهم الله جميعًا نار جهنم يدخلونها ماكثين فيها أبدًا مخلدين هم والكفار فيها .

هِىَ حَسْبُهُمْ . أى : جهنم وحدها تكفيهم ؛ عقابًا وعذابًا على نفاقهم وكفرهم .

وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ . أى : طردهم وأبعدهم من رحمته .

وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ . ولهم عذاب دائم لا ينقطع فهم فى الدنيا يعيشون فى عذاب القلق والحذر ؛ من أن يطلع المسلمون على نفاقهم ، وفى الآخرة يذوقون عذاب النار ، ماكثين فيه أبدًا .

وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ . أى: دائم لا يفارقهم فى جهنم ؛ جزاء ما اقترفوا من جرائم وآثام .

٦٩- كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا ... الآية .

من شأن القرآن أن يلفت النظر إلى ما أصاب الأمم السابقة التى كذبت رسلها وشغلتها العاجلة عن الباقية مثل : قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم .

وهنا يذكّر المنافقين فى المدينة ، والكفار فى مكة وأشباههم فى كل مكان : أن من سبقهم من المكذبين لم يحصل لهم إلا حبوط الأعمال وإلاّ الخزى والخسار ؛ مع أنهم كانوا أقوى من هؤلاء المنافقين؛ وأكثر أموالاً وأولادًا .

وقد جاء الخطاب فى بداية الآية على أسلوب الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ؛ لتحريك نفوسهم إلى الاعتبار والاتعاظ .

والمعنى :

أنتم أيها المنافقون ، حالكم كحال الذين خلوا من قبلكم من الطغاة؛ فى الانحراف عن الحق، والاغترار بشهوات الدنيا وزينتها ، والاستغناء بها عن النظر فى العواقب ، والتأمل فى الحق والخير .

لكن هؤلاء الطغاة السابقين ، كانوا يمتازون عنكم ؛ بأنهم كانوا أعظم قوة فى أبدانهم ، وممتلكاتهم وتفوقهم ، وكانوا أكثر منكم أموالاً وأولادًا .

فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ .

الخلاق : النصيب وهو ما خُلق للإنسان أى قُدِّر من خير .

المعنى : إن السابقين تمتعوا بنصيبهم الذى قدر لهم من حظوظ الدنيا ، وأفرغوا كل جهد لهم فى التمتع بالملذات والشهوات ، ونسوا حق الله عليهم ، ولم يلتزموا بطاعته ، واستخفوا بأنبيائهم وسخروا منهم؛ فكذلك كنتم بعدهم مثلهم ؛ انتفعتم بنصيبكم الذى قدر لكم من متاع الدنيا وزينتها ، وحرصتم عليه ، وجعلتم الاشتغال به غاية الغايات .

وبعد أن امتلأت أيديكم بالنعم ؛ استعملتموها فى غير ما خلقت له ؛ وسخّرتموها لإرضاء شهواتكم الخسيسة ، وملذاتكم الفانية .

وقريب من ذلك قوله تعالى : أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا . (الأحقاف: ٢٠) .

قال الزمخشرى فى تفسير الكشاف :

فإن قلتَ : أى فائدة فى قوله : فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ . وقوله : كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ . مغن عنه كما أغنى : كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ . عن أن يقال : وخاضوا فخضتم كالذى خاضوا ؟

قلتُ : فائدته : أن يذم الأوّلين بالاستمتاع ، بما أوتوا من حظوظ الدنيا ورضاهم بها ، والتهائهم بشهواتها الفانية ؛ عن النظر فى العاقبة ، وطلب الفلاح فى الآخرة ، وأن يخسس أمر الاستمتاع ، ويهجّن أمر الرضا به ، ثم يشبّه بعد ذلك حال المخاطبين بحالهم ، كما تريد أن تنبه بعض الظلمة على سماجة فعله فتقول: أنت مثل فرعون ؛ كان يقتل بغير جرم ، ويعذّب ويعسف ؛ وأنت تفعل مثل فعله ، وأما وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ .فمعطوف على ما قبله مستند إليه ، مستغن باستناده إليه عن تلك التقدمة [١٤٦] .

وعموما فالتكرار هنا للتأكيد أيضًا .

وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْ . أى : دخلتم فى الباطل واللهو .

والمعنى :

ودخلتم أيها المنافقون والكافرون فى حمأة الباطل ، وانغمستم فيه كانغماس الذين مَضوا قبلكم من الأمم .

أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۖ .

أى : أولئك الذين انغمسوا فى الباطل إلى الأذقان من الفريقين ، بطلت مساعيهم ، وفسدت أعمالهم فى الدينا ؛ لأنَّها أعمال رياء وسمعة ، وفى الآخرة ؛ لأنهم لم يقصدوا بها وجه الله .

وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ .

الذين خسروا فى مظنة الربح والمنفعة ؛ لأنَّهم لم يحصلوا على الثواب ، وأتعبوا أنفسهم فى الردّ على الأنبياء والرسل ؛ فما وجدوا إلاّ فوات الخيرات فى الدنيا والآخرة .

قال الزمخشرى : وهذا نقيض قوله تعالى : وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ . (العنكبوت: ٢٧) .

★ ★ ★

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

المفردات :

نبأ : خبر له شأن .

المؤتفكات : المنقلبات وهى قرى قوم لوط .

بالبينات : بالحجج الواضحات .

التفسير :

٧٠- أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ...

ألم يصل إلى أسماع هؤلاء المنافقين والكافرين أخبار الأمم المكذبة للرسل ، وما حل بهم من عقوبات ومن هؤلاء الأقوام : قَوْمِ نُوحٍ الذين أغرقوا بالطوفان الذى عم جميع أهل الأرض القديمة ، إلا من آمن بنوح عليه السلام .

وَعَادٍ قوم هود ، الذين أهلكوا بالريح العقيم ؛ لما كذبوا هودًا عليه السلام .

وَثَمُودَ قوم صالح ، الذين أخذتهم الصيحة ؛ لما كذبوا صالحًا وعقروا الناقة .

وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ الذين أهلكهم الله بسلب النعمة عنهم ، وبتسليط البعوضة على ملكهم نمروذ بن كنعان ابن كوش الكنعانى ، وقد نصر الله إبراهيم وأيده بالمعجزات الظاهرة ، وأنقذه من النار .

وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ قوم شعيب عليه السلام ، الذين أصابتهم الرجفة وعذاب النار يوم الظلة .

وَالْمُؤْتَفِكَاتِ . وهى القرى التى ائتفكت بأهلها ، أى : انقلبت فصار أعلاها أسفلها ، فالمؤتفكات صفة القرى وهى قرى قوم لوط الذين كانوا يسكنون فى مدائن ، فأهلكهم الله بالخسف ، وجعل عالى أرضهم سافلها وأمطر عليهم الحجارة ، وأمّ قراهم سدوم ، أهلكهم الله عن آخرهم ؛ بتكذيبهم نبىّ الله لوطًا عليه السلام ، وإتيانهم الفاحشة ، واستغناء الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء ، وهى المثلية الجنسية . قال تعالى: وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ * فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ . (النجم: ٥٣، ٥٤).

وقد أهلك الله مكذبين كثيرين ، لكنه اكتفى هنا بذكر هذه الطوائف الستّ ؛ لأن آثارهم باقية ، ومواطنهم هى الشام والعراق واليمن وهى مواطن قريبة من أرض العرب ، فكانوا يمرّون عليها فى أسفارهم، كما كانوا يعرفون الكثير من أخبارهم .

أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ .

وهذا كلام مستأنف لبيان أنبائهم وأخبارهم أى : إن هؤلاء المهلكين قد جاءتهم رسلهم بالمعجزات والحجج، والدلائل القاطعة على وحدانية الله ، فلم يؤمنوا وكذبت كلّ أمة رسولها وآذته ؛ فأهلكهم الله بذنوبهم ؛ وما كان الله ليعذب أحدًا بغير ذنب .

فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

أى : فما صح ولا استقام فى سنة الله فى خلقه أن يعاقبهم بغير ذنب فيظلمهم بذلك ، ولكن هؤلاء الطغاة ظلموا أنفسهم ، بالكفر والفسوق والعصيان ؛ فاستحقوا ذلك العذاب .

★ ★ ★

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢) ﴾

المفردات :

أولياء : جمع ولى وهو المحب .

خالدين فيها : ماكثين فيها مكثًا دائمًا ..

جنات عدن : أى : جنات إقامة وخلود ، يقال : عدن بالمكان عدنا وعدونا أقام به .

التفسير :

بعد أن بين القرآن سوء حال المنافقين والكفار فى الدنيا والآخرة بين هنا حسن حال المؤمنين وجميل فعالهم ، وما يلقونه من جزاء فى الآخرة . والقرآن بهذا يوازن بين كفتين ؛ لينزجر المنافق ويتوب العاصى ، ويزداد الذين آمنوا إيمانًا .

٧١- وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ...

إن التعاون بين أهل الإيمان من المؤمنين والمؤمنات كان معروفًا من اليوم الأول للإسلام ، وكان قائمًا فى ميادين الهجرة والجهاد والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ؛ فأخت عمر بن الخطاب أرشدته إلى الإسلام ، وأسماء بنت أبى بكر لها موقف فى الهجرة ، وهناك بيعة تسمّى : بيعة النساء ذكرها القرآن الكريم فى الآية ١٢ من سورة الممتحنة ، وكانت النساء تشهد الجماعات والجمع والأعياء وتساهم فى الجهاد ، وكنّ يسقين الماء ويجهزن الطعام ، ويحرضن على القتال ويرددن المنهزم من الرجال ، ويواسين الجرحى ويعالجن المرضى .

وقوله سبحانه : بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ . فهم نصراء متوادُّون متحابون ؛ كما قال ﷺ فى الحديث الصحيح : «ترى المؤمنين فى توادّهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد ؛ إذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر»[١٤٧] .

وفى الحديث الصحيح أيضًا : «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»[١٤٨] . وشبك ﷺ بين أصابعه ، وقد ذكر سبحانه صفات المنافقين ، كما يأتى :

١- بعضهم من بعض ؛ يقلّد بعضهم بعضًا ، بدون ولاء ولا محبة .

٢- يأمرون بالمنكر .

٣- ينهون عن المعروف .

٤- لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى .

٥- يقبضون أيديهم ويمسكون بها عن النفقة ، ولا ينفقون إلا وهم كارهون .

وفى الآية ٧١ من سورة التوبة نجد صفات المؤمنين كالآتى :

١- بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ، يتولى بغضهم بعضًا بما يعود عليهم بالخير، فى مقابل المنافقين بعضهم من بعض. بدون ولاء .

يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ...

٢– وهم يأمرون بالمعروف : وهو كل ما عرف عن الشرع حسنه .

٣– وهم ينهون عن المنكر : وهو كل ما عرف عن الشرع قبحه .

٤– وهم يقيمون الصلاة تامّة الأركان فى خشوع وخضوع .

٥– وهم يؤدون الزكاة خالصة لوجه الله .

٦– والمؤمنون والمؤمنات يطيعون الله ورسوله ، ويتركون ما نهيا عنه ؛ امتثالا وحبا وطاعة لله ورسوله.

أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ .

أى : هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات : تعهد الحق أن يشملهم برحمته ، وأن يسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة .

إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

فهو سبحانه قوىٌّ قاهر مالك الملك بيده الخلق والأمر ، وهو سبحانه حكيم فى أعماله وفى تدبير أمر عباده على وفق العدل والحكمة والصواب فيخص المؤمنين بالجنة والرضوان ، ويخص المنافقين بالنار والعذاب والغضب .

٧٢– وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ .

فصَّل الله تعالى فى هذه الآية ما وعد به المؤمنين من رحمته فى الآية السابقة حين قال : أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ .

وقد أعد الحق سبحانه وتعالى ثلاثة أشياء مفسّرة للرحمة :

١– الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار ، فينعم الناظر إليها ؛ حين تجرى الأنهار تحت أشجارها وغرفها منضبطة بالقدرة الإلهية فى غير أخدود (شقّ) وهم فيها خالدون فلا يموتون ولا يخرجون منها.

٢– المساكن الطيبة ، وهى المنازل التى تستطيبها النفوس ، أو يطيب العيش فيها ، فى جنات عدن وهى أبهى أماكن الجنة وأسناها ، وعَدْنٍ . اسم موضع معين فى الجنة ، أو بمعنى : دار إقامة ، ينزل فيها الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون ومن يشاء الله .

٣- رضوان من الله أكبر ، وهذا الرضا هو الفوز الأكبر ، والنعيم الروحى الحقيقى، فالسعادة الروحية أفضل من السعادة الجسمانية ، وقيل : إن الرضوان هو رؤية الله يوم القيامة .

ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ . أى : هذا الفوز بالجنة ونعيمها ، ورضوان الله وكرامته لأحبابه فى الجنة ، هو الفوز العظيم ، فمتاع الدنيا قليل فانٍ ، أما نعيم الجنة ورضوان الله فهو الفوز العظيم حقًا وصدقًا .

من السنة النبوية الشريفة

جاء فى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله ﷺ قال : «جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من فضة ، آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربّهم إلا رداء الكبرياء على وجهه فى جنة عدن» .

ثم قال رسول الله ﷺ : «إن للمؤمن فى الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة ، طولها ستون ميلاً فى السماء ، للمؤمن فيها أهلون ، يطوف عليهم ، لا يرى بعضهم بعضًا»[١٤٩] .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه : «إن فى الجنة مائة درجة ، أعدّها الله للمجاهدين فى سبيلة ، بين كلّ درجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه أعلى الجنة ، وأوسط الجنة ، ومنه تفجّر أنهار الجنة ، وفوقه عرش الرحمن»[١٥٠] .

وروى الإمام مالك والشيخان : أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، والخير فى يديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : ومالنا لا نرضى يا رب ، وقد أعطيتنا مالم تعط أحدًا من خلقك ؟! فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : يا رب ، وأى شيء أفضل من ذلك ؟! فيقول : أحلّ عليكم رضوانى ، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا»[١٥١] .

من كتب التفسير

جاء فى كتاب : فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب ما يأتى:

وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ .

وإن الجنة بكل ما فيها من نعيم لتتضاءل وتتوارى فى هالات ذلك الرضوان الكريم .

وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ .

إن لحظة اتصال بالله ، لحظة شهود لجلاله ، لحظة انطلاق من حُبسة هذه الأمشاج ، ومن ثقلة هذه الأرض ... لحظة إشراق تنير فيها حنايا الروح بقبس من روح الله ، إنّ لحظة واحدة من تلك اللحظات التى

تتفق للندرة القليلة من البشر فى ومضة صفاء، ليتضاءل إلى جوارها كل متاع، وكل رجاء، فكيف برضوان من الله يغمر هذه الأرواح، وتستشعره بدون انقطاع ؟!

ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ .

★ ★ ★

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ ﴾

المفردات :

واغلظ عليهم : واشدد عليهم ولا تأخذك بهم رأفة ورحمة .

ومأواهم جهنم : أى : ومكانهم ومقرهم الذى يأوون إليه وينزلون فيه جهنم .

المصير : المآل والمرجع .

قالوا كلمة الكفر : أى: نطقوا بما يدل عليه من الألفاظ .

وهموا : المراد من الهم هنا : العزم . أى : عزموا .

بما لم ينالوا : بما لم يستطيعوا الوصول إليه .

نقموا : كرهوا وأنكروا .

ولىّ : صديق ينفعهم ، أو سيد متولى أمرهم .

التفسير :

٧٣- يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَاهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَافِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ...

كان رسول الله ﷺ سهلاً مألفًا محببًا ، وكان يلقى الناس جميعًا مستبشرًا باسمًا متفائلاً، يمتثل قوله تعالى : فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ... (آل عمران : ١٥٩) .

وكانت هذه المعاملة الحسنة ؛ ربما أطمعت المنافقين وجرّأتهم ؛ لأن النبى ﷺ كان يعاملهم بالحسنى مثل المؤمنين ؛ فأمره الله أن يغلظ لهم فى القول والفعل ، وأن يظهر فى وجهه عدم الرضا عنهم ، حتى يدفعهم ذلك إلى البحث عن عيوب أنفسهم ، والانتقال من النفاق إلى الإيمان .

روى عن ابن عباس رضى الله عنه قال : «جهاد الكفار بالسيف وجهاد المنافقين باللسان» .

وعن ابن مسعود قال : لما نزلت : يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَاهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَافِقِينَ ؛ أمر رسول الله ﷺ المسلم أن يجاهد بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه ، فإن لم يستطع فليلقه بوجه مكفهر.

قال صاحب المنار : ويفهم من هذا الحديث أن هذا فى جهاد الأفراد بالمعاملة ، لا فى جهاد الجماعات بالمقاتلة ؛ فهو إذًا بمعنى إزالة المنكر فى قوله ﷺ : «من رأى منكم منكرًا ، فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»[١٥٢] . رواه الجماعة إلا البخارى .

وفى معنى هذه الآية قوله تعالى : يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَاتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ (التوبة : ١٢٣)

والغلظة فى اللغة : الخشونة والشدة ، ومعاملة العدو المحارب بهما من وضع الشىء فى موضعه .

قال الشاعر :

ووضع النّدى فى موضع السيف فى العُلا　　مُضرٌ كوضع السيف فى موضع النـدى

فلما أساء المنافقون الأدب مع رسول الله ﷺ ؛ وقالوا عليه : هو أذن ، وتكرر نقضهم لعهد النبى ﷺ؛ أمره الله تعالى بالغلظة فى جهاد الكفار ، والمنافقين[١٥٣].

ومثل هذه الآية بنصّها فى سورة التحريم ، قال تعالى : يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَاهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَافِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ (التحريم: ٩) .

والخلاصة : أن الله سبحانه وتعالى أمر رسول الله ﷺ بجهاد الكفار الصرحاء ؛ الذين يظهرون الكفر بالسيف والسلاح ، وأن يجاهد المنافقين ويجالدهم بالحجة والبرهان ، وإقامة الحدود ، مع الغلظة والشدة والحزم فى معاملتهم فى الدنيا .

وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ .

أما فى الآخرة فإن مرجعهم ومقرّهم هو النار وبئس المرجع الذى يصيرون إليه ، والنهاية التى سينتهون إليها .

٧٤- يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ ... الآية .

تشير أسباب النزول إلى أكثر من سبب لنزول هذه الآية ، مما يفيد تعدد الأحداث التى صدرت من المنافقين ، وفيها كيد ودسّ للرسول ﷺ وللمسلمين .

فإذا واجههم الرسول ﷺ بما قالوه من مخالفات تبرّأوا من ذلك ، وحلفوا كذبًا أنهم لم يقولوه .

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال : ذكر لنا أن رجلين اقتتلا أحدهما من جهينة ، والآخر من غفار وكانت جهينة حلفاء الأنصار ، فظهر الغفارى على الجُهينى ، فقال عبد الله بن أبى للأوس : انصروا أخاكم ، والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل : «سمّن كلبك يأكلك» . والله ، لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ؛ فسعى بها رجل من المسلمين إلى رسول الله ﷺ ؛ فأرسل إليه فجعل يحلف بالله ما قاله[١٥٤] ؛ فأنزل الله :

يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ ... الآية

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس : أن الجُلاس بن سويد قال : لئن كان محمد صادقًا ؛ لنحن شر من الحمير (يقصد الآيات التى نزلت فيمن تخلف من المنافقين) ؛ فرفع عمير بن سعيد ذلك إلى رسول الله ﷺ وأخبره بما قاله الجُلاس (بضمّ الجيم) ؛ فأحضر النبى الجُلاس وسأله عن مقالته ؛ فحلف بالله : ما قلتُ ، فأنزل الله تعالى : يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ ... الآية .

وقيل : إن الجُلاس تاب بعد ذلك وحسنت توبته .

وقيل : إنها نزلت فى رجل من المنافقين ؛ قال له النبى ﷺ : علام تشتمنى أنت وأصحابك ، فانطلق الرجل فجاء بأصحابه ، فحلفوا بالله ما قالوا ؛ فتجاوز عنهم النبى ﷺ : فأنزل الله : يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ ... الآية .

وعلماء القرآن يذكرون : أنه قد يتعدد السبب ؛ والمنزّل واحد .

فلا مانع أن تتعدد حوادث من المنافقين تكلموا فيها كلاما سيئًا على النبى ﷺ وعلى المسلمين ، فلما انكشف أمرهم ، ووجهت التهمة إليهم ؛ أقسموا بالله ما قالوا .

والمعنى : يقسم هؤلاء المنافقون بالله : ما صدر عنهم ما نُسب إليهم من القول السيِّئ ، وهم كاذبون فى دعواهم حانثون فى يمينهم .

وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ .

أى : لقد صرحوا بكلمة تدل على كفرهم الذى كتموه ، وتفضح نفاقهم ، إذ قالوا : إن كان ما يقوله محمد حقًا فى شأن المنافقين وهم أشرافنا ؛ لنحن شر من الحمير .

أو أن كلمة الكفر إشارة إلى كل مقالة قالها المنافقون فى ذم النبىّ ﷺ مثل : قولهم : هو أذن ، وقولهم لا تنفروا فى الحرّ ... وغير ذلك من الكلمات القبيحة التى نطقوا بها ، أو خبئوها فى قلوبهم ونفوسهم ؛ وبذلك كفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ . وأظهروا ما فى قلوبهم من الكفر ، بعد إظهارهم الإسلام .

وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ .

جاء فى أسباب النزول للواحدى ، وفى كتب التفسير :

أنها نزلت فى خمسة عشر رجلاً من المنافقين ؛ همّوا بقتل رسول الله ﷺ ، عند عودته من غزوة تبوك، واتفقوا أن يدفعوه عن راحلته إلى الوادى إذا تسنّم العقبة بالليل .

فأخذ عمار بن ياسر بخطام راحلته يقودها ، وحذيفة يسوقها ، فبينما هما كذلك إذ سمع حذيفة بوقع أخفاف الإبل ، وقعقعة السلاح ، فالتفت فإذا هو بقوم ملثّمين فقال : إليكم يا أعداء الله ؛ فأمسكوا ، ومضى النبى ﷺ حتى نزل منزله الذى أراد ؛ فأنزل الله تعالى : وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ .

أى : حاولوا إلحاق الأذى برسول الله ﷺ ولكنهم لم يستطيعوا ذلك ؛ لأن الله عصمه من شرورهم.

وقيل : همُّوا بإخراج الرسول والمؤمنين من المدينة ، أو بأن يُتَوِّجوا عبد الله بن أبى ملكًا عليهم ؛ فأحبط الله مؤامرتهم .

وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَاهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ .

أى : وما حمل هؤلاء المنافقين والكفار على بغض النبى وما عابوا من أمر الإسلام شيئًا يستحق العيب؛ بل المحبة والإيمان .

فقد كانوا قبل قدوم النبى إلى المدينة فى غاية الضنك وشدة الحياة ؛ فأغناهم الله تعالى من فضله ، وأغناهم الرسول بالغنائم والمنح ، وكانوا كسائر الأنصار فى المدينة فقراء .

وهذه الجملة جاءت على أسلوب : تأكيد المدح بما يشبه الذمّ مثل قول الشاعر :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم يقطـرن مـن نجـدة دمـا

أى : ليس هناك شىء ينقمون منه ؛ إلا أن الإسلام كان سبب غناهم .

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى : وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ • ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ . (البروج : ٨، ٩) .

لقد أغنى الله المنافقين بعد فقر ، وقُتل للجُلاس مولى ؛ فأمر رسول الله ﷺ بديته بـ ١٢ ألف درهم ؛ فاستغنى بها الجلاس .

وقد كان الإسلام وسيلة إلى الغنى الروحى ، لمن حمل العقيدة فكانت سببًا فى عز الدنيا وسعادة الآخرة.

فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ .

فإن يتوبوا من النفاق ومساوئ أقوالهم وأفعالهم ؛ يكن ذلك خيرًا لهم وأصلح ، ويقبل الله توبتهم ، وفى هذا ترغيب لهم بالتوبة ، وفتح باب الأمل والرجاء بالرحمة أمامهم .

قيل : إن الجُلاس بن سويد تاب بعد هذه الآية وحسنت توبته .

وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ .

أى : إن أعرضوا عن التوبة ؛ يعذبهم الله عذابًا مؤلمًا فى الدنيا بالقتل والأسر ، واغتنام أموالهم، وعيشهم فى هم وقلق وخوف ، وإحساسهم بالعزلة والمقاطعة من جانب المؤمنين ، كما يعذبهم فى الآخرة عذابًا شديدًا فى الدرك الأسفل من النار .

وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ .

ليس لهم أحد فى الأرض يدفع عنهم عذاب الله أو يحميهم من عقابه ؛ لأن عقاب الله لن يدفعه دافع إلا هو .

وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ . (الرعد: ١١) .

★ ★ ★

﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾ ﴾

المفردات :

من فضله : زيادة خيره وإنعامه .

فأعقبهم نفاقا : أي : جعل الله عاقبة بخلهم نفاقا ، أو أورثهم البخلُ نفاقا .

أخلفوا الله ما وعدوه : جعلوا وعدهم لله بالتصدُّق خلفهم والمراد: أنهم لم يوفوا بما وعدوا الله به من الصدق والصلاح.

سرهم : أي : ما انطوت عليه قلوبهم من النفاق .

نجواهم : أي : ما تحدثوا به علنًا فيما بينهم بعيدا عن المؤمنين .

سبب النزول

نزلت هذه الآيات في رجال من المنافقين : نبتل بن الحارث ؛ وجدّ بن قيس ، ومعتب بن قشير ؛ عاهدوا الله ورسوله : لئن أغنانا الله من فضله ؛ ليسارعُنّ إلى إخراج الصدقة ، وصلة الرحم ، والحج ، والزكاة ، وسائر القربات والطاعات .

فلما أعطاهم الله المال بخلوا به ، ونقضوا العهد وأعرضوا عن النفقة وعن الإسلام ، وعن تكاليف الله وأوامره .

فزادهم الله نفاقًا في قلوبهم إلى يوم الحساب في الآخرة أي : ماتوا منافقين .

قصة مشهورة لكنها غير صحيحة

هناك قصة مشهورة بين الناس ، تروى سبب نزول هذه الآيات ، رددتها كتب التفسير كما وردت في كتاب إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الغزالي .

بيد أن هذه القصة لم تصح لدى المحدِّثين .

وهى ما أخرجه الطبرانى وابن مردوية وابن أبى حاتم والبيهقى فى الدلائل ، بسند ضعيف عن أبى أمامة : أن ثعلبة بن حاطب أتى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يرزقنى مالاً ، فقال عليه الصلاة والسلام ، «يا ثعلبة ، قليل تؤدى حقّه خير من كثير لا تطيقه» .

فذهب ثم عاد فقال : يا رسول الله ، والذى بعثك بالحق لئن رزقنى الله مالا ؛ لأعطين كل ذى حق حقّه؛ فدعا له رسول الله ﷺ ؛ فاتخذ غنما فنمت وكثرت حتى ضاقت بها المدينة ، فنزل واديا وانقطع عن الجماعة والجمعة .

ثم أنزل الله على رسوله : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ . (التوبة : ١٠٣) .

فاستعمل النبى ﷺ على الصدقات رجلين ، وكتب لهما كتابًا ، فأتيا ثعلبة ، فأقرآه كتاب رسول الله ﷺ؛ فقال : ما هذه إلا جزية ما هذه إلاّ أخت الجزية ، فارجعا حتى أرى رأيى ؛ فنزلت فيه وفى أمثاله تلك الآيات. وأخرج ابن جرير وابن مردوية عن ابن عباس : نحوه .

فجاء ثعلبة بالزكاة ؛ فقال له النبى ﷺ : «إن الله منعنى أن أقبل منك صدقتك» .

ثم جاء بها إلى أبى بكر رضى الله عنه فلم يقبلها ، ثم جاء إلى عمر فى خلافته فلم يقبلها ، ومات فى زمان عثمان رضى الله عنه .

والحقيقة : أن ما روى عن ثعلبة هذا غير صحيح لدى المحدّثين ، وثعلبة بدرى أنصارى ، وممن شهد الله له ورسوله بالإيمان .

قال ابن عبد البر : ولعل قول من قال فى ثعلبة : إنه مانع الزكاة الذى نزلت فيه الآية غير صحيح والله أعلم .

وذكر عن ابن عباس فى سبب نزول الآية : أن ثعلبة بن حاطب أبطأ عنه ماله بالشام ، فحلف فى مجلس من مجالس الأنصار : إن سلم ذلك المال لأتصدقنّ منه ولأصلنّ منه ، فلما سلم بخل بذلك ، فنزلت. وهذا أيضا غير صحيح [١٥٥] .

وعلماء الحديث ضعفوا نسبة هذه الآيات إلى ثعلبة ؛ لأسباب تتعلق بسند الحديث ، وبصاحب القصة لأنه شهد بدرًا ، والنبى ﷺ قال : «لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم؛ فقد غفرت لكم» [١٥٦] .

والآيات فى محتواها تنطبق على المنافقين ، وعلى كل من يقابل نعم الله بالكفران ؛ إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

قال السيد رشيد رضا فى تفسير المنار :

«هذا بيان لحال طائفة من أولئك المنافقين ، الذين أغناهم الله ورسوله من فضله ، بعد الفقر والإملاق، ويوجد مثلهم فى كل زمان ، وهم الذين يلجئون إلى الله تعالى فى وقت العسرة والفقر ، أو الشدة والضرّ ، فيدعونه ويعاهدونه على الشكر له ، والطاعة لشرعه ؛ إذ هو كشف ضرهم ، وأغنى فقرهم ، فإذا استجاب الله لهم ، نكسوا على رءوسهم ، ونكصوا على أعقابهم ، وكفروا النعمة وبطروا الحق ، وهضموا حقوق الخلق ، وهذا مثل من شرّ أمثالهم» . اهـ .

التفسير:

٧٥ – وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَـٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ... الآية

أى : ومن المنافقين قوم عاهدوا الله ، وأكدُّوا عهودهم بالأيمان المغلظة ؛ فقالوا : لَئِنْ ءَاتَـٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لنتصدقن على الفقراء والمحتاجين ، ولنعطين كل ذى حق حقه ، ولنكونن من عباد الله الصالحين ، الذين يؤدّون حق الله فى أموالهم من الإنفاق فى سبيل الله ، وسائر وجوه البر والخير وصلة الأرحام .

٧٦ – فَلَمَّآ ءَاتَـٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ .

فلمَّا أعطاهم الله من فضله ، ووسع عليهم من رزقه ، وحقق لهم ما سألوه ؛ ضنُّوا بالمال على خلقه، وبخلوا به وأمسكوه ؛ فلم يتصدقوا منه ، ولم ينفقوا منه فى مصالح الأمّة كما عاهدوا الله عليه ، بل تولوا بكل ما أوتوا من قوة عن العهد وطاعة الله ، وأدبروا وأعرضوا إعراضًا جازمًا عن النفقة وعن الإسلام ، بسبب تأصل طبع النفاق فى نفوسهم .

وهنا نجد أن الآية وصفتهم بصفات ثلاث :

الأولى : البخل ، الثانية : التولى عن العهد ، الثالثة : الإعراض عن تكاليف الله وأ

٧٧ – فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ ...

أى : صير الله عاقبة أمرهم نفاقًا دائمًا فى قلوبهم بمعنى : زادهم نفاقًا ، وقيل : أعقبهم ذلك البخل نفاقًا ، واستمر ذلك النفاق ثابتًا متمكنًا ملازمًا فى قلوبهم إلى يوم الحساب فى الآخرة .

وفى هذا دليل على أنهم ماتوا منافقين .

وهذا دليل آخر على أن المنزل فيه ليس ثعلبة أو حاطب البدّريين .

ولو كان ثعلبة تاب وجاء بماله للنبى ﷺ تائبًا ؛ لقبل النبى ﷺ توبته ، وقبل منه المال .

فالقصة تحتاج إلى نظر ؛ إذ كيف يردّ النبى ﷺ تائبًا ، ثم كيف يرفض ذلك أبو بكر مع أنّه حارب مانعى الزكاة وكيف يرفضه عمر ؟.

ولذلك ضعّف علماء الحديث ، قصة سبب نزول الآيات ، التى تفيد: أنها نزلت فى ثعلبة ؛ لأسباب تتعلق بسند الحديث ، وأسباب تتعلق بموضوع الحديث .

بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ .

أى : أن ملازمة النفاق لهم كان بسببين :

الأول : إخلافهم العهد الذى عاهدوا الله عليه من التصدق والصلاح .

الثانى : استمرارهم على الكذب فى جميع أقوالهم .

وفى معنى هذه الآية ورد فى الصحيحين : عن رسول الله ﷺ أنه قال : «آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذاوعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان» [١٥٧] .

وفى رواية : «وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر» .

٧٨- أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ .

والاستفهام فى أول الآية للتوبيخ والتهديد والتقريع .

والمعنى : ألم يعلم هؤلاء المنافقون أن الله مطلع على ما يخفونه فى صدورهم من النفاق ، وما يتناجون به أو يتحدثون به فيما بينهم من المطاعن فى الدين ، وأن الله محيط علمه بكل ما يغيب عنهم وعن غيرهم ؛ فلا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، فهو عالم بالسر والنجوى ،وهو سبحانه يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، ويعلم ما ظهر وما بطن ، هو سبحانه يعلم كل ذلك ، ويعلم ما أسروه من النفاق والعزم على إخلاف ما وعدوه . فكيف يكذبون على الله فيما يعاهدونه به ؟!

ما يؤخذ من الآيات

من الأحكام والآداب التى أخذها العلماء من هذه الآيات ما يأتى :

١ - وجوب الوفاء بالعهد ؛ فإن نقض العهود ، وخلف الوعد ، والكذب على الله ؛ يورث النفاق فإذا عاهد المؤمن ربه فى أمر ؛ فليجتهد فى الوفاء به .

٢ – أن للإمام أن يمتنع عن قبول الصدقة من صاحبها إذا رأى المصلحة فى ذلك ، وامتناع الرسول ﷺ عن قبول الصدقة من ثعلبة أو غيره ، بما كانت للأسباب الآتية :

(أ) إهانته ؛ ليعتبر غيره به ، فلا يتخلف أحد عن إخراج الزكاة فى وقتها .

(ب) ربما جاء بها على وجه الرياء ؛ خوفًا من الفضيحة ، ومن كلام الناس ، وأعلم الله رسوله بذلك فلم يقبل منه الصدقة .

(جـ) الزكاة لتطهير النفوس وتزكيتها ، ولعل هذا لم يكن حاصلاً فى ثعلبة أو غيره ؛ فلهذا امتنع الرسول ﷺ عن قبول تلك الصدقة .

٣ – النفس البشرية ضعيفة شحيحة إلا من عصم الله ؛ فينبغى أن نوطّن النفس على طاعة الله ، وأن نجبرها إجبارًا على مخالفة الهوى والشيطان ، وإيثار ما عند الله على كل شىء من حطام الدنيا .

★ ★ ★

﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾

المفردات :

يلمزون : يعيبون بالكلام الواضح أو بالإشارة بالعين أو الرأس ، مع كلام خفى .

سبعين مرة : المراد به : المبالغة فى العدد .

المطوعين : المتصدقين تطوعًا .

التفسير :

٧٩ – ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ ... الآية

سبب النزول :

جاء فى تفسير الطبرى ، والرازى ، وأبى السعود ، وابن كثير وغيرهم ما يأتى :

عن ابن عباس رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ خطبهم ذات يوم وحث على أن يجمعوا الصدقات ، ودعاهم إلى إخراجها ، فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم وقال : كأن لى ثمانية آلاف فأقرضت ربى أربعة ، وأمسكت لعيالى أربعة ، فقال ﷺ : بارك الله لك فيما أعطيت ؛ وفيما أمسكت ؛ فبارك له حتى صولحت تماضر رابعة نسائه عن ربع الثمن على ثمانين ألفًا .

وجاء عمر بنحو ذلك ، وجاء عاصم بن عدىٍّ الأنصارى بسبعين وَسْقا من تمر الصدقة ، وجاء عثمان ابن عفان بصدقة عظيمة .

وجاء أبو عقيل بصاع من تمر ، وقال : أجَّرت الليلة الماضية نفسى من رجل، لإرسال الماء إلى نخيله؛ فأخذت صاعين من تمر ، فأمسكت أحدهما لعيالى ، وأقرضت الآخر ربِّى ، فأمر رسول الله ﷺ بوضعه فى الصدقات .

فلمزهم المنافقون وقالوا : ما جاءوا بصدقاتهم إلا رياءً وسمعة ، وإن الله ورسوله لغنيان عن صاع أبى عقيل .

فأنزل الله تعالى هذه الآية .

المعنى : هؤلاء المنافقون فى كل أمة أمرهم عجيب غريب ، ديدنهم تثبيط الهمم ، وتدمير القيم ، فلا يسلم من طعنهم أحد ؛ فهم يعيبون المتبرعين الأغنياء ؛ فيتهمونهم بالرِّياء فيما بذلوه بسخاء .

وهم يعيبون الفقراء فيما تبرعوا به من طعام قليل ؛ ويقولون : إن الله غنى عن صدقتهم .

فهم لسوء نواياهم ، وبخل نفوسهم ، وخبث قلوبهم ؛ لا يرضيهم أن يروا المؤمنين يتنافسون فى إرضاء الله ورسوله .

﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ . ومن تبرعهم القليل ، ويزعمون أن الله غنى عن هذا القليل .

وما علموا أن الله ينظر إلى قلوب الناس ونواياها ؛ فيعطى العطاء الجزيل على النيَّة الصادقة ، وربما سبق درهم دينارًا ؛ لأن صاحب الدرهم أخلص النية ، وجاد بما يملكه على قلته .

﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ .

أى : جازاهم على سخريتهم بالإذلال والإهانة فى الدنيا ؛ ليكونوا موضع سخرية الناس واستهزائهم؛ جزاءً لهم فى جنس عملهم .

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

وأعد لهم فى الآخرة عذابًا شديدًا مؤلمًا ؛ لأن الجزاء من جنس العمل .

٨٠ - ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ .

سبب النزول :

قال الشعبى : سأل عبد الله بن عبد الله بن أبىٍّ رسول الله ﷺ - وكان رجلاً صالحًا - أن يستغفر لأبيه فى مرضه ؛ ففعل ، فنزلت الآية [١٥٨] .

وقد شاع استعمال السبعة والسبعين والسبعمائة فى مطلق التكثير ، قال على بن أبى طالب عليه السلام [١٥٩] :

لأُصبِّحنَّ العاص وابن العاصى سبعين ألفًا عاقدى النواصى

وقيل : لما نزلت الآيات المتقدمة فى المنافقين وفى بيان نفاقهم ، جاءوا إلى رسول الله ﷺ يعتذرون إليه ، ويقولون : استغفر لنا فنزلت هذه الآية [١٦٠] .

أى : مهما استغفرت لهم يا محمد فلن يغفر الله لهم ؛ لقد كثرت ذنوبهم ومردوا على النفاق ، وتعطلت قلوبهم عن الاستجابة لأمر الله ، فهم كالكفار .

فسواء استغفر لهم الرسول أو لم يستغفر لهم فلن يستر الله عليهم ذنوبهم بالعفو عنها ، وإنه لو استغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ، ولن يعفو عنهم ، وذلك نظير قوله تعالى :

سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ . (المنافقون : ٦).

لقد كان النبى ﷺ رحيمًا كثير الرحمة بأمته ؛ وامتدت رحمته إلى المنافقين والكفار ؛ فكان يطلب لهم الهداية ، وكان يدعو للمشركين كلما اشتد به أذاهم .

روى ابن ماجة : أن رسول الله ﷺ كان يقول : «اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون» [١٦١] .

وكان عذر الرسول ﷺ فى ذلك ؛ عدم يأسه من إيمانهم ، والممنوع منه هو الاستغفار بعد العلم بانطباع قلوبهم على الضلالة .

قال تعالى : مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ . (التوبة : ١١٢) .

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ .

أى : ذلك الحكم السابق ؛ سببه أنهم كفروا وجحدوا بالله ورسوله ، فلم يقرُّوا بوحدانية الله تعالى ، ولم يعترفوا ببعثة النبى ﷺ ، وأصروا على الجحود والإنكار ، فلم تعد قلوبهم مستعدة لقبول الخير والنور . وإن سنة الله ألاَّ يوفق للخير المتمردين فى الكفر، الخارجين عن الطاعة ، الذين فقدوا الاستعداد للإيمان والتوبة.

★ ★ ★

﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (٨٢) ﴾

المفردات :

المخلفون : الذين تخلفوا عن الجهاد بأعذار كاذبة .

بمقعدهم : بقعودهم .

خلاف رسول الله : أى : بعده أو مخالفة له .

التفسير:

٨١ – فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ.. الآية

كانت غزوة تبوك فى شدة الحر والصيف ، وسمت همةُ المؤمنين للخروج والجهاد فى سبيل الله ، بينما هبطت همة المنافقين وكرهت الجهاد ومشقاته ، وجاءت هذه الآية تعرض لونًا من زهدهم فى المكارم ، ونفورهم من المعالى ، ورغبتهم فى الراحة والدعة ، والتخلف مع النساء والصبيان والشيوخ الكبار والعجائز، ولم يندموا على هذا التخلف ؛ بل شجعوا غيرهم على القعود عن الجهاد وقالوا لهم : لا تنفروا فى الحرّ.

قال الدكتور محمد سيد طنطاوى فى معنى الآية :

فرح المخلفون من هؤلاء المنافقين بسبب قعودهم فى المدينة وعدم خروجهم إلى تبوك للجهاد مع الرسول ﷺ والمؤمنين ، وكرهوا أن يبذلوا شيئًا من أموالهم وأنفسهم من أجل إعلاء كلمة الله (١٦٣) .

وجاء فى تفسير الكشاف للزمخشرى :

وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ .

فى هذه الفقرة تعريض بالمؤمنين ، وبتحملهم المشاق العظام لوجه الله تعالى ، وبما فعلوا من بذل أموالهم وأرواحهم فى سبيل الله تعالى ، وإيثارهم ذلك على الدعة والخفض ، وكره ذلك المنافقون ، وكيف لا يكرهونه ، وما فيهم ما فى المؤمنين من باعث الإيمان ، وداعى الإيقان .

وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا .

أى : قال بعضهم لبعض ، على سبيل الإغراء بعدم الخروج للجهاد : اقعدوا معنا فى المدينة ، ولا تخرجوا للجهاد مع المؤمنين ؛ فإن الحر شديد والسفر طويل ، وقعودكم يريحكم من هذه المتاعب .

قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ .

أى : إن نار جهنم التى أعدت للعصاة والتى تصيرون إليها بمخالفتكم ؛ أشد حرًّا مما فررتم منه من الحر . فلو كانوا يعقلون ويعتبرون ؛ لما خالفوا وقعدوا ، ولما فرحوا بل حزنوا .

فقد اشتروا متعة قليلة زائلة ، وباعوا المكارم والجهاد ، وتحمل التبعات فى سبيل خير الدنيا والآخرة.

قال الزمخشرى فى تفسير الكشاف :

قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا .

فيه استجهال لهم ؛ لأن من تصوَّن مشقة ساعة ، فوقع بسبب ذلك التصون فى مشقة الأبد ؛ كان أجهل من كل جاهل .

٨٢- فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ .

أى : فليضحك هؤلاء المنافقون سرورًا بقعودهم ، وسخريتهم من المؤمنين ، فليضحكوا ضحكًا قليلاً مهما طال أو كثر ؛ لأن متاع الدنيا قليل ، وسيكون حزنهم وبكاؤهم فى الآخرة كثيرًا ؛ لأنه عقاب دائم لا ينقطع بسبب ما كانوا يكسبون فى الدنيا من النفاق .

وتفيد الآية : هوان العاجلة ، وبقاء الآخرة ، وأن العاقل من دان نفسه وعمل لما بعد الموت .

قال تعالى : بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ . (الأعلى : ١٦ ، ١٧) .

وفى التفسير :

لو كانت الدنيا من ذهب يفنى ، والآخرة من خزف يبقى ؛ لوجب إيثار ما يبقى على ما يفنى . فكيف والحال أن الدنيا من خزف يفنى ، والآخرة من ذهب يبقى .

إن العاقل من يشترى نعيمًا سرمديًّا أبديًّا ، ويبيع متاعًا زائلاً ؛ لكن المنافقين اشتروا العاجل وباعوا الآجل.

روى الإمام والشيخان : عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «نار بنى آدم التى توقدونها جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم» (١٦٣) .

وأخرج الشيخان فى الصحيحين : عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ : «إن أهون أهل النار عذابًا يوم القيامة لمن له نعلان وشراكان من نار جهنم ، يغلى منهما دماغه كما يغلى المرْجل، لا يرى أن أحدًا فى أهل النار أشد عذابًا منه ، وإنه أهونهم عذابًا» (١٦٤).

★ ★ ★

﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَـٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

المفردات :

رجعك الله : ردك ، والمراد هنا : الرجوع من تبوك إلى المدينة ، حيث بقيت فيها جماعة من المتخلفين .

فاستأذنوك للخروج : طلبوا منك أن تأذن لهم فى الخروج إلى غزوة أخرى .

فاقعدوا مع الخالفين : فاقعدوا مع المتخلفين ؛ لعدم لياقتهم للجهاد ، كالنساء والأطفال والعجزة .

التفسير:

٨٣ - ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ ... ﴾ الآية

المعنى : فإن ردّك الله تعالى من سفرك هذا إلى طائفة من هؤلاء المنافقين ، المتخلفين بالمدينة ، ثم أردت الخروج إلى غزوة أخرى ، فاستأذنوك لتسمح لهم بالخروج معك ، فقل لهم ؛ تعزيرًا وعقوبة : لن تخرجوا معى أبدًا على أية حال ، ولن تقاتلوا معى أبدًا عدوًّا بأىِّ وضع كان .

إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ .

أى : اخترتم القعود عنى أول مرة ، وتخلفتم بلا عذر ، وكذبتم فى أيمانكم الفاجرة ، وفرحتم بالقعود، فاقعدوا مع الخالفين . أى : فاقعدوا ؛ عقوبة لكم مع الذين لا يصلحون للجهاد من الشيوخ العاجزين والنساء والأطفال .

وقال أبو عبيدة : الخالفون : كثيرو الخلاف لغيرهم ، وقيل : الخالف : هو الفاسد ، يقال : خلف عن كل خير يصلح له ، يخلف خلوفا إذا فسد ، وخلف اللبن ؛ إذا فسد .

قال الفخر الرازى : إن المنافقين كانوا موصوفين بجميع هذه الصفات السيئة .

★ ★ ★

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

المفردات :

أولـو الـطـول : أصحاب الغنى والسعة .

ذرنـــــا : اتركنا .

وطبع على قلوبهم : أى : ختم عليها بطابع ، والمقصود : أنها لما لم تقبل هدى الله .

٨٤ - وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ... الآية

سبب النزول :

روى الشيخان : عن ابن عمر قال : لما توفى عبد الله بن أبىٍّ ، جاء ابنه إلى رسول الله ﷺ ، فسأله أن يعطيه قميصه يكفّن فيه أباه ، فأعطاه ، ثم سأله أن يصلى عليه ؛ فقام ليصلى عليه ؛ فقام عمر بن الخطاب، وأخذ بثوبه ، وقال : يا رسول الله ، أتصلّى عليه ، وقد نهاك ربك أن تصلّى على المنافقين ؟ قال : إنما خيّرنى

الله ، فقال : ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ ... وسأزيده على السبعين ؛ فقال عمر : إنه منافق ...!

وجاء في مسند الإمام أحمد :

ثم صلى النبي ﷺ على عبد الله بن أبي ومشى معه ، وقام على قبره حتى فرغ منه .

قال عمر : فعجبت من جرأتي على رسول الله ﷺ والله ورسوله أعلم قال : فوالله ما كان إلا يسيرًا حتى نزلت ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ ... الآية .

قال : فما صلى رسول الله ﷺ بعد ذلك على منافق ، ولا قام على قبره حتى قبضه الله عز وجل .

وقد أورد الإمام ابن كثير طائفة من الأحاديث النبوية في هذا المعنى .

ضعف الحديث :

ضعّف جماعة من العلماء كالقاضي أبي بكر الباقلاني وإمام الحرمين الجويني ، والغزالي ، حديث الصلاة على زعيم المنافقين ؛ لمخالفته لظاهر الآية من أوجه هي :

١ – أن الآية نزلت أثناء رجوع النبي ﷺ من غزوة تبوك ، وابن أبي مات في السنة التي بعدها .

٢ – قول النبي ﷺ : «إن الله خيّرني» ، يعارض صريح الآية ، بأن الله لن يغفر لهم بسبب كفرهم ، فـ أوْ فيه للتسوية لا للتخيير .

الجمع بين الآية والحديث :

حاول بعض العلماء الجمع بين الآية والحديث ، ومن هؤلاء الزمخشري في تفسير الكشاف فقال : روي : أن رسول الله ﷺ كان يقوم على قبور المنافقين ويدعو لهم ؛ فلما مرض رأس النفاق عبد الله بن أبي، بعث إليه ليأتيه ، فلما دخل عليه قال له النبي : «أهلكك حبّ يهود» فقال عبد الله بن أبيّ : يا رسول الله ، إنما بعثت إليك لتستغفر لي لا لتؤنبني ، وسأله أن يكفّنه في شعاره الذي يلي جلده ، ويصلّي عليه .

فلما مات دعاه ابنه عبد الله – وكان مؤمنًا صالحًا – فقال : يا رسول الله ، أسألك أن تكفنه في بعض قمصانك ، وأن تقوم على قبره ؛ حتى لا يشمت به الأعداء .

- وعلم النبي ﷺ أن تكفينه في قميصه لا ينفعه مع كفره ، فلا فرق بينه وبين غيره من الأكفان ، وليكون إلباسه إياه لطفًا لغيره .

فقد روى أنه قيل للرسول ﷺ : لِمَ وجهت إليه بقميصك وهو كافر ؟ فقال : «إن قميصى لن يغنى عنه من الله شيئًا ، وإنى أؤمل من الله أن يدخل فى الإسلام كثير بهذا السبب» ؛ فيروى أنه أسلم ألف من الخزرج لما رأوا زعيمهم عبد الله بن أبى يطلب الاستشفاء بثوب رسول الله ﷺ ، وكذلك ترحمه واستغفاره ؛ كان للدعاء إلى التراحم والتعاطف ؛ لأنهم إذا رأوه يترحم على من يظهر الإيمان وباطنه على خلاف ذلك ؛ دعا المسلم إلى أن يتعاطف على من واطأ قلبه لسانه ، ورآه حتمًا عليه .

ثم قال الزمخشرى فى تفسير الكشاف :

فإن قلتَ : كيف جازت الصلاة على عبد الله بن أبى المنافق ؟

قلتُ : لم يتقدم نهى عن الصلاة عليهم ، وكانوا يجرون مجرى المسلمين لظاهر إيمانهم ، لما فى ذلك من المصلحة .

وعن ابن عباس رضى الله عنه : ما أدرى ما هذه الصلاة إلاَّ أنى أعلم أنَّ رسول الله ﷺ لا يخادع .

تأمّل فى الموضوع

تفيد روايات متعددة : أن عمر رضى الله عنه كان ميالاً إلى عدم الصلاة على المنافقين ؛ استنباطًا من إشارات غير صريحة فى القرآن إلى ذلك .

وجاء فى رواية عن ابن عباس : فقال عمر رضى الله عنه : لم تعطى قمصيك الرجسَ النجسَ ؟! فقال عليه الصلاة والسلام : «إن قميصى لا يغنى عنه من الله شيئًا ، فلعل الله أن يدخل به ألفًا فى الإسلام» وكان المنافقون لا يفارقون عبد الله بن أبى ، فلما رأوه يطلب هذا القميص ، ويرجو أن ينفعه ؛ أسلم منهم يومئذ ألف ، وكان ﷺ رحيمًا سهلاً مألفًا محببًا وكان ميالاً إلى الصلاة على عبد الله بن أبى ؛ بناء على الظاهر من إسلامه .

وأخرج أبو يعلى وغيره عن أنس : أن رسول الله ﷺ ، أراد أن يصلّى على عبد الله بن أبى ؛ فأخذ جبريل بثوبه فقال : ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ ... الآية .

فهذه الرواية تدل على أنه ﷺ لم يصل على عبد الله بن أبىّ .

وأمام هذا التعارض فى الروايات رجح بعض العلماء رواية البخارى ، وجمع بعضهم بين الروايتين فقال : المراد من الصلاة فى رواية عمر وابنه : الدعاء ، أو الهمّ بالصلاة عليه ، ثم منعه جبريل .

مناقب عمر

من مناقب عمر رضى الله عنه : شدته على المشركين والمنافقين ؛ فهو صاحب رأى قتل الأسرى فى بدر، وقد أيد الوحى رأيه فى أسارى بدر ، وآية تحريم الخمر ، وآية تحويل القبلة ، وآية أمر نساء النبى ﷺ بالحجاب ، وآية عدم الصلاة على المنافقين ، لهذا قال ﷺ : «إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه» [١٦٥] .

وقال ﷺ : «إنه كان فيما مضى من الناس ملهمون ولو كان فى أمتى محدَّثون لكان عمر» [١٦٦] .

وقال ﷺ : «لو لم أبْعث لبعثت يا عمر نبيًّا» .

التفسير:

وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ .

هذه الآية استمرار فى الحديث عن المنافقين ، وكيفية معاملتهم ؛ فقد منعت الرسول ﷺ من الصلاة على موتاهم ...

والمعنى : تبرأ أيها الرسول من المنافقين ، ولا تصلِّ على أحد منهم إذا مات ولا تقم على قبره ؛ لتستغفر له ، أو تدعو له ؛ لأنهم كفروا بالله ورسوله ، فأنكروا وجود الله وتوحيده ، وأنكروا بعثة نبيه ، وماتوا وهم فاسقون ؛ خارجون من دين الإسلام ، متمردون على أحكامه ، متجاوزون حدوده وأوامره ونواهيه .

وتفيد الآية : الامتناع عن الصلاة على الكفار ، وكل من عرف نفاقه .

وإن كان سبب نزول الآية : الصلاة على عبد الله بن أبىّ بن سلول رأس المنافقين ، إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، ذكر ذلك ابن كثير وغيره من المفسرين .

٨٥ - وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ ...

أى : ولا تنل إعجابك وتقديرك - أيها العاقل - أموال المنافقين الكثيرة ، ولا أولادهم الذين يعتزون بهم ولا تحسبن ذلك إكرامًا لهم ؛ فقد جعله الله استدراجًا لهم ووبالاً عليهم .

إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا .

أى : إنما قدّر تعذيبهم بهذه الأموال والأولاد فى الدنيا ؛ بسبب ما يقاسونه فى جمعها وحفظها من المتاعب ، وفى رعاية الأولاد من المشاق والمصاعب ، وهم مشغولون بالتمتع بها عن النظر فى عواقب الأمور .

وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ .

وتخرج أرواحهم من أبدانهم عند انتهاء آجالهم بشدة وصعوبة ، والحال أنهم كارهون الموت ؛ لتعلقهم بالأموال والأولاد والمتاع فى هذه الدنيا الفانية ، ولم ينتبهوا إلى مصيرهم وما ينتظرهم .

وقد تكرر هذا المعنى فى سورة التوبة ؛ لأهميته ووجوب الانتباه إليه ، حيث قال تعالى :

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ .
(التوبة : ٥٥)

٨٦ - وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَـٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ...

كانت السور القرآنية تنزل داعية إلى الإيمان بالله ، وإلى أن يستقر الإيمان فى حنايا القلوب ، وأن يرسخ فى طوايا النفوس ، فهذا الإيمان هو الأساس المتين لكل ما يترتب عليه .

كما أن السور كانت تدعو للجهاد وتحث عليه، وتبين ثواب المجاهدين والشهداء، وعقاب المتخلفين والفارّين.

ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ .

أى : عند نزول السورة الداعية إلى الإيمان والجهاد ؛ يجىء هؤلاء المنافقون أصحاب الطول ، أى : ذوو الغنى والثروة ، وأولو المقدرة على الجهاد بالمال والنفس قائلين : ائذن لنا يا رسول الله فى التخلف عن الجهاد ، واتركنا نقعد مع الذين قعدوا فى المدينة ؛ لأعذار تخلفوا بسببها .

وقد خص القرآن أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ بالذكر لفائدتين :

الأولى : أنه كان المتوقع منهم أن يتقدموا صفوف المجاهدين ؛ لأنهم يملكون وسائل الجهاد وعدّته؛ فهم أصحاب السلامة فى البدن ، والوفرة فى المال وقد حث القرآن على الجهاد فى سبيل الله بالنفس والمال؛ فإذا اعتذر صاحب المقدرة والنعمة ؛ كان ذلك أدعى إلى مذمّته وتخليد جبنه وبخله .

الثانية : أن من لا مال له ولا قدرة له على السفر ؛ لا يحتاج إلى الاستئذان ؛ لأنه معذور.

٨٧ - رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ ... الآية .

أى : قنعوا وقبلوا أن تنحط أقدارهم ، وأن يبقوا فى المدينة مع النّساء والأطفال والمرضى والزمنى والعجائز ، وكل من لا قدرة له ولا حيلة .

ولا يرضى بذلك إلا من هانت كرامته ، وألف الذلّ والصغار.

وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ .

لقد مردوا على النفاق وتعوّدوا عليه ؛ فسُلب منهم نور الهداية والإيمان ، فصارت قلوبهم راسخة فى الكفر ، مصرة على الفسوق والعصيان ، حتى كأنَّها قد ختم عليها ، فأصبحوا لا يفقهون ما فى الجهاد من الفوز والسعادة وما فى التخلف عن الجهاد من الشقاء والهلاك .

من أحكام الآيـات

تتضمن الآيات اتخاذ مواقف حاسمة من المنافقين ، بعد أن أمهلوا لمدة طويلة وعوملوا فى الظاهر معاملة حسنة ، ويتلخص ذلك فيما يأتى :

١ – اسقاط اعتبارهم ؛ لأن الصلاة على الميت ، والقيام على قبره للدعاء له إكرام له واحترام ، والكافر ليس من أهل الاحترام .

٢ – فى آية سابقة أسقط اعتبارهم فى الحياة بعدم السماح لهم بالجهاد مع الرسول ﷺ ؛ عقابًا لهم على تخلفهم عن غزوة تبوك وهنا أسقط اعتبارهم بعد الوفاة .

٣ – تحريم الصلاة على الكافر ، والوقوف عند قبره للدعاء أو الترحم .

٤ – يفهم من الآية من طريق دلالة الخطاب ، مشروعية الوقوف على قبر المسلم إلى أن يدفن ، والدعاء له .

من هدى السنّة

ورد فى الصحيح أن النبى ﷺ كان يقوم على قبور المسلمين ؛ ويدعو لهم بالتثبيت .

وجاء فى صحيح مسلم ؛ أن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال عند موته : إذا دفنتمونى ، فسنُّوا علىَّ التراب سنًّا ، ثم أقيموا حول قبرى قدر ما تنحر الجزور ويقسم لحمها ، حتى أستأنس بكم ، وأنظر ماذا أراجع به رسل ربّى . وفى الحديث الصحيح عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « من شهد الجنازة حتى يصلَّى عليها فله قيراط ، ومن شهدها حتى تدفن فله قيراطان ، قيل وما القيراطان ؟ قال: أصغرهما مثل أحد» .

وروى أبو داود عن عثمان بن عفان قال : كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من الميت وقف عليه ؛ وقال: «استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يُسأل» .

وجمهور العلماء على أن التكبير فى صلاة الجنازة أربع تكبيرات ؛ وسنة الإمام أن يقف عند رأس الميت إذا كان رجلاً ؛ وأن يقف عند وسط الميت إذا كان أنثى .

★ ★ ★

﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ ﴾

المفردات :

لهم الخيرات : لهم أنواع خيرة من نعم الدنيا وثواب الآخرة .

المفلحون : الفائزون .

التفسير :

٨٨ – لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ... الآية

من شأن القرآن أن يقابل بين المحسن والمسيء والمؤمن والمنافق ، والجنة والنار ، والصالحين والطالحين ، وبضدها تتميز الأشياء .

وهنا نجد مقارنة بين المنافقين الذين نكصوا عن الجهاد ، ولم يفقهوا ثواب المجاهدين ، ولا خزى القاعدين ، وبين الرسول الأمين وصحبته الأخيار الأبرار .

والمعنى : إذا كان حال المنافقين كما وصفنا فى الآيات السابقة ، من جبن وتخاذل وهوان .

فإن حال المؤمنين ليس كذلك ؛ فإنهم قد وقفوا إلى جانب رسولهم ﷺ ، فجاهدوا معه ، بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، وأدوا واجبهم ؛ فنالوا الخيرات العظمى فى الدنيا كالنصر وهزيمة الكفر ، وفى الآخرة بالاستمتاع فى جنات الفردوس ، والدرجات العلى ، وقيل : الخيرات : هى النساء الحسان فى الجنة.

قال تعالى : فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ . (الرحمن : ٧٠) .

وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ الفائزون بسعادة الدارين .

٨٩ – أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ .

لقد كافأهم الله تعالى وهيأ لهم نزلاً حسنًا فى أحسن إعداد وإقامة فى جنات نضرة ، تجرى الأنهار من تحتها ، وهم خالدون فى نعيم لا ينقطع عنهم أبدًا ؛ وذلك هو الفوز العظيم حقًا ، فالسعيد من ناله ، والشقى من حرم منه .

قال تعالى : فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ . (آل عمران : ١٨٥).

مقارنات فى القرآن

وردت هذه المقارنة فى مواضع كثيرة فى القرآن مثل قوله تعالى : فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَـٰفِرِينَ (الأنعام : ٨٩) .

وقوله عز شأنه : فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ (فصلت : ٣٨) .

وقريب من ذلك قوله تعالى : أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ . (الرعد : ١٩) .

وقوله تعالى : مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ (الرعد : ٣٥).

وفى الصفحة الأخيرة من سورة الزمر يستعرض القرآن موكب الكافرين إلى النار فيقول :

وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ... (الزمر : ٧١) .

ثم يستعرض موكب المؤمنين إلى الجنة فيقول :

وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ... (الزمر : ٧٣) .

★ ★ ★

﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ ﴾

المفردات :

المعذرون : المقصرون المعتذرون بالباطل .

الأعـراب : سكان البوادى .

التفسير:

٩٠ - وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ ... الآية

سبب النزول :

روى أن أسدًا وغطفان جاءوا إلى رسول الله ﷺ يستأذنون فى التخلف عن الخروج للجهاد ؛ معتذرين كذبا بالجهد وكثرة العيال ، فنزلت الآية تكشف كذبهم ، وقيل : هم رهط عامر بن الطفيل ، قالوا : إنْ غزونا معك ؛ أغارت أعراب طيِّئ على أهالينا ومواشينا ، فقال ﷺ : «سيغنى الله عنكم» .

وعن مجاهد : نفرٌ من غفار اعتذروا فلم يعذرهم الله تعالى .

وعن قتادة : اعتذروا بالكذب [١٦٧] .

من تفسير فتح القدير للشوكانى :

وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ . المعذِّر : هو الذى يعتذر ولا عذر له ، اعتذروا بأعذار باطلة لا أصل لها .

والمعنى : أنه جاء هؤلاء من الأعراب ، بما جاءوا به من الأعذار ؛ بحق أو بباطل ؛ لأجل أن يأذن لهم رسول الله ﷺ ، بالتخلف عن الغزو .

وطائفة أخرى لم يعتذروا ، بل قعدوا عن الغزو لغير عذر ، وهم منافقو الأعراب .

وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ .

ولم يؤمنوا ولا صدقوا بايعوا النبى ﷺ على السمع والطاعة ، ثم تبين بتخلفهم من دون اعتذار أنهم كانوا كاذبين .

سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ .

أى : من الأعراب وهم الذين اعتذروا بالأعذار الباطلة ، والذين لم يعتذروا بل كذبوا بالله ورسوله . ا هـ [١٦٨]

عَذَابٌ أَلِيمٌ .

فى الدنيا بالقتل والأسر والإذلال ، وفى الآخرة ، بعذاب السعير .

ومن المفسرين من جعل القسم الأول ، معذورين صادقين وهم من أحياء العرب ممن حول المدينة ، أو هم أسد وغطفان ؛ لأن الله قد عطف عليهم القاعدين بدون أىّ اعتذار ؛ تهاونًا بأمر الدين وكذبًا فى بيعتهم على الإيمان والجهاد ورجح ابن كثير هذا القول ، وذهب إلى أن معنى الآية هكذا .

عندما استنفر النبى ﷺ الناس إلى غزوة تبوك ، جاء أصحاب الأعذار من الأعراب ليستأذنوه فى التخلف عن الجهاد ، فأذن لهم .

وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ . بيان للفريق الثانى من الأعراب ، وهو الذى لم يجئ للرسول ﷺ معتذرًا بل قعد عن الجهاد ، ولم يكلّف نفسه مشقة الاعتذار .

ورجح الرازى والزمخشرى والشوكانى ، وأبو السعود : أن الآية تستعرض فرق المتخلفين عن الجهاد، وتجعلهم فى خندق واحد ، سواء فى ذلك من اعتذر ولا عذر حقيقى له ، ومن تخلف عن الجهاد ، كسلاً وجبنًا وتهاونًا ، سيصيب الذين كفروا من هؤلاء وهؤلاء عذاب أليم .

وأستشعر من سياق الآية أنها تتحدث عن فرق من المتخلفين عن الجهاد ، بدون أعذار حقيقية .

وأرجح رأى الرازى والزمخشرى والشوكانى وأبى السعود ويؤيد ما أراه أن الآية التالية ستتحدث عن أصحاب الأعذار المقبولة ، الذين أعفاهم الله من الجهاد .

★ ★ ★

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾

المفردات :

حـــرج : المراد به : الإثم والذنب ، ومعناه فى الأصل : الضيق ويطلق على الذنب ؛ لأنه تضيق به صدور المؤمنين .

إذا نصحوا لله ورسوله : أى : إذا قاموا بما استطاعوا من قول وفعل يعود بصلاح الحال على الإسلام والمسلمين.

ما على المحسنين من سبيل : أى :ما عليهم من طريق إلى عقابهم أو عتابهم .

تولوا : انصرفوا راجعين .

وأعينهم تفيض من الدمع : أى : تسيل عيونهم دمعًا غزيرًا فياضًا .

التفسير :

٩١ – لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ ... الآية

المناسبة :

هناك ارتباط واضح بين هذه الآية وما قبلها ، فبعد أن ذكر سبحانه : الوعيد للمتخلفين بدون عذر ، والمنتحلين للأعذار ، ذكر هنا أصحاب الأعذار الحقيقية ، وبيّن إسقاط فريضة الجهاد عنهم .

المعنى : هناك أصناف ثلاثة من أصحاب العذار المقبولة : وهم : الضعفاء ، والمرضى ، والفقراء ، فليس على الضعفاء العاجزين عن القتال ؛ لعلة فى تكوينهم ، أو لشيخوخة أقعدتهم ، ولا على المرضى الذين حالت أمراضهم بينهم وبين الجهاد ، ولا على الفقراء الذين لا يجدون ما ينفقونه على الحرب ، ولا يجدون الرواحل التى يسافرون عليها إلى أرض المعركة ، ليس على هؤلاء جميعًا ، إثم أو ذنب أو عتاب فى عدم الجهاد ، إذا نصحوا لله ورسوله ، بأن أخلصوا الإيمان لله فى السر والعلن ، وعرفوا الحق ، وأحبوا أولياءه وأبغضوا أعداءه، وحافظوا على المصلحة العليا للأمة فى كتمان السر ، والحث على البّر ، ومكافحة الأراجيف والقضاء على الإشاعات الكاذبة أو المغرضة .

روى مسلم عن تميم الدارى : أن رسول الله ﷺ قال : «الدين النصيحة» ؛ قالوا : لمن يا رسول الله ؟ قال : «لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين ، وعامتهم» [١٦٩] .

والنصيحة لله ولرسوله : إخلاص الإيمان بهما ، وطاعتهما ، والحب والبغض فيهما .

والنصيحة لكتابه : تلاوته وتدبّر معانيه ، والعمل بما فيه .

والنصيحة لأئمة المسلمين : مؤازرتهم وترك الخروج عليهم ، وإرشادهم إن أخطئوا .

والنصيحة لعامة المسلمين : إرشادهم إلى طريق الحق ، والعمل على تقويتهم ودعوتهم إلى إخلاص العمل ، والبعد عن الغش .

مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ .

إن كل ناصح لله ولرسوله محسن ، ولا سبيل إلى مؤاخذة المحسن وإيقاعه في الحرج ، فقد أدّى ما

وجب عليه ، من قول أو عمل حسب طاقته ، وليس عليه سبيل إلى عقاب أو عتاب ؛ لدخوله فى عداد المحسنين.

وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

واسع المغفرة والرحمة ، يستر على عباده المخلصين ما يصدر عنهم من تقصير تقتضيه طبيعتهم البشرية .

٩٢- وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ .

سبب النزول :

قال محمد بن إسحاق فى سياق غزوة تبوك : ثم إن رجالاً من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ وهم البكاؤون ، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم من بنى عمرو بن عوف : سالم بن عمير ، وعلى بن زيد أخو بنى حارثة ، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب أخو بنى مازن النجار ، وعمرو بن الحمام بن الجموح أخو بنى سلمة ، وعبد الله بن المغفل المزنى ، وحرمى بن عبد الله أخو بنى واقف ، وعياض بن سارية الغزارى .

فاستحملوا رسول الله ، وكانوا أهل حاجة ؛ فقال : لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ .

وروى فى الصحيحين : أن رسول الله ﷺ قال : «إن بالمدينة أقوامًا ما قطعتم واديًا ، ولا سرتم سيرًا إلاَّ وهم معكم ، قالوا : وهم بالمدينة ؟! قال : «نعم حبسهم العُذْرُ» [١٧٠] فى رواية أحمد : «حبسهم المرض» .

معنى الآية ٩٢ :

أى : لا حرج على الضعفاء ولا على المرضى ، ولا على الفقراء ، وكذلك لا حرج ولا إثم أيضًا على الراغب فى الجهاد الذى استعد للقتال بنفسه ، ولكنه لا يجد مركبًا أو نفقة ينفقها فى أثناء الجهاد على نفسه وعياله بسبب فقره – ومن أخصُّهم أولئك النفر من الأنصار البكائين ، أو من بنى مقرن من مزينة ، الذين جاءوا للنبى ﷺ ليحملهم على الرواحل فلم يجد ما يحملهم عليه فى هذا السفر الطويل ؛ فانصرفوا من مجلسه وهم يبكون بكاءًا شديدًا ؛ بسبب حزنهم على ما فاتهم من شرف المشاركة فى الجهاد ، وبسبب فقدهم النفقة التى تساعدهم على الجهاد .

مــن أحكـام الآيـات

أوضحت الآيات سقوط فرضية الجهاد ؛ بسبب العذر عن أصناف ثلاثة من ذوى الأعذار وهم : الضعفاء والمرضى والفقراء .

وقد دلت الآيات على أصلين من أصول الشريعة :

الأصل الأول :

سقوط التكليف عن العاجز ؛ فكل من عجز عن شىء سقط عنه ، ولا فرق بين العجز من جهة القـوة أو العجز من جهة المـال ، ونظير قوله تعالى : لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلاَ عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ ... الآيات ، قوله عز شأنه : لاَ يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا (البقرة : ٢٨٦) .

وقوله تعالى : لَّيْسَ عَلَى ٱلأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى ٱلأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ (الفتح : ١٧) .

الأصل الثانى :

الأصل فى الأشياء براءة الذمّة ، أو براءة المتهم ؛ حتى تثبت إدانته ، ويعبر عنه بعبارة : الأصل براءة الذمّة ، وهذا مبدأ البراءة الأصلية .

وذلك لقوله تعالى : مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ .

فالأصل فى النفس حرمة القتل ، والأصل فى المال حرمة الأخذ إلا لدليل ثابت ، أو لدليل منفصل مستقل.

جاء فى تفسير القرطبى :

هذه الآية أصل فى سقوط التكليف عن العاجز ، فكل من عجز عن شىء سقط عنه .

ويستفاد من سياق الآيتين : أنه متى وجدت النية الصادقة فى فعل الخير ؛ حصل الثواب ، وإن لم يكن هناك عمل ، بدليل أن المؤمنين الذين لم يخرجوا فى الجهاد لعذر شرعى بشرهم النبى ﷺ بأنهم مشاركون لمن خرج فى الأجر .

روى عن زيد بن ثابت أنه قال : كنت أكتب لرسول ﷺ فكنت أكتب «براءة» فإنى لواضع القلم على أذنى ، إذ أمرنا بالقتال ، فجعل رسول الله ﷺ ينظر ما ينزل عليه ، إذ جاء أعمى فقال : كيف بى يا رسول الله وأنا أعمى ؟ فنزلت : لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلاَ عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ ... الآية .

تطبيق الصحابة

طبق صحابة رسول الله ﷺ القرآن عمليًا فى حياتهم ، وجهادهم ، ورغبتهم فى الشهادة واستعلائهم على مطالب الأرض ، ورغبتهم فى مرضاة الله ، وحفلت كتب السيرة بجهادهم وبلائهم ، فى غزوة بدر وأحد والخندق والحديبية وفتح مكة وفتح خيبر وغزوة تبوك وغزوة حنين والطائف وفتح بلاد الفرس والروم ومصر وشمال أفريقيا ؛ وغير ذلك من الفتوحات .

وكان من الصحابة أصحاب الأعذار الذين أباح لهم القرآن القعود ؛ لكنهم تطلعوا إلى الجهاد وثواب المجاهدين ؛ فهذا عبد الله بن أم مكتوم كان أعمى ، وكان يخرج إلى غزوة أحد ويطلب أن يحمل اللواء .

وهذا عمرو بن الجموح – وكان أعرج – يخرج فى مقدمة الجيوش ؛ فيقول له الرسول ﷺ : «إن الله قد عذرك» فيقول : والله لأحفرن بعرجتى هذه الجنة . أى : لأتركن آثار أقدامى فيها .

وكان يؤتى وهو يمشى بين الرَّجُلين ؛ من شدة ضعفه معتمدًا على الرجلين ، ومع ذلك يحرص على أن يقف فى صفوف المجاهدين .

وبهذه القلوب السليمة ، والعزائم القوية ، والنفوس القوية ؛ ارتفعت كلمة الحق ، وعزت كلمة الإسلام.

ختام الجزء العاشر وبداية الحادى عشر

نلاحظ أن تقسيم الأجزاء كان يعتمد على مقياس كمّ الآيات ، فالآية التى يبدأ بها الجزء الحادى عشر مرتبطة تمام الارتباط بآيات قبلها ، تفيد : أنه لا حرج ولا إثم على من تخلف عن الجهاد من الأصناف الثلاثة : الضعفاء ، المرضى ، الفقراء .

ثم بين القرآن أن السبيل واللوم والعتاب ؛ على من يستأذن فى التخلف عن الجهاد والغزو فى سبيل الله وهو غنى قادر تملَّك أدوات الجهاد والتَّجهز له ؛ لكنه قَبِل أن يكون مع الخوالف من النساء القاعدات فى البيوت ، وطمس الله على قلوبهم فلم يدركوا ما فيه الربح لهم حتى يختاروه على مافيه الخسران .

وبهذه الآية يبدأ الجزء الحادى عشر من القرآن الكريم حيث يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (التوبة : ٩٣) .

★ ★ ★

فى ختام التفسير للجزء العاشر

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، اللَّهم ، لك الحمدُ حمدًا كثيرًا طيبًا طاهرًا مباركًا فيه ، كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد ، اللَّهم ، صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

فهذا ختام الجزء العاشر من القرآن الكريم ، أسأل الله تعالى أن يكون هذا العمل خالصًا لوجهه ، اللَّهم، إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئًا نعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلمه .

اللَّهم ، ارزقنا حسن النيَّة ودوام العافية ، وشكر النعمة ، واهدنا لصالح الأعمال ؛ لا يهدى لصالح الأعمال إلا أنت .

رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ .

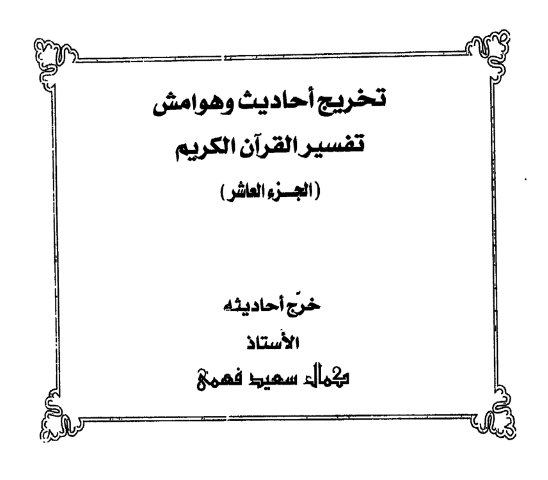
وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

أذان المغرب ٢٣ ذو القعدة ١٤١٣ هـ – ١٤ مايو ١٩٩٣ م .

★ ★ ★

تم بحمد الله تفسير الجزء العاشر من القرآن الكريم

ويليه تفسير الجزء الحادى عشر إن شاء الله تعالى



تخريج أحاديث وهوامش
تفسير القرآن الكريم
(الجـــزء العاشر)

خرّج أحاديثه

الأستاذ

كمال سعيد فهمي

(١) إنهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام .

رواه البخاري في المغازي (٤٢٢٩) وأبو داود في الخراج (٢٩٨٠) والنسائي في قسم الفيء (٤١٣٧) وابن ماجة في الجهاد (٢٨٨١) وأحمد في مسنده (١٦٢٩٩) من حديث جبير بن مطعم قال: لما قسم رسول الله ﷺ سهم ذي القربى بين بني هاشم وبني المطلب أتيته أنا وعثمان بن عفان فقلنا: يا رسول الله هؤلاء بنو هاشم لا ننكر فضلهم لمكانك الذي جعلك الله به منهم أرأيت بني المطلب أعطيتهم ومنعتنا فإنما نحن وهم منك بمنزلة فقال رسول الله ﷺ : إنهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام ، إنما بنو هاشم ، وبنو عبد المطلب ، شيء واحد ، وشبك بين أصابعه . واللفظ لأبي داود والنسائي وأحمد .

(٢) تفسير الكشاف ١٦٩/٢ الناشر دار المصحف : مطبعة عبد الرحمن محمد بالقاهرة .

(٣) جاء في تفسير القاسمي ما يأتي :

﴿إذ يريكهم الله في منامك قليلاً﴾ منصوب بـ (اذكر) ، أو بدل آخر من يوم الفرقان .

(٤) قال الزمخشري في تفسير الكشاف ﴿وإذ يريكموهم﴾ الضميران مفعولان يعني : وإذ يبصركم إياهم ، و﴿قليلاً﴾ حال .

(٥) تفسير القاسمي ٦٨/٨ .

(٦) انظر أيضًا تفسير القرطبي للآية .

(٧) تفسير سورة التوبة د . محمد سيد طنطاوي ص ١٤٥ .

(٨) لا تتمنوا لقاء العدو .

رواه البخاري في الجهاد (٢٩٦٦، ٣٠٢٤ ، ٣٠٢٦) وفي التمني (٧٢٣٧) ومسلم في الجهاد (١٧٤٢) وأبو داود في الجهاد (٢٦٣١) وأحمد في مسنده (١٨٦٣٥) من حديث عبد الله بن أبي أوفى قال : إن رسول الله ﷺ في بعض أيامه التي لقي فيها انتظر حتى مالت الشمس ثم قام في الناس خطيبًا قال : أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف ، ثم قال: اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم .

ورواه مسلم في الجهاد (١٧٤١) وأحمد في مسنده (٨٩٤٣) من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : لا تمنوا لقاء العدو فإذا لقيتموهم فاصبروا . ورواه الدارمي في السير (٢٤٤٠) من حديث عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية فإن لقيتموهم فاثبتوا وأكثروا ذكر الله فإن أجلبوا وضجوا فعليكم بالصمت .

(٩) إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو ملاق قرنه :

رواه الترمذي في الدعوات (٣٥٨٠) من حديث عمارة بن زعكرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الله عز وجل يقول : إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو ملاق قرنه يعني : عند القتال . قال أبو عيسى هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وليس إسناده بالقوي ولا نعرف لعمارة بن زعكرة عن النبي ﷺ إلا هذا الحديث الواحد ومعنى قوله : وهو ملاق قرنه إنما يعني عند القتال يعني أن يذكر الله في تلك الساعة . قال المناوي في فيض القدير : قال في الأذكار : وزعكرة بفتح الزاي والكاف وسكون العين المهملة . قال في التقريب كأصله صحابي له حديث الأزدي وقيل الكندي الجمعي الشامي .

قال ابن حجر : ولا يعرف إلا هذا الحديث ، قال : أعنى ابن حجر : وهو حسن غريب وقول الترمذى ليس إسناده بقوى يريد ضعف عفير لكن وجدت له شاهدًا قويًا مع إرساله أخرجه البغوى فلذلك حسنته وقول الترمذى غريب أراد غرابته من جهة تفرد عفير بوصله وإلا فقد وجد من وجه آخر . اهـ .

(١٠) ما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إلى مما افترضت عليه :

رواه البخارى فى الرقاق (٦٥٠٢) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله قال : من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلى عبدى بشيء أحب إلى مما افترضت عليه وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى لأعطينه ولئن استعاذنى لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته . قلت : تفرد به البخارى وهو من رواية خالد بن مخلد ، وقد قال بعضهم : لولا هيبة الصحيح لعدوه من منكرات خالد بن مخلد .

(١١) تفسير ابن كثير ٢١٦/٢ .

(١٢) اللهم هذه قريش قد جاءت بخيلائها وفخرها :

قال السيوطى فى الدر : أخرج البيهقى فى الدلائل عن ابن شهاب وموسى بن عقبة قالا: مكث رسول الله ﷺ بعد قتل ابن الحضرمى شهرين ، ثم أقبل أبو سفيان بن حرب فى عير لقريش من الشام ومعها سبعون راكبا من بطون قريش كلها .. الحديث وفيه :« فلما طلع المشركون قال رسول الله ﷺ : اللهم هذه قريش قد جاءت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك، اللهم إنى أسألك ما وعدتنى به – ورسول الله ﷺ ممسك بعضد أبى بكر يقول : اللهم إنى أسألك ما وعدتنى – فقال أبو بكر : أبشر فوالذى نفسى بيده لينجزن الله لك ما وعدك» .. الحديث .

(١٣) تفسير القاسمى ٧٤/٨ .

(١٤) يزع الملائكة : أى يسوّيهم ويرتبهم ويصفهم للحرب وانظر تفسير القاسمى .

(١٥) ما رؤى الشيطان يوما هو فيه أصغر :

رواه مالك فى الموطإ كتاب الحج (٩٦٢) من حديث طلحة بن عبيد الله بن كريز أن رسول الله ﷺ قال : ما رؤى الشيطان يوما هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه فى يوم عرفة وما ذاك إلا لما رأى من تنزل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام إلا ما رأى يوم بدر قيل : وما رأى يوم بدر يا رسول الله ، قال : أما إنه قد رأى جبريل يزع الملائكة .

(١٦) يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى :

رواه مسلم فى البر والصلة والآداب (٢٥٧٧) ، والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٥٩) وابن ماجة ح (٤٢٧٥) وأحمد (١٥٤/٥، ١٦٠، ١٧٧) ، وعبد الرازق ح (٢٠٢٧٢) من حديث أبى ذر.

(١٧) عبد الكريم الخطيب ، التفسير القرآنى للقرآن الجزء العاشر ص ٦٣٦ ، ٦٣٧ .

(١٨) تفسير القاسمي ٧٦/٨ طبعة دار الفكر بيروت وقد نقل الوجوه كلها من تفسير القاسمي د . محمد سيد طنطاوي في تفسير سورة التوبة ص ١٦٦ ، وانظر تفسير الكشاف ١٧٢/٢ .

(١٩) إن الله ليملي للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته :

رواه البخاري في التفسير باب : قوله : ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾ . (٤٤٠٩) ومسلم في البر والصلة والآداب ، باب : تحريم الظلم (٢٥٨٣) وابن ماجة في الفتن باب العقوبات (٤٠١٨) عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله ليملي للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته» . قال : ثم قرا : ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾ .

(٢٠) هذا فرعون هذه الأمة :

رواه أحمد في مسنده (٣٦٣٣) من حديث أبي عبيده عن أبيه قال أتيت أبا جهل وقد جرح وقطعت رجله . قال : فجعلت أضربه بسيفي فلا يعمل فيه شيئا قيل لشريك في الحديث وكان يذب بسيفه قال : نعم ، قال: فلم أزل حتى أخذت سيفه فضربته به حتى قتلته ، قال : ثم قال : أتيت النبي ﷺ ، فقلت : قد قتل أبو جهل ، وربما قال شريك قد قتلت أبا جهل ، قال: أنت رأيته، قلت نعم : قال آلله – مرتين – قلت : نعم ؛ قال : فاذهب حتى أنظر إليه فذهب فأتاه ، وقد غيرت الشمس منه شيئا فأمر به وبأصحابه فسحبوا حتى ألقوا في القليب ، قال : وأتبع أهل القليب لعنة وقال : كان هذا فرعون هذه الأمة.

(٢١) تفسير الفخر الرازي .

(٢٢) من كان بينه وبين قوم عهد :

رواه أبو داود في الإمارة (٢٧٥٩) والترمذي في السير (١٥٨٠) وأحمد في مسنده (١٦٥٦٧) من حديث سليم بن عامرقال: كان بين معاوية وبين أهل الروم عهد وكان يسير في بلادهم حتى إذا انقضى العهد أغار عليهم فإذا رجل على دابة أو على فرس وهو يقول : الله أكبر وفاء لا غدر وإذا هو عمرو بن عبسه فسأله معاوية عن ذلك فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عهدا ولا يشدنه حتى يمضي أمده أو ينبذ إليهم على سواء ، قال : فرجع معاوية بالناس. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح .

(٢٣) ثلاثة : المسلم والكافر فيهن سواء :

قال السيوطي في الدر : وأخرج البيهقي في شعب الإيمان عن ميمون بن مهران رضي الله عنه قال : ثلاثة : المسلم والكافر فيهن سواء . من عاهدته فوفي بعهده مسلما كان أو كافرا فإنما العهد لله ، ومن كانت بينك وبينه رحم فصلها مسلما كان أو كافرا ، ومن ائتمنك على أمانة فأدها إليه مسلما كان أو كافرا .

(٢٤) ألا إن القوة الرمي :

رواه مسلم في الإمارة (١٩١٧) وأبو داود في الجهاد (٢٥١٤) والترمذي في تفسير القرآن (٣٠٨٣) وابن ماجة في الجهاد (٢٨١٣) والدارمي في الجهاد (٢٤٠٤) وأحمد في مسنده (١٦٩٧٩) من حديث عقبة بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾ ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي ألا إن القوة الرمي .

(٢٥) من جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا :

رواه البخاري في الجهاد (٢٨٤٣) ومسلم في الإمارة (١٨٩٥) وأبو داود في الجهاد (٢٥٠٩) والترمذي في فضائل الجهاد(١٦٢٨، ١٦٢٩، ١٦٣١) والنسائي في الجهاد (٣١٨٠) وابن ماجة في الجهاد (٢٧٥٩) والدارمي في الجهاد (٢٤١٩) وأحمد في مسنده (١٦٥٩١) من حديث زيد بن خالد رضى الله عنهم أن رسول الله ﷺ قال : من جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا ومن خلف غازيا في سبيل الله بخير فقد غزا .

(٢٦) تفسير الفخر الرازي .

(٢٧) يا مقلب القلوب ثبت قلبي :

رواه أحمد في مسنده (٢٤٠٨٣) من حديث عائشة قالت دعوات كان رسول الله ﷺ يكثر أن يدعو بها : يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ، قالت: فقلت : يا رسول الله إنك تكثر تدعو بهذا الدعاء ، فقال : إن قلب الآدمي بين أصبعين من أصابع الله عز وجل فإذا شاء أزاغه وإذا شاء أقامه . ورواه الترمذي في الدعوات (٣٥٢٢) وأحمد في مسنده (٢٥٩٨٠) من حديث شهر ابن حوشب قال : قلت لأم سلمة : يا أم المؤمنين ، ما كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ ، إذا كان عندك ، قالت: كان أكثر دعائه يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ، قالت: فقلت: يا رسول الله ما أكثر دعاءك : يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك قال: يا أم سلمة إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله فمن شاء أقام ، ومن شاء أزاغ فتلا معاذ : ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾ . قال أبو عيسى : وهذا حديث حسن . ورواه الترمذي في القدر (٢١٤٠) وقال : حسن ، وابن ماجة في الدعاء (٣٨٣٤) وأحمد في مسنده (١١٦٩٧) من حديث أنس قال : كان رسول الله ﷺ يكثر من قول : يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ، فقلت: يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا ، قال : نعم إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء . قال الترمذي : وحديث أبي سفيان عن أنس أصح ، ورواه أحمد (١٧١٧٨) والحاكم في المستدرك (٢/٢٨٨) من حديث النواس بن سمعان الكلابي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع رب العالمين إن شاء أن يقيمه أقامه وإن شاء أن يزيغه أزاغه ، وكان يقول : يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك والميزان بيد الرحمن عز وجل يخفضه ويرفعه . ورواه الترمذي في الدعوات (٣٥٨٧) من حديث عاصم بن كليب الجرمي عن أبيه عن جده قال : دخلت على النبي ﷺ وهو يصلي وقد وضع يده اليسرى على فخذه اليسرى ووضع يده اليمنى على فخذه اليمنى وقبض أصابعه وبسط السبابة ، وهو يقول : يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك . قال أبو عيسى : هذا حديث غريب من هذا الوجه . ورواه مسلم في القدر (٢٦٥٤) وأحمد في مسنده (٦٥٣٣) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء ثم قال رسول الله ﷺ . اللهم ، مصرف القلوب ، صرف قلوبنا على طاعتك .

(٢٨) اللهم آت نفسي تقواها :

رواه مسلم في الذكر (٢٧٢٢) والنسائي في الاستعاذة (٥٤٥٨، ٥٥٣٨) وأحمد في مسنده (١٨٨٢١) من حديث زيد بن أرقم قال: لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله ﷺ يقول: كان يقول : اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل والهرم وعذاب القبر ، اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها ، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن دعوة لا يستجاب لها .

(٢٩) يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بى :

رواه البخارى فى المغازى (٤٣٣٠) ومسلم فى الزكاة (١٠٦١) وأحمد فى مسنده (١٦٠٣٥) من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم قال : لما أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حنين قسم فى الناس فى المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئا فكأنهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس فخطبهم فقال : «يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بى وكنتم متفرقين فألفكم الله بى وعالة فأغناكم الله بى» كلما قال شيئا قالوا الله ورسوله أمن قال : ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله ﷺ قال : كلما قال شيئا : قالوا الله ورسوله أمن قال: ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله - ﷺ - قال : كلما قال شيئا ، قالوا الله ورسوله أمن قال: لو شئتم قلتم جئتنا كذا وكذا أترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبى - ﷺ - إلى رحالكم لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ولو سلك الناس واديا وشعبا لسلكت وادى الأنصار وشعبها . الأنصار شعار والناس دثار إنكم ستلقون بعدى أثرة فاصبروا حتى تلقونى على الحوض . ورواه أحمد فى مسنده (١١٦١٠) من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: يا معشر الأنصار ألم آتكم ضلالا فهداكم الله عز وجل بى ألم آتكم متفرقين فجمعكم الله بى ألم آتكم أعداء فألف الله بين قلوبكم بى : قالوا : بلى يا رسول الله قال : أفلا تقولون جئتنا خائفا فآمناك وطريدا فآويناك ومخذولا فنصرناك فقالوا بل لله تبارك وتعالى المن به علينا ولرسوله ﷺ . ورواه أحمد فى مسده (١١١٥٣) من حديث أبى سعيد الخدرى قال : اجتمع أناس من الأنصار قالوا : أثر علينا غيرنا فبلغ ذلك النبى ﷺ فجمعهم ثم خطبهم فقال : يا معشر الأنصار: ألم تكونوا أذلة فأعزكم الله قالوا: صدق الله ورسوله ، قال: ألم تكونوا ضلالا فهداكم الله ، قالوا صدق الله ورسوله .. الحديث .

(٣٠) انظر التفسير القرآنى للقرآن للأستاذ عبد الكريم الخطيب الجزء العاشر ص ٦٦٧ ، وتفسير القاسمى ٩٠/٨ وانظر تفسير الكشاف للزمخشرى حيث يقول : أو يكون فى محل الرفع أى: كفاك الله وكفاك المؤمنون .

(٣١) لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا :

رواه البخارى فى الجهاد (٢٧٩٦) والترمذى فى فضائل الجهاد (١٦٥١) وأحمد فى مسنده (١٢٠٢٨) من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: لغدوة فى سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها ولقاب قوس أحدكم أو موضع يده فى الجنة خير من الدنيا وما فيها ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى الأرض لأضاءت ما بينهما ولملأت ما بينهما ريحا ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها . قال أبو عيسى هذا حديث صحيح . ورواه البخارى فى الجهاد (٢٧٩٣) وفى بدء الخلق (٣٢٥٣) وأحمد فى مسنده (٩٩٠٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : لقاب قوس فى الجنة خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب وقال لغدوة أو روحة فى سبيل الله خير مما تطلع عليه الشمس وتغرب .

(٣٢) لولا أن أشق على أمتى ما قعدت خلف سرية :

رواه البخارى فى الإيمان (٣٦) وفى فرض الخمس (٣١٢٣) وفى التوحيد (٧٤٧٥ ، ٧٤٦٣) رواه مسلم فى الإمارة واللفظ له - (١٨٧٦) ومالك فى الموطإ كتاب الجهاد (٩٧٤) والنسائى فى الجهاد (٣١٢٢ ، ٣١٢٣) وفى الإيمان وشرائعه (٥٠٢٩) وابن ماجة فى الجهاد (٢٧٥٣) والدرامى فى الجهاد (٢٣٩١) وأحمد فى مسنده (٨٧٥٧ ، ٨٩٢٣) من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : انتدب الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه إلا إيمان بى وتصديق برسلى أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة أو أدخله الجنة ولولا أن أشق على أمتى ما قعدت خلف سرية ولوددت أنى أقتل فى سبيل الله ثم أحيا ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل .

(٣٣) قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض .

رواه مسلم فى الإمارة (١٩٠١) وأحمد فى مسنده (١١٩٩٠) من حديث أنس بن مالك قال : بعث رسول الله ﷺ بسيسة عينا ينظر ما صنعت عير أبى سفيان فجاء وما فى البيت أحد غيرى وغير رسول الله ﷺ قال لا أدرى ما استثنى بعض نسائه قال فحدثه الحديث قال فخرج رسول الله ﷺ فتكلم فقال : إن لنا طلبة فمن كان ظهره حاضرا فليركب معنا فجعل رجال يستأذنونه فى ظهرانهم فى علو المدينة فقال : لا إلا من كان ظهره حاضرا فانطلق رسول ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر وجاء المشركون فقال رسول الله : لا يقدمن أحد منكم إلى شىء حتى أكون أنا دونه فدنا المشركون فقال رسول الله ﷺ : قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض . قال : يقول عمير بن الحمام الأنصارى : يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض ! قال : نعم ، قال: بخ بخ ، فقال رسول الله ﷺ : ما يحملك على قولك بخ بخ ، قال : لا والله يا رسول الله إلا رجاءة أن أكون من أهلها ، قال : فإنك من أهلها فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ، ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه إنها لحياة طويلة ! قال : فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل .

(٣٤) تفسير القاسمى ٩٥/٨ نقلاً عن أبى السعود .

(٣٥) عبد الكريم الخطيب التفسير القرآنى للقرآن الجزء العاشر ص ٦٧٠ .

(٣٦) عبد الكريم الخطيب ، التفسير القرآنى الجزء العاشر ص ٦٧٥.

(٣٧) لا هجرة بعد الفتح :

رواه البخارى فى الجهاد (٢٧٨٣، ٢٨٢٥) والترمذى فى السير (١٥٩٠) والدارمى فى السير (٢٥١٢) (١٩٩٢، ٣٣٢٥) عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ: لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا . ورواه البخارى فى المناقب (٣٨٩٩) وفى المغازى (٤٣١١) من حديث عبد الله بن عمر . ورواه مسلم فى الإمارة (١٨٦٤) من حديث عائشة قالت: سئل رسول الله ﷺ : عن الهجرة فقال : لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا. وفى الباب : عن أبى سعيد الخدرى ، ومجاشع بن مسعود .

(٣٨) من كتاب أهداف كل سورة ومقاصدها فى القرآن الكريم للدكتور : عبد الله شحاتة .

(٣٩) لا يطوف بالبيت عريان :

رواه الترمذى فى الحج (٨٧١) وفى التفسير (٣٠٩٢) والدارمى فى المناسك (١٩١٩) وأحمد فى مسنده (٤، ٥٩٥) من حديث زيد بن أثيع قال : سألت عليا بأى شىء بعثت قال : بأربع : لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ولا يجتمع المسلمون والمشركون بعد عامهم هذا ، ومن كان بينه وبين النبى ﷺ عهد فعهده إلى مدته ومن لا مدة له فأربعة أشهر . ورواه البخارى فى الصلاة (٣٦٩) وفى الحج (١٦٢٢) وفى الجزية (٣١٧٧) وفى المغازى (٤٣٦٣) وفى تفسير القرآن (٤٦٥٥، ٤٦٥٦، ٤٦٥٧) ومسلم فى الحج (١٣٤٧) وأبو داود فى المناسك (١٩٤٦) والنسائى فى مناسك الحج (٢٩٥٧) والدارمى فى الصلاة (١٤٣٠) وفى السير (٢٥٠٦) وأحمد فى مسنده (٧٩١٧) من حديث أبى هريرة رضى الله عنهم قال بعثنى أبو بكر فى تلك الحجة فى مؤذنين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى : أن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان قال حميد بن عبد الرحمن ثم أردف رسول الله ﷺ بعلى بن أبى طالب وأمره أن يؤذن ببراءة قال أبو هريرة فأذن معنا على يوم النحر فى أهل منى ببراءة وأن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان .

(٤٠) قال الزمخشري في تفسير الكشاف ﴿براءةٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي : هذه براءة و﴿من﴾ لابتداء الغاية متعلق بمحذوف أي : براءة كائنة من الله . أو واصلة من الله ورسوله ، ويجوز أن تكون ﴿براءة﴾ مبتدأ ، والخبر إلى ﴿الذين عاهدتم من المشركين﴾ كما تقول رجل من بني تميم في الدار .

(٤١) تفسير القرآن الكريم لفضيلة الإمام الأكبر الشيخ : محمود شلتوت .

(٤٢) حاشية الجمل على الجلالين ٢٦٣/٢ .

(٤٣) تفسير القاسمي .

(٤٤) تفسير القاسمي وقد أسند هذا القول إلى ابن القيم .

(٤٥) أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله :

رواه مسلم في الإيمان أيضًا (٢٢) من حديث عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله . رواه البخاري في الصلاة (٣٩٣) وأبو داود في الجهاد (٢٦٤١) والترمذي في الإيمان (٢٦٠٨) والنسائي في تحريم الدم (٣٩٦٦) وفي الإيمان (٥٠٠٣) وأحمد في مسنده (١٢٦٤٣، ١٢٩٣٥) من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها وصلوا صلاتنا واستقبلوا قبلتنا وذبحوا ذبيحتنا : فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله . ورواه مسلم في الإيمان (٢١) وأبو داود في الجهاد (٢٦٤٠) والترمذي في الإيمان (٢٦٠٦) والنسائي في الجهاد (٣٠٩٣) وفي تحريم الدم (٣٩٧١) وابن ماجة في الفتن (٣٩٢٧) وأحمد في مسنده (٦٨، ٨٦٧٨، ٩١٩٠) من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله. ورواه الترمذي في التفسير (٣٣٤١) وابن ماجة في الفتن (٣٩٢٨) وأحمد في مسنده (١٣٧٩٧، ١٤١٥٠) جابر قال : قال رسول الله ﷺ : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله ثم قرأ ﴿إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر﴾ قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح . ورواه النسائي في تحريم الدم (٣٩٧٩) من حديث النعمان بن بشير قال : كنا مع النبي ﷺ فجاء رجل فساره فقال : اقتلوه ثم قال : أيشهد أن لا إله إلا الله ؟ قال : نعم ولكنما يقولها تعوذا فقال رسول الله ﷺ : لا تقتلوه فإنما أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ؟ فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله . ورواه النسائي في تحريم الدم أيضًا (٣٩٨٣) وأحمد في مسنده (١٥٧٢٧) من حديث أوس بن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ : أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ثم تحرم دماؤهم وأموالهم إلا بحقها . ورواه أحمد في مسنده (٢٤١) من حديث عمر أنه قال لأبي بكر : كيف تقاتل الناس يا أبا بكر وقد قال رسول الله ﷺ : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوا : لا إله إلا الله عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليها ، قال عمر رضي الله عنه : فوالله ما هو إلا أن رأيت أن الله قد شرح صدر أبي بكر رضي الله عنه للقتال فعرفت أنه الحق .

(٤٦) أحكام القرآن لابن العربي .

(٤٧) أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله :

رواه البخارى فى الصلاة (٣٩٣) وأبو داود فى الجهاد (٢٦٤١) والترمذى فى الإيمان (٢٦٠٨) والنسائى فى تحريم الدم (٣٩٦٦) وفى الإيمان (٥٠٠٣) وأحمد فى مسنده (١٢٦٤٣، ١٢٩٣٥) من حديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها وصلوا صلاتنا واستقبلوا قبلتنا وذبحوا ذبيحتنا ؛ فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله . وانظر ما قبله .

(٤٨) انظر تفسير ابن كثير للآية ، فقد كتب طائفة من الأحاديث النبوية الشريفة تتصل بتفسير الآية .

(٤٩) من أمن رجلا على دمه فقتله :

ذكره السيوطى فى الجامع الصغير (٨٢٧١) بلفظ : من أمن رجلا على دمه فقتله فأنا برىء من القاتل ، وإن كان المقتول كافرا . ونسبه للبخارى فى التاريخ والنسائى عن عمرو بن الحمق . قال الهيثمى فى المجمع : عن رفاعة القتبانى قال : دخلت على المختار فألقى إلى وسادة وقال : لولا أخى جبريل قام عن هذه لألقيتها لك قال فأردت أن أضرب عنقه فذكرت حديثا حدثنيه عمرو بن الحمق قال : قال رسول الله ﷺ : أيما مؤمن أمن مؤمنا على دمه فقتله أنا من القاتل برىء – قلت: روى له ابن ماجة : من أمن رجلا على دمه فقتله فإنه يحمل لواء غدر يوم القيامة . رواه أحمد والطبرانى ورجاله ثقات . وعن عمرو بن الحمق قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : من أمن رجلا على دمه فقتله فأنا برىء من القاتل وإن كان المقتول كافرا . رواه الطبرانى بأسانيد كثيرة وأحدها رجاله ثقات . ورواه ابن ماجة فى الديات (٢٦٨٨) وأحمد فى مسنده (٢١٤٣٩) من حديث رفاعة بن شداد القتبانى قال لولا كلمة سمعتها من عمرو بن الحمق الخزاعى لمشيت فيما بين رأس المختار وجسده سمعته يقول : قال رسول الله ﷺ : من أمن رجلا على دمه فقتله ، فإنه يحمل لواء غدر يوم القيامة . قال البوصيرى فى الزوائد : إسناده صحيح ورجاله ثقات ؛ لأن رفاعة بن شداد ، أخرجه النسائىّ فى سننه ووثّقهُ وذكره ابن حبان فى الثقات ، وباقى رجال الإسناد على شرط مسلم .

(٥٠) لكل غادر لواء يوم القيامة :

رواه البخارى فى الجزية (٣١٨٧) ومسلم فى الجهاد (١٧٣٧) وأحمد فى مسنده (١٢٠٣٥) من حديث أنس عن النبى ﷺ قال : لكل غادر لواء يوم القيامة قال أحدهما ينصب وقال الآخر يرى يوم القيامة يعرف به . رواه البخارى فى الجزية (٣١٨٨) وفى الحيل (٦٩٦٦) وفى الفتن (٧١١١) ومسلم فى الجهاد (١٧٣٥) والترمذى فى السير (١٥٨١) وأحمد فى مسنده (٤٨٢٤) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما قال سمعت النبى ﷺ يقول : لكل غادر لواء ينصب بغدرته يوم القيامة . ورواه مسلم فى الجهاد (١٧٣٦) وابن ماجة فى الجهاد (٢٨٧٢) والدارمى فى البيوع (٢٥٤٢) وأحمد فى مسنده (٣٨٩٠) من حديث عبد الله بن مسعود عن النبى ﷺ قال : لكل غادر لواء يوم القيامة يقال : هذه غدرة فلان . ورواه مسلم فى الجهاد (١٧٣٨) والترمذى فى الفتن (٢١٩١) وابن ماجة فى الجهاد (٢٨٧٣) وأحمد فى مسنده (١٠٩١٠) من حديث أبى سعيد عن النبى ﷺ قال : لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة .

(٥١) تفسير سورة التوبة د. محمد سيد طنطاوى الطبعة الثانية ص ٦١ .

(٥٢) انظر تفسير الفخر الرازى ، والكشاف للزمخشرى ، والمنار والقرطبى وأحكام القرآن للجصاص ، وأحكام القرآن لابن عربى، والتفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلى .

(٥٣) انظر التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلى دار الفكر دمشق سوريا ١٠/١٢٥

(٥٤) تفسير ابى السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لقاضى القضاة الإمام أبى السعود محمد بن محمد العمادى المتوفى سنة ٩٥١ هـ ٤/٤٩ .

(٥٥) أسباب النزول للواحدى ، وتفسير الكشاف ، وحاشية الجمل على الجلالين ، وتفسير المنار .

(٥٦) قارن بتفسير المنار ١٠/٢٤٩ .

(٥٧) مقتبس من تفسير الآلوسى وغيره .

(٥٨) التفسير المنير للأستاذ الدكتور / وهبة الزحيلى دار الفكر المعاصر بيروت ١٠/١٤١ .

(٥٩) حاشية الجمل على الجلالين ٢/٣٧٠ .

(٦٠) انظر حاشية الجمل على الجلالين ، والتفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلى ١٠/١٤١ حيث نقل ذلك عن الواحدى .

(٦١) من بنى لله مسجدًا ؛ بنى الله له بيتا فى الجنة :

البخارى فى الصلاة (٤٥٠) ومسلم فى المساجد (٥٣٣/٢٤، ٢٥) ، والترمذى فى الصلاة (٣١٨) وقال : «حديث حسن صحيح» ، وابن ماجة فى المساجد (٧٣٦) كلهم عن عثمان بن عفان .

(٦٢) إنما عمار المساجد هم أهل الله :

قال ابن كثير فى تفسيره : وروى الحافظ أبو بكر البزار عن أنس قال : قال سول الله ﷺ : «إنما عمار المساجد هم أهل الله».

(٦٣) إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد :

رواه الترمذى فى الإيمان (٢٦١٧) وفى التفسير (٣٠٣٩) وابن ماجة فى المساجد (٨٠٢) والدارمى فى الصلاة (١٢٢٣) من حديث أبى سعيد عن رسول الله ﷺ قال : إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان قال الله تعالى : ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله﴾ الآية . قال المناوى فى الفيض : قال الترمذى : حسن غريب وقال الحاكم ترجمة صحيحة مصرية وتعقبه الذهبى بأن فيه دراج وهو كثير المناكير وقال مغلطاى فى شرح ابن ماجة حديث ضعيف .

(٦٤) من غدا إلى المسجد أو راح :

رواه البخارى فى الأذان (٦٦٢) ومسلم فى المساجد (٦٦٩) من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : من غدا إلى المسجد وراح : أعد الله له نزله فى الجنة كلما غدا أو راح .

(٦٥) تفسير المنار ١٠/٢٥٩ .

(٦٦) نقلا عن التفسير الوسيط لمجمع البحوث الإسلامية الحزب التاسع عشر ص ١١٧٤.

(٦٧) إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، هل رضيتم ؟

رواه البخارى فى الرقاق باب : صفة الجنة والنار (٦١٨٣) وفى التوحيد باب : كلام الرب مع أهل الجنة (٧٠٨٠) ومسلم فى الجنة ، وصفة نعيمها وأهلها باب إحلال الرضوان على أهل الجنة ، فلا يسخط عليهم أبدًا (٢٨٢٩) والترمذى فى صفة الجنة (٢٦٨٠) من حديث أبى سعيد الخدرى . وتمام لفظه : «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخير فى يديك . فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا مالم تعط أحدًا من خلقك ، فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : وأى شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدًا» . وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

(٦٨) التفسير المنير ، للدكتور وهبة الزحيلى ١٤٩/١٠ . دار الفكر المعاصر بيروت - لبنان ودار الفكر دمشق سورية .

(٦٩) لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده :

رواه البخارى فى الإيمان (١٤) والنسائى فى الإيمان (٥٠١٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنهم أن رسول الله ﷺ قال: «والذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده . ورواه البخارى فى الإيمان (١٥) ومسلم فى الإيمان (٤٤) والنسائى فى الإيمان (٥٠١٣) وابن ماجة فى المقدمة (٦٧) والدارمى فى الرقاق (٢٧٤١) وأحمد فى مسنده (١٢٤٠٣) من حديث أنس قال : قال النبى ﷺ : لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين . ورواه البخارى فى الأيمان والنذور (٦٦٣٢) وأحمد فى مسنده (١٨٤٨٢) من حديث عبد الله بن هشام قال : كنا مع النبى ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال له عمر: يا رسول الله لأنت أحب إلى من كل شيء إلا من نفسى فقال النبى ﷺ : لا والذى نفسى بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك فقال له عمر : فإنه الآن والله لأنت أحب إلى من نفسى فقال النبى ﷺ : الآن يا عمر.

(٧٠) لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه :

انظر ما قبله .

(٧١) نعم صلى أمك :

رواه البخارى فى الهبة (٢٦٢٠) وفى الجزية (٣١٨٣) ومسلم فى الزكاة (١٠٠٣) وأبو داود فى الزكاة (١٦٦٨) وأحمد فى مسنده (٢٦٣٧٥) من حديث أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قال : قدمت على أمى وهى مشركة فى عهد رسول الله ﷺ فاستفتيت رسول الله ﷺ وقلت وهى راغبة : أفأصل أمى ؛ قال : نعم صلى أمك .

(٧٢) تفسير سورة التوبة د. محمد سيد طنطاوى ص ٨٩ الطبعة الثانية نقلاً عن بعض العلماء ولم يذكر الاسم ولا المصدر .

(٧٣) انظر تفسير الطبرى وابن كثير والقرطبى وأبى السعود ونور اليقين فى سيرة سيد المرسلين للشيخ محمد الخضرى .

(٧٤) تفسير ابن كثير ٢٤٦/٢ .

(٧٥) تفسير سورة التوبة د. محمد سيد طنطاوى نقلاً عن تفسير القاسمى ٣٠٩٩/١٠ .

(٧٦) لو أنكم توكلون على الله حق توكله :

رواه الترمذى فى الزهد (٢٣٤٤) وابن ماجة فى الزهد (٤١٦٤) وأحمد فى مسنده (٢٠٥، ٣٧٢) من حديث عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ : «لو أنكم كنتم توكلون على الله حق توكله لرزقتم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا». قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح لا نعرفه إلا من هذا الوجه وأبو تميم الجيشانى اسمه : عبد الله بن مالك . تنبيه : لم يروه البخارى ، ولم أر من عزاه له ، فليحرر.

(٧٧) انظر تفسير فخر الدين الرازى للآية .

(٧٨) تفسير ابن كثير باختصار وتصرف .

(٧٩) هذه خلاصة لما ورد فى كتب التفسير ، مثل تفسير الجمل على الجلالين ، والتفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلى وتفسير الكشاف ، وفتح القدير وتفسير سورة التوبة للدكتور محمد سيد طنطاوى .

(٨٠) انظر تفسير أبى السعود المجلد ٢ جزء ٤ ص ٥٩ ، وتفسير سورة التوبة للدكتور طنطاوى ص ١٠٥ .

(٨١) ليس على المسلم جزية :

رواه أبو داود فى الخراج (٣٠٥٣) وأحمد فى مسنده (١٩٥٠) من حديث ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ ليس على المسلم جزية . حدثنا محمد بن كثير قال : سئل سفيان عن تفسير هذا فقال : إذا أسلم فلا جزية عليه .

(٨٢) من أسلم فلا جزية عليه :

انظر ما قبله .

(٨٣) تفسير الكشاف .

(٨٤) تفسير الكشاف ١٨٩/٢ .

(٨٥) انظر تفسير القاسمى ، والقرطبى ، والمنار ، والكشاف .

(٨٦) انظر تفسير القرطبى

(٨٧) تفسير الكشاف للزمخشرى .

(٨٨) تفسير القرطبى ج ٨ ص ١١٠ طبعة دار الكتب المصرية ١٩٦١ م .

(٨٩) كتاب الخراج لأبى يوسف ص ١٤ .

(٩٠) تفسير القاسمى ١٢/٨.

(٩١) التفسير الوسيط : مجمع البحوث الإسلامية ص : ١٦٩٠ .

(٩٢) تفسير المنار بتصرف ، وانظر أيضا تفسير في ظلال القرآن .

(٩٣) تفسير سورة التوبة د. محمد سيد طنطاوى ص ١١٥ .

(٩٤) تفسير المنار ٤٢٦/١٠ .

(٩٥) إن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون :

رواه الترمذى فى التفسير (٢٩٥٤) وأحمد فى مسنده (٣٧٨/٤) من حديث عدى بن حاتم قال أتيت رسول الله ﷺ وهو جالس فى المسجد فقال القوم: هذا عدى بن حاتم وجئت بغير أمان ولا كتاب فلما دفعت إليه أخذ بيدى وقد كان قال قبل ذلك : إنى لأرجو أن يجعل الله يده فى يدى قال: فقام فلقيته امرأة وصبى معها فقالا : إن لنا إليك حاجة فقام معهما حتى قضى حاجتهما ثم أخذ بيدى حتى أتى بى داره فألقت له الوليدة وسادة فجلس عليها وجلست بين يديه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ما يفرك أن تقول لا إله إلا الله فهل تعلم من إله سوى الله قال: قلت: لا ، قال: ثم تكلم ساعة ثم قال : إنما تفر أن تقول الله أكبر وتعلم أن شيئا أكبر من الله قال: قلت لا ، قال : فإن اليهود مغضوب عليهم وإن النصارى ضلال قال: قلت: فإنى جئت مسلما قال فرأيت وجهه تبسط فرحا قال : ثم أمر بى فأنزلت عند رجل من الأنصار جعلت أغشاه آتيه طرفى النهار قال فبينما أنا عنده عشية إذ جاءه قوم فى ثياب من الصوف من هذه النمار قال : فصلى وقام فحث عليهم ثم قال ولو صاع ولو بنصف صاع ولو بقبضة ولو ببعض قبضة يقى أحدكم وجهه حر جهنم أو النار ولو بتمرة ولو بشق تمرة فإن أحدكم لاقى الله وقائل له : ما أقول لكم : ألم أجعل لك سمعا وبصرا فيقول : بلى ؛ فيقول : ألم أجعل لك مالا وولدا فيقول: بلى فيقول : أين ما قدمت لنفسك فينظر قدامه وبعده وعن يمينه وعن شماله ثم لا يجد شيئا يقى به وجهه حر جهنم؛ ليق أحدكم وجهه النار ولو بشق تمرة فإن لم يجد فبكلمة طيبة فإنى لا أخاف عليكم الفاقة فإن الله ناصركم ومعطيكم حتى تسير الظعينة فيما بين يثرب والحيرة أو أكثر ما تخاف على مطيتها السرق قال : فجعلت أقول فى نفسى فأين لصوص طيئ قال : أبو عيسى : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث سماك بن حرب . ثم ذكر بسنده من حديث عدى بن حاتم عن النبى ﷺ قال : اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضلال فذكر الحديث بطوله .

(٩٦) تفسير الآلوسى ٧٦/١٠ .

(٩٧) إن الله زوى لى الأرض :

رواه مسلم فى الفتن (٢٨٨٩) ، والترمذى فى الفتن ح ٢١٧٦ ، وأبو داود فى الفتن ح ٢١٧٦ ، وابن ماجة فى الفتن (٣٩٥٢)، وأحمد ٢٧٨/٥، ٢٨٤، من حديث ثوبان . وقال الترمذى : حسن صحيح .

(٩٨) لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر :

رواه أحمد فى مسنده (٢٣٣٠٢) من حديث المقداد بن الأسود يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله كلمة الإسلام بعز عزيز أو ذل ذليل إما يعزهم الله عز وجل فيجعلهم من أهلها أو يذلهم فيدينون لها . ورواه أحمد فى مسنده (١٦٥٩٠) من حديث تميم الدارى قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذ الدين بعز عزيز أو بذل ذليل عزا يعز الله به الإسلام وذلا يذل الله به الكفر وكان تميم الدارى يقول : قد عرفت ذلك فى أهل بيتى لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز ولقد أصاب من كان منهم كافرا الذل والصغار والجزية . قال الهيثمى فى المجمع : رواه أحمد والطبرانى ورجال أحمد رجال الصحيح .

(٩٩) والذى نفسى بيده ليتمن الله .

رواه أحمد فى مسنده (١٧٧٩٦) من حديث عدى بن حاتم قال لما بلغنى خروج رسول الله ﷺ فكرهت خروجه كراهة شديدة خرجت حتى وقعت ناحية الروم وقال يعنى يزيد ببغداد حتى قدمت على قيصر قال : فكرهت مكانى ذلك أشد من كراهيتى لخروجه قال : فقلت والله لولا أتيت هذا الرجل فإن كان كاذبا لم يضرنى وإن كان صادقا علمت قال : فقدمت فأتيته فلما قدمت قال الناس عدى بن حاتم عدى بن حاتم قال : فدخلت على رسول الله ﷺ فقال لى : يا عدى بن حاتم أسلم تسلم ثلاثا قال قلت إنى على دين قال أنا أعلم بدينك منك فقلت أنت أعلم بدينى منى قال : نعم ألست من الركوسية وأنت تأكل مرباع قومك قلت بلى قال : فإن هذا لا يحل لك فى دينك قال : فلم يعد أن قالها فتواضعت لها فقال : أما إنى أعلم ما الذى يمنعك من الإسلام تقول إنما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قوة له وقد رمتهم العرب أتعرف الحيرة قلت: لم أرها وقد سمعت بها قال فوالذى نفسى بيده ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت فى غير جوار أحد وليفتحن كنوز كسرى بن هرمز قال : قلت: كسرى بن هرمز قال : نعم كسرى بن هرمز وليبذلن المال حتى لا يقبله أحد قال عدى بن حاتم : فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت فى غير جوار ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز والذى نفسى بيده لتكونن الثالثة لأن رسول الله ﷺ قد قالها . ورواه البخارى فى المناقب (٣٦١٢، ٣٨٥٢) ، وفى الإكراه (٦٩٤٣) ، وأبو داود فى الجهاد (٢٦٤٩) وأحمد ح ٢٠٥٦٨ ، ٢٦٦٧٥ من حديث خباب بن الأرت قال : شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له فى ظل الكعبة قلنا له ألا تستنصر لنا ألا تدعو الله لنا قال : كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له فى الأرض فيجعل فيه فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيشق باثنتين وما يصده ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب وما يصده ذلك عن دينه والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون .

(١٠٠) ما أدى زكاته فليس بكنز .

بوَّب به البخارى في كتاب الزكاة فقال : باب ما أدى زكاته فليس بكنز لقول النبى ﷺ ليس فيما دون خمسة أواق صدقة ، ورواه أبو داود فى الزكاة (١٥٦٤) من حديث أم سلمة قالت : كنت ألبس أوضاحا من ذهب فقلت : يا رسول الله أكنز هو ؟ فقال : ما بلغ أن تؤدى زكاته فزكى فليس بكنز .

(١٠١) تفسير الكشاف للزمخشرى ١٩١/٢ .

(١٠٢) من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته .

رواه البخارى فى الزكاة ح ١٤٠٣ ، ١٤٠٤ ،وفى تفسير القرآن ح ٤٥٦٥ ، والنسائى فى الزكاة ح ٢٤٨٢ ، وابن ماجة فى الزكاة ح ١٧٨٧ ، وأحمد ح ٨٤٤٧ من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له ماله يوم القيامة شجاعا أقرعًا له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزمتيه يعنى بشدقيه ثم يقول : أنا مالك أنا كنزك ثم تلا ﴿لا يحسبن الذين يبخلون﴾ الآية .

(١٠٣) ما يسرنى أن عندى مثل أحد هذا ذهبا .

رواه البخارى فى الرقاق (٦٤٤٤) والدارمى فى الرقاق (٢٧٦٧) وأحمد فى مسنده (٢٠٨١٥) من حديث أبى ذر قال : كنت أمشى مع النبى ﷺ فى حرة المدينة فاستقبلنا أحد فقال يا أبا ذر قلت لبيك يا رسول الله قال : ما يسرنى أن عندى

مثل أحد هذا ذهبا تمضى على ثالثة وعندى منه دينار إلا شيئا أرصده لدين إلا أن أقول به فى عباد الله هكذا وهكذا وهكذا عن يمينه وعن شماله ومن خلفه ثم مشى فقال : إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا عن يمينه وعن شماله ومن خلفه وقليل ما هم ثم قال لى : مكانك لا تبرح حتى آتيك ثم انطلق فى سواد الليل حتى توارى فسمعت صوتا قد ارتفع فتخوفت أن يكون قد عرض للنبى ﷺ فأردت أن آتيه فذكرت قوله لى : لا تبرح حتى آتيك فلم أبرح حتى آتانى قلت : يا رسول الله لقد سمعت صوتا تخوفت فذكرت له فقال : وهل سمعته قلت : نعم قال : ذاك جبريل أتانى فقال : من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة قلت وإن زنى وإن سرق قال : وإن زنى وإن سرق. ورواه البخارى فى الاستقراض (٢٣٨٩) ومسلم فى الزكاة (٩٩١) وأحمد فى مسنده (٩٦٩٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ : لو كان لى مثل أحد ذهبا ما يسرنى أن لا يمر على ثلاث وعندى منه شىء إلا شىء أرصده لدين . ورواه أحمد فى مسنده (٢٧١٩) من حديث ابن عباس أن النبى ﷺ التفت إلى أحد فقال : والذى نفس محمد بيده ما يسرنى أن أحدا يحول لآل محمد ذهبا أنفقه فى سبيل الله أموت يوم أموت أدع منه دينارين إلا دينارين أعدهما لدين إن كان فمات وما ترك دينارا ولا درهما ولا عبدا ولا وليدة وترك درعه مرهونة عند يهودى على ثلاثين صاعا من شعير.

(١٠٤) أفضله لسان ذاكر .

رواه أحمد فى مسنده (٢٢٥٩) من حديث عبد الله بن أبى الهذيل قال : حدثنى صاحب لى : أن رسول الله ﷺ قال : تبا للذهب والفضة قال : فحدثنى صاحبى أنه انطلق مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : يا رسول الله قولك تبا للذهب والفضة ماذا ؟ فقال : رسول الله ﷺ لسانا ذاكرا وقلبا شاكرا وزوجة تعين على الآخرة . ورواه الترمذى فى تفسير القرآن ح (٣٠١٩) وابن ماجة فى النكاح (١٨٥٦) وأحمد فى مسنده (٢١٣٥٨ ، ٢٢٠٢٢) من حديث ثوبان قال : لما نزلت ﴿والذين يكنزون الذهب والفضة﴾ قال : كنا مع النبى ﷺ فى بعض أسفاره فقال بعض أصحابه : أنزل فى الذهب والفضة ما أنزل لو علمنا أى المال خير فنتخذه فقال أفضله لسان ذاكر وقلب شاكر وزوجة مؤمنة تعينه على إيمانه . وقال أبو عيسى : حديث حسن . قلت : وهو كما قال إلا أن سالم بن أبى الجعد لم يسمع من ثوبان – راوى الحديث – فهو مرسل .

(١٠٥) ما من إنسان أو قال : أحد ؛ ترك صفراء أو بيضاء :

رواه أحمد فى مسنده (٢٠٩٦٩) من حديث أبى مجيب قال : لقى أبو ذر أبا هريرة وجعل أراه قال قبيعة سيفه فضة فنهاه وقال أبو ذر : قال رسول الله ﷺ : ما من إنسان أو قال : أحد ترك صفراء أو بيضاء إلا كوى بها .

(١٠٦) تفسير الكشاف للزمخشرى ١٩١/٢ .

(١٠٧) أفلح إن صدق .

رواه البخارى فى الإيمان (٤٦) وفى الصوم (١٨٩١) وفى الشهادات (٢٦٧٨) وفى الحيل (٦٩٥٦) ومسلم فى الإيمان (١١) ومالك فى الموطأ كتاب النداء للصلاة (٤٢٥) وأبو داود فى الصلاة (٣٩١) وفى الإيمان والنذور (٣٢٥٢) والنسائى فى الصلاة (٤٥٨) وفى الإيمان (٥٠٢٨) والدارمى فى الصلاة (١٥٧٨) وأحمد فى مسنده (١٣٩٣) من حديث طلحة بن عبيد الله يقول جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس يسمع دوى صوت ولا يفقه ما يقول حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام فقال رسول الله ﷺ : خمس صلوات فى اليوم والليلة فقال : هل على غيرها ؟ قال : لا إلا أن تطوع قال رسول الله ﷺ : وصيام رمضان قال : هل على غيره قال : لا إلا أن تطوع قال : وذكر رسول الله ﷺ الزكاة ؛ قال : هل على غيرها ؛ قال : لا إلا أن تطوع قال : فأدبر الرجل وهو يقول والله لا أزيد على هذا ولا أنقص قال رسول الله ﷺ : أفلح إن صدق .

(١٠٨) الزمان قد استدار كهيئته يوم .

رواه البخارى فى بدء الخلق (٣١٩٧) وفى المغازى (٤٤٠٦) وفى التفسير (٤٦٦٢) وفى الأضاحى (٥٥٥٠) وفى التوحيد (٧٤٤٧) ومسلم فى القسامة (١٦٧٩) وأبو داود فى المناسك (١٩٤٧) وأحمد فى مسنده (١٩٨٧٣) من حديث أبى بكرة رضى الله عنهم عن النبى ﷺ وسلم قال : الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان .

(١٠٩) تفسير الكشاف ١٩٢/٢ ، تفسير أبى السعود ٦٣/٤ .

(١١٠) ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم .

رواه الترمذى فى المناقب (٣٧٠١) وأحمد فى مسنده (٢٠١٠٧) من حديث عبد الرحمن بن سمرة قال : جاء عثمان إلى النبى ﷺ بألف دينار قال الحسن بن وقاع : وكان فى موضع آخر من كتابى فى كمه حين جهز جيش العسرة فينثرها فى حجره قال عبد الرحمن : فرأيت النبى ﷺ يقلبها فى حجره ويقول ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم مرتين . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه .

(١١١) التفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلى ٢١٥/١٠ .

(١١٢) ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه .

رواه مسلم فى الجنة وصفة نعيمها ح ٢٨٥٨ ، والترمذى فى الزهد ح ٢٣٢٣ ، وابن ماجة فى الزهد ح ٤١٠٨ ، وأحمد ح ١٧٥٤٧ ، ١٧٥٤٨ ، ١٧٥٥١ ، ١٧٥٥٣ ، ١٧٥٥٩ ، ١٧٥٦٠ من حديث المستورد . وقال الترمذى : حديث حسن صحيح.

(١١٣) إن الله يجزى بالحسنة ألف ألف حسنة .

قال السيوطى فى الدر : وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد وابن أبى حاتم وابن مردوية عن أبى عثمان النهدى قال : قلت : يا أبا هريرة ، سمعت إخوانى بالبصرة يزعمون أنك تقول : سمعت نبى الله ﷺ يقول : «إن الله يجزى بالحسنة ألف ألف حسنة» فقال أبو هريرة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الله يجزى بالحسنة ألفى ألف حسنة ، ثم تلا هذه الآية ﴿فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل﴾ فالدنيا ما مضى منها إلى ما بقى عند الله قليل ، وقال : ﴿من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة﴾ (البقرة : ٢٤٥) فكيف الكثير عند الله تعالى إذا كانت الدنيا ما مضى منها وما بقى عند الله قليل .

(١١٤) ما ظنك باثنين الله ثالثهما .

رواه البخارى فى التفسير (٤٦٦٣) ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٣٨١) والترمذى فى التفسير (٣٠٩٦) وأحمد فى مسنده (١٢) من حديث أنس قال : حدثنى أبو بكر رضى الله عنه قال : كنت مع النبى ﷺ فى الغار فرأيت آثار المشركين قلت : يا رسول الله ، لو أن أحدهم رفع قدمه رآنا قال : ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟!.

(١١٥) هذا ثابت فى صحاح السيرة ، وإن لم يثبته أهل الحديث .

(١١٦) من إعراب الآية ٤٠ من سورة التوبة

إلا تنصروه . بإدغام لا فى نون إن الشرطية .

فقد نصره الله . جواب الشرط .

إذ أخرجه . منصوب بـ نَصَرَهُ الله .

ثانى اثنين . أى : أحد اثنين وهو منصوب على الحال فى هاء أخرجه ، وهو النبى ﷺ .

إذ هما فى الغار . منصوب على البدل من قوله تعالى : إذ أخرجه الذين كفروا . وهو بدل اشتمال

إذ يقول لصاحبه . بدل من قوله: إذ هما فى الغار . وهاء صاحبه يراد بها أبو بكر .

لا تحزن . جملة فعلية فى موضع نصب بيقول . وهاء أيده . يراد بها النبى ﷺ .

وكلمة الله . مبتدأ مرفوع وهِيَ . ضمير فصل . العليا . خبره .

وقرأ بعضهم بالنصب ، والجمهور على رفع كَلِمَةُ . وهو أبلغ ؛ لأن الجملة الاسمية تدلّ على الدوام والثبوت .

(١١٧) تكفل الله لمن جاهد فى سبيله لا يخرجه إلا الجهاد .

رواه البخارى فى الإيمان (٣٦) وفى فرض الخمس (٣١٢٣) وفى التوحيد (٧٤٧٥ ، ٧٤٦٣) رواه مسلم فى الإمارة واللفظ له – (١٨٧٦) ومالك فى الموطإ كتاب الجهاد (٩٧٤) والنسائى فى الجهاد (٣١٢٢ ، ٣١٢٣) وفى الإيمان وشرائعه (٥٠٢٩) وابن ماجة فى الجهاد (٢٧٥٣) والدارمى فى الجهاد (٢٣٩١) وأحمد فى مسنده (٨٧٥٧ ، ٨٩٢٣) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : تكفل الله لمن جاهد فى سبيله لا يخرجه إلا الجهاد .. الحديث . روى الحديث بأكثر من لفظ منها : انتدب الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه إلا إيمان .. الحديث . ومنها : أعد الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه إلا جهاد فى سبيلى وإيمان بى .. الحديث . وفى إحدى الروايات : تضمن الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه إلا جهاد فى سبيلى .. الحديث .

(١١٨) تفسير القرطبى ١٥٠/٨ .

(١١٩) لو يعلم أحدهم أنه يجد عرقا سمينا أو مرماتين حسنتين .

رواه البخارى فى الأذان (٦٤٤) وفى الأحكام (٧٢٢٤) ومالك فى الموطإ كتاب النداء للصلاة (٢٩٢) والنسائى فى الإمامة (٨٤٨) والدارمى فى الصلاة (١٢١٢) وأحمد فى مسنده (٧٢٨٤) من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: والذى نفسى بيده لقد هممت أن آمر بحطب فيحطب ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها ثم آمر رجلا فيؤم الناس ثم أخالف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم والذى نفسى بيده لو يعلم أحدهم أنه يجد عرقا سمينا أو مرماتين حسنتين لشهد العشاء. وذكره البخارى تعليقًا فى مواقيت الصلاة باب ذكر العشاء والعتمة ، ثم وصله فى الأذان (٦٥٧) ومسلم فى المساجد (٦٥١) وابن ماجة فى المساجد (٧٩٧) (٩٢٠٢ ، ٩٦٨٧ ، ٩٧٥٠ ، ١٠٤٩٦) والدارمى فى الصلاة (١٢٧٣) من حديث أبى هريرة قال : قال النبى ﷺ : ليس صلاة أثقل على المنافقين من الفجر والعشاء ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوا لقد هممت أن آمر المؤذن فيقيم ثم آمر رجلا يؤم الناس ثم آخذ شعلا من نار فأحرق على من لا يخرج إلى الصلاة بعد . ورواه أحمد فى مسنده (٢٠٧٥٨ ، ٢٠٧٦٧) وأبو داود فى الصلاة (٥٥٤) والنسائى فى الإمامة (٨٤٣) والدارمى فى الصلاة (١٢٦٩) من حديث أبى بن كعب أنه قال : صلى رسول الله ﷺ الصبح فقال : شاهد فلان؟ فقالوا : لا . فقال: شاهد فلان ؟ فقالوا : لا . فقال : شاهد فلان ؟ فقالوا : لا . فقال : إن هاتين الصلاتين من أثقل الصلوات على المنافقين ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوا والصف المقدم على مثل صف الملائكة ولو تعلمون فضيلته لابتدرتموه وصلاة الرجل مع الرجلين أزكى من صلاته مع رجل وما كان أكثر فهو أحب إلى الله تبارك وتعالى .

(١٢٠) اليمين الغموس تدع الديار بلاقع .

ذكره الهندى فى كنز العمال (٤٦٣٨٣ – اليمين الغموس تدع الديار بلاقع . ونسبه لأبى الحسن خيثمة بن سليمان بن حيدرة الأطرابلسى فى جزئه – عن واثلة قال الهيثمى فى المجمع : وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إن أعجل الطاعة ثوابا صلة الرحم إن أعجل الطاعة ثوابا صلة الرحم إنهم ليكونون فجارا فتنموا أموالهم ويكثر عددهم إذا وصلوا أرحامهم وإن أعجل المعصية عقوبة : البغى والجناية واليمين الغموس تذهب المال وتثقل فى الرحم وتذر الديار بلاقع. رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه أبو الدهماء الأصعب وثقه النفيدى وضعفه ابن حبان . قال السيوطى فى الدر : وأخرج البيهقى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ليس مما عصى الله به هو أعجل عقابا من البغى ، وما من شىء أطيع الله فيه أسرع ثوابا من الصلة . واليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع» . (بلاقع : البلاقع جمع بلقع وبلقعة وهى الأرض القفر التى لا شىء بها ، يريد أن الحالف بها يفتقر ويذهب ما فى بيته من الرزق . ا هـ . ١ / ١٥٣ النهاية ب) .

(١٢١) تفسير الفخر الرازى .

(١٢٢) تفسير ابن كثير .

(١٢٣) اخرجه الطبرانى وأبو نعيم وابن مردوية عن ابن عباس . وأخرجه ابن أبى حاتم عن جابر بن عبد الله .

(١٢٤) ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب .

رواه البخارى فى المرضى باب : ما جاء فى كفارة المرضى (٥٦٤٢) ومسلم فى البر والصلة والآداب ، باب : ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن (٢٥٧٣) عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : «ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفَّر الله بها عنه ، حتى الشوكة يُشاكها» . ورواه البخارى فيما تقدم (٥٣١٨) عن أبى سعيد الخدرى ، وعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : «ما يصيب المسلم ، من نصب ولا وصب ، ولا هم ولا حَزَن ولا أذى ولا غم ، حتى الشوكة يُشاكها ، إلا كفر الله بها من خطاياه» . رواه الترمذى فى تفسير القرآن باب ومن سورة النساء (٥٠٢٩) عن أبى هريرة قال : ولما نزلت ﴿من يعمل سوءا يجز به﴾ ، شق ذلك على المسلمين فشكوا ذلك إلى النبى ﷺ ، فقال : «قاربوا وسددوا . وفى كل ما يصيب المؤمن كفارة حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها» هذا حديث حسن غريب .

(١٢٥) دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض .

بوّب به البخارى فى كتاب المرضى ، ورواه الترمذى في الزهد ح ٢٣٩٨ ، وابن ماجة فى الفتن ح ٤٠٢٣ ، وأحمد ح ١٤٨٤ ، ١٤٩٧ ، ١٥٥٨ ، ١٦١٠ ، والدارمى فى الرقاق ح ٢٧٨٣ من حديث سعد بن أبى وقاص قال : قلت : يا رسول الله : أى الناس أشد بلاء ؟ قال : الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل فيبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان دينه صلبا اشتد بلاؤه وإن كان فى دينه رقة ابتلى على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة . وقال الترمذى : حسن صحيح .

(١٢٦) أشد الناس بلاء الأنبياء .

انظر ما قبله .

(١٢٧) واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شيء فلا تقل .

رواه مسلم فى القدر (٢٦٦٤) وابن ماجة فى المقدمة (٧٩) وفى الزهد (٤١٦٨) وأحمد فى مسنده (٨٥٧٣ ، ٨٦١١) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شيء فلا تقل لو أنى فعلت كان كذا وكذاولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان .

(١٢٨) اللهم أجرلى فى مصيبتى .

رواه مسلم فى الجنائز (٩١٨) ومالك فى الموطإ كتاب الجنائز (٥٥٨) وأحمد فى مسنده (١٥٩٠٩) من حديث أم سلمة أنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ اللهم أجرنى فى مصيبتى واخلف لى خيرا منها إلا أخلف الله له خيرا منها . قالت : فلما مات أبو سلمة قلت : أى المسلمين خير من أبى سلمة أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ ثم إنى قلتها فأخلف الله لى رسول الله ﷺ قالت : أرسل إلى رسول الله ﷺ حاطب بن أبى بلتعة يخطبنى له فقلت : إن لى بنتا وأنا غيور فقال : أما ابنتها فندعو الله أن يغنيها عنها وأدعو الله أن يذهب بالغيرة .

(١٢٩) من علامات الإيمان الشكر على النعماء .

ذكره السيوطى فى الجامع الصغير (٣٤٨٩) بلفظ : ثلاث يدرك بهن العبد رغائب الدنيا والآخرة : الصبر على البلاء، والرضا بالقضاء ، والدعاء فى الرخاء . ونسبه لأبى الشيخ ابن حبان عن عمران بن حصين . ورمز لضعفه .

(١٣٠) عجبًا لأمر المؤمن .

أخرجه مسلم (٢٩٩٩) واللفظ له ، وأحمد (١٨٤٥٥ و ١٨٤٦٠ و ٢٣٤٠٦ و ٢٣٤١٢) والدارمى (٢٧٧٧) ، من حديث صهيب بن سنان قال : قال رسول الله ﷺ : عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له .

(١٣١) تكفل الله لمن جاهد سبيله لا يخرجه إلا الجهاد .

تقدم ص (١٨٧٥) .

(١٣٢) فإن الله لا يمل حتى تملوا .

رواه مسلم فى صلاة المسافرين (٧٤٦) من حديث عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ إذا عمل عملا أثبته وكان إذا نام من الليل أو مرض صلى من النهار ثنتى عشرة ركعة قالت : وما رأيت رسول الله ﷺ قام ليلة حتى الصباح وما صام شهرا متتابعا إلا رمضان ورواه أبو داود فى الصلاة (١٣٦٨) والنسائى فى القبلة (٧٦٢) من حديث عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : اكلفوا من العمل ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا وإن أحب العمل إلى الله أدومه وكان إذا عمل عملا أثبته .

(١٣٣) إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا .

رواه مسلم فى الصلاة (١٠١٥) والترمذى فى تفسير القرآن (٢٩٨٩) والدارمى فى الرقاق (٢٧١٧) وأحمد فى مسنده (٨١٤٨) من حديث أبى هريرة مرفوعًا : أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم﴾ وقال : ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنى يستجاب لذلك !

قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب وإنما نعرفه من حديث فضيل بن مرزوق وأبو حازم هو الأشجعى اسمه : سلمان مولى عزة الأشجعية .

(١٣٤) إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ .

رواه البخارى (١ ، ٦٦٨٩ ، ٦٩٥٣) ومسلم فى كتاب الإمارة حديث رقم (٣٥٣٠) ، والترمذى فى كتاب فضائل الجهاد حديث رقم (١٥٧١) والنسائى فى كتاب الطهارة حديث رقم (٧٤) وفى الطلاق حديث رقم (٣٣٨٣) وفى الأيمان والنذور حديث رقم (٣٧٣٤) ، وأبو داود فى كتاب الطلاق حديث رقم (١٨٨٢) ، وابن ماجة فى كتاب الزهد حديث رقم (٤٢١٧)، وأحمد فى مسنده حديث رقم (١٦٣، ٢٨٣) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه على المنبر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه .

(١٣٥) ورد هذا المعنى فى تفسير الفخر الرازى .

(١٣٦) المرجع السابق .

(١٣٧) ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل ؟! .

رواه البخارى فى المناقب (٣٦١٠) وفى استتابة المرتدين (٦٩٣٣) ومسلم فى الزكاة (١٠٦٣) وابن ماجة فى المقدمة (١٧٢) وأحمد (١٤٣٩٠) من حديث جابر بن عبد الله ومن حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسما أتاه ذو الخويصرة وهو رجل من بنى تميم فقال : يا رسول الله ، اعدل ، فقال : ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل ؟! فقال عمر : يا رسول الله ائذن لى فيه فأضرب عنقه فقال : دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شىء ثم ينظر إلى رصافه فما يوجد فيه شىء ثم ينظر إلى نضيه وهو قدحه فلا يوجد فيه شىء ثم ينظر إلى قذذه فلا يوجد فيه شىء قد سبق الفرث والدم آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدى المرأة أو مثل البضعة تدردر ويخرجون على حين فرقة من الناس قال أبو سعيد فأشهد أنى سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ وأشهد أن على بن أبى طالب قاتلهم وأنا معه فأمر بذلك الرجل فالتمس فأتى به حتى نظرت إليه على نعت النبى ﷺ الذى نعته .

(١٣٨) تفسير الفخر الرازى .

(١٣٩) لخصنا فصل مصارف الزكاة من بحث لصاحب الفضيلة الأستاذ محمد أبو زهرة فى مجلة لواء الإسلام من مجلد سنة ١٩٥١ ص ٨٣٢ .

(١٤٠) جاء فى القانون الرومانى المسمى : قانون الألواح الاثنى عشر «المدين إذا عجز عن دفع ديونه يحكم عليه بالرق إن كان حرًا ويحكم عليه بالحبس أو بالقتل إذا كان رقيقًا» .

(١٤١) جبلت القلوب على حب .

ذكره السيوطى فى الجامع الصغير (٣٥٨٠) بلفظ : جبلت القلوب على حب من أحسن إليها ، وبغض من أساء إليها . ونسبه لابن عدى في الكامل وأبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى شعب الإيمان عن ابن مسعود .، وصحح البيهقى فى شعب الإيمان وقفه ، ورمز السيوطى لضعفه . قال المناوى فى فيض القدير : وكذا أبو الشيخ (ابن حبان) وابن حبان فى روضة العقلاء والخطيب فى التاريخ وآخرون كلهم من طريق إسماعيل بن أبان الخياط قال : بلغ الحسن بن عمارة أن الأعمش وقع فيه فبعث إليه بكسوة فمدحه فقيل له : ذميته ثم مدحته فقال : إن خيثمة حدثنى (عن ابن مسعود) فذكره وأورده ابن الجوزى فى الواهيات وقال : لا يصح فإن إسماعيل الخياط مجروح قال أحمد : كتبت عنه ثم وجدته حدث بأحاديث موضوعة فتركناه وقال يحيى هو كذاب وقال الشيخان والدارقطنى : متروك وقال ابن حبان : يضع على الثقات . انتهى وفى لسان الميزان فى ترجمة إسماعيل الخياط قال الأزدى : هو كوفى زائغ وهو الذى روى حديث جبلت القلوب قال الأزدى : هذا الحديث باطل . انتهى . (وصحح هب وقفه) ابن مسعود وقال : إنه المحفوظ وقال ابن عدى : المعروف وقفه وتبعه الزركشى وقال السخاوى : هو باطل مرفوعًا وموقوفًا وقول البيهقى كابن عدى الموقوف معروف عن الأعمش يحتاج لتأويل فإنهما أورداه كذلك بسند فيه من اتهم بالكذب والوضع إلى هنا كلامه وأقول : رأيت بخط ابن عبد الهادى فى تذكرته قال مهنأ : سألت أحمد ويحيى عنه فقالا : ليس له أصل وهو موضوع .

(١٤٢) تفسير أبى السعود ٧٧/٤ .

(١٤٣) مخش بن حمير .

قال الحافظ بن حجر فى الإصابة : (٧٨٤٦) مخْشِىّ بسكون الخاء بعدها شين معجمة بن حمير مصغرا بالتثقيل الأشجعى له ذكر فى مغازى بن إسحاق فى غزوة تبوك وفى تفسير ابن الكلبى بسنده إلى ابن عباس وبسند آخر إلى ابن مسعود أنه ممن نزل فيه ﴿ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب﴾ قال : فكان ممن عفى عنه مخشى بن حمير فقال يا رسول الله : غير اسمى واسم أبى فسماه عبد الله بن عبد الرحمن فدعا مخشى ربه أن يقتل شهيدا حيث لا يعلم به فقتل يوم اليمامة ولم يعلم له أثر .

(١٤٤) تفسير ابن كثير ، وقد أخرج الحديث ابن أبى حاتم أيضًا عن كعب بن مالك ، وانظر التفسير المنير ٢٨٧/١٠ للدكتور وهبة الزحيلى ، وتفسير القاسمى مجلد ٤ ص ١٦٣ .

(١٤٥) آية المنافق ثلاث .

رواه البخارى فى الإيمان ح ٣٣ وفى الشهادات ح ٢٦٢٨ ، وفى الوصايا ٢٧٤٩ ، وفى الأدب ح ٦٠٩٥ ، ومسلم فى الإيمان ح ٥٩ ، ٧٤ ، والترمذى فى الإيمان ح ٢٦٣١ . وقال : حسن صحيح .

(١٤٦) تفسير الكشاف .

(١٤٧) مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم .

البخارى فى الأدب (٦٠١١) ، ومسلم فى البر والصلة والآداب (٢٥٨٦) ، وأحمد ح ١٧٦٣٢ ، ١٧٦٤٨ من حديث النعمان ابن بشير قال : قال رسول الله ﷺ : ترى المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضوا تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى .

(١٤٨) المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه .

رواه البخارى فى الصلاة (٤٨١) وفى المظالم (٢٤٤٦) وفى الأدب (٦٠٢٦) ومسلم فى البر والصلة (٢٥٨٥) والترمذى فى البر والصلة (١٩٢٨) والنسائى فى الزكاة (٥/٧٩) وأحمد فى مسنده (١٩١٢٧) من حديث أبى موسى الأشعرى عن النبى ﷺ قال : إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا وشبك أصابعه .

(١٤٩) جنتان من فضة آنيتهما .

رواه البخارى فى تفسير القرآن (٤٨٧٨ ، ٤٨٨٠) وفى التوحيد (٧٤٤٤) ومسلم فى الإيمان (١٨٠) وفى الجنة (٢٨٣٨) والترمذى فى صفة الجنة (٢٥٢٧) وابن ماجة فى المقدمة (١٨٦) والدارمى فى الرقاق (٢٨٣٣) وأحمد فى مسنده (١٩١٨٣) من حديث عبد الله بن قيس (أبى موسى الأشعرى) أن رسول الله ﷺ قال : إن فى الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلا فى كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين يطوف عليهم المؤمنون وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من كذا آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبر على وجهه فى جنة عدن .

(١٥٠) فى الجنة مائة درجة .

رواه البخارى فى الجهاد والسير ح ، وفى التوحيد ح ، وأحمد ح ، من حديث أبى هريرة مرفوعًا : من آمن بالله وبرسوله... الحديث ورواه الترمذى فى صفة الجنة ح ٢٥٢٩ ، وأحمد ح ٢١٥٨٢ ، من حديث معاذ بن جبل مرفوعًا : من صام رمضان وصلى الصلوات ... الحديث ورواه الترمذى أيضا فى صفة الجنة ح ٢٥٣٠ .

وأحمد ح ٢٢١٨٧ ، ٢٢٢٣٢ ، من حديث عبادة بن الصامت مرفوعًا : فى الجنة مائة درجة ... الحديث . وأشار الترمذى إلى حديث معاذ أصح من حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنهما .

(١٥١) إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة ، يا أهل الجنة هل رضيتم ؟

تقدم ص (١٨٣١) .

(١٥٢) من رأى منكم منكرًا فليغيره .

مسلم فى الإيمان ح ٧٠ والترمذى فى الفتن ح ٢٠٩٨ وقال : حديث حسن صحيح ، والنسائى فى الإيمان ح ٤٩٢٢ ، ٤٩٢٣ ، وأبو داود فى الصلاة ٩٦٣ ، وفى الملاحم ح ٣٧٧٧ ، وابن ماجة فى إقامة الصلاة ح ١٢٦٥ ، وفى الفتن ح ٤٠٠٣ ، وأحمد ح ١٠٦٥١ ، ١١٠٣٤ ، ١١٠٩١ ، ١١٤٤٢ من حديث أبى سعيد الخدرى .

(١٥٣) تفسير المنار ٥٥١/١٠ .

(١٥٤) تفسير المنار ٥٥٣/١٠ ، قال صاحب المنار ، إن قول عبد الله بن أبى هذا قد رواه الشيخان وغيرهما .

(١٥٥) انظر تفسير القرطبى ، وابن كثير ، والتفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلى ، وتفسير سورة التوبة للدكتور محمد سيد طنطاوى، وتفسير أبى السعود ، حيث ذكر أن المشهور أن الآيات نزلت فى ثعلبة بن حاطب وقيل : نزلت فيه وفى سهل بن الحرث ، وجد بن قيس ومعتب بن قشر ، أى : فى عدد من المنافقين ، ورجّح ذلك رشيد رضا فى تفسير المنار .

(١٥٦) لعل الله اطلع إلى أهل بدر .

رواه البخارى فى المغازى (٣٩٨٣) من حديث على رضى الله عنه قال : بعثنى رسول الله ﷺ وأبا مرثد الغنوى والزبير ابن العوام وكلنا فارس قال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب بن أبى بلتعة إلى المشركين فأدركناها تسير على بعير لها حيث قال رسول الله ﷺ فقلنا الكتاب فقالت ما معنا كتاب فأنخناها فالتمسنا فلم نر كتابا فقلنا ما كذب رسول الله ﷺ لتخرجن الكتاب أو لنجردنك فلما رأت الجد أهوت إلى حجزتها وهى محتجزة بكساء فأخرجته فانطلقنا بها إلى رسول الله ﷺ فقال عمر : يا رسول الله ، قد خان الله ورسوله والمؤمنين فدعنى فلأضرب عنقه . فقال النبى ﷺ : ما حملك على ما صنعت ؟ قال حاطب : والله ما بى أن لا أكون مؤمنا بالله ورسوله ﷺ أردت أن يكون لى عند القوم يد يدفع الله بها عن أهلى ومالى وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله فقال النبى ﷺ صدق ولا تقولوا له إلا خيرا فقال عمر : إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين فدعنى فلأضرب عنقه فقال : أليس من أهل بدر ؟ فقال : لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة أو فقد غفرت لكم فدمعت عينا عمر وقال : الله ورسوله أعلم .

(١٥٧) آية المنافق ثلاث .

تقدم ص (١٩٠٧).

(١٥٨) انظر تفسير أبى السعود ، والفخر الرازى ، وتفسير الكشاف للزمخشرى ، وحاشية الجمل على الجلالين .

(١٥٩) تفسير الكشاف ٢٠٥/٢ نشر دار المصحف ، عبد الرحمن محمد .

(١٦٠) حاشية الجمل على الجلالين ٣٠٤/٢ .

(١٦١) اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون .

رواه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٤٧٧) وفى استتابة المرتدين (٦٩٢٩) ومسلم فى الجهاد (١٧٩٢) وابن ماجة فى الفتن (٤٠٢٥) وأحمد فى مسنده (٣٦٠٠) من حديث عبد الله بن مسعود قال : كأنى أنظر إلى النبى ﷺ يحكى نبيا من الأنبياء ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول : اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون .

(١٦٢) تفسير سورة التوبة للدكتور محمد سيد طنطاوى ص ٢٤٩.

(١٦٣) ناركم هذه جزء من واحد من سبعين .

رواه البخارى (٣٢٦٥) ومسلم فى الجنة (٢٨٤٣) والترمذى فى صفة جهنم (٢٥٨٩) والدارمى فى الرقاق (٢٨٤٧) وأحمد فى مسنده (٧٢٨٣) من حديث أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : ناركم هذه التى يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءا من حر جهنم قالوا والله إن كانت لكافية يا رسول الله قال : فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءا كلها مثل حرها . ورواه الترمذى فى صفة جهنم (٢٥٩٠) من حديث أبى سعيد عن النبى ﷺ قال : ناركم هذه جزء من سبعين جزءا من نار جهنم لكل جزء منها حرها . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب . ورواه ابن ماجة فى الزهد (٤٣١٨) من حديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءا من نار جهنم ولولا أنها أطفئت بالماء مرتين ما انتفعتم بها وإنها لتدعو الله عز وجل أن لا يعيدها فيها .

(١٦٤) إن أهون أهل النار عذابا من له نعلان وشراكان .

رواه البخارى فى الرقاق (٦٥٦١ ، ٦٥٦٢) ومسلم فى الإيمان (٢١٣) والترمذى فى صفة جهنم (٢٦٠٤) وأحمد فى مسنده (١٧٩٢٣) من حديث النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ إن أهون أهل النار عذابا من له نعلان وشراكان من نار يغلى منهما دماغه كما يغلى المرجل ما يرى أن أحدا أشد منه عذابا وإنه لأهونهم عذابا .

(١٦٥) إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه .

رواه الترمذى فى المناقب (٣٦٨٢) وأحمد فى مسنده (٥١٢٣) من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال : إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه . وقال ابن عمر : ما نزل بالناس أمر قط فقالوا فيه وقال فيه عمر أو قال ابن الخطاب فيه شك خارجة إلا نزل فيه القرآن على نحو ما قال عمر . قال أبو عيسى وهذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه وخارجة بن عبد الله الأنصارى هو ابن سليمان بن زيد بن ثابت وهو ثقة . رواه أبو داود فى الخراج (٢٩٦٢) وابن ماجة فى المقدمة (١٠٨) وأحمد فى مسنده (٢٠٧٨٨) من حديث أبى ذر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الله وضع الحق على لسان عمر يقول به . ورواه أحمد فى مسنده (٨٩٦٠) من حديث أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه .

(١٦٦) إنه قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدثون وإنه .

رواه البخارى فى المناقب ح ٣٤٦٩ ، ٣٦٨٩ من حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : إنه قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدثون وإنه إن كان فى أمتى هذه منهم فإنه عمر بن الخطاب . ورواه مسلم ح ٢٣٩٨ ، وأحمد ٢٣٧٦٤ ، والترمذى ٣٦٩٣ من حديث عائشة عن النبى ﷺ أنه كان يقول قد كان يكون فى الأمم قبلكم محدثون فإن يكن فى أمتى منهم أحد فإن عمر بن الخطاب منهم قال ابن وهب : تفسير محدثون : ملهمون .

(١٦٧) تفسير أبى السعود ٤ / ٩٣ ؛ وتفسير الكشاف للزمخشرى ٢٠٨/٢ دار المصحف : عبد الرحمن محمد – القاهرة .

(١٦٨) زبدة التفسير من فتح القدير ، محمد سليمان عبد الله الأشقر طبعة أولى وزارة الأوقاف بالكويت ص ٢٥٦.

(١٦٩) الدين النصيحة .

أخرجه مسلم (٥٥) والنسائى (٤١٩٧ و ٤١٩٨) وأبو داود (٤٩٤٤) ، وأحمد (١٦٤٩٣ و ١٦٤٩٤ و ١٦٤٩٨ و ١٦٤٩٩) من حديث تميم الدارى . وفى الباب عن أبى هريرة وابن عباس ، وابن عمر .

(١٧٠) إن بالمدينة لرجالا ما قطعتم واديا .

رواه البخارى فى الجهاد (٢٨٣٩) ومسلم فى الإمارة (١٩١١) وابن ماجة فى الجهاد (٢٧٦٤ ، ٢٧٦٥) وأحمد فى مسنده (١٠٣/٣ ، ٣٠٠).

★ ★ ★

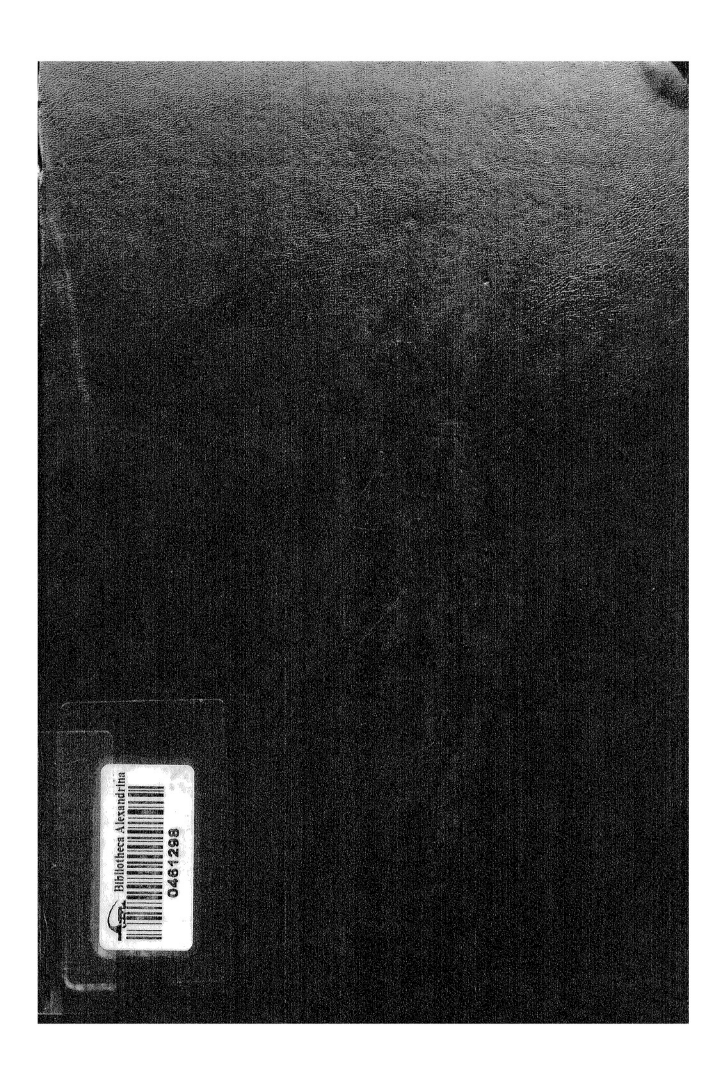
تمت الهوامش وتخريج الأحاديث

بحمد الله وبها تم الجزء العاشر

محتويات الكتاب

تم بحمد الله تفسير الجزء العاشر ويليه تفسير

الجزء الحادى عشر إن شاء الله تعالى


Bibliotheca Alexandrina
0461298